عباس بن نخي

الطريق إلى الجزيرة الخضراء

بسم الله الرحمن الرحيم

شبكة الفكر
alfeker.net

الطبعة الأُولىٰ

١٤٣٨هـ - ٢٠١٧م

حقوق الطبع والنشر والتوزيع كافَّة محفوظة علىٰ المؤلِّف

يمكنكم التوَاصُل مع المؤلف ومرَاسلته علىٰ البريد الأكتروني:

a.bennakhi@live.co.uk

أو عبر المدوَّنة:

https://abbasbennakhi.wordpress.com

الإهداء:

إلىٰ والدي...

الحاج حسين بن نخي رحمه الله،

الذي لم يعرف الأنانية.

لم يلاحق لذَّاته ولم يستغرق في ذاته،

عاش حياته لِغَيْره، وإن لم يكن الغير هنا

الإنسانية الكبيرة، بل أُسرته وإخوانه وبعض

مجتمعه، لكنَّه لقَّنني بسيرته العطاء،

فصرت أرجو بعض ٱقتداء.

لن أسلب القـارئ حقَّه في تمييـز مـواقع الحقيقة في هـٰذه الرواية عن مقتضيات الـسبك الأدبي وٱستطـرادات الخيـال

(١)

شتاء "فالوغا"

كان في توْقٍ شديدٍ ليرىٰ محبوبته في الشتاء...

كيف عساها أن تكون، وعلىٰ أية حال؟...

لا يريد مجرَّد شكل وظاهر طالما أسَره، وقاده إلىٰ هـٰذا الهوىٰ والفتون، بل كان يتحرَّىٰ جوْهراً ويتلمَّس روحاً، علىٰ ما يعتقد في المدن والبلدات، أنها ذوات أنفُس وأرواح، تخلع علىٰ البلدة شخصيتها، وما يميِّزها من خصائص وطباع، تلحق المعالم والسمات... ويراها قادرةً علىٰ إبلاغ هويتها سُكَّانَها، وتغليب صِبغتها علىٰ أهلها، وإلزام قاطنيها طابعها، تفعل ذلك وتتمكَّن منه علىٰ قدر ما لها من شأن وسلطان وقهر.

وكان الرجل قد دخل منذ أمدٍ في طوْر جديد، وٱنتابته حالة دفعته إلىٰ مسلك غريب، عنوانه العام: " العُزلة " ... ٱنقطع عن الناس، وكفَّ عن التواصل مع المجتمع، وٱحتبس حتىٰ عن أهله وأقاربه وصحبه ورفاقه، وٱنزوىٰ حِلْس مكتبته، قلَّ أن يبرح عنها أو يخرج منها.

وٱنخرط ـ بشكل تلقائي، دون سابق عزم وتصميم ـ في " التأمُّل " ، لا من لَوْثة في عقله، ولا لنزعة عرفانية أو شطحة وَجْد صوفية، ولا ـ بطبيعة الحال ـ عن رياضة بوذية وطقوس طاوِيَّة!... لم يكن يريد طيَّ مراحل سَير وسُلوك، ولا يسعىٰ لاجتياز منازل في تهذيب النفس، ولا يروم تعادلاً وتوازناً في قواه الروحية. كما لم يكن يرجو فيضاً ويطلب جذبة وتجلِّياً، ولا ينتظر " النيرفانا " تحلُّ فيه أو تهبط عليه!... بل كان يريد ـ في بداية الأمر ـ الآنعتاق من قيود الحياة التي يعيش، والخلاص أو التحرُّر من عبءٍ يثقل كاهله ويكاد ينقض ظهره، من ٱستشعار مسؤولية كبرىٰ وتبنِّي قضية عُظمىٰ لا يعرف حدودها وكامل معالمها ولا نهايتها، وهي تهيمن عليه، تربض فوقه، تجلِّله وتغمره، تسلبه حلاوة الأسترسال في الحياة، وتجرِّعه مرارة التقيُّد وهمَّ التكلُّف! شيءٌ أورثه الآلتزام وكبَّله، فهو ٱبن مبدأ وصاحب قضية، وما كان يمكنه التحلُّل من هٰذا الآنضباط وهو في بيئته، المجتمعيَّة والنفسيَّة، والثانية قد تقيِّد صاحبها وتضنيه أكثر من الأُولىٰ، ولا سيما في ذوي المروءة، ومن يتحلَّىٰ بالنزاهة، و«نجيب» منهم.

وقد أخذه هٰذا الهاجس إلىٰ التفكُّر، وقاده إلىٰ جولات عميقة من التدبُّر، مستلهماً من الآيات الكريمة: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾﴾ وممتثلاً دَعوتها... فٱنصرف إلىٰ العزلة، والآستغراق في النظر والتأمُّل، والصمت والتدبُّر، ولا سيما في نطاقات وميادين، أو آفاق تتجاوز عالم المحسوسات والمشهودات. وكان يعيش ويكرِّر لمخاطبيه أو محاوريه مثلاً ساذجاً:

كان الإنسان يجزم ـ قبل صنع المجاهر والمقرِّبات ـ التي أتاحت ٱكتشاف الأجرام غير المرئية بالعين المجرَّدة، وقادت إلىٰ إثبات وُجودها بالحسِّ والعيان، بعد العلم والبرهان، من قَبيل جزيئات الهواء، والذرات والشوارد والأيونات، والميكروبات، وسائر الأجسام الصغيرة والكائنات الدقيقة، ناهيك بآثار شحنات الطاقة والموجات علىٰ ٱختلافها... يجزم أنَّ هٰذا الفضاء والنطاق " الشفاف " الذي يفصل بين شخصين متقابلين، هو فراغٌ، أو حيِّز خِلْوٌ من أية أجسام! وأنهما ما داما يشاهدان بعضهما، فلا شيء يفصل بينهما، وإلَّا لَقام حجابٌ وأُرخي سَتر وٱمتنعت الرؤية. تُرىٰ، كم يحوي هٰذا الفضاء من كائنات لم تكتشف بعد، لضعف وعجز عدسات المجاهر وقصورها وتخلُّفها؟ وماذا عساه يحمل من موجودات وينطوي علىٰ " أحياء " تعجز أدوات الإدراك البشري البدْوية، من لامسة وشامَّة وذائقة وسامعة وباصرة، عن الإحساس بها والتعرُّف إليها؟

ومنه ينتقل إلىٰ التفكُّر في القوىٰ الفاعلة في هٰذا العالم، التي تغيِّر شكل الحياة، وتقلب صوَر الطبيعة، وتتحكَّم في الطبائع، وتصنع الأمزجة؟!

لم يكن الشأن السياسيُّ يعنيه كثيراً، مهما طغىٰ في معطياته وٱنجرف أو جُرِف في أدائه، فلا بدَّ للناس من حاكم يتولىٰ أمرهم، بَـرّاً كان أم فاجراً... وكانت تجاربه في الحياة قد أوْرثته يأساً عمَّا في أيدي الناس، وزرعت فيه قنوطاً من دعاوىٰ التقويم وحركات الإصلاح، من جميع المدارس والمذاهب السياسية، الوطنية منها والدينية، فصار يرجئ الأمر وينتظر غيباً يأتي من السماء! يزيل كلَّ هٰذا الفساد، ويغمره في طوفان " نُوحيٍّ " ثانٍ، يمهِّد لدولة عدلٍ حقيقيٍّ، يكمُل فيها البشر، ويحقِّقون تمام إنسانيتهم...

لـكنَّه كـان يرىٰ الخطب والخطر في ما يقومون به من تذليل النفوس وتطويعها، وما يعمدون إليه من السيطرة علىٰ العقول والتحكُّم بها... قوىً تدير المجتمعات وتوجهها نحو ٱهتمامات بعينها، وتخلق عقولاً جمعيَّة تفكِّر بنمطيَّة وتراتبية تُملىٰ عليها! لا تلبث أن تهيمن وتسيطر لتُخضِع الجميع، وتُعجِز كلَّ عاصٍ ورافض، وإن توقَّف طموحه عند محافظته علىٰ حريته، وخروجه الشخصي من هـٰذه "الحظيرة" وٱنفصاله عن "القطيع الكبير"!

ومن هـٰذا، راح يفكر في القوىٰ الفاعلة في الوجود، وما دنيانا منه إلَّا كقطرة في محيط. ثم التفكُّر في "القوة الأعظم"... مَن هو الجبار القاهر المهيمن ذو اليد الطولىٰ؟ الذي يهب المقتدرين ٱقتدارهم، ويمنح الأقوياء سلطانهم، ثم يفنيهم ويبيدهم؟ ما هي صفاته وكيف يمارس قوَّته وأين تظهر تجلياته الأقرب إليه والأكمل والأمثل به؟ وقد أقرَّ «نجيب» مبكراً وأذعن بعجزه عن رؤيته ومشاهدته، بل عن إدراكه، فدون ذلك أسوار عظَمة يطيش العقل ويذهل الفكر منها، وحجُبُ عزٍّ وجلال تردُّ كلَّ ساعٍ خائباً، فيرجع النظر، وينقلب البصر خاسئاً وهو حسير.

كان يلوذ بالدين ويتطلَّع إليه كملجأ للسكون الروحي والٱستقرار النفسي، وللسعادة، لـٰكن علىٰ نحو مَن يتحرَّىٰ عمقه، ويبحث عن "كُنه" وَراء الشريعة، و "حقيقة" بعد الطريقة، وإن التزَم طقوسه وٱمتثل أحكامه، فمن باب الأدب والخوف والرجاء... وهـٰذا من غريب حالاته، التي جمعت تحرُّراً في الفكر، لا يعرف حدوداً، يبلغ في بعض المواضع ويدخل في الشغب والشيطنة، ثم ٱستسلاماً من جهة أُخرىٰ وٱمتثالاً يشعرك بتقليدية مفرطة وجمود وإغراق في الرجعية!

من هنا عاش عزلته والتزم معتزَله، الذي قلَّ أن يخرج منه ويفارقه...

فإن فعل، رأيته يوماً يفترش رمال الشاطئ بعد الفجر، يرقب بزوغ الشمس من أُفق البحر، أو صادفته في ممرات إحدىٰ الأسواق المركزية ضحىً يستعرض السلَع علىٰ أرففها، يخرج إليها كلَّما أرهقته المطالعة وملَّ الكتابة، وطلب الاْستراحة، يتسوَّق ما يشتهي من فاكهة فاخرة، وينتقي ما لذَّ من أجبان وطاب من مخلَّلات... حريصاً علىٰ أن يبقىٰ ـ والحالة تلك ـ في معتزله، لا يكلِّم بشراً ولا يخالط أحَداً، إلَّا بقدر الضرورة، ولعلَّه ما اْختار الأسواق الراقية (البعيدة عن " السوقيين " !) إلَّا لقِلَّة روَّادها، الذين هم ـ في الغالب ـ من " المعقَّدين " مثله، ما يوفِّر عليه مخاطبة العمَلَة ومماكسة الباعة... يقضي وَقته في قراءة مكوِّنات السلعة التي يريد، منشؤها ومقدار سُعراتها الحرارية. فإذا أرهقه التجوال، اْتخذ ركناً في أحَد المقاهي الراقية، التي هي في الحقيقة صالونات بمقاعد وَثيرة، وراح يُتم قراءة رواية حملها معه، أو يتفحَّص هاتفه الذكي، يتابع رسائل تتلاحق عليه.

لم يكن يلتقي أحداً، إلَّا نزراً اْنتخبهم بعناية...

ثلَّة من خاصة أصحابه، يتوافق معهم في كلِّ شيء، في قضايا الفكر والسياسة والمجتمع والدين، ويتشاركون الرؤىٰ والهموم... فإذا تداوَلُوا أمراً وتسامَروا ليلة، جدَّدوا عهداً بقديم، واْستذكروا منسِيّاً اْنشغلوا عنه فترة، وقلَّبوا حاضراً، وسلَّطوا الأضواء علىٰ وُجوه وجوانب خفيت حتىٰ حين.

وهل خلقت فيه العزلة الشعور بالوحشة، أم أنَّ الوحشة هي التي حملته علىٰ العزلة؟ لست أدري... لـٰكنَّها ـ علىٰ أية حال ـ حالة دفعته إلىٰ البحث عن مخرج، وجعلته يلاحق الأُنس، يبحث عنه ويتحرَّاه في أيِّ شيء.

ولعلَّ هٰذا هو ما أخذه إلىٰ وَقفة تعود به إلىٰ ماضٍ أحبَّه، قد يجد فيه سلوةً ومخرجاً، أو به شفاءً... «فالوغا» التي قضىٰ فيها صباه، بعيداً عن عبء المسؤولية، وهموم " القضية " ، وكلِّ ما يشكو الآن ويعاني، وما يفتقد من سكينة وٱستقرار... حياة متحركة مضطربة، كلُّ شيء فيها يؤذن برحيل ويحدوه ٱنقضاءٌ وتغيير، ما يخلق فيه ٱستنفاراً دائماً وٱنشغالاً، يسلب الفرح ويختلس البهجة، ويورث ضيقاً وكمداً لم يعرفه هناك أبداً!

: نافذة أُطلُّ منها علىٰ مشهد جديد، حياة غير التي أعيش، باب يخرجني مما أنا فيه، يأخذني إلىٰ رحاب مختلفة، لا أعرف طبيعتها ولا أُريد أن أُحدِّد معالمها، ولكنِّي أُريدها أن تحرِّرني، تنقلني من التعقيد إلىٰ البساطة، من الأُفق الشاسع الذي ٱتخذته ميداناً لحركتي إلىٰ نطاق محدود يوافق حجمي، فأتخلَّص مما يحاصرني، في روحي قبل مسلكي وحركتي. أتوق إلىٰ عفوية تحلِّق فوق التخطيط، وٱرتجال لا يعرف إعمال الفكر والتدبير.

كالأجواء والحالة التي كنت أقضيها هنا في صباي، مسترسلاً غير مُتكلِّف، محدوداً في همومي وآمالي، وكلُّها تعود إلىٰ شأني الخاص. لا شأن لي بقضايا الأُمة، وحال البشرية، ومشاكل الإنسانية، وهموم الدين.

لا " قضيـة " أحمل، ولا " معضلة " أُعاني، ولا " أزمة " أُعـالج، ولا " ديْـنَ " أُسدِّد، ولا ثـمنَ أدفع أو عـوضاً أتحمَّل إزاء تقصيرٍ وَقع منِّي، أو إخلالٍ وتفريط صدر عنِّي...

هـٰذا مـا سيخـرجني ممـا أقحمت نفسي أو أُقحمت فيه، جعلني المسؤول عن الدنيا وما فيها، محاسَبٌ علىٰ أخطاء الناس، أو مكلَّفٌ بتقويم البشر وإرشادهم والأخذ بأيديهم إلىٰ ما فيه صلاحهم! إنه شأن المصلحين الكبار، ودَوْر العلماء العِظـام، وعـبء لا يحـمله إلَّا أطوادٌ شامخـة من رجالات البلاد وقيادات الأُمم والمجتمعات. أين أنا منهم؟!

أُريد الخروج من سجن، أرزح فيه بإعياء، ثم لم يـرضَ سجَّـاني ـ وأنـا رهين محبسه ـ إلَّا أن أُقرن بالأصفاد وأكبَّل بالأغلال!...

إنني أنتظر " لحظةً " تتلافاني وتدركني.

كـان «نجيب» يجلُّ " اللحظة " ويثمِّنها ويقدرها أيما تقدير... لذا كان يتحيَّن " اللحظات " ، ويرصد مولِّداتها، ويتحرَّىٰ انبعاثها من مظانِّها، فهي التي تركِّب له الجُمَل، وتصيغ العبارات، وتصنع الأفكار، ولك أن تصحِّح الإتجاه فتقول: إنها التي تلهمه الفكرة، وتبعث في أدبه صياغتها، وتقود قلَمه إلىٰ إنشائها وتدوينها والتأليف بينها وبين أخواتها.

إنها شرارة ٱنطلقت منذ عهد بعيد، لا نعرف له غوراً ولا أمداً، ولا لمبدئه قراراً وجذراً، ما زالت تسري وتطوي وتتقدَّم، بدفع وطاقة ٱستمدتهما من مُطلقها، أو بحركة ذاتية جوهرية تأبىٰ لها أن تقِرَّ وتكُفَّ، فلا شيء ساكنٌ هامد، فكيف بهٰذه المتوقِّدة الخلَّاقة؟ حتىٰ تقع ساعة في محلِّها، تنبعث فتضرم شعلة وتوقد ناراً، ويأخذ مَن شاء جذوة ويأتي أهله بقبَس... أو هو شهاب ثقَب الظلمة، أخذ وَهْجه حين ٱخترق سمْك السماء الدنيا، وصنع في أُفق الليل وٱختطَّ ما أراد، ثم هتف: الآن يطيب لي أن أنطفئَ وأخمُد! يظهر لنا وكأنه طيشٌ وخروج عن المدارات، ومروقٌ وعبث في المسارات.

ولعلَّ الحقيقة أنَّ الأمر "يقظة" تعود بك إلىٰ ذكرىٰ...

فالأحداث كلُّها وَاقعةٌ من قبل، من أوَّل الخلق، بعد "الأزل" (الرتبي النظري، إذ لا قبل في ذلك الصُقْع، ولا بَعْد في تلك الحضرة)، ظهرت وتحقَّقت بين الكاف والنون، لحظة شاء تعالىٰ لها الكينونة فكانت.

والأشياء والمعلومات كلُّها مكنونة مخزونة حاضرة، وكلُّ ما يريده "العلم" في تحقُّقه، ويفعله "العالم" في سعيه هو ٱستحضارها، وصَنِّفه إن شئت في الكسبي التحصيلي، أو أدرِجْه في الحضوري اللَّدُني، فلا خلاف ولا نزاع، فهو ٱستحضار لا خلق، كشف لا ٱختراع، نقل ورواية، لا بَرءٌ وإبداع، وكلَّ ما ترىٰ في هٰذا العالم من "ٱختراعات" هي محاكاة وجريٌ علىٰ صورة سابقة مودَعة مبذولة منذ البدء... إنما المعضلة في حُجُب الظُلمة والكثرات التي جعلته غيباً مستوراً، أو نأت به في غوْر بعيد، والسرُّ والقدرة والإكسير في "مفاتيح الغيب"، أو في هِمم تناطح الجبال نحو خزائن في قممها، وتغوص في البحار لتلاحق مكامن في أعماقها.

لذا كان «نجيب» يتحيَّن " اللحظة " وينزلها منزلة النافذة التي تطل به علىٰ مستودع المعرفة وصميم " العقل " ، والباب الذي يقوده ويأخذه ليخترق كلَّ شيء إلىٰ لُبِّ الُّلباب، فكأنه وَلج مكتبة لا متناهية، أو غرفة محفوظات عملاقة أُسطورية تضمُّ كلَّ المعلومات (الأسماء كلها!)، مما كان ويكون وما هو كائن إلىٰ نهاية الدنيا ويوم القيامة!... وهناك يرىٰ وتنكشف له صوَر المعلوم، سواء في ذهنه، أو عبر لوْحة تتتابع عليها الصوَر التي يستطلع، والمشاهد التي يُلاحِق، والمعلومات التي يستكشف.

ولربما ٱنطبعت فيها ومعها السيَر! فلا يشاهد الواصل هناك الصوَر ويسمع الأصوات فحسب، بل تفعَّل له " آليَّة " تكشف النيَّات وتعرضها! وتُظهر خلَجَات الأنفُس من خبث السرائر أو حُسن الطوَايا، وتبيِّن الأهداف المضمرة والأغراض المبيَّتة في كلِّ فرد، مهما أظهرَ العكس، وبالغ في جحدها وإنكارها، وتحايل في إخفائها، ثم تُصوِّر آفات الروح وأمراض النفس! مما قصرت عنه أعين شهود الحدث أنفسهم، فدونه طبيعة الدنيا، وغلَبة حُجُبها وأكدارها وملوِّثاتها... ولربَّما فاحت من المشهد رائحة، وحضرت ذائقة، نكهة طبخ وطعم فاكهة، وعبق عطر وأريج زهر! والمشاهد ترتسم ممتثلةً لأوامره، بل طيِّعة منقادة لرغبته وإرادته، قبل قوله وإشارته، فلا " يشاء " أن يشهد شيئاً أو يعرف أمراً، إلَّا حضر فوراً، فٱرتسم وتجسَّم، وظهر وتمثَّل! ولربَّما جاءت معه لوَازمه ومُلحَقاته... فالشخص يظهر في المشهد ومن وَرائه أسلافه كلُّهم، وأمامه أعقابه، وكلُّ مَن له دوْر وتأثير في حياته! وإلىٰ جانب كلِّ فرد من هٰؤلاء وأُولئك، ملايين الصوَر العرضية والمشاهد التي تحكي حياة كلٍّ وسيرته!

وهنـاك، في ذلك الأُفق اللامتنـاهي، والعـالم الأقـرب إلىٰ الكمال، وما يدنو من " المطلق " ، يعلـم " الواصل " أن ثمَّة " آليـة " و " تقـنيَّة " أُخرىٰ تجعله قـادراً علىٰ صُنع الحدث وخلْقـه، وإدارة المقادير وتغييرها، وتبديل الصوَر وقلب الجواهر وتعديل السيَر! بل سيرىٰ ويشعر أنه قـادر علىٰ أن يخلق الأشيـاء والأشخـاص! ومعهـم الأجـواء التي تنـاسب ٱنبعـاث وصـدور الأفعال (التي يريد) منهم... كل ذلك بمحض أن يتَّصل بـ " المشيئة " .

وهي مركز كلِّ شيء، ومخزن كلِّ علم، وسرُّ كلِّ قوة وقدرة!

والغـريب في هـٰذه " المشيئـة " علىٰ عظـمتها وقدرتها، أن تـراهـا تمسِك وتحجِم وتقف وتمتنع، فلا تُقـدِم ولا تتقدَّم، دون غيب " أعـظم " ، لا أحَد يعرف عنه شيئاً، ولا مَن يحيط بكُنهه هنا ولا هناك! وأنَّ هـٰذا " الأعظم " هو معشوق " المشيئة " وربُّها الذي تعبد.

ولربما مضت الأُمور في هـٰذا العالم الأدنىٰ وسائر العوالم الأُخرىٰ خِلافاً لرغبة " المشيئة " وعلىٰ غير ما تريد من الخير والصواب والٱنتظام في النظام الأتمِّ الذي فُطِر عليه الوجود، وهي تملك أن تسحق المتمرِّد وتبيد العاصي، تنهيه وتفنيه، تعيده كما كـان نسياً منسياً، مكبَّلاً بظُلمة العدم، أو متقلباً في أطباق الحرمان، يذوق عذابات البعد وسياط لوْعة الهجـران... لـٰكنَّها تُحجِم، لفرط ٱنشغالها بعشق ذلك " الأعظم " ، وشغفها بالتطلُّع إلىٰ خفيِّ سُبُحـات وَجهه، والطـواف في حضرة كمالـه، والنظـر إلىٰ جمـاله وجلاله، وإزاحة أو خـرق حُجُب وأستار عظمته، مشغـولـة بهـٰذا عن أيـة رغبة وحـاجة، وإن كانت دفْعَ المعتدين عليها، العاصين لها، من الغواة المتمردين، اللهم إلَّا ما يريد " هو " ويوافق ٱنتظام خليقته، فلا يشاؤون إلَّا ما يشاء.

وممـا يقـال هنـا، إنَّ " المشيئة " تـشعر وتـدرِك رغبـة " الأعظـم " ، سـواء في الإعـراض عـن سيئـات الخلـق أو في الاْلـتفـات إليهـا، وبـالتـالي: المبـادرة والأخـذ، أو التـأجيـل والإمهـال، بـل إنهـا في حقيقتهـا وذاتهـا، هـي رغبتـه ومـشيئتـه وإرادتـه " هـو " ، فتراهـا تخلي للأُمـور الـسبيـل وتفـسح للأشيـاء أن تنسـاب وتمضي في دربهـا، وإن كـان في ذلـك عـصيـانهـا، ومـا يـورث المحَـن والآلام لهـا، فـلا تحـول دونـه ولا تقهـر مـروقهـا. بـل هـي تلتـذُّ بـرداء العجـز والعبودية هـٰذا، وتأنس بتنازلها عن قدرتها خضوعاً لمعشوقها " الأعظم " !

كلُّ هـٰذا يظهر بوضوح ويرتسم بجلاء...

هـٰذا إن كان الدخول إلىٰ المشهد من باب الشخص، فإذا كان من نافذة الحـدَث، اْرتسمت وَراءه سلسلة العِلل والمسبِّبات التي تمتـدُّ إلىٰ ملايين الأحداث والأفعال والجزئيَّات، وظهرت أمامه لوَازمه وتـوابعه التي لا تقلُّ عن ذلك حجماً وهـولاً وعظَمـة... عالم متمـوِّج متدافع، في كلِّ حركـة وجزء عـوالم أُخرىٰ مركَّبة، وحـوادث متتاليـة غير متناهيـة، يذهـل الإنسـان عن تصوُّرهـا، نـاهيك عن معـرفتهـا والإحـاطة بهـا، فيـذعن الـسعيـد بـالعجـز ويسلِّم، ويأبىٰ الشقيُّ فيدَّعي ويتبجَّح، وينكِر ويتكبَّر.

ولا يعني هـٰذا أن لا مناطق حظرٍ ممنوعة هنا، ونطاقات خفَرٍ مُصانة هنـاك، لا يُسمح لأحَد أن يدنو منهـا ويقترب، وبعضهـا يـردعك بعنف، ويصدُّك عـن حيـاضه بـزجـر وقهـر، مـا يجعل المجـازف يترنَّح ويخلط، فلا يـدري أين كـان، ولـربما اْقتضت الإفـاقة واْستلزمت اليقظة والعـودة إلىٰ الحالة الأُولىٰ ساعات، هي سنين في مواقيت عالم الدنيا.

• • •

لم يكن «نجيب» ساذجاً بسيطاً، وإن أوْحت قسَمات وَجهه بذلك، وٱرتسمت في ذبول عينيه الوَاسعتين مسحَة نُبل وكرم، تأنف ملاحقة الصغائر وتتعالىٰ علىٰ الجزئيات، وبدا من بعض تصرفاته الجهل والغفلة، وفي الأقلِّ الأدنىٰ تظهره غير مبالٍ ولا مكترث، منشغلاً عنك أو عن هٰذا الحدث وذاك الفعل وتلك المفردة، بعالمه الخاص، منصرفاً إلىٰ أفكاره وهمومه... الحقُّ إنه ليس كذلك، بل هو " مفكِّر " متعمِّق، لا يغادر شاردة ووَاردة إلَّا أخضعها للتأمُّل والتدبُّر، لا يقنع بالسطحيِّ من التفاسير، ولا يركن إلىٰ الظاهر من الأُمور، دون أن يتحرَّىٰ ويبحث، ويحقِّق وينقِّب، فيستجلي العِلل والأسباب، ويكشف الغوَامض، ويقف علىٰ الخفايا، وكلُّ هٰذا لأصل يعتقده فيلتزمه ويمضي عليه، يرىٰ أنَّ الظاهر والخارج والحدث، وما يوافقه من " أداء الجوارح " وٱنفعالها، له دورٌ أساس في بناء الباطن وإعمار السريرة، وتشييد الروح وتزكية النفس.

كثيراً ما كان يحدِّث نفسه، ويدفعها بشوق وشغف:

لا بدَّ أن أخوض هٰذه التجربة وأكون في هٰذا المعرِض، حتىٰ ألمس ما خفي وأُدرك ما ٱكتُنَّ، فيصحُّ مني الحكم في حبِّها ويستقيم، ويستوي الرأي ولا يميل، وأُساكن هٰذه الجميلة، ولا سيما أنَّ جُلَّ ما أحمل تجاهها هو من ٱنطباع الطفولة وعطاء الصِّبا ونتاج الشباب، وهي أطوار لا يُركَن إلىٰ فهمها، ولا يعوَّل علىٰ أحكامها وٱنتزاعاتها...

فدعني أُعاود قراءتها ثانية، وأستطلعها من
حيث أنا اليوم، لأشهد وأعرف ما أخفاه
عني سابق الجهل، وأعيش ما غلبتني عليه
سذاجة الفهم، وأطَّلع علىٰ ما رسخ في
خاطري وٱستقرَّ في فكري بسبب طيش
المشاعر وغلَبة الأهواء، ومن تداعيات
الضحالة و إملاءات الخواء.

وللإنصاف، فهٰذه ليست الحقيقة، أو قُل: ليست كلُّ الحقيقة في سبب ملاحقته «فالوغا»، ولا هي العلَّة في سعيه، فأيَّة قيمة علميَّة أو وُجدانيَّة في هٰذه القضية؟ وبأيَّة حقيقة تراه سيخلُّ ولأيِّها سوف يُسيء إن هو أساء الحكم فيها؟... إن الرجل ـ ببساطة ـ يحبُّ هٰذه البلدة!

وهنا وَقفة مع معضلة ما زالت تلازم الباحثين والمحققين، أن يُكسوا مواضيع دراساتهم ومواد تحقيقاتهم، ويستروا أهدافهم، بعناوين علمية تخفي نوازعهم الحقيقية، وتداري حوَافزهم ودوافعهم الأصليَّة، أو قُل الخفية. فـ"الموضوعية" التي يفترض أن تحكم البحث وتأخذه إلىٰ الحكم الأصحِّ والنتيجة الأسلَم، قلَّ أن تتحقَّق وندر أن يعمل بها أحَد.

فالأعمُّ الأغلب من الباحثين والمفكِّرين يتحرَّون الأدلَّة لما يريدون، وينشدون الحجج لإثبات ما يدَّعون، من وَاقع متبنيات مُسبقة يؤمنون بها، وهي متقدِّمة علىٰ البحث ونتائجه، والتحرِّي ومخرَجاته... فكرةٌ وَقعت في نفس أحَدهم ـ لسبب وآخر ـ موقع إذعان وقبول، فراح يلتمس لها الأدلَّة ويقيم عليها الإثباتات ويشيِّد البراهين.

وأنت تجد الباحث في العلوم التجريبية عن ماهية سائلٍ ما أحمر اللون، علىٰ سبيل المثال، ينطلق من أنه قد يكون نبيذاً، أو عصير رمان، أو ماءً قُراحاً مُزج بصبغة، ويفرض جملة من الٱحتمالات يجعلها علىٰ السواء... ثم ينتظر أين تقوده التحليلات والقراءات المخبرية، وإلىٰ أيَّة نتيجة تأخذه البراهين وتنتهي به الأدلَّة، وأيُّ الٱحتمالات تسقط أو تضعف، وأيها تقوىٰ وترجح؟ يبني حُكمه ويصدر قراره علىٰ ضوء ذلك. لٰكنَّ الأمر قلَّ أن يكون كذلك في العلوم الإنسانية والقضايا الإجتماعية، وكذا في عالم الفنون الجميلة، وأي حقل وموضوع تقلُّ فيه عوامل الحسم الرياضي ومعطيات الحسِّ والتجريب الشهودي...

ناهيك بـ"الموضوعية" بـمعنىٰ الإنصاف الذي يعالج الميول ويقطع الأهواء، ويقضي علىٰ النوازع وينفي الشهَوات، ويجعل الباحث والمحقِّق والكاتب ينشد الحقيقة كما هي، ويتحرَّاها خدمة للعلم والحقِّ بما هو، بعيداً عن مصالحه الخاصة ومنافعه الذاتية ورغباته الشخصية...(١)

---

(١) هناك محافل ونطاقات علمية تخصصية متميزة علىٰ هـٰذا الصعيد، منها الحوزات العلمية الشيعية، التي يحكي حالها أَلَقاً فريداً وتفوُّقاً قلَّ نظيره في هـٰذا الجانب، وتملك تراثاً زاخراً من حالات التحقيق العلمي التام موضوعيَّة وحياداً...

ومما يمكن أن يُذكر هنا كشاهد، ما ينقل عن وَاقعة عرضت لـ«العلامة الحلي» (٦٤٨ـ٧٢٦ هـ)، حين كان منشغلاً بمعالجة الأدلَّة وتقليب الآراء ليستنبط حكم تطهير الآبار المتنجِّسة، فأخبرته زوجته أن فأرة نفقت في بئر داره! فأحسَّ في نفسه ميلاً إلىٰ الآراء التي تخفف وتسهِّل آليَّة معالجة الأمر في عدد الدِّلاء التي عليه أن ينزحها وما إلىٰ ذلك، ولما وَجد أنه عاجز عن تحييد نوَازعه الشخصية ونفي ميوله ورغباته الخاصة، غير قادر علىٰ توفير الموضوعية العلمية المطلوبة في ٱنتزاع الحكم الشرعي، ما كان منه إلَّا أن أوقف بحثه وعمَد إلىٰ البئر فطمرها! ثم عاد إلىٰ النظر في الأدلة ومعالجتها من جديد!

الحقيقة أن ٱنطلاقة «نجيب» هنا كانت الحب والهوىٰ...

فالرجل مغرمٌ بهـٰذه البلدة الجميلة، الهادئة الساكنة، المنزوية دون أن تكون قصيَّة! فلا يفصلها عن «بيروت» أكثر من ٣٠ كلم، لـٰكنها بعيدة عن صخب بلدات الأصطياف التي نزعت لتصبح مدُناً جبلية!

تمتاز «فالوغا» بعد جوْدة مناخها وصفاء طقسها، بموقعها المتربِّع علىٰ سفح «جبل الكنيسة»... ترتفع عن سطح البحر ١٢٥٠متراً، وتشمخ بين قرىٰ «المتن الأعلىٰ» كشُرفة تطل علىٰ «المتن الجنوبي»، تزهو بٱخضِرار أحراج الصنوبر ودوالي العنب وأشجار التفاح، وتختال ببيوتها المكسوَّة بالحجر الأبيض، المتوَّجة بالقرميد الأحمر، تخلق في الرائي نبضاً وتخطُّ رسالة عن أصالة هـٰذه البلدة وجذورها الضاربة في التاريخ، لا المغرِق في القِدم، الموغل الممعن في البُعد، بما يفصلك عنه ويجعله مجرَّد آثار تجتذب الباحثين، ومعالم لفُرجة السائحين، بل حيّاً نابضاً بٱتصاله، يربطك ويعايشك بقرب عهده، ما يحكيه بناءٌ بديع أقامه «اللمعيون» عام ١٨٠٦م وٱتخذوه سرايا لهم، وبوابته التي أصبحت الآن مقراً للبلدية...

تاريخ يأخذك إليه لتعيشه ويجعل الحاضر ٱمتداداً له، ويُشعرك أنه متَّصل غير منقطع، لا مسلَّات فرعونية، ولا قلاع رومانية، ولا حصون إغريقية، ولا تماثيل ونصُب فينيقية. وليس الأمر ٱزدراءً لآثار الحضارات الغابرة، بقدر ما هو قُدرة علىٰ التفاعل وإثارة الأهتمام والإعجاب، يقف عند ما يُشعِر بالأتصال ويبعث علىٰ الأرتباط... هنا أطلال معاصر عنب ومصانع نبيذ تعود إلىٰ أواسط القرن التاسع عشر، ومعملٌ لصناعة الحرير من ذلك العهد، ما زال مبناه قائماً، وقد ٱتُّخِذ داراً للسكنىٰ.

هٰكذا أحبَّها، كما هي، دون زيادة ونقيصة...

وبينه وبينها ما بين الأحبَّة والأخلَّاء، يغلبه الشوق ويعاوده الحنين إليها أبداً وكأنها وَطن عزيز، لا مجرَّد مُصطاف ومتربَّع! فإذا وَافاها يوماً بعد غياب طال، وزارها ليجدِّد بها عهداً، فٱستقبلته علىٰ بابها ومدخلها الجنوبي، الذي يوافيها من «حمانا» صعوداً، أو من «صوفر» ف «المديرج» ٱنحداراً ونزولاً، ترنَّم لها برائعة «الصَمَّة القُشيري»:

بروحيَ تلك الأرض ما أطيب الرُّبا
وما أحسَنَ المصطاف والمتربَّعا
وأذكُرُ أيام الحمىٰ ثم أنثني
علىٰ كبدي من خشيةٍ أن تَصدَّعا

وأنشدها من قصيدة «إيليا أبي ماضي»:

وَطن النجوم أنا هنا، حدِّق أتذكر مَن أنا؟
ألمحت في الماضي البعيد فتىً غريراً أرعَنا؟
جذلان يمرح في حقولك كالنسيم مدَندِنا
يتسلَّق الأشجار لا ضجَراً يحسُّ ولا وَنىٰ
ويعود بالأغصان يبريها سيوفاً أو قِنا
لا يتَّقي شرَّ العيون ولا يخاف الألسُنا
ولكَم تشيطن كي يقول الناسُ عنه تشيطنا
أنا ذلك الولد الذي دنياه كانت ههنا...

لٰكنه يقتطع ويتجاوز، فلا ينشد:

"ويخوض في وَحْل الشِّتا متهلِّلاً متيَمِّنا" !؟

فهو لم يعرفها ولم يعِشها في الشتاء، أو قُل لم يعِش شتاءها، فـ «نجيب» إذا أحبَّ شيئاً وٱعتقد به، ذهب فيه ووَلع، وأفسح له حتىٰ يتملَّكه، وإذا هوَاه، أخلىٰ له ليسترقَّه، لا يعرف التوَسُّطَ، ولا الموازنة والٱعتدال في العلاقات، كان مغرِقاً مبالغاً مندفعاً، أو هو ـ في نظرة وقراءة أُخرىٰ ـ مسترسلٌ صادق، يترك مشاعره ويخلي لها بعفوية ودون ٱكتراث، يلقي حبل قياده علىٰ غارب سفينة وَلَعه، فتأخذه إلىٰ حيث تريد، لا يتوقف إلَّا إذا ٱنحسرت مشاعره وخبَت أهواؤه، وهي لا تنحسر وتخبو وتسكن رياح دفعِها، فيَكُفُّ ويتوقف، دون بلوغ الأقاصي والغايات... فإذا كُتب له ووَافاها في الشتاء، كما كان يتمنَّىٰ، فنزلها وحلَّ فيها كما يفعل في الصيف، ٱستسلم لها وألقىٰ نفسه في أحضانها، وتركها تعيشه... غرق في التزلج علىٰ جليد طرقاتها ومنحدراتها، بإطارات مستهلكة، أو بألواح خشبية صقيلة، مشحوذة مجليَّة، بل حتىٰ بمقاعد من الورق المقوىٰ (الكارتون)، كما كان يحكي أترابه ويحدثونه عن أنشطتهم الشتوية، واللهو بكُرات ثلجها، والخوض في وَحْله، كما يقول «إيليا أبي ماضي»!

نعم، كان بعد فصل الصيف الذي يقضيه هناك، يعود أحياناً إذا وَقع عليه الخيار فٱصطحبه وَالده في رحلة عمل تستدعيه إلىٰ «بيروت» لأيام، ٱختلس منها سويعات عابرة، فيتحقق منه الوَصل في الخريف والربيع، وحتىٰ في الشتاء، ولٰكن غِبّاً، لصبيحة عابرة، وإن أطال، فنهار من يوم، يتفقد فيه الأبُ البيتَ وأحواله، وأُمور "الوكيل" وحاجات "البستاني"، وهٰذا لا يسمح للفتىٰ بقضاء الوَطَر، ناهيك بنيل المنىٰ وملْءِ النظر، اللهم إلَّا جولة تتزاحم فيها الأفكار، تلحق بلائحة الٱنتظار...

فبقي شتاء «فالوغا» حسرة في نفسه، وموجة لم يركبها في بحر أمانيه وآماله، وجانباً لم يلتذ به من جمال محبوبته، حتىٰ يتمثل في كبره:

متُّ حـرَّان إلـىٰ ذاك اللُّمـى * فـأنـا المقتـول ظلماً بـالـظَّما
يـا لقـومي فـأقيمـوا مـأتمـا * لقتيـل في الهـوىٰ مـا طلبـا
وهو حران الحشى غير الورود * وإذا أمـسىٰ بقتلـي معجبـا
فاحذروه فهو سلطان حقود (١)

وقد رأىٰ الوشاح الأبيض ينسدل من رأسها عند «عين الصحة»، ويتهدَّل برِقة ودلال علىٰ كتفيها، ثم يقف علىٰ تخومها، يقهره دِفء الصنوبر، وتحسر توغله وتقدمه غاباتُه الخضراء علىٰ مدار العام، فهي لا تنفض أوراقها في الخريف، ولا تخفِّف من أحمالها لتقاوِم ما يتراكَم عليها من ثلج الشتاء، فتتحمل كسر بعض الأغصان وترضىٰ أن تكون طعمة المواقد والأفران، إن لم يطالها التهذيب ويسعفها التشذيب، (ويسمُّونه هنا " التشحيل ") علىٰ يد أصحاب الغابات ومُلَّاك الآجام... تفضِّل ذلك علىٰ أن تتعرَّىٰ من أوراقها وتنضو عنها ثوبها، وتقف جرداء، تبعث الشفقة والرثاء في أنفس المحبين من هذا الصقيع! ينكفئ الثلج شمالاً وشرقاً، ويبقىٰ في الأعالي القاحلة المطلَّة علىٰ «ضهر البيدر»، اللهم إلَّا في أيام معدودات وفترة وَجيزة من الشتاء، ما عادت تطول وتمتد في هذه السنين الأخيرة، يزحف فيغمر البلدة ويغطي كلَّ شيء فيها، ويجلِّلها ببياضه الناصع النقي عن كلِّ لوْثٍ ولوْن...

---

(١) من أبياتٍ للعالم والشاعر إبراهيم يحيى العاملي (١٨٠٠ م) من «الطيبة» في «جبل عامل»، رحل إلىٰ «أصفهان» فأقام عقداً، ثم جاور بـ «النجف»، وعاد فلجأ إلىٰ «دمشق» وتوفي فيها. له (الصراط المستقيم) في الفقه، و(الجامعة النضيدة) منظومة في الكلام والأُصول.

كان يتطلَّع للعيش معها والإقامة فيها، أن يُساكنها، ليُتِمَّ البحث " الميداني " ، ويقف على الحقيقة ويكتشف خفايا هذه الفاتنة الجميلة، مما يفتقد إلى الاستقرار والاستيطان...

يريد أن يرى كيف تكون هذه البلدة في الشتاء؟

وهي العامرة صيفاً بالحيويَّة، المفعمة بنشاط أهلها ومصطافيها، دونما صخَب ومجون، مما كنت تجده في «عاليه» مثلاً وبعض الشيء في شقيقتها «بحمدون»... ما خلا حفلات غنائية صغيرة، وليالِيَ أُنسٍ محدودة معدودة في «مقهى الشرشارة»، وأُخرى إلى الجوار في «شاغور حمانا» القريب، فلا أندية ليليَّة هنا، ولا مرابع وملاهيَ، ناهيك بمواخير بغاء، أو خمارات (بارات وكبريهات)، مما كان السيَّاح يتحرَّونه، يلتمسون ما يفتقدون في بلادهم، أو ما يداريهم عن الشهرة (والفضيحة) بين أهليهم وفي أوْطانهم... كان للقرية أو البلدة طابعها " العائلي " المحافظ، وما يجعلها في هويتها السياحية أقرب إلى " المنتجع " .

كان في «فالوغا» داران للسينما تتنافسان، كلتاهما في ساحة البلدة: «الكابتول» (صاحبها «لورنس») و«دنيا» (يملكها «جورج») ... قاعتان صغيرتان بسَعةٍ متوَاضعة ومقاعد محدودة، تحت الأُولى قبْوٌ، يضمُّ معملاً للفقاع (البيرة)! وأظنه لم يكن شرعياً (غير مرخَّص)، فلا لافتة تدلُّ عليه ولا لوحة إعلان! كان يصنع البيرة ويعبِّئها في قوارير تحمل علامة تجارية معروفة، ويسوِّقها دون امتياز من المعمل الأصلي! وكنتَ إذا جلستَ في القاعة تحضر فيلماً، ملأَتْ خياشيمك وسدَّت مشامَّك رائحةُ عفَن الخمر ونتَنه، فدارت في أنفك ورنَّحت بك!

ليس في الأُولىٰ " شباك " لبيع التذاكر، وما كانت الثانية تفتح شباكها إلَّا في العروض التي تجتذب أعداداً كبيرة من المشاهدين... وإلَّا فقد كان صاحب الدار يقف أمام الباب المفضي إلىٰ الصالة (مباشرة دون ممرات)، يقبض " ليرة " ويسمح للروَّاد بالدخول. وكان الصغار يتوغَّلون مستغلِّين ٱستراحة منتصف الحفلة، حين كان بعض المشاهدين يخرج ليغيِّر الأجواء و " يشمُّ " الهواء، فيختلط الصبية بالعائدين إلىٰ الصالة، التي غالباً ما كانت تملأ تلك الفترة بأُغنية لـ «شارل أزنافور» تصدح في أرجائها، فيندسُّون بينهم بعد أن يقلَّ تحفُّز صاحب الدار وينصرف عن حراسة الباب...

ولٰكن الدار وأُختها «سينما دنيا» كانتا نشطتين، تتنافسان علىٰ المشاهدين المحدودين، فهناك فيلم جديد كلَّ يوم! من أحدث أعمال «هوليوود» وآخر نتاجاتها، (دون أن يخلو الحال من عروض هابطة وأفلام رخيصة!)، وذلك بواقع ثلاث حفلات متواصلة في اليوم: " ماتينيه " (٦ـ ٩) ثم " سواريه " (٩ـ ١٢)، تسبقهما من الثالثة عصراً حتىٰ السادسة مساءً حفلة يرتادها الصغار، المقيدون بعوْدة مبكرة إلىٰ بيوتهم، فلا يسعهم التسكُّع في الشوارع والمقاهي والمنتزهات حتىٰ ساعة متأخرة...

وفي " ساحة " البلدة ومركزها، مُلتقىٰ الطرق التي تمر بـ «فالوغا» وتقطعها، التي تقع دارا السينما في طرفيها الشمالي الأعلىٰ والجنوبي الأسفل، في هٰذه الرحبة الصغيرة، التي تضيق بسيارات الأُجرة التي تعمل علىٰ خط «حمانا» ـ «بحمدون» ـ «بيروت»... هناك مطعم متوَاضع، أو " كفتيريا " ، لصاحبها «إدوارد»، يقصدها أهل البلدة، ولا سيما روَّاد داري السينما في ٱستراحة العرض...

حانوت صغير، يجمع منضدة أو دكَّة لإعداد شطائر الفلافل، وقدراً كهربائياً يغلىٰ به الزيت، ثم يغمر فيه وِعاءٌ شبكيٌّ أشبه بمنخل، مليء بأصابع البطاطس، حتىٰ إذا بلغت في القلي الغاية، أُخرج الوِعاء المشبَّك وأُسند علىٰ طرف القدر لتُصفَّىٰ بقايا الزيت وتترشَّح، ثم يبيع «إدوارد» مقليَّ البطاطس الذهبية في علب صغيرة يطيِّبها بصلصة الطماطم المحلَّاة (ketchup)، وهو أمر كان محدثاً جديداً في حينها... وإلىٰ جانب الفلافل والبطاطس، كان في الحانوت فرن متوسط الحجم، وكان «إدوارد» الرجل الأربعيني المرح، يدسُّ قطعة من خشب الصنوبر في فرنه، تضفي علىٰ معجناته وفطائره "دُخْنة" زكية ونكهة طيِّبة، وتورثها طعماً في منتهىٰ اللذة، تجعل "منقوشة" الزعتر و "اللحمة بعجين" تعني شيئاً لم يتكرر في ذائقة «نجيب»، ما زال يفتقده ويبحث عن نظير له منذ عقود!

وهناك خيار آخر لشباب الضيعة إلىٰ جوار الكفتيريا، هو دكَّان صغير لبيع المرطبات، والبوظة (الأيس كريم)، تسكب في "الكورنيه"، وِعاءٌ من البسكويت غير الهش، علىٰ هيئة قُمع صغير، وهي متوفرة بنوعين: عربية بأنواع الفواكه، وأجنبية (كريم) تسيل من جهاز آلي.

وبعد السينما والأفلام وبعض الحفلات والسهرات الغنائية المحدودة، كان صيف «فالوغا» متميِّزاً بٱستعراض السيارات، أحدث وأغلىٰ المركبات تجوب شارعها الرئيس الذي يشقُّ البلدة، يباهي أصحابها، يتبخترون مَرَحاً، ولربما قُصِدت لهـٰذا فصاروا يأتونها من مختلف بلدات الٱصطياف في الجبل، فيتسكعون هنا، يمضون جيئة وذهاباً، بقيادة كلُّها زهْوٌ وخُيلاء، يحسبون أنهم يخرقون الأرض ويبلغون الجبال طولاً...

يباهـون بثرائهم الفاحش وعزِّهـم الباذخ الذي تـدلُّ عليه مركباتهم الحديثة الفارهة، وثيابهم المتأنقة الفاخرة، ثم طريقة بذلهم وإنفاقهم، يغوون النساء و "يصطادون" الصبايا والفتيات. وقد زيَّنوا سياراتهم بزوائد وإضافات (كانت رائجة في ذلك العهد) من أجنحة عالية، تُصبغ بألوان فاقعة وزخارف مميزة، وترىٰ علىٰ بعضها ما يرمز إلىٰ صاحب السيارة وعشيقته، فينقش الحرفين الأوَّلين من ٱسميهما علىٰ جانبي سهم يخترق "قلباً"، ومنافذ تهوية تفتح في غطاء المحرك وجانبي المركبة ("الرفرف")، ما كان يخفي المعالم الأصلية لسيارات كـ «فور فور تو» (442 Oldsmobil)، والـ «جي تي أوو» (GTO Pontiac)، والـ «فيربيرد ترانس آم» (Firebird Trans Am - Pontiac)، التي كانت "نجوم" عصرها. ولم تكن «الموستنج» (Mustang) منها، إلَّا في بعض طرازاتها القديمة (من صنع وٱستيراد ما قبل نكسة حزيران ١٩٦٧)، كونها من إنتاج «فورد» (FORD) المشمولة (وعدَّة شركات أُخرىٰ أشهرها «الكوكا كولا») بقرارات حظر يصدرها 'مكتب مقاطعة إسرائيل' التابع لـ 'جامعة الدول العربية' كوْنها شركات خصَّصت هامشاً من ريعها لدعم الكيان الصهيوني...

وكان قصب السبق في هـٰذا الميدان، أو قُل المسرح الٱستعراضي، لمن يميِّز مركبته بزوائد ونقوش أكثر غرابة، أو يأتي بسيارة تفوق هـٰذه وتلك، فيبهر الأنظار ويحظىٰ بمزيد إعجاب وإكبار! وكان لأحدهم، صَوْلة في الٱستعراض وجَوْلة، وهو "شيخ" من أبناء الأُسرة الحاكمة، واللبنانيون كانوا يطلقون علىٰ أي كويتي أو خليجي لقب "شيخ"! ولا سيما إذا كان ملتزماً بلباسه الشعبي، متأنقاً تبدو عليه علامات الثراء...

جاء يوماً، وإلىٰ جواره في المقعد الأمامي "تابعه" أو حارسه الشخصي الأسمر، بـ «كورفيت» (Corvette Stingray) صفراء فاقع لونها، من الطراز الذي تنطوي مصابيحه في هيكله، فإذا أظهرها بدت وكأنها تغمز بعينيها! ثم عاد في اليوم التالي "يعتلي" «لامبورغيني» (Lamborghini) حمراء قانية، من طراز «كونتاش»، يحكي تصميمها بزواياه الحادة طائرة مقاتلة... ٱستعرض بها في الساحة، أدارها بسرعة فائقة علىٰ نفسها، فصرخت عجلاتها، وأثارت الدخان، وخطَّت دوائر رسمتها في "الأسفلت"، فٱنتزع تصفيق الجمهور وصراخ الفتيات وتلويحهن، ثم مضىٰ يرسل قبلاته في الهواء!

كان «نجيب» معجباً بـ «الكورفيت»، دون أن يجحد فضل سواها، وإن كان يُمنِّي نفسه بها كلها! ولـٰكن هـٰذه هي ما وَقع خياره عليها...

: هـٰذه ستكون سيارتي عندما أكبر وأبلغ مبلغ الرجال. «الكورفيت» يقولون إنها تأكل الطريق، لا تطويها وتقطعها، فهي تلتهم "الأسفلت" (القار) التهاماً!

وللمقود في كفَّي سائقها رعشةٌ تورث دغدغة في بدنه كلِّه، يصعب وَصف اللذة والنشوة التي تورثها فيه، دون أن ينال ذلك من ثباتها المثالي علىٰ الطريق... أنا لهـٰذه المتوحشة الجموح، أنا فارسها الذي سيُخرج منها ما أراد صانعُها من سرعة وقوة وفنون قيادة، لا هـٰؤلاء المتسكعين المستعرضين!

وكانت صورتها تنتقل معه في خلواته، ولا سيما موعد الرابعة عصراً، حين يستلقي على الأُرجوحة ـ الأريكة في شرفة بيتهم المطلِّ على البلدة، ينتظر إذاعة «إسرائيل» التي تبث يومياً في هذا الميعاد أغنية لـ «أُم كلثوم»، يحمل المذياع على صدره، وكان متوسِّط الحجم، مصنَّعاً على تقنيَّة "الترانزستور" (ما قبل الديجيتال)، فلما يثقل عليه، ينزله إلى الأرض وينحِّيه جانباً حذَر أن تصفعه الأُرجوحة وتسقطه وهي تتهادى بدفعات من يده التي تقبض على قائمتها وترتكز في الدفع إليها، وكثيراً ما كان يعاني من الهدهدة الأخيرة التي تقود إلى النوم أو التهويمة، وكيف عساه أن يجمع بين طاقة تلك الدفعة التي تطوِّحها، بما تورثه من يقظة وتبعثه من ٱنتباه، وبين الحذر أن تصرِف نعاسه وتبدِّد الإغفاءة القادمة؟...

كان يسرح في رسم صوَر السيارات التي تعجبه، وخلْق مشاهد السرعة وقدرات القيادة المتميزة، ويتخيَّل نفسه وهو يطوي المنعطفات الجبلية (الأكواع) بمهارة المحترفين، ويستبق السيارات الأُخرى ويخلِّفها وَراءه.

وبعد... كان «نجيب» "كاتب الغرام" في القرية!

يقدِّم "خدماته" ـ دون مقابل ـ لـ "الكبار" (فهو في عداد الفتيان، ومرحلة عمرية تصنفه في "الصغار")، وذلك كلَّما نشأت بين ٱثنين علاقة غرام، فيقصده الشاب أو الفتاة، وأحياناً يأتيه الطرفان، دون علم كلٍّ منهما بالآخر! إذا ٱعترى علاقتهما كدَر وعرَضَت جفوة، ليكتب له رسالة ٱعتذار وندامة، ولها كتاب شوق ولهفة، فيصفو العيش وتعود الأُلفة، وتنقضي الجفوة والخصام إلى وَصال ووِئام... أو قبل ذلك حين كان يستميل أحدهما الآخر، فيتغزَّل هو بجمالها، وتتغنَّى هي بفتوَّته وأريحيَّته.

وكان يلعب أحياناً دور "رسول الغرام" أيضاً، فيحمل الرسالة بنفسه... ويخوض مغامرة تفتح له باباً وتبسط أمامه أُفقاً جديداً للإبداع والتأليف، والتقوُّل ونسج الصوَر، حسب ما يريد للعلاقة بين العاشقين أن تبلغ، فيدفع لتدوم وتزدهر، أو يكفَّ إذا أراد أن تنقضي وتنقطع، محكِّماً هواه ومجرياً نظرته فيهما، أو في أحدهما! فإن لَطُف الفتىٰ ونبُل في عينه، أوْلىٰ الرسالة عنايته، فحسَّن خطَّه، وضمَّنها أفضل محفوظاته وعباراته، فإذا التقىٰ الطرف الآخر ليسلِّمه الرسالة أطرىٰ صاحبه وأثنىٰ عليه ومدَحه لِفتاته، وأبرز طيِّب خِلاله وحَسَن صفاته، فأرسىٰ المودة بينهما وعمَّق المحبة. لكنَّه لم يكن يفعل العكس إذا رآه سمجاً وحسبه ثقيلاً فكرهه! لم يكن ينقل لها عنه ما تنفر منه النفس وتشمئز، حتىٰ يزري به، ويبغِّضه إلىٰ الفتاة، ويسقطه في عينها، ولا يعمد إلىٰ ٱختلاق قصص وروايات (كما يفعل هناك لجلب المودة)، فلا يمْأت بينهما، ويضرب أحدهما بالآخر فيفترقان! بل أقصىٰ ما كان يفعله هو أن يُعرض عن الكتابة بحُجج وذرائع، ويلتمس أعذاراً يتهرب بها من تقديم "خدماته".

كان حذراً من الوَقيعة، يبغض الفتنة، ويكره النميمة... ينفر من القبائح ويجتهد أن لا يقع في الدناءة، لا لدين والتزام، بل عن كرم نفس وسمو روح وعلوِّ همة، وكأنَّ الأمر طبْعٌ فيه وشيمة! وكان يعتقد جازماً أن التفريق بين الأصدقاء أو الأحبة والأخِلَّاء، ناهيك بالأزواج، سواء بكذب وٱفتراء، أو بنقل حقيقة تورِث الشحناء والبغضاء، هو شرٌّ من سِحر الشيطان، وإنَّ من البيان لسحراً! لم يتعلَّم ذلك من مُربٍّ أو أُستاذ، ولا أخذه من كتاب... يبدو أنها صفاتٌ خُلِقت معه وخصال جُبِل عليها!

كان «نجيب» سَلِس الطباع، دمِث الأخلاق طيِّب العشرة، يحسن التوَاصل وخلق العلاقات وتوطيدها، وكان يجد في دور " رسول الغرام " هٰذا فسحة تتسع لما يضيق علىٰ الرسالة، وتعجز عنه الكتابة، فيهذر مع الفتيات ما سنحت له الفرصة، ويتوسَّع في " الرسالة " ما ٱستطاع...

وهي حالة لم تدم فيه طويلاً، وما لبثت أن زالت، بل سرعان ما ٱنعكست شيئاً فشيئاً مع تقدُّمه في العمر، حتىٰ ٱنقلبت، وأصبح اليوم لا يطيق مجالسة الناس ومخالطتهم، وينفر من محادثتهم، يميل إلىٰ العزلة والٱنطواء، ويجد أُنسه وضالته في التحرير والكتابة، لا الحوار والمشافهة، اللهم إلَّا في حالات نادرة ومع نفَر من نخبة مُنتقاة.

كان يستلهم في كتابة رسائله من قراءاته المتواضعة (وإن عُدَّت كثيرة بالنسبة إلىٰ عمره)، ويقتبس من محدود محفوظاته من الأشعار، وأكثرها في التشبيب والغزل، فيخطُّ ما ينتزع إعجاب الشباب ويثير دهشتهم، ويخلِّف ثناءهم ويورث شُكرهم ويجلب ٱمتنانهم...

وقد أجاد هٰذا الفن حتىٰ لمع فيه وأبدع، من تشجيع معلِّم العربية، الذي لمس فيه موهبة ونبوغاً مبكراً، لفته إليه مواضيع " التعبير " أو " الإنشاء " التي كان يكتبها، فيتفوَّق فيها علىٰ زملائه ويتألَّق علىٰ أقرانه... وبعد أن تثبَّت المعلِّم أنها له، لم يستنسخها أو يسرقها، ولا حتىٰ ٱقتبسها من كتاب، صار يعتني به ويرعاه، وأخذ يشجعه ويجسره، ويخلص له النصح، وما زالت إحدىٰ وَصاياه تدوِّي في أُذنه حتىٰ اليوم، ولعلَّها مقولة فيلسوف وكاتب شهير، أو حكمة مُرسلة كما قيل، لست أدري، وقد تكون فكرته هو وكلمته عن الكتابة:

" إذا أردت أن تكتب كلمةً عليك أن تقرأ صفحة، وإذا أردت أن تكتب سطراً عليك أن تقرأ كتاباً، وإذا أردت أن تكتب فقرة عليك أن تقرأ عشرة كتب... وإذا أردت أن تكتب كتاباً عليك أن تقرأ ألف كتاب " !

فراح في المطالعة وٱستغرق، وقد أعانه علىٰ هـٰذا أخٌ له كان علىٰ درجة عالية من ثقافة " المعلومات العامة " ، جعلته الأول في حلِّ شبكات الكلمات المتقاطعة في محيط معارفه، وكان «نجيب» معجباً به، ويتمنَّىٰ له أن يشارك في برنامج «سين جيم» التلفزيوني الذي راج في تلك الفترة، وعندما كان يطلب إليه ذلك، كان يستقبله بٱبتسامة، تسخر من أُفق وحدود عالَم أخيه الصغير، الذي يرىٰ فيه هو ويحسبه " الأعلم " ! كان «نجيب» يتلقَّف فتات مائدة أخيه هـٰذا، من صحف ومجلات، ولا سيما المصرية: «الهلال» و«رزو اليوسف» و«آخر ساعة»، وحتىٰ اللبنانية الهابطة: «الموعد» و«الشبكة» التي تلاحق أخبار الممثلات وصورهن شبه العارية! إلىٰ جانب مجلَّات القصص المصوَّرة أو المرسومة: «سمير» و«ميكي»، و«سوبرمان» و«الوطواط»... من هنا بدأ وشرع، فأنس وأُغرم بالقراءة، حتىٰ تلقفته مكتبة ٱبن عم له، عامرة بالغزير المجيد، فغاص فيها وغرق، وصار ينتقي ما يشتهي ويلتهم ما يريد، وهناك تعرَّف علىٰ «مصطفىٰ محمود» الذي شكَّلت أعماله ٱنطلاقة إلىٰ عالم الفكر، ما زال مَديناً لها، ومنها وَصل (وكأنه يسلك عكس السير) إلىٰ «توفيق الحكيم» و«العقاد» و«طه حسين»، وكُتب التاريخ والحديث والتفسير والعقيدة والٱحتجاج وما يتعلَّق بالدين، دون أن يوفِّر الروايات الأجنبية المترجمة. هـٰكذا وَجد نفسه في هـٰذا الحقل بلا قصد، فكأنه ٱبن الأدب وربيب الفكر والثقافة، ثم الفلسفة...

إلَّا أنه كان يعيش عبثاً ويشكو فراغاً...

لم يكن في حياته شيء جادٌّ، لا هموم ولا مشاغل، لا ضنك ولا متاعب، ولا أمراض ولا مصائب، لا مواقع بناء ومنعطفات صقْل وإنماء، ولا محطات ألمعيَّة وذكاء، بل لهوٌ ولعب وزينة وتفاخر، حتىٰ المدرسة والدراسة، كانت أقرب إلىٰ قضاء الوقت وإنجاز التكليف والواجب الثقيل، لا الكسب ونهل العلم والتحصيل... اللهم إلَّا وُلوجه عالم الفكر والأدب هٰذا، فقد كان جادّاً فيه، حريصاً عليه.

من هنا كان فرِحاً بدوْره، يشعر أنه في الميدان والحقل الذي خُلِق له.

وكان شعوره بحاجة الناس إليه يملؤه ٱعتداداً وفخراً، ويسكِّن غروره ويغذي كبرياءه، مأنوساً بمعرفة أسرار ذوي العلاقات الغرامية والصداقات الحميمة... فيفشي بعضها لأصدقائه! لينشغلوا بتناقل أخبارهم، ويتندَّروا برصد وملاحقة لقاءاتهم، وتسجيل مواقفهم وفضح حركاتهم، فمَن يقف علىٰ وَاقع الأمر، من خلفية المعلومات التي يملك، يعرف الوَجه في هٰذا التصرف والسرَّ في تلك الحركة، لم عرَض ذاك وبدرَت هٰذه؟ ولماذا مرَّت مرور الكرام ولم تفضِ إلىٰ مشاجرة ولا ٱنجرَّت إلىٰ شكوىٰ!؟... هنا في هٰذا المنتزه خطف ذاك من هٰذه قُبلة فتسلَّل ولاذ بالفرار، ولٰكن غير عجل ولا وَجِل. وهناك علىٰ المقاعد الخلفية في دار السينما، ٱندست يد أحدهم - مع ٱنطفاء الأضواء - تحت الثوب القصير، الذي كان يحسر أصلاً عن جلِّ ساقي الفتاة، ورُصِد آخَر وهو يصطحب رفيقته، يأخذها إلىٰ غَيْضَة قريبة، أو حرَجَة نائية، يدارون الأعين، ولٰكن لا يبالون بصفير الأطفال، ودلالته الصارخة علىٰ ٱفتضاحهما، وإعلان ضبطهما متلبِّسيْن!

وكـان «نجيب» يُبقي بعض الأسرار والمعلومـات ويحتفظ بهـا لنفسه، يختصُّ بها ويتفوَّق، فلا يكشف كلَّ شيء ولا يذيع كلَّ ما يعرف!

فإذا دارت أُسطوانة أُغنية معينة في المنتزه (وكان ذلك يتمُّ عبر آلة تلقَّم ربع ليرة)، يعرف (من وَاقع رسالة حملَها) أنها علامة أحَد العشاق وإعلانه عن حضوره وطلبه لقاء حبيبه! ويجزم لأصحابه أن ستعقُب هـٰذه الأُغنية تلك الأُخرىٰ، كردٍّ للتحية من المخاطَب المعني، وعلامة علىٰ حضوره هو الآخر في المنتزه... فضرب المواعيد وترتيب اللقاءات لم يكن سهلاً في ذلك العهد، قبل الهواتف النقالة ووَسائل التواصل الرائجة اليوم.

حتىٰ بدأ يقصده بعض سكَّان البلدة أنفسهم، بعد المصطافين، وقد ٱشتهر وذاع صيته... والغريب في الأمر، أنَّ هـٰذه الشهرة فضحته، وكذا فعلَت رسالة تكرَّرت مع أُخرىٰ حتىٰ تطابقت، كان قد ٱستنسخها، نتيجة كسَل أقعده عن تأليف ثانية جديدة، لعاشق آخر! وكانت الفتاة الثانية قد أطلَعَت صديقتها علىٰ رسالة حبيبها، فبان التطابق وٱنكشف الأمر، لـٰكنَّ ذلك لم يصرفهم عنه ولم يثنهم عن الطلب إليه، كأنهم يرحِّبون بالغزل وإن كان كذباً، ويريدونه لُغة للحبيب وإن علِم أنها بضاعة مسروقة!

كان سرُّ رضاه بموقعه ودوْره هـٰذا، ككاتب أو حامل رسائل الغرام، هو إشباع غروره وتطلُّعاته (المحدودة التي تناسب عمره والطوْر الذي يعيشه)، فهو يحاكي غرامه بالأدب، ويجاري وَلَعه بفنونه، ويمارس هوايته... وكان يخطُّ أغلب هـٰذه الرسائل أصلاً لنفسه، ويسبح في وَهْم وخيال ينسجه لـ" حبيبته " المنظورة المرتقبة، والعشيقة التي يتمنَّىٰ، فيكتب لها ويتغزَّل بها، بأسماء «سعاد» و«أنوار» و«فتون» و«أليسار»...

لم يكن يحمل فهماً وَاضحاً، ولا فكرة محدَّدة المعالم عن الحبِّ والعلاقة بالجنس الآخر، كانت مجموعة خلجات نفس ومشاعر قاصرة عن تكوين صورة متكاملة، تصوُّرات مقتضبة ساذجة، بل مختلطة ومتداخلة، مع نزعة تشبُّه بالآخرين وسعي لمجاراتهم، وما يُلحقه بالجوِّ العام الحاكم، ولا يبقيه مختلفاً أو متخلِّفاً عن مجموع الصحب والأقران، فلكلٍّ علاقاته ومغامراته، سواء الحقيقية المحدودة في الواقع، أو الكبيرة الخطيرة في المزاعم، مما يعيشه الشباب، يسبحون في خيال الأماني ووَهم الآمال، فيستنسخون صوَر المشاهير من نجوم السينما وأبطال الشاشة، ويزعم كلٌّ لنفسه قدراتهم الخارقة علىٰ ٱجتذاب النساء وإغوائهن (كما في أدوارهم التمثيلية!)، ويدَّعي سحراً لا يطيق الجنس الآخر مقاوَمته، فلا خيار لهن إلَّا الٱستسلام له، فتضنيه الملاحقة، وتجعله يشكو رهقاً ويتأفف ضجراً!

كان يريد أن يحاكي أصحابه وينافس رفاقه...

ولـٰكنه ـ في الوقت نفسه ـ كان يتلمَّس ويستشعر حاجةً أُخرىٰ خفية، لم يكن قادراً علىٰ فهم حقيقتها، شيء يدفعه في هـٰذا الٱتجاه، وآخر يجتذبه إليه من ذلك الموقع، وكأنهما تآمَرا عليه!

لم تكن الشهوة الجنسية قد ٱكتملت فيه، فلا رغبة حقيقية من هـٰذا المنطلق تحدوه، والأُنثىٰ عنده كائن مجهول مبهَم، مليء بمواقع الحظْر والمنع، في جسمها بالستر والغطاء، وفي الٱتصال بها، سواء معنوياً عبر الٱرتباط بصداقة، أو حسيّاً في لمس بدنها، هـٰكذا تلقَّىٰ من وَالده، مزيجاً من تعاليم الدين وأعراف المجتمع: لا ينبغي للرجل أن يصافح المرأة أو يلمسها، وكأنها بضاعة فاخرة أو قابلة للكسر (Don't Touch)...

كما أنه من المعيب للذكور أن يصاحبوا الإناث ويصادقوهن...

وهي مقولات وآراء خفَّفت أجواء «لبنان» وبيئته المنفتحة من حدَّتها وشدَّتها، ولعلَّها أزرت وأوْدت بها! فها هو غارقٌ بين الصبايا ومع الفتيات، بل ضيف محبَّب للنساء في صبحيَّاتهن وعصرونياتهن، وإن أبقىٰ علىٰ حظر اللمس ومنعه، وحافظ علىٰ تجنُّب مصافحة إحداهن أو الٱمساك بيدها مما يفعله أصحابه مع رفيقاتهم، إلَّا أن الأمر لم يخلُ من مواقف ٱستثنائية طريفة، يغلبه فيها الخجل ويستولي عليه الحياء والحرَج، منها ما كان حين ٱحتضنته أمرأة ـ مُكرهاً ـ وضمته إلىٰ صدرها، بل ٱعتصرته، وراحت تلثم خدَّيه، حتىٰ طبعت في النهاية قُبلة علىٰ شفتيه، فعلَت ذلك بشغف، يبدو أنه لم يخلُ من شهوة، وهي تمسك برأسه وتثبِّت وَجهه بيديها لتصرفه عن أيَّة مقاومة (أبداها أوَّل الأمر، ثم ٱستسلم من ذهول أو ترحيب، لم يتبين!): "تؤبر ألبي يا «نجيب»" ... وَسط ضحكات رفيقاتها وجاراتها، ذلك حين وَافاها بقراءة صحيحة لفنجانها وتنبُّؤٍ عن طالعها قد أفرَحها!

وكم كان يغويهنَّ بالثناء ويزيِّن لهن بالإطراء، وهو يهرف بسِقط الكلام، ينمِّقه فينسج ما تريد صاحبة الفنجان، يحيك لكلِّ وَاحدة ما تتمنَّىٰ وتشاء، يختلق ويؤلِّف، ويزعم أن ذلك يأتيه من وَحي وإلهام! فيتلَّقىٰ الٱستحسان: "برافو عليك" ... فكلُّ ٱمرأة ترىٰ نفسها مظلومة، لا أحَد يدرك طيبَ سريرتها، ويقدِّر حميد خِصالها، ويثمِّن جليل تضحياتها. وما فشلها في حياتها إلَّا من طالِعها وسوء حظٍّ يلازمها، أو أعين حُسَّاد تلاحقها، أو سحْرٍ عُقِد لها! لا لشيء آخَر، فهي لا تعاني من نقص في عقلها، ولا جهل وتخلُّف يستولي عليها، ثم قُبحٍ كفيلٍ بأن يورث ـ منفرداً ـ كُلَّ تعاسة وشقاء...

كان يجهل السبب، ولا يملك وَجهاً لهـٰذا الإصرار علىٰ الفصل بين الجنسين، ولا يحير جواباً... مثلما لم يكن يعرف علىٰ وَجه التحديد دوافعه وأهدافه من هـٰذه العلاقات والاْرتباطات. ولو راقب أحَدٌ الوَضع من بعيد وأراد الحكم علىٰ الحال، لما تردَّد في أنه محض لهو ولعب، ومجرد عبث وبطر مما كان يحكم كلَّ شيء في حياة هـٰذا الفتىٰ.

أمَّا لو رصده عارف كامل وخبير ضليع، يحسن قراءة صروف الدهر ومسيرة الأقدار، ويجيد التقاط أسرار تدحرُج عجَلَتها، ببصيرة تكشِف، ونور يزيح الأستار ويجلي غيب الآتي، أو بعِلم وخبرة وحدس يمكِّنه من فهم الحدث وتحليله، ثم اْستباقه وتوَقُّعه، فلَاحَظ نطاقاً غريباً وجولة عجيبة لصراع الخير والشر في نفس هـٰذا الفتىٰ ثم الرجل، وسجَّل علىٰ قوىٰ الخير حركة وسَعياً يدور بين الإمهال والاْستدراج من جهة، وبين العناية والرعاية من جهة ثانية... لَعَلِم أن قدَراً ما ينتظر «نجيباً» في مستقبله، وأن عجَلَة الأقدار هنا، في هـٰذه الحركة الغريبة، دارت لِتخطَّ مقدِّمات الحدث وترسم أسباب ذلك القدَر، دون إكراه وإرغام يعطِّل أصل الإرادة، والأمر بين أمري الجبر والتفويض، فيفقد المرءُ خطَر قراره، وتسقط قيمة ثوابه وعقابه، بل هي تملي وتخلي السبيل للفتىٰ تارة (برفع العناية والرعاية الخاصة)، إلىٰ حدود معيَّنة، ما يفسِح لزلَّاتٍ ويسمَح بسقطات ينحطُّ بها درجة، لا يهوي أعمق منها، فكان "السَّماع" و"مفاكهة النساء"، ثم التدخُّل باللطف للحجب والردع والمنع في مواقع أُخرىٰ تنقذه من لَوث الكبائر وتنجيه من سِمة الفسق والفجور التي لا يطيقها الدوْرُ المدَّخَر، والمقام المنظور والمعَدُّ له، فيُحال بينه وبين أن يقع في الموبقات ويقترف المهلِكات...

وما زالت الحيرة تتملَّك «نجيباً» كلَّما تذكَّر حادثة رحلة «الزيتونة»...

كان في عنفوان شبابه وذروة غُلْمته وشبَقه، حين وَافق علىٰ مقترح أصحابه القيام برحلة إلىٰ «بيروت» للقاء سمسار دعارة يعرفه أحدُهم، يقودهم إلىٰ مومسات يقضون معهن ساعة، وينالون منهن أوْطارهم.

أنزلتهم سيارة الأُجرة في «ساحة البرج»، حيث التقاهم القوَّاد «مروان» واْصطحبهم سيراً علىٰ الأقدام إلىٰ بناية قديمة تقع في الشوارع الخلفية، أقرب إلىٰ «ميناء الحصن»، علىٰ أطراف «الزيتونة»، هناك، في قبْوِ بناية، فتح «مروان» باباً ـ دون أن يطرقه ـ علىٰ مشغَل، وسأل الفتيات العاملات خلف آلات الخياطة عن «المدام»؟ فأجابته غير وَاحدة، مع إشارة بالسبابة: فوق... فصعدوا إلىٰ الدور الثاني، ليدخلوا شقة فسيحة رحبة، تتوسطها صالة عالية السقف توزَّع علىٰ حجرات في محيطها، رُصَّت فيها مقاعد خشبية اْستوت عليها مجموعة من العاهرات، بثيات تكشف من مفاتنهن أكثر مما تستر، بل كُنَّ بقمصان النوم، وتبرُّج الفراش المعدِّ للجماع.

أنقَدَ «مروان» «المدام» المبلغ الذي كان قد جمعه من الشباب، وكان كبيراً مقارنة بالسعر السائد لقضاء ساعة مع مومس، والذي لم يكن يتجاوز خمس ليرات في بعض المواخير ودور البغاء حينها، وذلك مقابل تعهُّد «مروان» والتزامه " ببضاعة نظيفة " تخضع لعناية طبية وفحوص دورية تقي الشباب من " السفلِس " ... دسَّت «المدام» المال في جيبها، وطوَته في مشدِّ نهديها الذي بدا أصغر في قياسه من حجمهما، يضغطهما ويعتصرهما، لينهضا شيئاً فتبدو " فتخاء " يرتفع ثدياها نحو جيدها، وهما المترهلان من فرط العبث والاْستعمال، ومن فعل العمر وجزاء الأيام.

ٱختار كلٌّ مَن راقت له وأعجبته، فرافقته وخفَّا إلىٰ غرفة، وبقي «نجيب» يتزايل، ٱنزوىٰ جانباً وٱنقبض، وقد كَلَّ لسانه وٱنعقد، لا يدري ما يقول؟ وكيف يصنع؟ فهو حييٌّ رقيق الوَجه، محتشم عفيف، ولم يتجاوز السابعة عشر، وهٰذه هي تجربته الأُولىٰ... دنت منه «المدام» وأخذت تحدثه وتُلاطفه وتهدئ من روعه، من وَاقع خبرتها بمثل هٰذه الحالات، بلكنة يونانية أو هي أرمنية، مليئة بالخاء، ثم سألته وكأن المعضلة ليست فيه، بل في "البضاعة"، وأشارت إلىٰ الأخيرة المتبقية:

ما عجبك صبيي (هٰكذا دون ألف ولام)؟
من شو بيشكي «سمَر»؟ فوت معه (بالتذكير)
حبيبي، رح تنبسط، هي بيعرف كل شي...

لٰكن «نجيباً» بقي صامتاً، فٱفترضت عدم ٱقتناعه بـ «سمَر» النحيفة العصلاء، كأنها ممصوصة من داء يخامرها، فنادت علىٰ أُخرىٰ تدعىٰ: «حنان»، خرجت من إحدىٰ الغرف، وٱنتصبت في الصالة بقوامها الممتلئ، تكشف عن فخذين لفَّاوَين، متدانيين من السِمَن، وترفع نهدين أظهرهما جيْب ٱنحسر زيقه وتوَسَّع حتىٰ ناهز حلمتي ثدييها، وقد غمر بياض "الرعبوبة" نقاط نمَش تميل إلىٰ الشقرة، علَتْ بينها شامة سوداء بلغت عنقها... لٰكن كان يعيبها أنها "كرشاء" بعض الشيء، وقد ضغط ثوبها الضيق اللصيق بطنها وخاصرتها، وصنع تموجات وطبقات.

في هٰذه الأثناء خرج «فايز» من غرفته (وهو الأكبر سناً والأكثر خبرة في المجموعة، شاب متهتِّك، خليع لا يعرف الحياء، وهو صاحب «مروان»)، وأخذ بعضد «نجيب»، وصار يعنفه ويزجره:

فشَّلتنا، مِنت ريَّال؟ (أحرجتنا أو أخزيتنا،
ألست رجلاً؟).

ثم دفعه إلىٰ إحدىٰ الغرف دفعاً، وألحَقَ الفتاة به وأغلق عليهما الباب! وشارك «المدام» في إطلاق ضحكات رقيعة ٱهتزت لها الصالة.

هناك، عندما خلا بها، طلبت إليه أن يحل عرىٰ ثوبها من جهة الظهر، فلم يستجب. غالبت المسكينة بمشقَّة حتىٰ طالتها يداها وخلعته، وأبقت علىٰ ثيابها الداخلية، لم تكن سليطة ولا وَقحة، لذا رقَّت له حين رأته بِكراً، وصارت تُلاطفه، ولعلَّه راق لها! ٱستلقت علىٰ سرير كانت فرْشَتُه المتقعِّرة تصنع حفرة تتوسطه، قاعدته من الزنبرك (شريط من الفولاذ المرِن، يقوَّس ويُلَف بشكل ٱسطوانة، ليورث عند ضغطه نبضاً ودفعاً ذاتياً)، فهل تعمدوا ذلك حتىٰ يفشل المرتاد هنا في التحكُّم بأوضاع الجماع، فلا يطيل العملية ويُفرِط في ٱستعمال "البضاعة" وٱستهلاكها، أم أنه كان يعين علىٰ حركاته؟ لست أدري! أو هو حال الأسرَّة التي كانت سائدة في تلك الفترة.

تسمَّر الفتىٰ في موضعه، كأنه وَتَدٌ ضُرِب، وراح يحملق في الجسد الغضِّ البضِّ المنسرح أمامه، وقد أزال الٱستلقاء والٱسترخاء قُبْح تعرُّجات بطن الفتاة، التي لم تتجاوز العشرين بكثير، وأظهرتها منبسطة مستوية...

لـٰكن "أمراً" غريباً وَقع عندها... رواه «نجيب»:

أظلمت الدنيا بعيني، فما عدت أرىٰ شيئاً،
ثم شعرت أن وَالدي ظهر، وأخذ بتلابيبي،
أو قبض علىٰ عروة قميصي من خلف
عنقي، وصار يجرني ليخرجني من الغرفة!

لم يكن وَالدي، كان شخصاً آخر يشبهه، أكثر شبـابـاً وقــوة، وأمضـىٰ في نظـرته وزجـره الصامت لي! كان يعرفني حقَّ المعرفة، وكأن إضبارتي ـ بجميع أوراقها ـ مفتوحة أمامه، وأسراري كلُّها مكشوفة بادية، لا يعرف ما مـضىٰ من سوء فعلي وقبيح عملي فحسب، بل هو محيط بهابط أفكاري ومنحَطِّ نيَّاتي!

فجأة، شعرت أنني أصبحت منقاداً، ولم أعد أملك أمـري! سُلِبت إرادتي، وتضـاعفت الحالة التي بدأت تنتابني وأنا في الصالة قبل دخول الغرفة، ثـم صرت أسمع هاتفاً يناديني ويقرع مسامعي بقوة، أو هو حوار بين ٱثنين، فأمرٌ يصدر لأحدهم: يجب أن يُـنزَّه عن أيَّة وَسمة أو معرَّة، ويُحصَّنَ من أيَّة رذيلة تدنِّسه وتعيبه، نريده طاهر الذيل، لا يلوِّثه الزنا ولو لمرَّة، فتتلبَّس به صِفة الفسق ويدخل في دنس الدعارة ولوث الفجور...

كطفل رأىٰ غولاً أو ساحرة شمطاء بأسنان سوداء وشعر شعث متلبِّد، أو كعـدَّاء أثيـوبي، أطلق «نجيب» سـاقيه للـريح... خـرج من الغـرفـة، وٱخترق الصالة، ونفذ من باب الشقة الموبوءة، وقفز علىٰ الدرج أو طار فوقه، ولم يتنفس الصعداء إلَّا عندما صار في الشارع خارج البناية!

ثم راح يعدو، لا يلوي على شيء... ولم يكفَّ ويتوقف إلَّا بعد حين، فكأنه " ٱكتشف " أن ليس هناك مَن يطلبه ويطارده! لـٰكنه ما ٱستقر ولا هدَأ، حتىٰ عزم علىٰ ترك رفاقه، والعودة إلىٰ «فالوغا» وَحيداً، ولا طاب نفساً وأمن سرباً حتىٰ قرَّر أن لا ينتظرهم، إما دفعاً للحرَج، وما كان سيلقاه من ألسِنتهم جزاء فعلته، أو خوفاً وهرباً من معاودة ضغوط كانت سترغمه علىٰ ما فرَّ منه، ففضَّل الهزيمة والرجوع إلىٰ وَكره.. واللجَأ إلىٰ " وَطنه " !

تُرىٰ مَن الذي تراءىٰ للفتىٰ وأصرَّ أن لا يقع في الزنا؟ ما الذي دفعه للخروج والهرب بهـٰذا الشكل الذي لا يتناسب مع طبعه الجسور المقدام الذي طالما ميَّزه وأفرده، فصار يُشار إليه بين أقرانه؟ مَن كان يحدِّثه ويزجره ويعنفه، حتىٰ أخذ بتلابيبه وأخرجه؟ مَن ألهمه العودة وعدم الاْنتظار، وهيَّأ له الأسباب في سيارة عمومية (سرفيس) حاضرة في الموقف؟ ينادي سائقها علىٰ راكب وَاحدٍ باقٍ إلى «بحمدون»، فما أن ٱستقلَّها وهي «مرسيدس 190»، حتىٰ ٱنطلقت، وقد جاء مقعده إلىٰ جوار النافذة المفتوحة، فراح يستقبل بوَجهه نسائم الجبل في «الحدَث»، بعد الخلاص من زحام «مستديرة الصياد»، تجفف عرَق «بيروت» وتزيل عار «الزيتونة». وكان سائق السيارة من التهذيب واللباقة، ما يجعله يفتح بابه وينحني ليبصق في الطريق، فلا يرسلها من الشباك فتتطاير ويصيب رذاذها مَن خَلْفه! وكان يدلي بذراعه اليسرىٰ خارج نافذته، حاسراً أردانه، كاشفاً عن وَشم ٱختط في ساعده، ٱقتبس من تعريب «أحمد رامي» لـ «رباعيات الخيام»: " القلب قد أضناه عشق الجمال " ، كما طبع علىٰ مؤخرة سيارته وغطاء صندوقها الخلفي: " يصطفلو " ، أي " لا شأن لي بهم " ، أو " فليذهبوا إلىٰ الجحيم " !...

كان لـ «نجيب» ملَكٌ يحرسه وعناية تحوطه ويدٌ ترعاه، وكأن قدَراً وحدَثاً ينتظره، ٱدَّخر له دوراً يتطلَّب هٰذا الحدَّ من العفَّة والطهارة، ولا يطيق أكثر من " اللَّمَم " وتلك الدرجة التي كان عليها من اللوث! فتتدخل يدُ الغيب لتردعه، وتنشط ملائكة الحفظ لتمنعه، تماماً كما أخلَت له هناك وأفسحت لإرادته، وجعلته " يتشيطن " ما شاء له الهوىٰ وغلبته الغفلة؟!

تتفهمُّ ما يستشعره الفتىٰ من مناطق فراغ في نفسه وشخصيته، تدفعه إلىٰ هٰذه الأجواء، وكأن " الرجولة " لا تكتمل حتىٰ يرتبط بفتاة ويقيم علاقات ويخوض مغامرات، يجمع ذلك إلىٰ تحدِّي سقف ساعة السهر خارج البيت، والتدخين في الخفاء! ما يجعل الباحث والمحقِّق يخلص هنا، في فهم تلك الحالة وتحليلها، أنها مجرَّد لهْوٍ وعبَث، وشيطنة علىٰ طريقة «أبي ماضي»: " ولَكَم تشيطن كي يقول الناس عنه تشيطنا " .

وما زال يفعل، حتىٰ الآن! وها هو يعود، ليعيش العبث ذاته، بعد نيِّف وأربعة عقود! يعود إلىٰ «فالوغا»، بكل ما تعنيه له... إنها في الشتاء، شتاء الفصول منها، وشتاء الحياة من عمره.

ترىٰ كيف ستكون حدائقها المدرَّجة المعلَّقة، وبساتينها النضرة، ورياضها الغنَّاء في شتائها القاسي؟ وهي المتألقة بفاكهتها الريَّانة الشهيَّة في الصيف؟ التي كانت تنتخب لها ملكات جمال في موسم كلٍّ منها، ولا سيما بعد قطاف الكرَز، وجني التفاح (لا الخوخ والكمثرىٰ وبقية الفواكه، لا تدري، أ لقِلَّة محصولها وعدم شهرتها بها، أم لغير سبب؟)، وما كان «نجيب» يدرك موسم العنب الذي يحلُّ في الجبل متأخراً، فيتعارض مع أوان العودة إلىٰ بلَده، والاستعداد للعام الدراسي الجديد.

ولم يكن دفء الصيف يعني الفاكهة فحسب، بل يدفع لتنبض وتخفق أجراس كنائسها بعد خرَس، ويعلو منها قرْعٌ يسمع القاصي رجْعَه وصداه، وكان الفتىٰ ممن يتَّخذ وأترابه حبل الناقوس أُلعوبة، يتسلَّمونه من بعضهم، ويتناوبون علىٰ دقِّه، يتهادىٰ أحدهم مع شَدِّه عند جرِّه، فيرفعه نحو بُرجه العالي، ثم يعود فيرجع إلىٰ قراره في فناء الكنيسة (١) ... والأعين منهم علىٰ خُود أخذن زينتهن، كما سَبَيْن قلوب الناظرين! فيترنم:

" أيُّ الضرب يؤلمك، ضرب النواقيس أم ضرب النوىٰ قيسي " ؟

ودبيب شيخ درزي موغل في الغموض والباطنية، أنهىٰ العقد الثامن ودخل في التاسع من عمره، دون أن تأخذ الأمراض من صحته شيئاً، فهو يقتات من زرعه، ويشرب من ضرع معزته، ويحرث ويقلِّب بستانه الصغير بنفسه، لا يستعين بأجير ولا جرَّار... لا يشكو إلَّا حدبة في ظهره، داراها بعكَّاز وعالجها بعصاً يتوكَّأ عليها.

---

(١) سكان «فالوغا» منذ القرن الخامس عشر دروز، من أُسر «الأعور» و«العنداري» و«الحلبي»، ثم لجأت إليها بعد ذلك عائلات مارونية من الشمال، أشهرها: «الزغزغي» و«غانم» من بلاد «جبيل»، و«سعادة» من «إهدن» و«العاقورة»، و«الرامي» من «أم ميفون» في «جبيل» أيضاً. وفي عهد «اللمعيين» وَفدت إلىٰ «فالوغا» عدة عائلات مسيحية أُخرىٰ، منها «أبوجودة» من «المسقى»، و«بصيبص» من «بسكنتا»، و«شمعون» من «جوار الحوز»، و«الأشقر» من «بيت شباب»، وهناك عدد من العائلات الأرثوذكسية والكاثوليكية وَفدت إلىٰ «فالوغا»، منها أُسر «الحاج»، و«عبدو»، و«شبيب»، و«حداد».

وقد أقامت هٰذه العائلات ـ علىٰ ٱختلافها ـ معابدها الدينية، ومنها خلوة للموحدين الدروز يعود تاريخها إلىٰ عهد «اللمعين» منذ ١٧٠٠م. وهناك عدد من الكنائس قديمة العهد، تعود إلىٰ القرن التاسع عشر، أقدمها كنيسة «السيدة» بنيت عام ١٨٤٧، وبنت أُسرة «الرامي» في عام ١٨٦٧ كنيسة «مار إلياس»، كما بنت بقية الأُسر المسيحية الأُخرىٰ كنيسة «مار جرجس» عام ١٩٤٧.

وقد أعفىٰ شاربه ووَفَّره، فكأنه لم يأخذ منه مذ طرَّ أوَّل بلوغه! حتىٰ فتَله فعُكِف طرفاه وجُعِّدا، ما رسم تحت أنفه الكبير نَصْلَي خنجرين أو مُدْيَتَين، بينما جَزَّت الموْسىٰ لحيته بإتقان، وخلَّفت ذقناً ناعمة ملساء، كخدِّ ٱمرأة غيداء، لولا تجاعيد تضني ـ ولا شك ـ الحلَّاق، وتأخذ منه كلَّ الجهد والوقت حذر أن يجرح ويسيل الدم...

ها هو يدلف علىٰ هونه، في «الخلوات» بـ" شرواله " ، يرخي " جراباً " يتهدَّل بين ساقيه، متلحِّفاً بأسرار تقودك إلىٰ متاهات «القرامطة» و«الحشاشين»، فـ «المعز لدين الله الفاطمي» و«نشتكين» [1]، وكلِّ عامل ناصح، أو غامض مريب، أو حُرٍّ ثائر شوَّه كُتَّابُ البلاط صورته وسيرته، فدخل التاريخ ـ كما عاش ـ مضطَهداً مقهوراً...

ها هو سليله وخلَفه ووَارثه المزعوم، بل المسكون بالريب، يستشعر تراثاً حلَّ فيه و " تقمَّصه " ، ويتهيأ لطَوْر جديد سينتقل إليه ويعيشه عبر تناسخه في " نسخة " قادمة وحياة مقبلة، ويمضي متحفِّزاً مستنفراً، يحسب الدنيا كلَّها تتحيَّن القضاء عليه، وتتآمر لتسلبه قليل ما عنده! فيغرق في التلوُّن والتظاهر حتىٰ لا تعرف له عقيدة، ولا تقف له علىٰ رأي، ولا تعهده ملتزماً بموقف، كلُّ ذلك سعيٌ وتكلُّف والتماسٌ لما يدرأ عنه الأخطار...

---

(١) هو «محمد بن إسماعيل» المعروف بـ «الدرزي» (٤١١ هـ / ١٠٢٠ م)، من أصل فارسي، ويعرف بـ «نشتكين»، قدم «مصر» مع «حمزة بن علي الزوزني» من أهالي «زوزن» بـ «إيران» زمن الدولة الفاطمية، ودخل في خدمة «الحاكم بأمر الله»، ثم ٱرتدَّ وأعلن أُلوهية «الحاكم»، وأسقط الوَاجبات ودخل في التهتك والإباحيات! ويقال إنه زعيم المذهب الدرزي الباطني ومؤسسه الحقيقي. ولكن «الدروز» يعتبرونه زنديقاً ومحرفاً للحقائق، ويرفضون هذا الٱسم، ويفضلون أن يُطلق عليهم: «الموَحِّدون».

فإذا ٱستنكرتَ هٰذا الغموض والتأبُّق والتبطُّن، وطالبته بحقيقة مُعتقده، وسُقت له ٱنتفاء بوَاعث "التقيَّة" وزوال عِللها وسقوط أسبابها، سخر من سذاجة طرحك، وكيف بُتر الخطاب فيه وٱنقطع، ولا سيما عن التجربة والتاريخ... ولعمري، كم عادت حجَّته قوية، بعد أن أثبت "التكفيريون" بإرهابهم ووَحشيتهم إصابة حذره، وصدق ظنِّه!

وبعد، فإن البلدة تتدفق علىٰ مدار العام وترفل بالماء و "الصحة" [١]، وتزهو بالشباب والعافية، وما زالت «عفاكِ» [٢]، و«أُم سركيس» التي تتخطَّىٰ المئة، ترصد حركة الحي من شرفتها، وهي لا تعرف من ضغط الدم والسكر والدهون الثلاثية شيئاً، ولا تعاني إلَّا ضعفاً في الذاكرة.

---

(١) تعتبر «فالوغا» من أغنىٰ مناطق «لبنان» بالمياه، ويقال أنَّ جبالها تنطوي علىٰ أكبر خزان جوفي للمياه العذبة في الشرق الأوسط كلِّه! حتىٰ أن ٱسمها، وهو لفظة سريانية تعني المقسم أو الموزع، قد يعود إلىٰ موقعها علىٰ كتف مجرىٰ المياه الذي يكوِّن «نهر الموت».
وفيها من الينابيع:

١ ـ «عين السيدة» الذي توصف مياهه لعُسر الهضم وفقر الدم.

٢ ـ «عين الفوارة» وهو مقصد لأهالي البلدة والمنطقة والبيروتيين كافة.

٣ ـ «عين الصحة» وهو الأشهر الذي ٱستثمرت مياهه، وكانت الأُولىٰ التي جرىٰ تسويقها في عبوات، وهي توزَّع اليوم في مختلف البلاد العربية.

٤ ـ «الشرشارة»، ويقال أن مياهه نافعة للأمراض الجلدية.

(٢) من صديقات عائلة «نجيب»، كانت تكرِّر ـ كلما ٱستحسنت شيئاً ووَافقت عليه ـ لفظة "عفاك"، أي: مرحىٰ! فتعلَّق بها اللفظ لقَباً ولحق بها وصار فيها علَماً. وكان الفتىٰ وإخوته يرمقونها ويرصدونها من بُعد، إذا سلكت أوَّل الطريق الذي يفضي إلىٰ بيتهم حصراً، فينادون أُمهم ويبلغونها أن جاءتك ‹عفاك›. فإذا ٱستقرت بها الجلسة في الصالون أو الشرفة، كانوا يبحثون عن مواضع الٱلتقاء والأخبار التي توافقها، يسردونها في محضرها، لتُلحِق قولهم بعبارتها الشهيرة: "عفاك"! وما كانوا يعرفون لها ٱسماً غير هٰذا، حتىٰ أنه لما عاد «نجيب» أوَّل مرَّة بعد الحرب، وصار يتفقد صحبه ومعارفه في البلدة، سأل عنها بلَقَبها هٰذا، فلم يتعرَّف عليها أحد بطبيعة الحال!

عجباً للمرأة هنا، لا تهرم ولا تشيخ، وتمضي عصيَّة على الذبول، متمردة على العجز... مأنوسة بمساحيقها، التي تستعملها لتؤدِّي حقَّ المناسبة وتكمل من هندامها فحسب، أو لمجرَّد أن تثبت للآخرين حيازتها، ولكن لا لتجمِّلها! مزهوَّة بأناقتها، تخطر بحُليها الرخيصة، وأثواب غريبة في ألوانها وطراز تفصيلها، يبدو أنها ما زالت تحتفظ بها منذ السبعينات!

وها هو «نجيب» يعود إلى المرأة، تراه يتحين تناولها والتعرض لها، ويصرُّ أن تبقى مادة بحثه وكتابته، وكأنها النطاق الذي يستقطب بوْصلته، ويدير المؤشر والعقرب الممغنط فيها، فيحدِّد وُجهته!

هنا، في «فالوغا» عرف المرأة أول ما عرفها، وٱنكشف له سرُّها الكبير وشأنها الخطير، ثم بان له ـ بالتدريج ـ كيف يجتمع السخف والتفاهة، بالخطر والأهمية، ويلتقي الشرُّ والسوء، بالضرورة والحاجة، ويقترن الحسن والجمال، بالقبح والبشاعة، ويتداخَلا!... ما أعجب هذا الكائن الذي يشبه الإنسان في كلِّ شيء، حتى يلتبس أمره على أغلب البشر، فيظنه منه ويحسبه عليه! وكان «نجيب» يراه ـ بعد أن نضجت أفكاره وٱختمرت رؤاه ـ هجيناً، ٱستُل نصفه من الجان، من مارج من نار، أسجر له وسوَّاه الشيطان، وقد خُلط بعضه بصلصال من حمأ مسنون مصوَّر... مزيج عطر ونضْح، مِسك أذفر، فتيت العنبر يضوع على مجمر، ثم نبيذ معتَّق، دارته الخوابي حتى ما عادت تطيق، فسُكب في أقداح، ودار بين ندامى وجُلَّاس، فمسَّهم طائفٌ وسكَنَهم، وصار يسري فيهم مَسرى الدماء في العروق... كائن غريب، جُلُّ شأنه الإسكار وفعله التهويد، وبثُّ الغفلة ونشْر اللهو والعبث، وصرف الفكر عن الحقائق إلى الأوهام والأكاذيب!

ولعلَّ من أسباب عشقه «فالوغا»، ذكريات علاقته بالأُنثىٰ وتواصله معها، فهنا بلغ الفتىٰ الحلُم واكتمل رجلاً، وهنا كان يجد الفسحة من انغلاق بلاده، فلا هي قرية تدرُج علىٰ سجيتها وتلقائيتها في التواصل بين الجنسين، ولا مدينة متطوِّرة حديثة، منفتحة ومتحرِّرة من هٰذه القيود...

عاد إليها في الستين ليكتشف أنه ما زال طفلاً!

هنا كان يحدِّث الفتيات ويسامرُهن، ويكتب لهن ويشبِّب بهِنَّ، هنا تعرَّف عليهن وكشف حقيقتهن، أو حسب أنه فعل، ففرَّق بين أرواحهن الشيطانية وأجسامهن الرائعة البديعة، أو قُل هنا اختلط عليه الأمر فأُغوِي واستُنزِف، وسَكِر من جمالهن وثمِل!

عرف جمال النساء وروْعة تكوينهن، ففتن بقوامِهن، وما زال مفتوناً إلىٰ حدِّ الهوَس، لا يغادر أُنثىٰ تخطر أمامه، أو يرمق وَاحدة تعبر من بعيد، حتىٰ يقتنصها بنظره فيحدق كأنه يقوِّمُ سهماً! ويحلِّق في تقاطيعها ما شاء شيطانه وأبدع خياله: يجرِّدها من ثيابها علىٰ رُود بل رُوَيْد! يُبقي علىٰ الداخلية (فهي عنده موقع جمال وتذوُّق، لا ينبغي التفريط فيه كيفما اتفق، وكان يرىٰ العُريَ الجنسي الذي يتداوله المراهقون في الصوَر الإباحية، "حيوانية" وهمجية تبعث علىٰ التقزُّز)، فإذا أعجبه ما اصطادت عيناه الآثمتان، انتقل إلىٰ نزع ثيابها عنها، وهو أيضاً عنده علىٰ خطوَات وطقوس، قطعة فقطعة، يعرِّيها شيئاً فشيئاً، حتىٰ يستوفي حقَّ كلِّ جزء، ولا يغادره إلَّا منتشياً! وكان الصيف بخفيف ثيابه، والعصر بصيحات أزيائه، يعينانه علىٰ آفته. وقد ضحك مرةً وقهقه حين تداوَل أصحابه خبراً عن صنع "نظارة" تخترق ثياب النساء وتعريهن، فقال: أنا أفعل هٰذا، دون نظارة!

هنا صار يقرأ في المرأة صفحة جديدة لم يعرفها من قبل، فيعجب كيف غابت عنه هذه التفاصيل، وهو قريب منها، بل كان في بعض الأحيان لصيقاً بها، ويذهل من خفاياها وأسرار الجمال فيها:

لعمري، أكُلُّ هذا منطَوٍ في هذا المخلوق؟
مخبوء ومكتنز في هذا الكائن العجيب...
كيف غابت عني فأغفلتها؟ كيف لم يؤثر فيَّ
سحرها ويعمل "إكسيرها" من قبل؟!
حقاً هما نعمتان مجهولتان: الصحة والأمان،
ولكني سأُضيف إليهما ثالثة: المرأة! فلربما
نعمت بها ونهلت واغترفت منها، وأنت ـ في
وَاقعك ـ تجهلها!

في تلك الربوع الجميلة، والأجواء العفوية الإرتجالية، البعيدة عن التكلف والتصنُّع، ما كان «نجيب» يوفِّر فرصة لمحادثة امرأة وإسماعها ما يحسِن من غزل، وبثِّها ما يدغدغ كلَّ خلية في جسمها الرقيق وينعش عقلها الوَاهي السخيف... وكان يُرسل الألقاب عليهن مدحاً وتندُّراً، فتعلق بكلِّ وَاحدة ما تتنابز به النسوة، أو تباهي وتفاخر!

حتىٰ أن إحداهنَّ كانت ترسل في طلبه إذا اجتمعت وأترابها في "عصرونية" تقيمها في شرفة منزلها، ليؤنس جلستهن ويضفي عليها بهجة الشعر ومتعة الأدب، ولذَّة التشبيب والغزل، وبعض المزح و "التلطيش" والهزَل، تستعين به علىٰ جارتها في النيل منهن ونبزهن، أو التعليق بطُرفة كثيراً ما كانت تلصق بإحداهن عنواناً وتُرسل كُنية.

هنا، في «فالوغا»، هتف في نفسه وسكن في خاطره، حتىٰ تمكَّن الأمر منه حقيقة أثَّرت في فكره وفلسفته وكتاباته، وسجَّل موقفه الأخطر تجاه دنيا الفن والجمال (العالم الذي يشتغل به ويعالج مباحثه)، وأعلن النهاية من إعجابه وفتونه: المرأة أجمل ما خلق الله!... ودونها كلُّ ما أبدعت الطبيعة وأتقنت: الجبال بزهو قممها وروعة سفوحها، السهول ببهجة مروجها وطلاقة نسائمها، البحار برحابة آفاقها وسحر أمواجها، ثم العجماوات بروعة تكوينها وبديع فَطْرها، من إبل راقصات، وظباء آبزات، وطير صافَّات، وأفراس صافنات... مما كان يأنس به ويلتذ، ويقضي في تأمله أو ممارسته ساعات، وكذا الحال مع صناعات الفن والجمال، ولا سيما السَّماع، الذي كان مولَعاً به... لكُلٍّ جماله وروعته، لكنها كلها دون المرأة.

وها هو يعود لموطن المرأة عنده، لا يدري ـ في الحقيقة ـ ما يحدوه، وهو يدَّعي الشبع من هذا الجمال والفراغ من هذه اللذَّة... لكن هيهات!

كان يستجلي ويتساءل، بشوق الباحث ولهفة العاشق، وعمق الفيلسوف الذي لا يسمح لشاردة ووَاردة من ظواهر الطبيعة ومراحل الحركة في هذه الحياة، بآفاقها الخارجية والأُخرىٰ الداخلية النفسية، أن تمرَّ دون أن يقفَ علىٰ مرجعها ومآلها: لماذا سنحت هذه الفكرة وتداعت تلك الخاطرة؟ من أين تأتي الهواجس والأوهام؟ أين الصواب في حركة الذهن وأين الخطأ... ويعود ليتساءل عن محبوبته:

ماذا تراها تفعل «فالوغا» إذا ٱشتدَّ البرد
عليها، وكساها الشتاء بثلجه؟ أين تذهب
عصافيرها وكيف تحتمي من صقيعه؟

أعرف خمائل الوَرد جيداً، ولا سيما بسطة القُرنفل التي تفترش صُفَّة بيتنا المتعالي على البلدة والمشرف عليها، وهي رُحبة تمتدُّ بعد الإفريز الملاصق للبناء، كفِناء غير مُسوَّر، طُوارٌ تتوسطه جُنينة صغيرة يزهو بها الوَرد، تحيط به أروِقة، فيها مقاعد تخدم جلسة تطلُّ على البلدة من علو، أرى فيها مرْبَعاً ومعهداً قلَّ نظيره على هذه البسيطة، ولا إغراق، أليست حبيبتي؟!.. كانت الوُرود التي تكتب لها النجاة، تنكفئ وتضمُر في السيقان وتكمن، بٱنتظار الربيع لتخرج مع دفئه برعماً جديداً... وأعرف أشجار الكَرَز بأغصانها التي تميل إلى السُّمرة، أو الزرقة المحتقنة، ما يقرِّبها إلى غرور لون البنفسج، الذي يرمز إلى الأسْر والاْفتتان بالجمال، والشعور بالغنى والعمق، والذهاب في التبجيل الملكي والتعظيم الخرافي (في عصور الملكية التي كانت تُتلقَّى كقدَر إلهي، لا ملَكيَّات اليوم المبتذلة!)، ثم التركُّب والمزج الذي يجمع الحزن والزهو، حتى كتب «بيرم التونسي» لزهْرِه بالعامية، رائعته " ليه يا بنفسج " :

ليه يا بنفسج بتبهِج وانت زهر حزين؟
والعين تِتابعكْ وطبعَك محتشم ورزين
حُسنك في كونك، بِلونك، تبهِج المقهور
اللي يضيره، ضميره، بالظلام مغمور
حطّوك خميلَة، جميلة، فوق صُدور الغِيد
تسمع وتسرَق يا أزرق، همسة التنهيد

نعم، كان يعرف هٰذه، ويعرف التفاح والكمثرىٰ الرصينتين، وشجرة الخوخ التي سأل وَالده مرَّة عن غصنها ذي النتوءات والتجاعيد الصغيرة، فعجب من دِقَّة ملاحظته، وهو ٱبن ثلاث عشرة سنة، فرمقه بنظرة أمل أن يفلح هٰذا الصبي الألمعي بفكره الجوَّال وذهنه الوقَّاد الذي لا يطيق المرور علىٰ شيء دون توقُّف وبحث، ثم ٱكتشاف وٱنتزاع، فكأنها بوادر نبوغ وعبقرية، وجذور فكر وفلسفة، هٰكذا يأخذ الحبُّ الآباء في أبنائهم، ويغمرهم، فيخلطون بين الوقائع والأماني!... وكان يصحبه (دون بقية إخوته الغارقين في النوم) في جولته الصباحية المبكرة إلىٰ أقاصي البستان المترامي الأطراف، يرافقهما البستاني، وكلبة الحراسة «فلورا»، وكانت من نوع «لابرادو» وهي سلالة شعبية مفعمة بالطاقة والنباهة، تعدو فتسبقهم، ثم تعود فتتأخر عنهم، وكأنها إذا قدَّمتهم أمامها رحَّبت وٱحتفت بهم، وإذا تقدَّمتهم حمتهم وردَّت عنهم! والبستاني يستعرض نشاطه ويباهي بإنتاجه، وكان قد وُظِّف حديثاً في هٰذا الموسم بعد كشف سرقات سَلَفه! ويتلقَّىٰ تعليمات إزالة الخمط والعِضاء من بين الأشجار، واللبلاب يلتف علىٰ سيقانها، ويفترش أحواض سَقْيها...

هنا عرف علَّة غياب البخور وغُربته، وجهْلَ أهلَ البلدة به، والبخور في بلاده طقسٌ تلتزمه البيوت ولا تفارقه، ولا سيما في المناسبات، أو إذا تهيَّأت لاستقبال ضيف، ولا تتخلَّف عنه بعد كل وَجبة قلي أو شواء، تدور المجمرة (المبخر) في الأنحاء، تنفي الدفَر وما علق من زخمة اللحم وسهَك السمك، وتنشر في آفاقه ذكيَّ رائحته... وفي ليالي الأربعاء من كلِّ أُسبوع يضوع ممزوجاً بأدخنة "الشبِّ" و "الحرمل"، يطرد الشياطين ويستجلب الملائكة والأرواح الطيبة!

أما هنا، فيغلب الطيُّون والحبق (الريحان) والزعتر البري، تأتي غيمة من ضباب (يطلقون عليه: "غطَيْطَه")، سديم يغشىٰ الأرض، دون طِلَل، يدغدغ البدن والروح معاً، يتولَّىٰ استنهاض مكنونات هٰذه الرياحين والأعشاب، لتسري في الأُفق وتسطع، فتبعث في الأرواح، بعد المشامِّ، ما ينعشها، فإن عجزت، جاء الصنوبر، في رُخاء تهب بلين ووَداعة، تحمل عبَقه وذكيَّ عُرفه، ممزوجاً بما يتصاعد من مراجل تسخين المياه التي اتخذت من حطبه وَقوداً!... كانت تتكفَّل بتعطير وتلطيف الأجواء، فيفعم البيت بالأريج، ويكفي أن تفتح النوافذ ليدفع النسيمُ الستائر ويزيحها جانباً، ويلعب في الأرجاء كما يشاء، يحمل كلَّ هٰذا بلا مؤونة ولا عناء.

رباه كم هو مغرمٌ مهووس بهٰذه البلدة!...

إنه يرىٰ كلَّ شيء فيها جميلاً، حتىٰ ما يتصاعد من مداخن المواقد وسخَّانات المياه! وكان بعضها (التي أهمل أصحابها تسليكها وتنظيفها) يبعث سخاماً يتطاير، فيفسد ويلوِّث ما نُشر من غسيل الثياب وعُلِّق علىٰ الأسطح وفي العراء طلباً للجفاف... يراه حَسناً جميلاً!

كان «نجيب» يستحضر هـٰذه المشاهد وغيرها، ويستذكر الأجواء التي يحبُّ من هـٰذه البلدة، ولا يغفل دوْرها في تكوين شخصيته وفعلها في خلْق توَجهاته الأدبية والثقافية، ولا سيما المنفتحة، فدان لها وٱمتن...

ولـٰكن، وللحقيقة، ليست هـٰذه هي الأجواء التي يصبو إليها، ولا هي علىٰ ذلك الحدِّ الـذي يتطلَّع إليه ويتمنَّاه، ولا سيما الآن، في هـٰذه الفترة المتقدمة والمرحلة المتطورة من حياته، فلا صالونات ثقافية هنا ولا منتديات فكرية ولا محافل أدبية، لا حوارات ولا سجالات، لا محركات تذكي البحث ولا محفزات تتشعب به وتتفرع... فليس هـٰذا إذن ما يجتذبه إلىٰ «فالوغا»، ولا هو ما يعجبه فيها، ويجعله متعلِّقاً بها.

إنه اليوم يبحث عن شيء آخر فيها، يُـنقِّب عن كنز مفقود، ويتحرَّىٰ ضالَّةً يحسب أنها تجتذبه إلىٰ هـٰذه الأرض، ويفتِّش عن سرٍّ تعلُّقه بهـٰذه البقعة، وإكسير الغرام الذي ألقاه في هوىٰ هـٰذه الفاتنة... وهو بعد لا يملك لهـٰذا الكنز الـدفين خارطة، ولا يحمل علىٰ وُجوده دليلاً، إلَّا أحاسيس يثق بها، ومشاعر يركن إليها، وحدْساً أو ظناً يعتمد أو يراهن عليه، لم يخنه مرة ولا خيَّبه. من هنا تراه يحقق ويستطلع ويستكشف، كما يفعل تجريبيٌّ قابع في معمله ومختبره، وفيزيائي غارق في معادلاته وحساباته وتطبيقاته... هـٰذا "إنساني" مستغرق في التدبُّر والتأمل، مرتاضٌ ـ علىٰ طريقته ـ ينتظر إلهاماً، مُسترخ يرتقَّب "وَحياً"! لم لا؟ وفيض الله مدرارٌ متدفِّقٌ لا يكفُّ ساعة ولا ينقطع لحظة، عامٌّ شامل، حتىٰ أوْحىٰ إلىٰ النحل وإلىٰ السماء وإلىٰ الأرض، إذن سيأتيه وَحيٌ يدلُّه، وسيتلقَّىٰ إلهاماً يرشده، وسيدركه لُطفٌ يخرجه من حيرته.

إنه يريد ـ في مغامرته الجديدة ـ أن يعيش مع البلدة ويندمج في أجوائها، يبحث عن مغاوِر وكهوف في جبالها، ومعادن ومناجم في سفوحها، وحتىٰ أحراج وغياض بكْرٍ في وِديانها، يتوغَّل إلىٰ مكامنها ويكتشف خفاياها، ومن ثمَّ يستنطقها فتحاوره وتُسِر له بالإجابة بهدوء، بعيداً عن القلق والأرق، والإلحاح في الاستفهام وطلب الجواب...

ماذا تريد هٰذه المسيحية الدرزية من مسلم مؤمن " قد كان شمَّر للصلاة ثيابه، حتىٰ وَقفَت له بباب المسجد " كما يقول «أبونوَّاس»؟ تدعوه إلىٰ نفسها بلطائف الحيل، وتراوده وتجتذبه بغرائب المكائد، حتىٰ فتن الرجل وشغف، وهو الكهل الوقور؟ ما هي هٰذه النداءات والهتافات التي تتردَّد في نفسه، ولربما طرقت مسامعه أحياناً، عن موعدة تنتظره في هاتيك الربوع، وعن كنز دفين، وجدار ما زال قائماً بيد ترعاه أن ينقضَّ!؟

لا بدَّ أن يعرف مكنونات هٰذه البلدة الخفرة، والعمدة في ذلك هويَّتها وشخصيتها الحقيقية، ليتثبَّت: هل تستحق منه هٰذا التعلُّق والغرام؟ ولا سيما سرَّ هامش غير مُعلَن في علاقته معها (في صباه)، كان يحمله إلىٰ الشعور بالغربة، حتىٰ وهو يخوض كلَّ ذلك النشاط والصخَب والحيوية، والأُنس والسعادة، كان يعيش غربةً تناديه: لستَ منهم! فلم يكن كلُّ أُولئك صحباً ورفاقاً، ولا كانوا أودَّاء وأخلَّاء يصفي ويصفون له المودَّة! ولك أن تستنطق اللاشعور، لتفسِّر موقفه المبهم هٰذا من الإنسان وتجاه (لا الطبيعة وتجاهها)، كان يأخذه إلىٰ عالم خاص لا يجد الأُنس الحقيقي إلَّا فيه، ولا يخرج من غربته ووَحشته إلَّا في كنَفه ورحابه. فكأن الالتقاء والالتئام وانتظام شمل الألفة، ظاهرٌ، باطنه تفرُّقٌ وبدَدٌ وغربة وشتات.

وهـٰذا (الهوية والشخصية المعنوية) في المدن والبلدات مما لا ينكشف كلُّه علىٰ الطارئين من العابرين والزائرين، ولا حتىٰ القاطنين بعض الوقت، كالمصطافين، الذين لا يسبرون ـ عادة ـ من هـٰذا المَربَع غوراً ولا يتلمَّسون جذراً، لا يقفون فيطيلون، ولا يبحثون فيستجلون، إذ لا يربطهم به شيء، اللهم إلَّا الطقس والملهىٰ والمتنزَّه، فإذا ظهر الأفضل ووَقعوا علىٰ الأجمل، أو الأوفر والأقلِّ كُلفة، ذهبوا نحوه ويمَّموا شطْرَه ونسَوا الأوَّل... إن حقيقة البلدة وسرَّ المدينة والقرية، لا يبلغه إلَّا أهلها، من أهل البيت الذين هم أدرىٰ بما فيه، وإن تبعَهم وٱنضمَّ إليهم أحَد، فالأحبة والخلَّان، والعشَّاق الذين يلحقهم حكم أهل الأوطان.

فإذا تدبَّر الباحث في عطاء أرض هـٰذه البلدة، وأحسَن قراءة «فالوغا» وخصائص طبيعتها وبيئتها، وتفكَّر في ما يميِّز تلك الربوع، وطالَع في نتاجها، وكذا لو تأمل في تدفُّق مياهها، وينابيع هنا تقهر الصخر وتتفجَّر من الصُّم الصياخيد عذباً وفراتاً لا أُجاجاً، ولـٰكن دون أن تنساب وتجري أنهاراً، وما يتراءىٰ للغريب أنه نهر نُصبت عليه القناطر (ولا سيما بجوار عين الفوارة قرب الساحة)، هو مجاري للسيول وتصريف مياه الأمطار، وفائض الينابيع والعيون... إذا فعل هـٰذا، ٱستشعر رقَّة مخصوصة في روح البلدة، وتلمَّس "ترفاً" و "ليناً" يحكم هويتها ويغلب طابعها. ورأىٰ أن ليس في هـٰذه الأرض شدَّةٌ وعُسر وتصلُّب (يستبطن قسوة وشموساً وغلظة)، علىٰ الرغم من جبَليَّتها ووُعورتها، مما تجده في بيئات وبقاع ينشأ فيها النخيل علىٰ سبيل المثال، بل حتىٰ الزيتون، وأُخرىٰ تنتج الحبوب والغلَّات!... فكأن "خشونةً" ما، تحكم هـٰذا النتاج.

فالأرض هنا حدائق ورياض، لا حقول حبوب وغلّات... بساتين تعطي أُكلها فاكهة وأباً، وعنباً وقضباً، ولكن لا زيتوناً ولا نخلاً! هنا جنيٌ وقطاف، لا حصاد وجزاز... لست أدري، كأنَّ الزيتون، حتىٰ إذا مُلِّح (أو كُبِس كما يقال) وأُعدَّ ليؤكل كإدام، بعد أن تزول مرارته وتنقلب لذَّة، وتتبدَّل فيُستَمرأ، وكذا إذا عُصِر زيتاً، ينساب برقَّة ولين مفرط... يبقىٰ كشجرة، وكبيئة ينبت وينشأ فيها، قاسياً شديداً، وصلباً عنيداً، علىٰ عكس التفاح والكمثرىٰ (الإجاص) والخوخ والعنب.

وفي المرحلة التالية يلاحق البحث ما ينطوي في هٰذه "الرقة"، فينتزع المعاني ويكشف الأسرار ويقف علىٰ خباياها المعنوية؟ من قبيل: وأين عسىٰ للفرق أن يبرز ويظهر بين عطاء الزيتون وبركته، وبين لين الفاكهة وترفها؟ وهٰذا مما لا يدركه إلَّا ألمعيٌّ يفرز، وأوْحديٌّ يميِّز؟

لم يكن بصدد كشف عامل وعنصر جديد في الحياة والبنية الاجتماعية، ولا يريد ـ بطبيعة الحال ـ وَضع مادة مبتكرة في علم الاجتماع، ثم إسقاط ذلك علىٰ فهم البلاد والمدن والقرىٰ، مقتبساً بأنَّ الأُمم تبحث ـ في معرض مباهاتها ومفاخرتها ـ عن هوية تربطها بعمق تاريخي وجذر حضاري ونسبة تُدرجها في العظَمة... بينما الواقع يأخذ الباحث إلىٰ مجرَّد مجموعة سلوكيات وطبيعة تعاملات، هي التي تفسِّر المظاهر وتحكي عن الحال، دون تأصيل وتجذير يضرب في عمق التاريخ. كان «نجيب» في حِلٍّ من كلِّ هٰذا وذاك، متحرِّراً من أي قيد "أكاديمي" وضابطة تفرضها أُصول الفن، فهو باحث لنفسه، لا يريد مرتبة علمية، ولا يرقب شهادة، ولا يتطلَّع إلىٰ تمجيد وثناء، كما لا يطمح إلىٰ إثبات فكرة بعينها وإقامة أدلَّة عليها ونفي ما سواها...

ولٰكنَّه ـ في الوقت نفسه ـ كان يميل إلىٰ التحليل "المعنوي" إذا صحَّ التعبير، وقد وَجد له حيِّزاً في هٰذا العلم، ويريد ملاحقة الأسباب الغيبية والأسرار المدفونة في بقاع الأرض، التي تجتذب الأنفس وتستقطب الأرواح، كما تفعل المناجم في المجسات وآلات كشف المعادن.. وكما فعلت وتفعل به «فالوغا»، وهل هو لأمر شخصي، أم لِقيمةٍ علمية وحقيقة خفيَت علىٰ الناس، بما فيهم أهل البلدة وسكَّانها... هٰذا ما سيكتشفه.

وأخيراً تحققت أُمنيته...

وقد جاءت وهو ينهي كهولته ويعيش أوَاخرها، فهو يطوي العقد الخامس، ويذرِّف علىٰ الستين، قد سكنت وخمدت فيه الشهوات البدنية، ولعلَّ بعضها زال وٱنطفأ. وفي المقابل، ٱشتعلت النفسيَّة، وذكت الروحيَّة... وصارت "الحكمة" و "الرشد" عنواناً له، والعمق والبصيرة علامة ومناراً. إنه اليوم في منتهىٰ التكامل وذروة النضج، وقلَّ أن تلتبس عليه الأُمور وتتداخل فيخلط ويشطح، ولا سيَّما في تلك الشؤون التي عركها وخامرها، وصرف لها بعضاً أو كثيراً من جهده ووَقته، وشغلت فكره وٱحتلت حيِّزاً من روحه.

وبعد، فهو ينطلق من نشاط وحيوية، وما زال في بحبوحة من بأس وقوة، بل في أوج القدرة والعزيمة، في صَوْلة فكره وجولة ذهنه، لم تنل منه شيخوخة، ولا أقعده خريف العمر... فالسُّنون أنضجت فيه القدرات، وعمَّقت حسَن الصفات، وأكملت الملَكات، حتىٰ صار يُشار إليه بالحنكة، ويُشَهد له بالحكمة، ويُعرَف بالسداد.

شدَّ الرِّحال إلىٰ «فالوغا»، وقرَّر أن يقضي الشتاء فيها...

ٱستقر في منزل العائلة القديم، وهو مهجور منذ قطعت الحرب الأهلية أهله عنه... أصلح فيه قليلاً وأعاد تأهيله، رمَّم بعض ما ٱهترأ، وقوَّم شيئاً مما تداعىٰ، جدَّد طلاء الجدران، وبَثَّ الروح في أسلاك وشُرَط الكهرباء، وأدار المياه في أنابيبها ومجاريها الصحية، والغريب أنه لم يحتج إلىٰ تبديلها! ثم ٱبتاع بعض الأثاث والمتاع... حتىٰ وَفَّر فيه مستلزمات العيش بحدود لا بأس بها، وحقَّق المقدمة الأُولىٰ في مغامرته الجديدة، وبحثه الميداني المبتكَر، الذي جُلُّ الفعل فيه: الأسترخاء، في ٱنتظار الإلهام والإيحاء.

وكان لا بدَّ له أن يصطحب مُلهمته وسكَنه وأُنسه ومعشوقته: المرأة، وإن كانت وَاحدة من نسج خياله وصنع بنات أفكاره، ما يتمثَّل ويحاكي الأُنثىٰ التي يتمنىٰ ويريد... وهـٰذا من غريب حالاته وعجيبها، فعلىٰ قدر حدَّته وشدَّته في تقييم المرأة والنظرة إليها (حتىٰ أخرجها من عداد البشر!)، تراه عاشقاً لها، هائماً بها، مفتقراً إليها، غيرَ مُستغنٍ عنها، تحت أيِّ ظرف وعلىٰ أية حال! بل هو ضعيف مغلوب عاجز أمامها، وإن دارىٰ كلَّ ذلك ببأس مُصطَنَع وعزيمة مدَّعاة وقوة مزعومة! فيجد بعضهم أو بعضهن فيه قسوة وحِدَّة، فتصنِّفه إحداهن في التطرُّف أو تصفه بالغلظة والشدة، ولـٰكنها شِدَّة من تلك التي يتكفل تبسُّمٌ عابر بالكاد يفتر عن ثغرها بإطفائه، بل تكفيه غمزة أو إسبال جفن وأهداب من عينٍ تحكي الأستسلام لكبريائه، والخضوع والٱنقياد لقهره وسلطانه (وقل إن شئت طغيانه!)، وإن كانت كاذبة محتالة (ومع علمه بذلك!)... تكفي أن تأخذه ليستبين "رشده" وتعيد إليه "صوابه"، فيرجع طوع بنانها ورهن إشارتها، ولـٰكن، الخفية غير المعلَنة، والمواربة لا المباشرة!

في يوم شتاء قرُس فيه البرد وصار يلسع، ولست أدري لِمَ كان العرب يلفظونها بالسين، يقولون: بردٌ قارس، لا قارص، وهو ما عليه أهل اللغة، خلافاً للشائع الذي نسمع، والمتداوَل على الألسن، فالقرص هو الأخذ بأطراف الأصابع (السبابة والإبهام) بشدَّة على موضع في الجسم، وهذا تمام ما يفعله البرد، لكن المعاجم نصَّت على السين.(١)

هكذا أفتى اللغويون، ونحن مقلِّدون، وهل لنا غير ذلك؟ حتى يتألَّق "علم الألسُنيات" الذي يجمع المنطوقات واللغات، فيبتدع من جذورها فقهاً، ومن مناسبات الوَضع قواعد جديدة، ومن ألحان الأصوات ونغماتها، ما يغيِّر في هذا الموروث القائم... ودون ذلك، دون هذه النهضة والبناء الجديد، يكون التغيير في اللغة خطأ، بل جهالة تقفز على العلم والتخصُّص، وسفاهة تخلط وتخبط.(٢)

كان البرد قارساً ولكنه منعش، يورث نشوَة ويبثُّ أُنساً غريباً لا يأتيك من غيره، وقد بدا، على الرغم من صرده، محمولاً يطيقه حتى كهل مثل «نجيب»، وإن خرج من داره وفارق المدفأة وافترش مقعداً في الطريق، ويكفيك أن تتنفَّس وتنفخ شيئاً في يديك، "تكهْكِه" كما يقولون، تفرك راحتيك، لتسخن ويزول عنك شفيف البرد، ولا تعود تكِزُّ وتتقرقف!

---

(١) جاء في (المختار): قرس الماء جمد، فهو قريس وقارس. وفي (الوسيط): قرس البرد قرساً: اشتدَّ... والقارس: البرد الشديد، ويقال: أصبح الماء قارساً: بارداً برودة شديدة. والقارص: اللبن يلذع اللسان... إذن، قل: برد قارس، ولا تقل: برد قارص.

(٢) بالمناسبة، هذا التطوير في اللغة مما يقع ويكون، ويبحث عنه في علم اللسانيات أو الألسن في قسم اللغويات التاريخية، والذي يدرس تغير اللغة (أصوات الكلمات ومعانيها وتراكيب الجمل) عبر التاريخ وتحليل أسباب تلك التغييرات اللغوية.

لم تكن هناك رياح، لا صَبا ولا شمال، لا دَبور ولا نكْباء، وقد صفت السماء، فلا غيوم ولا ضباب، اللهم إلَّا غدوَاتٌ باردة وسبَراتٌ لا يكفُّ عنها الشتاء هنا أبداً... بردٌ وصقيع، بلا زمهرير حارِق، مع شمس ساطعة أخذ دفؤها يُذيب ما جمد وتجلَّد من الندىٰ علىٰ الأشجار.

ٱتخذ مقعده علىٰ قارعة الطريق الخالية، دون أن يخشىٰ الأضياف، أو يحذر مَن يخرجُه من عالمه الخاص ويتوغَّل في النطاق الذي رسَمه حوله، فبالكاد يفِدُ غريبٌ هنا، والسكَّان معدودون معروفون، لا سبيل لهم إليه، اللهم إلَّا إذا بادَرهم هو وعمد إلىٰ الٱحتكاك بهم وطلب الحديث إليهم، وهم من اللطف والأدب الجمِّ ما ينفي الٱنزعاج منهم، بل لرُبما عمَد إلىٰ التوَاصل معهم في محطَّات ٱستراحته من القراءة والكتابة، كلَّما هفا قلبه وٱعتدل مزاج نفسيته، فٱستعان بهم في رفد فِكره بإيحاء، وٱتخذ من محاورتهم ثِقاباً لشرارة إلهام، يتجاوز بها المقاطع المعسرة والمواضع التي يحجم فيها قلَمه ويحرُد، وتصوم بكرة أفكاره وتمرس...

كان متنحياً نائياً عن درب المركبات القليلة التي تمرُّ بين الفينة والأُخرىٰ، بتباعُدٍ كتقاطُرٍ يؤذن بٱنقطاع، وهي تنحدر قادمة من «عين الصحة»، يسلكها مَن يريد الهروب من ٱزدحام طريق «ضهر البيدر» الدوليَّة، فيلجأ إلىٰ المنافذ الخلفية المتعرِّجة، التي تسلك به طويلاً بعض الشيء، لكن دون كظيظ مُرهق وتعويق مضجِر، تقدم نزولاً إلىٰ " الساحة " ، بعد أن تمرَّ علىٰ مبنىٰ البلدية الأثري، وتجتاز في طريقها «عين السيدة» التي بُنيَت عليها كنيسة للروم الكاثوليك. فتعجب من قدرة الشاحنات الضخمة سلك هٰذه الطرق الملتوِية، وبعضها أقرب إلىٰ الأزِقَّة!

كانت الشمس تتخلَّل دوْحة رَداح، رَبوض معمِّرة، تنتصب بالكاد، كٱمرأة هَرِمة درماء، ناهد عجزاء، وقد ٱختار لمقعده موقعاً يلتمس فُرجة لا تقع عليها ظلالها الوارفة، يطالها سطع الشمس، لتبعث الدفء في بدنه، وفي أصابعه، فيتمكَّن من قلمه، ومن لوحة المفاتيح في "اللابتوب"، ليعزف عليها ألحانه التي لا يعتمدها ويخرجها من "المسودة" إلىٰ "المبيضة"، حتىٰ تُطربه، وتعتريه منها نشوة وخفَّة...

وَضع «جورج» الفنجان أمامه، وقد أدار عروة مسكته تجاه يمينه ليسهل تناوله، وهو صامت، إذ رآه مستغرقاً في الكتابة، فقد التزم عدم مقاطعته في تلك الحالات حتىٰ بتحية الصباح...

فوجئ بلحن كويتي قديم يأتي من داخل الحانوت الفقير بسِلَعه، وهو يقع علىٰ الطريق العام الذي يشقُّ البلدة، قادماً من «قرنايل» أو متوغلاً من «الخلوات»، فـ «الشرشارة» تجاه الساحة، ثم يمتدُّ ليخرج منها نزولاً إلىٰ «حمانا»، وإن شئت ٱنعطفت قبلها تجاه «صوفر» و«نبع الصفا»، فقُرىٰ جبل «الشوف»... والحانوت الذي يستضيفه كلَّ صباح في ميعاد غير مضروب، فإذا تخلَّف عنه أكثر من نصف ساعة، جاءه ٱتصال يسأل عنه ويتفقَّده، وَرثه صاحبه «جورج» من أبيه «حنَّا»، وكان جمع من المصطافين الكويتيين في السبعينيات يتخذونه "ديواناً"، يرصُّون مقاعدهم أمامه في خطٍّ أُفقي، مفرِّطين في تلاقي وُجوههم وٱستقبال بعضهم أثناء تبادلهم الحديث، في سبيل توفير الرؤية المباشرة، فلا يصدُّون عن الطريق، فيُحرَمون النظر إلىٰ سالكيها من الفتيات، اللاتي يذرعنها جيئة وذهاباً في كلِّ عصرية، ولا سيما ساعة خروجهن من «سينما دنيا»...

كان في مكانه المعهود، وقد ركز مقعده أو "كرسيَّه" وأقام "عرشه" على الرصيف الذي لا يتجاوز عرضه متراً ونصف المتر... حين جاءه صوت «عبدالله الفضالة» عبر مسجِّل أو حاسوب يشدو:

طال هجر الحبايب وعذاب العليل
أيَّس القلب منه وابخلَوْا في دواه
كل يوم(ن) يجيني أترجى الخليل
واقول يعطف على إللي ميتٍ في هواه
ساهر(ن) واتقلَّب والمدامع تسيل
زاغ قلبي وأنا متعذب(ن) في رجاه
في جفا من جفاني شلت حمل(ن) ثقيل
والقضي ما درى بي ليت قلبي نساه

والملفت أن اللحن لم يشكِّل نشازاً ولا أوْرث مع هذه البيئة نفرة ولا خلَق تضادّاً! لا في أُذن «نجيب» المرهفة المتذوِّقة، ولا في هذا الفضاء والمحيط الغريب عنه... هل هو سحر الموسيقى وعالمية لغته الفاتنة، أم شيء آخر من خصوصية اللحن والصوت والأداء؟ انساب برِقَّة وسرى بخِفَّة، وفعل فانفعل في الأنفس طرباً وبهجة، وقرع الأسماع فترنَّمت وانشرحت، وهو القادم من «الكويت»، البيئة البحرية التي تستمدُّ جُلَّ نظارتها الفنيَّة ونداوتها على هذا الصعيد مما يردها من موانئ «فارس» و«الهند» و«أفريقيا»، وبعض القادم من شمالها، مصب النهرين العظيمين: «دجلة» و«الفرات»، في «شط العرب»، ومن «البصرة» وإقليمها الذي يمتدُّ إلى «الزُبير»، مرفد هجرة شريحة كبيرة من السكان.

وإن ٱنفصلت هـٰذه البيئة عن التأثُّر بغيرها، وخُلِّيت وطبعها، فما هي إلَّا ملتقىٰ خليج ساكن (لا بحر هائج ولا محيط متلاطم)، وشواطئ وَادعة هادئة، بصحراء جرداء قاحلة، حتىٰ من الكثبان وغزير الرمال، إلَّا في ما ندر، مجرَّد أديم يغلب عليه ما يشبه فتات الحصىٰ والمدَر، وأتربة، تعصف بها الرياح فتهيج نقعاً يحجب الرؤية كما يفعل الضباب في الجبال!

من هناك صدر صوت «الفضالة» الرخيم، وٱنبعث في فضاء «فالوغا»، فجاء لـجَبُ موْجه ولفْحُ هجيره منسجماً مع نفح الصنوبر وعبق الطيُّون! وكان عصف زوابعه بما تثير من عجٍّ وغبار، تفقأ التراب وتخطُّه علىٰ شوارع المدينه وبيوتها فيَعْلو كلَّ شيء فيها، وكأنها غاضبة من محاولات التمدُّن، معترضة علىٰ مساعي التحضر هنا! غير متنافر مع الصُّراد والدَّمَق، بما تحمل من ثلج ومطر، بل يلتقي مع النسائم والرخاء وإن بلغت الزفيف. وقد حلَّ متَّسقاً مع صرير «الجُدجُد»، الذي يُعرف بـ «صرَّار الليل»، وهو من الجنادب، إن حملته علىٰ الجراد، وإلَّا فهو من الصراصير وصوته " العرير " ... تعزف لحناً سيمفونياً [(١)]، أو تنشد إنشاداً جماعياً!

صِياحٌ موزون وهتافٌ وَاحد متكرِّر، ينخفض حيناً ويعلو آخر، يأخذ الفضاء ويغلب المحيط كلَّه، لـٰكن دون إزعاج، يصنع خلفية للمشهد، ويفرش أرضية لكلِّ متأمِّل في هـٰذا السكون الذي تتصارع فيه الطبيعة الخلَّابة مع توَغُّلات الأبنية العصرية، التي تعطَّلت وٱنحسرت سنيِّ الحرب الأهلية، حين هجر البلدة جُلُّ أهلها... ورُبَّ ضارَّة نافعة!

---

(١) " Symphony " ترجع إلىٰ " Sym " باليونانية، وتعني " together " أي " معاً "، ولفظة " phone " وتعني " صوت "، فيكون التركيب " Sounding Together "، وأقرب ترجمة لها بالعربية هي " إنشاد جماعي ".

كـان «جـورج» يحييه بـأُغنيـة من "الـزمن الجميل"، كـما عنـوَن مغـذٍّ للبـاحث الألكتروني «غـوغل»، مما يـوافق عُمْـر «نجيب» وفترة عـاشها، ٱفترض الرجل وحسِب أنَّ الحنين يُعاودُه إليها...

أُخِذ «نجيب»، ولم يدرِ ما يقـول... كيف له أن يشرح ما يفعل الغناء وينال السماع من "مشروعه" الروحيِّ وخطَّته في خلوته هـٰذه، وأنه حجاب وظُلمَـة، تطال الصفاء الذي يسعىٰ إليه كمقدمة لتلقِّي الحقائق، والكشف والفيض الـذي ينتظر؟ وهو بعد هـٰذا، لا يـريد أيَّـة مؤثرات خـارجية، تتجاوز البيئة والطبيعة ومعالم هـويَّة هـٰذه البلدة... لاحَظ الرجل الكدَر وبعض ٱمتعاضٍ ٱرتسم علىٰ وَجه «نجيب»، فٱستفهم عن ذلك؟ فأجابه بأن الأُغنية أعادته إلىٰ أجواء وجدَّدت عليه ذكريات يحاول نسيانها، وقد أصدقه القول ولم يجانب الحقيقة، فاللحن والأغنية تنقل المستمع إلىٰ أجواء، كما العطر، يستعيد عهداً كان يعيشه معها. فهمها «جورج» حبّاً مضىٰ تعيد الأُغنية ذكراه، ولم يتصوَّر أن صـاحبه يريد أن يـزكِّي روحه ويخلصها، وعنده أن السماع يكدِّرها ويلوِّثها، وفي الأقلِّ الأدنىٰ ينال من صفـائها ويحمِّلها ما لا تطيقه الأجـواء التي هـو مُقبل عليهـا!... بـادَر «جورج» وعمد إلىٰ تغيير الأُغنية! وعـاد إلىٰ «الرحابنة» و«فيروز» التي يفترض أن لا خلاف عليها ولا نزاع فيها!:

يـا كـرم العلالي عـنقـودك لِـنـا
ويـا حلـو يـا غـالي شـو بحبَّك أنـا
عـالنهـر الـتقينـا ومـا قلنـا لحـدا
وتـركنـا عـينينـا تحكي عـالهـدا

سـمَّعـنـي حـكـي، قلِّي شـــو بـكـي؟
وطلعلي الـبـكـي يــا دلِّــي مـن كـتر الهـنــا
عـــالـــدرب الــطـــويلي ودَّاني الهــــوىٰ
بـــإيـــدو وِمـيـلي تـــا نـمـشي ســـوىٰ
صرت بـلا وَعـــي، شي يـقـلِّـــي تـعـــي
وشي يـــقـــلِّــــــــي ٱرجــعـــــــــي
والـــــدني عــــرفـت شــــو بــنــــا
وَاعــــدني حـبـيـبـي، لِــمْ بـــدُّو يجـي
بــإســوارة غــريبي وعقــد بـنفـسجي
وَاعــدني بقـمــر، وبــشــويَّــة صــوَر
وبــاعـت لي خبر بيقلِّي المــوسم عــالجنـا
وعاوَده: منيح هيك!؟ فأجابه: شأنك... أنت حُرٌّ يا صاحبي.

حاول أن ينصرف إلىٰ لوحة أو صفحة الحاسوب، فلم يقدر، نحَّاه جانباً وأفسح في المنضدة مكاناً للورقة والكتابة... لـٰكن اللحن «الرحباني»، والصوت العذب، والكلمات، أبت عليه إلَّا أن يشعل سيجارة، ويسبل جفنيه بغفوة عشق وخدَر نشوة! ٱبتسم «نجيب» وهزَّ رأسه بلسان حال وعتاب: ماذا فعلت يا صاحبي؟! وردَّ عليه «جورج» الٱبتسامة، وقد فهمها موَافقة وتلقَّاها إذعاناً ورضىً، فمَن يملك أن يعترض علىٰ «فيروز» ولا سيما في وَاحدة من أرقِّ ما غنَّت وأكثر ما شدَت رومانسية؟ وصاحبه مرهَف الحسِّ هـٰذا، هو أجدر مَن يثمِّنها وخير مَن يُقدِّرها؟! ولا سيما بجذور له تضرب هنا، تعود به إلىٰ الطفولة والصِّبا.

أراد أن يخرج من سكرته، فقال: دعني يا «جورج» وأوراقي، وهٰذه الآلة (اللابتوب) التي أصبحت ذاكرتي وعقلي المنفصل (يقولها علىٰ نحو التهكُّم بطبيعة الحال)، وغدت جليسي الذي لا يملُّني، وصديقي الذي ما زال يعينني ويوفر عليَّ الجهد والوقت، ولولاه ـ بما حُمِّل من مصادر ـ لما أمكنني السفر ومفارقة مكتبتي. وكان قد ترك ٱستعمال القلم منذ أمد، اللهم إلَّا لتدوين الملاحظات وتسجيل الأفكار وما يَعبر في الذهن ويخطر بالبال، ثم يرجع إلىٰ "اللابتوب"، وهناك يعدُّ أعماله ويتمُّ تأليفاته، طرْقاً علىٰ المفاتيح وقبضاً علىٰ الفأرة!

طلب فلجاناً [(١)] ثانياً من قهوته التي ٱعتاد، وهي صرف بلا مزاج (فالسكر يفسد مرارتها اللذيذة)، تعلوه رغوة و "وَجه"، فهو لا يطيقها غلَت وتقلَّبت وطبخت في الركوة [(٢)]. وله مع هٰذه الرغوة والوَجه الطافي (وبالعامية: "الأشوة" وهم يقلبون القاف همزة، فهي "قشوة") [(٣)] قصَّة وحكاية، تدور مع كل فنجان يتناوله، يحاول أن يُبقي عليها فيرتشفها قبل

(١) قال «الزبيدي» في ‹تاج العروس›: من هنا يؤخذ قولهم للظَّرف المعدِّ لشرب القهوة وغيرها "فلجان"، والعامة تقول: فنجان، وفنجال، ولا يصحَّان. لٰكن «الأزهري» قال في ‹تهذيب اللغة›: والفِجَّانُ هو مقدار للماء إذا قُسمَ بالفجَّان، وهو معرَّب، ومنهم من يقول فنجان، والأول أفصح.

(٢) آنية إعداد القهوة، وهي عامية، وإلَّا ففي الفصحىٰ الركوة إناء صغير من جلد يُشرب فيه الماء، والجمع ركَوات، ورِكاء.

(٣) في ‹لسان العرب›: القشوانة: الرَّقيقة الضعيفة من النساء. والقَشْوة: قُفَّة تجعل فيها المرأة طيبَها، وقيل: هي هَنة من خوص تجعل فيها المرأة القطن والقزَّ والعِطر، والجمع قَشَوات وقشاء. والقاشي في كلام أهل السواد: الفَلْسُ الرَّديء. وفي ‹العين›: قَشَوْتُ القضيب: خرطته، وأنا أقشوه قشواً فأنا قاش وهو مَقشُوٌّ... وعليك ـ عزيزي القارئ ـ أن تكتشف الوَجه في ٱستعمال العامية اللبنانية هٰذا الإطلاق!

أن تتبدَّد، فهي ما يقابل فَرَاش النبيذ (وهو الحبَب الذي يطفو عليه)، يتحسَّاه ويتمزمز ما يخالطه من بقايا حبِّ البُنِّ إن خشُن طحنه... فالرغوة لا تلبث أن تنزاح إلىٰ محيط الفنجان أو ترسم هلالاً في جانب منه، ثم تضمحل وتفنىٰ إن لم يبادر إلىٰ رفعه نحو شفتيه، فيفعل بحذر، خشية لذع سخونته. وهو رهان يخوضه و " لعبة " لا ينفكُّ يمارسها مع كلِّ فنجان، يملأ بها فراغ ٱستراحاته من القراءة أو التدوين والكتابة، ولٰكنه ما فتئ يخسرها ويهزم، فما هي إلَّا لحظات حتىٰ يضمحل " الوَجه " وتزول " القشوة "، ولا سيما إن لم تتعادل كثافة القهوة، ولم تكن غليظة خاثرة كما يجب، حين يغلِب مقدار الماء اللازم فيها البُنَّ، فتكون خفيفة، تائعة مائعة، ولربما أساء الحركة، لخدَر يغشىٰ يده وٱمذِلال يعتريها، فلا يُحكِم توازنها وثباتها، فيهتزُّ الفنجان ويقع المحذور!...

بالله ما هٰذا اللهو والعبث؟

ما هٰذا الهدر والسرف؟

أين يذهب بي الفكر ويشطُّ؟ وتأخذني الأهواء فتحلِّق وتحطُّ؟

والمقلِق أنها حالة أخذت تتكرَّر في الفترة الأخيرة، بل صار «نجيب» يلاحقها ويطلبها، ثم يستقبلها ـ حين تأتي ـ بترحاب، وقد توسَّع نطاقها وتعدَّدت صوَر العبث واللهو، (وقُل إن شئت صوَر ما يقود إليه العجز، وتفضي الحيرة، ويفعل اليأس)، وتخطَّت ملاحقة وَجه فنجان القهوة، إلىٰ مجالسة العجائز ومفاكهتهن، والهذر والهزل مع كلِّ طارق ووَارش، حتىٰ التسلية ـ كما الأطفال ـ بالألعاب الألكترونية!...

وفي قراءة أُخرىٰ، تعرض لمن يراقب المشهد من زاوية مختلفة، يُسجَّل الأمر كحِراك خيرٍ وأمارة صحَّة وعلامة عافية! فكأنَّ النفس تخلي ما دخَلها ونالها من لوْث، وتكافح لتُزيح ما ٱعتراها ونزَل بها من سُقم، ولا سيما من آفة الكِبر وداء الغرور، والتعالي علىٰ الآخرين، والنظرة الدونيَّة التي يلقاهم أو يرمقهم بها، يستصغرهم لضحالة درجاتهم وسطوحهم العلمية، ويحتقرهم لتوَاضع رتبهم المعرفيَّة، ثم لغفلتهم عن عالم الحقائق، وٱنشغالهم وٱستغراقهم بالتافه الحقير دون العظيم الجدير!

ولعلَّ هٰذا الخير أدركه وسيق إليه كثمرة لممارسات كان محروماً منها، وغير مُوَفَّق لها في وَطنه، لٱعتباريات و "شأنية" تمنعه، وتقيِّد تصرفاته، وتضبطها وتحدِّدها في مجتمعه، أقلُّها الخشية أن تُحمَل علىٰ غير ظاهرها، فتفسَّر وتؤوَّل إلىٰ وُجوه أُخرىٰ... وهو هنا في حِلٍّ من كلِّ تلك القيود، ينطلق مما تمليه قناعته وتتطلَّبه روحه، فيجالس هٰذا ويزور ذاك بلا حرج، ويخوض مع آخر بلا غضاضة، ويسعىٰ في حوائج الناس، يصِلهم ويخدمهم، لا يخشىٰ ٱتهاماً بالرياء والسمعة، ولا يحذر طعناً في الهدف والنية، ولا غمزاً في سعيه لبناء شعبية، ولا يتجشَّم عناء التماس حُجج وعرْض تبريرات تحول دون جدال ومراء حول سلوكه وممارساته، فالقريةُ ببساطة أجوائها، والغربةُ بمعطياتها، تفسح له وتوفِّر محمَلاً بعيداً عن كلِّ هٰذه المماحكة...

كان يقوم بكلِّ ما يكسر نخوَته ويصغِّر نفسه ويلقي عن كاهله رداء زهوِه وعُجبه، ويروِّض العتوَّ والتجبُّر والتكبُّر، فيعود قريباً من التواضع والتذلِّي، والإغماض والهوادة، والخضوع ولين العريكة... وكأنها مرحلة وطوْر قادته إليه يد الغيب، وهبة ونعمة غير مرتقبة جاءته من السماء.

لا بد أن ينقىٰ من هـٰذه الآفات ويخلص، يُهذَّب ويتأدَّب، فهـٰذا القادم المرتقب لا يحلُّ في شامخ منتفخ، مختالٍ تيَّاه، حتىٰ تُكسر نخوته، ويُنكس سامي بصَره، ويقوَّم صَعَره! فيتضاءَل ويتقاصَر وهو يرىٰ كيف دخل في هـٰذا العِداد، وصار من الذين تزدري عينه وتحقِّر نظرته!

ها هو السهم يأتيه من كنانته، والضربة من سيفٍ طالما شهره وعلا به الناس، يجرح ويخبط: هـٰذا جاهل، وذاك تافه!...

كان يُلاحق وَقفات ويروم حالات يكون فيها خالي الذهن، ويجهد أن يمضي في سكَنَات (قد تطول) بلا تفكير، وإن عزَّ ذلك، فالتفكير في " اللاشيء " و " الفراغ " .. يشعر أنَّ هـٰذا يورثه صفاءً يحتاجه لتلقِّي ما سيأتي وٱستقبال ما سيلي، شيء من فرش الأرضية وإعدادها لِوَضع ورَصِّ الجديد، وتمهيد التربة وبسطها لغرس القادِم وزرعه، ولا شيء أفضل من تربة بِكر، وفضاء خالٍ، وساحة فارغة وميدان جديد...

هـٰكذا كان يتلقَّىٰ ذلك اللهو ويوجِّهه ويفسِّره...

ولا سيما حين صار يلمس آثاراً غريبة لهـٰذا السلوك، وأخذ يشعر بمردود كبير ونتاج مبهِر لم يكن ينتظره! لـٰكنَّ الدافع في البدء كان ـ ومضىٰ إلىٰ حين ـ علىٰ غير هـٰذا التبرير العقلائيِّ لذاك السلوك السفهائي! كما كان يعبِّر أحَد الأعاظم عن التدخين بأنه: " عادةٌ سفهائية ٱعتادها العقلاء " ! وقد بدأت الحالة تعتريه عندما أصبح يشعر ـ هنا في خلوته ـ بالملل والسأم، ثم الضجر، وبالحاجة إلىٰ بعض التسلية والعبث، وصار يفتقر إلىٰ اللهو واللعب! شيء ينفكُّ به من قيود تُلزمه، وأُخرىٰ التزمها طوعاً وفرضها علىٰ نفسه خياراً...

وها هي التجربة تثبت أنه لا يطيق الٱستمرار في الجديَّة والمداومة في السَّعي أبداً، وأنَّ الحقائق العلميَّة (النظرية والعمَليَّة، وكذا العلميَّة التجريبية، أو المتعلقة بالعلوم الإنسانيَّة)، أمرٌ عزيز المنال بعيدُ المرام، وَعر المرتقىٰ عسير المبتغىٰ، وأنَّ عليه ـ بعد السَّعي ـ أن ينتظر الإلهام والوَحي، ويرتقب "اللحظة" ويأمل الفيض، ويتوقَّع الإشراقة التي تكشف له الحقيقة، وتبلغ به مبتغاه وتهبه ما يريد.

فهل هي حالة تُعزىٰ إلىٰ عجز شخصيٍّ فيه، وخوَر وسقوط همَّة يعاني منه؟ أم هو داءُ سائر الباحثين العاكفين علىٰ دراسات، يأتيهم من طبع بشريٍّ غالب؟! ثم هل هو من وَساوِس الشيطان ودوَاعيه إلىٰ الكسل (مع التبرير له)؟ أم شيء أشبه بالخدر العام الذي يلجأ إليه الطبيب ويطلبه في البدن قبل مباشرة عملية جراحيَّة يعمل فيها المبضع، يشقُّ الجلد ويفري اللحم، ويطال الأعضاء الداخليَّة؟!

هل هي محطَّات ضرورية لتوريث السكون و "الغفلة" و "الخدَر"، تدفع إليها النفس من مناطق اللاوَعي، تهفو وتنزع لتحقّق شرائط مطلوبة لوُرود قادمٍ عزيز، وٱنكشاف غيبٍ خطير؟! شرائط لا بدَّ منها، أهمها التسليم، فهٰذا الآتي لا يطيق النبْوَ والعصيان والعنَتَ والطغيان، ولا يحتمل العصَل والعضَل، فهو لا يأتي ـ إن أتىٰ وجاء ـ إلَّا لمن ألقىٰ الزِّمام وأسلَم القياد، فإن كانت في النفس بقايا من كِبر وعناد، روِّضَت بالوقوف علىٰ عجزها، وطُوِّعت ببيان ضعفها، وما أخذها إلىٰ هٰذا السكون والخدَر، وإن حكىٰ في «نجيب» نشوة سُكر وغفوة صبابة!

وهٰذه رُسل القوم تتعاقب، وعلامات "الحالة" تترىٰ وتظهر...

ولم يكن «نجيب» يشكو مجرَّد سأم وضجَر، ولا وَحشةً لٱنقطاع ووَحدةً من فراغ فحسْب... بل كان يعاني من إرهاق أصبح يتملَّكه في بدنه وجوَارحه، وقد توغَّل منها إلىٰ جوانحه، أو أنه تسرَّب وتسلَّل من هٰذه إلىٰ تلك؟ لم يكن يدري، إنما هي حالة كانت تنتابه وتنزل به من الرهق، وتذكِّره دائماً بما حكته الآية علىٰ لسان «الكليم» مع «يوشع بن نون» عليهما السلام: ﴿قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾، وشتَّان بين نصَبٍ ونصَب، ثم غداءٍ وغداء! ولعلَّ هٰذا الرهق أوْرثه بعض الألم في ذراعه وعضده، وأخذ يسري إلىٰ ركبتيه ومفاصِله، فنزل به "الروماتيزم"، فلزمه مزيد تدفئة، وحذرٍ وحيطة من البرد والرطوبة.

لقد طال به المسير وأخذه ونقله من الأُنس إلىٰ المعاناة، وها هو يُجهِده ويُضنيه، حتىٰ يكاد ما قطَعه في هٰذه الأسابيع الأخيرة، يفوق في عِبئه وثقله، ثم في عطائه ونتائجه، ما طوىٰ في سنين!

أثَّرت به الخلوة وأثمرت العُزلة...

فبدأت الإشارات تظهر، والوَمضات تلمح، والبوارق تلوح...

صار يسمع أمراً في نشرة الأخبار المسائية، ويحضر مَشاهد لأحداثٍ مصوَّرة تنقلها محطَّات التلفزة والقنوات الفضائية، ثم لا يجد لهٰذه الأخبار والأحداث ٱنعكاساً وأثراً في اليوم التالي؟! تغيب عن التداول، ولا تذكر تواليها وتبعاتها، ولا يتحدَّث أحَدٌ عنها، فكأنها لم تقع ولم تكن ألبتَّة! فيشكُّ الرجل في نفسه، ويتردَّد في أصل الأمر، ويحسب أنها رؤىً ومنامات، ولا سيما حين يتصفَّح الجرائد ويستقصي الأخبار من مصادرها، ثم يعود ليسأل «جورج»، فلا يجد أثراً لما سمع ورأىٰ!

ظنَّ لوَهْلة أنه يرىٰ أشباحاً من غشاوة، ويسمع وَهماً من وَقْر، شيء من رجع أحاديث دارت بينه وبين نفسه، وصدىٰ نداءات تردَّدت من قبل وعاشها في خاطره، ثم صوَر غلبت ضعف نظره، أو عرَضت من إهمال مسح وتنظيف عدسة " نظَّارته "، أو خلطه بين تلك التي للقراءة بالأُخرىٰ التي تعالج قُصر النَّظر!... لـٰكنه وَقف بعد ذلك بكامل قواه وكلِّ وَعيه وفهْمه، علىٰ حقيقة ما صار يرىٰ ويسمع، وعاش بالوُجدان أحداثاً لا سبيل إلىٰ جحدها، وتلمَّس بالحسِّ، وعلِم وتيقَّن، وما عاد للشكِّ والظنِّ محلٌّ في نفسه ولا موقع في فكره... لقد شفَّ الرجل ورقَّ حتىٰ دخل في " الكشف "، وصار يرىٰ بعض المغيَّبات! يستبق الأحداث ويتنبأ بوقوعها، بل يرىٰ بعض الصوَر عنها، وتحضره مَشاهد (ستقع) في المستقبل، فلا تلبث وَسائل الإعلام بعد أيام، أن تنقل وتتداوَل ما رآه من أحداث، أو سمعه من أخبار!

ولـٰكن، يبدو أن " اللحظة " و " النقلة " جاءت في غير أوَانها، وأنَّ هـٰذا الجنْي والحصاد حلَّ في غير موسمه، أو أنَّ «نجيباً» لم يكن من أهله، تساقط بين يديْه جنياً، وهو لم يرقَ بعدُ إلىٰ رتبة تناوُله...

هـٰكذا تكون " البارقة " لغير المرتاضين بسير وسلوك، و " الجذبة " لغير المنقطعين إلىٰ تهذيب وتزكية، الذين لم يفرغوا من العمل علىٰ تعادُل القوىٰ في أنفسهم، وتوازنها في أرواحهم، ما زالوا يعيشون " الأنا " وينشغلون باللذات ويلتفتون إلىٰ الحطام... تأتي هـٰؤلاء لسبب غامض وعلَّة مُبهمة، أو لموقف خالِص وأداء مخلص كان منهم يوماً أو مرَّة، أوْجب لهم مقابلاً، التزمه أولياء النعم تكرُّماً وتفضُّلاً.

يـرقىٰ بمَن يهبط عليهم ويأخذ بأيديهـم إلىٰ منزلـة عـالية، يـدفعهم ويسمو بهم إلىٰ رتبة متقدِّمة... ولـٰكن دون أن يحقِّق لهم تمام المنىٰ ويبلغَ بهم كامل المراد! لذا، أخذه الحدَث وأبقاه في نطاق محدود، قد يكفيه إلىٰ حين، ويناسب رتبته الروحيَّة ودرجته المعرفيَّة، فإذا ٱرتقىٰ من بعدُ وسما، أُلحق بما يليق به، وأُسعف بما يحتاج إليه، وإن لم يستنزل الفيض ٱستحقاقاً، فسيأتيه ـ كما جاءه الآن ـ تكرُّماً وإفضالاً.

جُل ما سمح به "الكشف"، وأتاحته له النقلة والطفرة الخارقة، كان التسجيل والتدوين، كمؤرِّخ أو رحَّالة...

ويبدو أنَّ هـٰذا هو غرض الذين ٱنكشفوا عليه وحضروا لَدَيه، أرادوا للحدَث أن ويُوثَّق ويُنقَل، لحكمة وغاية يدركها أهلها.

• • •

(٢)

معراج إلى الأرض!

كان يحسب أنَّ القمر ينزع ليفارق «الذراع»... إحدىٰ منازله الثمانية والعشرين التي يقطعها خلال دوْرته حول الأرض في الشهر، يجتاز في كلِّ يوم منزلة ويحلُّ في أُخرىٰ.(١)

(١) تقسَّم منازل القمر (وتسمَّى نجوماً) وَفقاً لمواقع الأبراج علىٰ النحو التالي:

* منازل في بروج «الحمَل» و«الثور» و«الجوزاء»:

١/ «النطح» أو «الشَّرَطان»، تقع في الخامس من أبريل: نجمان هما قرنا الحمَل.

٢/ «البُطين» (١٨ أبريل): ثلاثة نجوم في بطن الحمَل.

٣/ «الثريا» أو «النجم» (الأول من مايو): عدة نجوم تشكل إلية الحمَل.

٤/ «الدَّبَرَان» (١٤ مايو): خمسة نجوم تشكل سنام الثور.

٥/ «الهَقْعة» (٢٧ مايو): ثلاثة نجوم فوق منكب الجوزاء.

٦/ «الهَنْعة» (التاسع من يونيو): نجمان علىٰ منكب الجوزاء الأيسر.

٧/ «الذراع» (٢٢ يونيو): نجمان يشكلان ذراع الأسد.

* ومنازل في بروج «السرطان» و«الأسد» و«السنبلة»:

٨/ «النَّثرة» (الخامس من يوليو): نجمان يشكلان أنف الأسد ومنخريه.

٩/ «الطَّرْف» (١٨ يوليو): نجمان هما عينا الأسد.

←

يقول «الزبيدي» في ‹تاج العروس›: وهو ذراع الأسد المبسوطة. وعن ‹العُباب› أنه: ذراعُ الأسد المقبوضة. وللأسد ذراعان: مبسوطة ومقبوضة، وهي التي تلي «الشَّام»، والقمر ينزل بها، والمبسوطة: التي تلي «اليمن»، وهما كوكبان بينهما قَيْدُ سَوْط، وهي أرفع في السماء. سُمِّيَتْ مبسوطةً لأنها أمَدُّ من الأُخرىٰ، وربما عَدَلَ القمر فنزل بها.

←

١٠/ «الجبهة» (٣١ يوليو): أربعة نجوم هي جبهة الأسد.
١١/ «الزُّبرة» (١٤ أغسطس): نجمان يشكلان زبرة الأسد.
١٢/ «الصَّرفة» (٢٧ أغسطس): نجم وَاحد في قلب الأسد.
١٣/ «العوَّاء» (التاسع من سبتمبر): أربعة كواكب تشكل وركي الأسد.
١٤/ «السِّماك» (٢٢ سبتمبر): نجم وَاحد في إحدىٰ رجلي الأسد.
* منازل في بروج «الميزان» و«العقرب» و«القوس»:
١٥/ «الغَفْر» (الخامس من أُكتوبر): ثلاثة نجوم
١٦/ «الزُّبانىٰ» أو «الزُّبانَيان» (١٨ أُكتوبر): هما كوكبان نيِّران في قرني العقرب.
١٧/ «الإكليل» (٣١ أُكتوبر): أربعة أنجم مصطفَّة هي رأس العقرب.
١٨/ «القلب» (١٣ نوفمبر): نجم أو ثلاثة نجوم هي قلب العقرب.
١٩/ «الشَّوْلة» (٢٦ نوفمبر): نجمان يمثلان شوكة (حُمَة) العقرب.
٢٠/ «النعائم» (التاسع من ديسمبر): ثمانية نجوم.
٢١/ «البَلدة» (٢٢ ديسمبر): رقعة لا كواكب فيها، ومساحة خالية من النجوم.
* منازل في بروج «الجدي» و«الدلو» و«الحوت»:
٢٢/ «سعدُ الذابح» (الرابع من يناير): نجمان.
٢٣/ «سعدُ بُلَع» (١٧ يناير): نجمان.
٢٤/ «سعدُ السُّعود (٣٠ يناير): نجمان.
٢٥/ «سعدُ الأخبِية» (١٢ فبراير): ثلاثة نجوم.
٢٦/ «فرغ الدلو المقدم» (٢٥ فبراير): نجمان.
٢٧/ «فرغ الدلو المؤخر» (١٠ مارس): نجمان.
٢٨/ «الرِّشاء» أو «بطن الحوت» (٢٣ مارس): عدة نجوم.
هـٰذه هي منازل القمر، وهناك بعض ٱختلاف فيها، ومزيد تفصيل. ■

فعلىٰ الرغم من شغف «نجيب» ووَلعه بالسماء والنجوم وعالم الفضاء، إلَّا أنه لم يكن مُلمّاً بعلم الفلك، ولا باع له في الهيئة والأبراج، ولا دراية بأحوالها ومواقعها، وقد دخَله الظنُّ وٱرتاب من «كانون» الذي قلَّ أن يصفو ليله وتنقشع الغيوم عن سمائه، فحسب القمر في «الذراع»[1]...

لم تكن معلوماته تتجاوز تمييز الكوكب عن النجم، فالأول ثابتٌ نوره، متَّصل بريقه، بينما نور النجم ـ لبُعده ـ شبه متقطِّعٍ مُتتابع، يرسل حزمةً ضوئية تقوىٰ فتسطع، وتضعف فتخفت، ذلك لمرورها بقواطع وحواجز، ما زالت تغلبها وتخترقها، حتىٰ تجتاز الغلاف الجوي للأرض وتبلغ أبصارنا أخيراً... وأُموراً سطحيَّة من هٰذا القبيل.

نعم، كان يعرف «الشِّعرىٰ اليمانية» المسمَّى «سيروس»، أسطع النجوم، وألمع أجرام السماء بعد «الزهرة» (وقبلها الشمس والقمر بطبيعة الحال)... فقد دفَعه ما جاء في قوله تعالىٰ في «سورة النجم»: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغۡنَىٰ وَأَقۡنَىٰ ۝٤٨ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعۡرَىٰ ۝٤٩ وَأَنَّهُۥٓ أَهۡلَكَ عَادًا ٱلۡأُولَىٰ ۝٥٠﴾، إلىٰ البحث، وأخذه ليستطلع، فتعرَّف علىٰ هٰذا النجم بعض الشيء، فعلِم أنَّ «الشِّعْرىٰ» كوكب نيِّر يقال له «المِرْزَم» يطلع بعد «الجوزاء»، وطلوعه في شدَّة الحرِّ. وهو نجمٌ مُضيء من الثوابت، قيل إن قبيلتي «خُزاعة» و«حِمْيَر» كانتا تعبدانه. وقد خصَّه الله تعالىٰ بالذِّكر لكثرة عابديه، دون باقي الكواكب الصغيرة والنجوم غير المضيئة.

---

(١) يقول ساجع العرب: "إذا طلعت الذِّراع، حَسَرَتِ الشَّمْس القناع، وأشْعلَت في الأُفقِ الشُّعاع، وتَرقْرَقَ السَّرابُ في كلِّ قاع. تطْلُعُ لأربع ليالٍ يَخْلُون من تموز الرومي، وتسقط لأربع ليالٍ يخلون من كانون الأوَّل".

وعرف هـٰذا النجم بمكانته وقداسته عند سائر الشعوب القديمة، ولا سيما قدماء المصريين، الذي ربطوا بينه وبين فيضان نهر «النيل»، حتىٰ أطلقوا عليه ٱسم: «إيزيس» (إلهة مصرية تمثل صورة الأُم المُثلىٰ والزوجة الـوَفيَّة)، لأن دموع «إيزيس» (زوجة «أوزيريس» وأُم «حورس»، التي ٱنتشرت عبادتها فى «مصر» و«سوريا» و«اليونان» و«روما»)[1]، هي التي تسببت ـ وَفق الأُسطورة المصرية ـ في فيضان «النيل» عندما حزنت علىٰ زوجها بعد مقتله وإخفاء جثَّته علىٰ يد أخيه «ست»!

---

(١) ٱنتشرت عبادة «إيزيس» في "العصر البطلمي" في «الإسكندرية»، وفي بدايات ظهور المسيحية كانت عبادة الإلهة المصرية «إيزيس» منتشرة في كافة أنحاء الإمبراطورية الرومانية، وحتىٰ فى العاصمة «روما»، كانت المعابد تبنىٰ والمِسلَّات ترفع تكريماً لها. وفى «اليونان» كان أتباع «إيزيس» يسيطرون علىٰ مُدن كاملة مثل «ديلوس» و«ديلفي» و«إليوسيس». وكانت الموانئ البحرية الممتدة من بحر العرب حتىٰ البحر الأسود تسمىٰ بٱسم «إيزيس». وكانت حاضرة في كتابات ومدوَّنات ونقوش للمؤمنين بها فى «أسبانيا» و«إيرلندة» و«تركيا» و«جزيرة العرب». وكان لها معبد في جزيرة «فيلة» في «النوبة»، وقد مضىٰ الكهنة هناك وبقوا علىٰ طقوس عبادة «إيزيس» حتىٰ القرن السادس الميلادي حين أمر الإمبراطور البيزنطي «جوستينيان» بإغلاق المعبد، فكان آخر معقل للوَثنية فى الإمبراطورية المسيحية.

ٱنظر: ‹Isis in the Ancient World› («إيزيس» في العالم القديم) «R.E.WITT»، ولم أجد فيه تحديداً لمواقع الآثار التي ذكر أنها موجودة لـ «إيزيس» في «جزيرة العرب»، ولـٰكن جاء في مصادر أُخرىٰ أن «إيزيس» هي «حيزيت» من "حاز"، أي المبصرة أو الكاهنة المتنبأة، ومنها أطلق العرب علىٰ أحد أصنامهم «العزَّىٰ» بحذف الياء والتاء، والإبدال بين العين والحاء. وفي اللهجة العامية نقول "أحزىٰ" أي خمَّن وتكهَّن وتنبَّأ.

وفي ربط «العزَّىٰ» بـ «إيزيس» المصرية تحامل وتعسف لا يخفىٰ.

ملحوظة: نظراً لفقر مكتبتي وقلَّة المصادر التي تتناول هـٰذا الموضوع، لجأت إلىٰ البحث في «الإنترنت»، وقد هالني حجم العبث والخلط، وبان لي أن أغلبهم يستنسخ ما كتبه الأسبق، ويلحقه في بحثه، حتىٰ دون تصحيح للأخطاء اللغوية، ناهيك بالعلمية والمعلوماتية! فكلَّما فتحت رابطاً وَجدته يجتر ما ذكره الأول في مقالته، وهـٰكذا!

ولما كانت الزراعة في مصر تعتمد على الرَّيِّ من «النيل» بشكل أساس (دون الأمطار، أو العيون والآبار)، فإن التنبؤ بحاله كان أخطر مسؤولية وعمل، تلافياً لأضرار الفيضان إذا جاء عارماً، وذلك بجَرف قيعان الجداول وتنظيف الغدران والجعافر، ليسلك الماء بيُسر ويجري دون إعاقة ترفع منسوبه، وبتدعيم الضفاف ورفعها، وتهيئة الشرائع، وترميم الجسور وتحصين القناطر. وتحسُّباً له إذا جاء قليلاً ضئيلاً غير وَافٍ، بٱدِّخار ما يمنع المجاعة ويقي تبعات الجفاف، وهو الوَجه الذي خلَع القيمة العظمىٰ علىٰ تأويل «يوسف» النبي ﷺ لرؤيا الملك، ورتَّب عليه كلَّ تلك الآثار... وقد لَاحظ قدماء المصريين أن بداية فيضان «النيل» مرتبطة بشروق الشمس من ٱتجاه النجم «سيروس» («الشِّعرىٰ اليمانية») وهو ما يسمىٰ فلكياً بظاهرة الاْحتراق الشروقي لهـٰذا النجم، الذي يحدث صيف كلِّ عام.

وكان هـٰذا النجم هو القرين السماوي لمِلكات «مصر» الفرعونية، لذا فإنَّ ما يسمىٰ بـ "فتحة التهوية" في الهرم الأكبر، الممتدَّة من حجرة الملكة إلىٰ الجنوب، ما هي إلَّا فتحة تطلُّ منها الملكة ـ وهي في مرقدها ـ علىٰ قرينها في السماء: «سيروس»، عند مروره علىٰ دائرة الزوَال. من هنا خلص علماء الآثار ـ حسب علم الفلك الحديث ـ إلىٰ أنَّ تلك ليست فتحات تهوية، بل "مناظير مزوالية" ثابتة، أُقيمت تجاه نجوم معينة في السماء.

من هنا، من المكانة الكبيرة لهـٰذا النجم وقدسيَّته لدىٰ الشعوب القديمة، جاء القرآن الكريم علىٰ ذِكْره ليؤكد أنَّ الله سبحانه وتعالىٰ هو ربُّ «الشِّعرىٰ» (الذي تعظمِّون وتوقِّرون، وتحمدون وتشكرون!)، فلا عظَمَة لهـٰذه الأجرام ولا قيمة لها من دون الله عزَّ وجل.

كما كـان «نجيب» يعـرف من الأفلاك والنجوم «سـهيلاً» من كثرة ما يـشير إليه النـاس إذا ظهـر، ومن فـرط مـا وَظَّفه الـشعـراء وتغنَّـوا به غـزلاً ومدحاً، ومضرباً للترقُّب والتفاؤل والبشرىٰ:

إذا مـــا سـهـيلٌ أبـــرَزتهُ غـمامـــةٌ
على منكب من جـانب الطُّور يلمحُ
دَعـا بعضُنـا بعضـاً فَبِتنـا كـأننـا
رأينـا حبيبـاً كـان ينـأىٰ وينــزَحُ
وذلـك أنَّـــا وَاثقـــون بقُـــربكُـم
وأنَّ الـنَّــوَىٰ عـمَّــا قليلٍ تــزحــزحُ

ومن ذلك معرفته بـ «الـسُّهىٰ»، جاءت من أُنسه بـالشعر والأدب، ما دفعَه لملاحقة محلِّ الشاهد ومضرب المثل، في أبيات «أبي العلاء» الشهيرة:

فـوَا عجباً كم يـدَّعي الفضلَ نـاقصٌ
ووَا أسفـاً كم يُظهِـرُ النقصَ فـاضلُ
إذا وَصَفَ «الطـائيَّ» بـالبُخْلِ «مـادِرٌ»
وعيَّر «قُـسّـاً» بـالفَهـاهـةِ «بـاقِلُ»
وقـال «السُّهـىٰ» للـشمس أنتِ خَفِيّةٌ
وقـال الـدُّجىٰ يـا صُبْحُ لـونُكَ حـائلُ
وطــاوَلَـتِ الأرضُ الـسَّـماءَ سَفـاهَــة
وفـاخَـرَتِ الـشُّهْبُ الحصىٰ والجنادلُ
فـيــا مـــوْتُ زُرْ إنَّ الحيـــاةَ ذَميـمَـــةٌ
ويـــا نَفْـسُ جِــدِّي إنَّ دهــرَكِ هـــازِل

والأبيات تنْظِم أمثلة العرب: "أكرم من «حاتم»"[1]، و "أبخل من «مادِر»": هو رجل من «بني هلال»، بلغ من بخله أنه سقىٰ إبله، فبقي في أسفل الحوض ماء قليل، فتغوَّط فيه، وطان الحوض بغائطه، بُخلاً منه وخسَّة، لئلا يُنتفع به بعده! و "أبلغ من «قُس»": هو «قُس بن سَاعدة»، يُضرب به المثل في الفصاحة والخطابة، كان من حكماء العرب وأول من قال: "أما بعد". و "أعْيا من «باقل»": هو رجل من «ربيعة»، بلغ من عيِّه أنه ٱشترىٰ ظبياً بأحد عشر درهماً، فمرَّ بقوم فقالوا له: بكم ٱشتريت الظبي؟ فمدَّ يديه وأخرج لسانه، يريد أحَد عشر، فشرد الظبي وكان يحمله تحت إبطه!... ومن أمثالهم: "أخفىٰ من «السُّهىٰ»": وهو النجم الخافت الرابع في "النعش" من مقبض "المحراث"، تدعوه العرب «السُّهىٰ»[2] وهو مضرب المثل.

---

(١) سأل رجل «حاتم الطائي» فقال: يا «حاتم» هل غلبك في الكرم أحد؟ قال: نعم، غلام يتيم من «طي» نزلت بفنائه وكان له عشرة أرؤس من الغنم، فعمد إلىٰ رأس منها فذبحه، وأصلح من لحمه، وقدَّمه إلي، وكان في ما قدَّم إليَّ الدماغ، فتناولت منه فٱستطبته، فقلت: طيب والله. فخرج من بين يدي، وجعل يذبح رأساً رأساً ويقدم لي الدماغ وأنا لا أعلم. فلما خرجت لأرحل نظرت حول بيته دماً عظيماً، وإذا هو قد ذبح الغنم بأسره! فقلت له: لم فعلت ذلك؟ فقال: يا سبحان الله تستطيب شيئاً أملكه فأبخل عليك به؟! إن ذلك لَسُبَّة علىٰ العرب قبيحة. قيل: يا «حاتم» فما الذي عوَّضته؟ قال: ثلاثمائة ناقة حمراء وخمسمائة رأس من الغنم. فقيل: إذن أنت أكرم منه. فقال: بل هو أكرم، لأنه جاد بكلِّ ما يملك، وجُدْت بقليل من كثير.

(٢) السُّها: بالألف الممدودة والمقصورة سواء، والأفصح بالممدودة، فالقاعدة أنَّ الألف إذا وَقعت ثالثة وكان أصلها وَاواً كتبت بالألف الممدودة، نحو: العصا، الربا، العلا، بخلاف لو لم تكن ثالثة (سواء كان أصلها ألفاً أو ياءً)، أو كانت ثالثة ولٰكن أصلها ياءً، فإنها تكتب بالألف المقصورة في الحالين، وذلك نحو: الأعلىٰ والمرمىٰ في الأول، ونحو: الرحىٰ، والهدىٰ في ما أصله الياء. وقيل إنَّ ٱستعمال الشائع أفضل من المختلف فيه وفي صحته.

وكان قد وَقع، أو حسب أنه وَقع، في غرام فتاة تدعىٰ «سُهىٰ»، فلسطينية أو مصرية، لا يدري، تسكن في حيٍّ وعمارة تقطنها أتباع هٰذه الجنسيات... كان يلتقيها كلَّ يوم في طريقه إلىٰ مدرسته، فيمرُّ بها وهي في لفيف من أترابها ينتظرن الحافلة التي تقلهن، وكل ما كان بينهما تبادل نظرات وبعض ٱبتسامات. وقد سعىٰ مرة وحاول أن يطوِّر "العلاقة"، فدوَّن رقم هاتفه علىٰ قصاصة، أو وَرقة ٱقتطعها من إحدىٰ دفاتره برعونة، طوَاها بعجَلة، ووَضعها علىٰ السور المنخفض للبناء الذي كانت تقطنه الفتاة، وهو سور لا يتجاوز ٱرتفاعه صدره، ثبَّت الورقة بحصاة كبيرة، أو هي كسر وبقية لبِنَة ملقاةٍ علىٰ قارعة الطريق، طبع عليها قُبلة، أثارت ضحك الفتيات، والتفافهن علىٰ «سُهىٰ» وإحداقهن بها، فٱلتقطت الفتاة الوَرقة، وحفظتها في إحدىٰ كتبها، وأودعته حقيبتها المدرسية... لٰكنها لم تتَّصل، أو لعلَّها فعلت، لٰكنَّ غيره من إخوته سبَقه إلىٰ الهاتف فأُغلق دون ردٍّ، وراح "الحبُّ" أدراجَ الرياح!

من هنا كان يقرأ عن «السُّهىٰ» النجم، ويلاحق أحواله: كوكبٌ أو نجم صغير خفيُّ الضوء، في مجموعة «بنات نعش»، الكبرىٰ أو الصغرىٰ، وهي سبعة كواكب تُشاهَد جهة القطب الشمالي، شُبِّهت بحَمَلة النعش.

والناس يمتحنون بـ «السُّهىٰ» أبصارَهم، وفيه جرىٰ المثل المعروف: "أُرِيها السُّهَا وتُريني القمر"، أي أُريه الخفي الذي تصعب رؤيته، وهو يريني البادي الظاهر، المشهود لكلِّ عيان. وهو يُضرب لمن تخاطبه فيبعد في الجواب. وقيل إن أصله أنَّ رجلاً سأل زوجته: أين السُّهَا؟ فأشارت إلىٰ القمر متعمِّدة، فقال المثل.

هٰذه هي آفاق معرفة الرجل بالنجوم وإحاطته بعلومها، لٰكنَّ حبَّه لهٰذا العالم وشغفه به كان يفوق هٰذه الحدود ويتخطَّاها بكثير، فطالما تحرَّىٰ وٱغتنم فرص مراقبتها وتأمُّلها كلَّما عرضت وأنَّىٰ سنَحت... ويذهب في هٰذا التأمُّل بين لهوٍ وشطح[1] يصفُّ في مخيِّلته منظومةً جديدة مبتكَرة، يرسم ـ وهو ينظر في النجوم ـ صوَراً، ويمدُّ بينها خطوطاً ويوصِل أوتاراً، فيصنع أشكالاً خاصة به، لا تحكي «الجدْيَ» و«الثور» ولا «الدلْو» و«القوس»، ينتزع من نظمها أحرفاً وكلمات ترتسم في السماء بمختلف اللغات، وكأنَّ سيرها في منازلها وتقلُّبها في أبراجها يخلق مَشاهد ويرسل رسائل يتلقَّاها أهلُها، ولا يقرؤها إلَّا العظماء، الذين تخاطبهم النجوم مجتمعة، وهي تنتظم لتقول لأحَدِهم كلمة، وتهتف بٱسمه من عِشْقٍ ووِلاء، وتعزف علىٰ شرفه لحن مجده، تقدِّم صِلتها فتحقِّقَ وَصلَها!... وبين تفكُّرٍ وتعمُّق يستنطق الأنوار المتلألئة، بل يجلي الظلمة التي تسبح فيها.

وكان أكثر ما يستهويه ويغريه ويأخذه من التأمُّل إلىٰ التفكُّر والٱستكشاف، هو سُكَّان ذلك الفضاء، الكائنات الحيَّة التي تقطن في السماء، في الأجرام والكواكب البعيدة عن الأرض.

---

(١) جاء في (تاج العروس) لـ «الزبيدي»: شِطِّحْ، بالكسر وتشديد الطّاء: زجرٌ للعريض من أولاد المَعِز، لم يتعرض لها أكثر أئمة اللغة، وإنما ذكر بعض أهل الصرف هٰذا اللفظ في أسماء الأصوات. قال شيخنا: ٱشتهر بين المتصوِّفة الشَّطَحاتُ. وهي في ٱصطلاحهم عبارة عن كلمات تصدر منهم في حالة الغيبوبة وغلبة شهود الحق تعالىٰ عليهم، بحيث لا يشعرون حينئذ بغير الحقِّ، كقول بعضهم: أنا الحقُّ، وليس في الجبَّة إلَّا الله، ونحو ذلك، وذكر «أبوالحسن اليوسي» شيخ شيوخنا في (حاشيته الكبرىٰ) ـ وقد ذكر «الشيخ السنوسي» في أثنائه الشطحات ـ: لم أقف علىٰ لفظ الشطحات فيما رأيتُ من كتب اللغة، كأنها عامِّية، وتستعمل في ٱصطلاح التَّصوُّف.

كان يستغل ٱنقطاع التيار الكهربائي عن البلدة، حين يستولي الظلام، إذا ٱنقضىٰ العشاء وذهب ثلث الليل، ودخل الغسق بعد العتمة، وقرب من الهزيع وصار في قِطْعٍ دامس حالك، تغلب الظلمة فيه وتقهر كلَّ شيء، اللهم إلَّا موَاقع محدودة ينبعث منها ضوءٌ خافت لمصابيح صغيرة تستمد من مولِّدات طاقة خاصة، لا تقوىٰ علىٰ تبديد الظلام، ولا تتطاول إلىٰ طمس بريق النجوم، فالبيوت القليلة المسكونة تكتفي بعد مصباح صغير بتشغيل التلفاز، فتنعكس أضواء الشاشة وتتراءىٰ عبر الشباك في الصيف، وتختفي في الشتاء مع إغلاق النوافذ وإسدال الستائر...

والحقُّ أنه لم يكن بحاجة ماسَّة إلىٰ ٱنقطاع التيار عن البلدة، فيكفيه أن يخمد مصابيح دارته النائية، ويستغلَّ بُعدها وٱنعزالها، فيحظىٰ بظُلمة كافية في محيطه (والموقع بالأصل من النوافذ الأقرب إلىٰ آفاق النجوم!)، فتبسط أمامه لوْحة، تزهر فيها النجوم وتتألَّق الأجرام، وتخلق المشهد الذي يريد، فينطلق في السبح الآفاقي ما شاء له الهوىٰ، هائماً في تأمُّلها، مستمتعاً بالنظر فيها... فإذا تمكَّن من المشهد، ٱنتقل إلىٰ أُفق آخر وٱرتقىٰ إلىٰ سطح جديد. وهو منذ أن دخل مرحلته هٰذه (منذ عام سبق عزلته هنا، في هٰذا المنتجع)، لم يعد يتحرَّىٰ المرئيَّ من الكواكب، والمرصود من النجوم والمجرَّات والسدُم، فلا يلاحق ما يمكن التقاطه، ولا ينظر إلىٰ ما يستطيع مشاهدته، ولا يطبِّق تمارين وتعليماتٍ مبثوثة في بعض الكتب التي تعنىٰ بهٰذا العلم والعالم، تقوده وترشده إلىٰ كيف ومتىٰ يمكنه مشاهدة هٰذا النجم ورصد ذاك الكوكب، لم تعد تعنيه كثيراً ولا عاد يتلهَّف لمتابعة ما تتناقله الأخبار عن جديد الٱكتشافات، وآخر ما توصَّلت إليه الأبحاث...

بل كان يستغرق في " اللامرئيات " ... يركِّز على الظلام الذي يفصل بين هذه الأنوار ويُسلِّط عليها من فِكره إضاءات، ويتدبَّر في المسافات، وماذا عساها أن تستر من موجودات وتُخفي من كائنات؟! إنَّ مدى الرؤية الذي تحقِّقه أكثر المجاهر والمقرِّبات تطوُّراً، يقف عند حدود ما زالت دنيا، وفي مرمى المحسوس بصراً أو سمعاً، يرتد عنها " هابل "[1] وينقلب حسيراً! بينما الأدلَّة والحسابات العلميَّة تحكي عن فرضيَّة وُجود مليارات المجرَّات، متناثرة في الكون، مبثوثة في أرجائه، تسبح في آفاق مترامية قصيَّة، تعجز الأرقام عن عدِّها وتقدير المسافات التي تفصل بينها.

---

(١) جاء في الموسوعة الحرة (ويكيبيديا): مِقراب «هابل» الفضائي أو مرصد «هابل» الفضائي (بالإنجليزية: Hubble Space Telescope) هو مَرصد فضائي يدور حول الأرض، وقد أمدَّ الفلكيين بأوضح وأفضل رؤية للكون على الإطلاق بعد طول معاناتهم من المقاريب الأرضية التي يقف في طريق وُضوح رؤيتها كثير من العوائق، سواء جوُّ الأرض المليء بالأتربة والغبار، أم المؤثرات البصرية الخادعة لجوِّ الأرض والتي تؤثر في دقة النتائج. سُمِّي على اسم الفلكي «إدوين هابل».

بدأ مشروع بناء المقراب (تلسكوب) عام ١٩٧٧ وأطلق إلى مداره الأرضي المنخفض خارج الغلاف الجوي على بعد ٥٩٣ كم فوق مستوى سطح البحر، حيث يكمل مداره الدائري بين ٩٦-٩٧ دقيقة بواسطة مكوك فضائي استخدم لإطلاقه، وهو مكوك «ديسكفري»، وذلك في ٢٤ أبريل عام ١٩٩٠، ولا يزال قيد التشغيل حتى الآن.

هذا المرصد ذو بؤرة (فتحة عدسة) قدرها أو قطرها ٢,٤ متر. وله أربع أدوات رئيسة للرصد، حيث تصوِّر بالأشعة فوق البنفسجية القريبة والطيف المرئي والأشعة تحت الحمراء القريبة. يقع مدار هذا المرصد خارج النطاق الذي يشتت فيه الغلافُ الجوي للأرض الضوءَ القادم من الأجرام الكونية، الأمر الذي يسمح بالتقاط صوَر عالية الوضوح، بدون ضوء خلفي تقريباً. فعلى سبيل المثال صورة حقل «هابل» فائق العمق، هي أكثر صورة طيف مرئي مفصَّلة تم أخذها لأجسام الكون الأكثر بعداً.

وقد أدَّت العديد من مُشاهدات مرصد «هابل» إلى تقدُّم مفاجئ في الفيزياء الفلكية، مثل التحديد الدقيق لنسبة توسع الكون.

هل هي أجرام خالية وأفلاك قاحلة تسبح ككُتلٍ ضخمة من الأحجار، أو تجمُّعات وتكثفات عظيمة من الغازات؟ لا بشَر هناك ولا شجر، لا طير ولا حيوان، لا ماء ولا هواء، لا أحياء ولا كائنات عضوية؟! جماد في جماد، وسَير أو سبْح ودوران في رَحْب هٰذا الفضاء، يفجِّر ويرسل في كلِّ حين شهُباً تثقب، ونيازك ترجم وتقصف.

أم أنَّ هناك سكَّاناً يقطنون هٰذا النجم، وخلْقاً يعيشون في ذاك الكوكب؟... كائنات حيَّة غابت عنَّا صُوَرها، وخفيت أخبارها، توارت في نأيها وبُعدها، فذهبنا إلىٰ الجحد وقُلنا بالنَّفي، ومال الرأي فينا ـ معشر البشر ـ إلىٰ الإنكار، ومضينا في الإصرار أن لا أحد غيرنا في هٰذا الوجود، مستدلِّين ومحتجِّين بأنه "لو كان لَبان"! فإذا رجحت الكفَّة الأُخرىٰ، فاْحتملنا الوجود، أو نهض هٰذا الفرض ودخل دائرة الإمكان... فما هي ترىٰ أشكال هٰذه المخلوقات وما هي طبيعة أبدانها؟ كيف تعيش وماذا تأكل وتشرب؟ بل كيف تتنفَّس، فلا هواء هناك ولا ماء، بل لا جاذبية تُبقيها علىٰ سطح كوكبها وأديم ذلك الجرم السماوي (فلا يصحُّ أن أقول أرضه)!؟ كيف تتنقَّل وماذا تركب؟ هل سُخِّرت لها كائنات أُخرىٰ؟ كما سخَّر الله لنا الحيوانات زينة ودواباً ولحوماً وأصوافاً وجلوداً؟ والطيور ريشاً؟ والنباتات ثماراً وغلالاً وحبوباً، فاكهة وأبّاً؟

بأيَّة لغة يتكلَّمون وكيف يتفاهمون؟ هل هم كُتلة وَاحدة مقابل الكائنات في الكواكب الأُخرىٰ؟ أم هم مثلنا جُعِلوا شعوباً وقبائل، تتعارف مرَّة وتتقاتل مرَّات؟! هل يتزاوَرون ويتعاوَنون؟ هل يتنازعون ويتحاسدون ويتعادون ويتقاتلون، أم يتوادُّن ويتراحمون؟

هل يمرضون ويتداوون؟ هل يموتون ويقبرون؟ وكم تمتدُّ أعمارهم؟ فإذا ماتوا، هل ينتظرون معاداً يُبعثون فيه؟ هل التناسخ ممتنع هنا فقط، وممكن هناك، فيعودون في هيئات جديدة وصوَرٍ أُخرىٰ؟ كيف ينتظم الزمن عندهم ويُحسَب؟ هل تدور كواكبهم حول نجمهم، فيُقسِّمون ما تستغرقه الدورة ساعات وأياماً وشهوراً؟

مَن يعبدون وبماذا يدينون؟ هل هم مكلَّفون وممتَحنون، ثم محاسَبون؟ ماذا يهدفون من حياتهم؟ وما هي أقاصي أمانيهم؟ وما هي السعادة في معاييرهم، أو في أحاسيسهم؟ وما الذي يحقِّقها أو يرون أنه يحقِّقها لهم؟ هل هناك أهواء وشهوات تطغىٰ فتغلب العقل والرشد والصواب؟ هل هناك شياطين تمنِّيهم وتزيِّن لهم فتضلُّهم؟ وكيف يُبتِّكون آذان الأنعام، ويغيِّرون خلق الله ويتَّخذون الضلال ديناً؟ ما هي صوَر الإغواء عندهم؟

يقال إنَّ هٰذا النور الساطع والبريق المتلألئ من النجم، نارٌ موقَدة، يراها أهل تلك المجرَّة كما نرىٰ نحن الشمس... إنها مراجل تجيش وموَاقد تضطرم وحُفَرٌ تغلي وأخاديد تستعِر، يتصاعد اللظىٰ منها وتمرج الشُّعَل ويستطير اللهب! لا تخبو ولا تهمد، جحيم حُطَمة، تخلِّف حرارة تصهر الحديد والحجر وتذيب كلَّ مادَّة الأرض!... تُرىٰ هل طبيعة وسنخية سكَّان تلك الأجرام وعنصرهم الناري، مثل الجان، هو ما يسمح بالعيش في تلك البيئة والانسجام معها، كما الطين والتراب لسكان الأرض؟

أين نحن وكوكبنا منها في منظومة الكوْن، تطوُّراً ومكانة ورُقياً؟ ثم قوَّة وبأساً؟ أتراهم يعلمون بوُجودنا ويعرفون أحوالنا؟ هل يطَّلعون علىٰ حياتنا ويراقبون معيشتنا؟ أ تراهم يتطلَّعون إلىٰ غزونا؟

لعمري، هل لهٰذه المسلسلات التلفزيونية والأفلام السينمائية التي تحكي الحوادث والقصص المنقولة، والأُخرىٰ الخيالية عن هٰذه العوالم، نصيبٌ من الحقيقة وحظٌّ من الواقع؟ أم هي حكايات وٱبتكارات المعاصرين الذين سئموا وملُّوا "أساطير الأوَّلين" ؟!

كان «نجيب» يغالب في سبيل جلسة التأمُّل هٰذه البردَ، وهو يستلقي في العراء، بدثار سميك يطلقون عليه "عدوَّ البرد" (وعند أهل البوادي وفي بلاد الخليج: "فروَة")، صناعة سورية (ٱبتاعه أبوه من سوق «مدحت باشا» بدمشق)، عثر عليه في خزانة ثياب المرحوم وَالده، وقد قاوم العُثَّة التي تلحس الجلود والفراء، وتأتي علىٰ البُسُط والألبسة، وحافظ علىٰ حالة أبقته قابلاً للٱستعمال بعد نحو أربعين عاماً! وهو ملحَفة ظاهرها من نسيج القطن أو الكتان السميك، وبطانتها من فرو الخراف، عباءة بأردان، أشبه بالجبَّة التي يشتمل عليها الرجل، دون جيْب أو عُرىً وأزرار...

يقبع في الشرفة ويذهب في النظر والفكرة، لٰكنه ما كان يكتفي حتىٰ يخرج إلىٰ فناء أو حريم الدار، حيث لا سقف ولا غطاء، في رحبة تسمح وتفسح لمشهد "بانورامي" (صورة كبيرة تستوعب نطاق العرض كلِّه) فريد، يركز مقعد حديقة، أو هو مقعد شاطئ (ٱبتاعه حديثاً، لم يكن من قديم المتاع، لفرط عنايته بهٰذه الجلسة وشديد حرصه علىٰ الأخذ بكلِّ أسبابها وتوفير مستلزماتها)، ينكفئ ظهره ويرجع إلىٰ الوراء ليبلغ الجالس حدَّ الٱستلقاء، فيحظىٰ بالمنظر الذي يريد، متجنِّباً المسار العمودي للمشهد، فقد كانت بعض أغصان الصنوبر تحجبه، فيكتفي بزاوية دون ذلك، تسمح له أن يستقبل السماء كلَّها بيُسر وسهولة.

يجهد في قراءة مواقعها وتركيبات أبراجها، وقد أضرم في أجمة من ركام الحطب، كُوِّمت في وِعاء حديدي يُبطِّن حفرة تُستعمل بالأصل كمَوْقد للشواء، طُوِّقت بدائرة من لَبِن مقاوِم للحرارة، رُصَّ حول الحفرة بٱرتفاع يسير دون الشِّبر، يحفظ المحيط ويقيه، وهو يُتَّخَذ مِنْصباً يسمح بٱستقرار سفافيد (أسياخ) الشواء، كما الأُثفيَّة للقدر... وكان يلهو بتحصيبها وتلقيمها الذَّكية بعد الأُخرىٰ، وتعاهدها بما يمنع خمودها بل همودها، ثم بحشِّها وردِّ ما تفرَّق عنها من جمر، وتطايَر من وَقَص وزعف وخشاش، ويأنس بحدَمة (صوت) النار، وفرقعة الحطب وكصيصه.

وكان قد رصد مرَّة وشاهد "درب التبانة"[1] فصار يتمنَّىٰ الإعادة...

---

(١) "درب التبانة" أو "اللبانة" (Milky Way)، مجرَّة حلزونية الشكل تحوي ما بين ٢٠٠ إلىٰ ٤٠٠ مليار نجم! ويبلغ عرضها حوالي مئة ألف سنة ضوئية (أي أن الإنسان حتىٰ يقطع هٰذه المسافة يحتاج إلىٰ ١٠٠سنة بسرعة الضوء، أي ما يعادل٣٠٠ ألف كم في الثانية الواحدة!)، وسُمْكها حوالي ألف سنة ضوئية، ونحن نعيش علىٰ حافة تلك المجرة ضمن مجموعتنا الشمسية التي تبعد ثلثي المسافة عن مركز المجرة. ومنظر المجرة في مطلع الخريف يأخذ المدىٰ الألمع والأغنىٰ لهٰذا النهر السماوي الذي يحوي نجوماً لم نشاهدها بعد، ولم يصل ضوؤها إلينا، فهي بعيدة بشكل لا يمكن أن يتصوَّره العقل البشري.

وفي سبب إطلاق ٱسم هٰذه المجرَّة أقوال، منها إن نجومها تظهر في الليالي الصافية بوضوح، فتبدو متلاصقة علىٰ الرغم من بُعد المسافة بينها، فتعطي لوناً أبيض هادئاً، يبدو في شكله كاللبن المسكوب، لذلك سميت بالإنجليزية (Milky Way). ويقال إنَّ العرب رأوا شبهاً كبيراً بين شكل النجوم في المجرَّة، وبين التبن المتناثر من حيواناتهم عند تعليفها، لذلك أطلقوا عليها "درب التبانة"! وأول من ٱكتشف هٰذه النجوم وخصائصها هو العالم والفلكي والفيلسوف والفيزيائي الإيطالي «جاليليو» (Galilo) بعد أن صنع مِرقابه الأول، وهو الذي ٱكتشف عدد النجوم الموجودة في "درب التبانة"، وقدَّرها بالملايين.

وقد قسَّم الفلكيون المجرَّة إلىٰ أقسام: النواة (المركز): وهو الذي يكون مركز المجرَّة ويكون دوران النجوم القريبة منه أكثر، وكلَّما ٱبتعدنا يقل دوَران النجوم حولها. الأذرع: وهي أذرع عملاقة تدور حول مركز المجرَّة . ثم الهالة: وهو مكوَّن من غازات مختلفة وسحب كونيَّة.

بينا هو مستلقٍ في مقعده، مُنسدحٌ على كرسيِّه بزاوية منفرجة تجعل ظهره في وَضع يقرب من الأُفقي، مستغرق في جولته، لعلَّ " درب التبانة " يلوح له ثانية... إذ تناهى إلى سمعه صوتٌ غريب!

حفيف شجر، ثم تجمجُمٌ وغمغَمة، يصاحبه خبط وجلَبة، وَقْع خُطىً ثقيلة قويَّة، لا تكون من خفْق خُفٍّ أو جُرمق، بل حذاء سميك غليظ النعل، وصندلة أو جزمة في خرْزها مسامير، من تلك التي يلبسها العسكر، أو النحَّالون ومتسلِّقو الجبال هنا... تطأ أوراقاً متساقطة وحشائش، في بقعة وَعرة على السالكين، ولا سيما في هذا الظلام الدامس، وتشقُّ دربها عبر قتاد منظوم بالشوك من أعلاه إلى أسفله، طالما سدَّ طرق الغيضة المهمَلة، فلا سبيل أن ينفذ في هذه الحرَجة أحدٌ، ولا أن تصل إليها يد قاطف...

لم يلبث حتى تبيَّن أنها أصوات منطق وحديث، لا خبط وقرقعة، وإن صاحبتها أصوات أُخرى كدحرجة مدَرٍ ووَطْءِ حشائش... وهي تأتي من مرتَفَع في ظهر الرحبة التي اتخذها مستَشرَفاً ومَرصداً، الحرَجَة التي تقع خلفه، وهي قمة الجبل الذي تستقرُّ الدار على سفحه الأعلى.

تلقَّى «نجيب» الصوت بعد الدهمة والفجأة بالتجاهل... ثم توجَّس حين خطر له أن يكون حيواناً ضالّاً جذبته النار، التي ـ لعلَّها ـ أوقفته عن التقدُّم وردَعته، حيَّرته بين طلب الدفء والخوف من الاحتراق! كلب ضالٌّ، في الأغلب، فلا سِباع هنا، ولكنَّ البرد والثلوج والجوع قد يُخرج الذئاب من أوْجارها! وإن كان الوَقْع الذي تناهى إلى مسامعه والخبط الذي قحم الأحراج، يُنبئ أنه دُبٌّ، وفي أحسن الأحوال ديْسم!

ٱرتاب وأُخذ، بل فزع ووَجَل... وأوَّل ما خطر له، أن يسرع إلىٰ البيت، يأتي ببندقية صيد يحتفظ بها، وإن لم يكن يحسن حملها وٱستعمالها!... لـٰكنه تمهَّل قليلاً وأبطأ، فلعلَّه متخيِّلٌ وَاهِم.

عاد الصوت ثانية فٱقشعرَّ بدنه... ذُعِر، وفي محاسبة سريعة وَجد أنَّ توجُّهه إلىٰ البيت قد يستثير الحيوان المفترس أو الإنسان السارق، ويبعثه علىٰ مطاردته ومباغتته قبل وُصوله إلىٰ مأمنه، فتسمَّر في موضعه، يرجو أن يكون مخطئاً... تحسَّس منضدةً صغيرة إلىٰ جوار مقعده، يبحث عن هاتفه الجوَّال عسىٰ أن يطلب النجدة، فٱنكفأت وسقط ما عليها!

كان الصوت يأتيه من خلفه، وقد تبين له الآن وٱنجلىٰ بلا خفاء أنه صوت منطق وحديث، لا خبطٌ وخشخشة، وكأنه نداءٌ من قريب وخطابٌ وحديث يتوجَّه إليه:

يا هـٰذا! السلام عليكم!

ٱستبهم «نجيب» وٱرتُجَّ عليه، تلجلَج فلم يقدر علىٰ النطق، وهو يتساءل في نفسه ويحدِّثها: مَن عساه يكون؟ ماذا يريد؟ ولمَ لمْ يدخل البيوت من أبوابها ما دام مسلِّماً، لا سارقاً ولا مُغيراً؟

قام من مقعده وَاقفاً، وقد تخلىٰ عن منظاره المكبِّر، نحَّاه بدفعة كادت أن تخلَّ بتوازن قاعدته وتسقطه ـ بعد المنضدة ـ أرضاً، والتفت تجاه مصدر الصوت، فرأىٰ أشباحاً ثلاثة! صورةً مشوَّشة بالكاد أظهرت أشكالهم، دون شيء من تفاصيل أجسامهم أو ملامح وُجوههم. وأكثر ما كان يُقلِقه أنَّ العلَّة في خفائهم وٱضطراب صوَرهم، هو طبيعة الأجسام التي تتراءىٰ له، لا الظلام، وما يلحقه من غشاوة علىٰ بصره وضعفٍ في نظَره!...

وبعد الخوف والوَجل، بدأ الخوَر يتسلَّل إليه وأخذ الضعف ينتابه، كأنَّ منسوب السكر في دمه قد ٱرتفع فجأة أو ٱنخفض، فهو علىٰ أية حال مصاب بداء السكر، وإن لم تنزل به نوبة منذ أمَد، مع التزامه الحِمية وٱنتظامه في العلاج، لـٰكنَّ الصدمات العصبية والٱنفعالات النفسية الشديدة مدخلٌ وعلَّة لا تنكَر للنوبات... ٱعتراه جفاف في فمه، وسرَت إلىٰ يديه رجفة، وأخذ العرق يرشح من جبينه، كاد أن يغمىٰ عليه، لولا نسمة باردة هبَّت، لَفحت وَجهه، فجفَّفت العرَق، ولَذعت بشرته، فأورثته إفاقة ويقظة كان في أمسِّ الحاجة إليها.

تمالك نفسه وتماسك، ولا سيما أنَّ الصورة أخذت تتَّضح شيئاً فشيئاً، وإن لم تكتمل تماماً: إنهم ثلاثة... يرتدون أثواباً عربية سابغة، جلابيب وجُبباً بأكمام وَاسعة، ويعتمرون عمائم مرخاة الذوائب، مرسَلة ما تحت الحنَك، وقد ٱشتمل أحدهم دون صاحبيه علىٰ عباءة فاخرة، كأنهم من عهود غابرة وأزمنة مضت وأصبحت تاريخاً!

مَن هـٰؤلاء ومن أين جاؤوا؟... لم يذهب الروْع عن «نجيب» وهو يتساءل، ولـٰكنَّه تمالك نفسه وردَّ السلام متلعثماً. فأقبل نحوه أحدهم، متبسماً، وكأنه تعمَّد أن يقف في مسقط نور يكشف وَجهه، يريد أن يزيل عن مخاطَبه بعضَ روْعه وٱضطرابه...

وَيحي! هتف «نجيب» في نفسه، إنه يضيء كمصباح، يشرق ويزهر من ذاته، فلا ضوء هنا يكشف شيئاً، ولا نور وَقع عليه أو تلقَّاه، إنها إضاءة ذاتية! ثم ما لبث الرجل أن مدَّ يديه أو بسطهما كمَن يتهيأ للمعانقة أو يريد أن يحتوي شيئاً، فإذا بهما بيضاوتان تشعَّان نوراً يبدِّد الظلام!

حاشَا لله ما هـٰذا بشراً، إن هـو إلَّا نبيٌّ كـ «موسىٰ» أو ملَك كـريم!... أقبل الرجل نحو «نجيب» ببطء، في خطىً متقاربة، ما كـأنه يخطو ويمشي، فهو لا يرفع قدماً ويضع أُخرىٰ، بل يسير كدُمية آلية، يدبُّ علىٰ عجلات، يدرج حين تدور، أو هو يتحرَّك علىٰ وِسادة هوائية ترفعه عن الأرض، فيمضي وهو علىٰ هيئة الوقوف! حتىٰ إذا قرب، ضمَّ يديه وكفَّر كعبد أمام سيِّده، أو تلميذٍ أمام شيخه ومعلِّمه، ودسَّ كلَّ يـدٍ في كُمِّ الأُخرىٰ من جلبابه، كما يفعل الصينيون القدماء في الصوَر التي تظهرهم بلباسهم التقليدي، لعلَّه أراد أن يزرع في نفس مخاطَبه الطمأنينة، يعلن بلسان الحال أنه لا ينوي تعدِّياً أو إلحاق أذىً، ولا سيما أنَّ الضوء الذي ٱنتشر عند بسط ذراعيه في حركة يديه الأُولىٰ لبث ولم يزُل بعد أن ضمَّهما!

: هل لنا أن نتحدث إليك؟

: مَن أنتم، ماذا تريدون؟

: إعتبرنا ضيوفاً.

: هل أعرفكم أو تعرفونني؟ كيف قحمتم أرضي ودخلتم بيتي؟ هـٰذه أملاك خاصة. وما دمتم من أهل السلام، ويبدو أنكم من دين الإسلام، كيف دخلتم بيوتاً دون ٱستئناس من أهلها وٱستئذان؟

: لم ندخل بيتاً بل مشينا في أرض لم تُسوَّر أو تُسيَّج، فمن أين لنا أن نعرف حدودها، وهل هي ملك خاصٌّ أم مَواتٌ للعامة؟

: كُلُّ الناس تعرف حدود أرضي التي فيها بيتي، سلوا مَن شئتم من أهل البلدة؟... وإذا لم يكن العقار مسيَّجاً كلُّه، فإنه لا يخلو من بوابة ومدخل تجاه الطريق العام، يلِجُه الضيف ويقف عنده الطارق.

: لسنا ممن يعتدي، إنما اطَّلعنا على حالك وعرفنا خلو الدار من النساء، ووَقفنا على وَحدتك وانقطاعك، وإننا ـ بدخولنا عليك ـ لن نكشف عورة ولن نهتك حرمة.

: بل فعلتم.

: لم نفعل... ولكن مهلاً يا أخي، هل من سبيل إلى جبر ذلك غير الاعتذار وطلب العفو والسماح؟

: لقد روَّعتموني ولستُ بالفروقة والترعابة، وقد استطار فؤادي من الذعر، ونزا قلبي من الخوف، وما زال يقوم ويقعد، وهذا خفقه ووَجيبه ينذر بسكتة تُوقف نبضه.

راح الرجل في طلب الصفح والتماس العفو بلُطف ورقَّة ودماثة، وتواضع بلَغ التذلُّل، ما ذلَّل شَموس «نجيب» وطوَّعه، فثابت إليه نفسه، وأمن سِربه، واطمئن قلبه، وقرَّ ووَدع، فانقلب التأنيب والعذل منه، عذراً وبراءة لمخاطَبه، وتحقَّق المثل: " المعذرة تُذهِب الحفيظة " .

: بـالله مَن أنتم، ماذا تريـدون؟ يبدو أنكم قصدتم المجيء، ولستم عابري سبيل، هل أعرفكم أو تعرفونني؟

: كلَّا، نحن أغرابٌ لا تعرفنا ولم يسبق لك أن الـتقيـتنـا، اللهـم إلَّا في بعـض الـرؤىٰ والأحلام! ولـٰكننا نعرفك! أنت نجيب ٱبن عبـدالله ٱبن علي آل عطاالله؟ وأُمك فـاطمة ٱبنة علي، من أهل حيٍّ «براحة الدبوس» في «الكويت» القديمة؟

ٱرتج علىٰ «نجيب»، وأُخذ، وعادت إليه حيرته ورجع ٱضطرابه الذي زال قبل هنيهة، إنهم يعرفونه حقَّ المعرفة! ويصنِّفونه بكيفية غريبة، ينسبونه إلىٰ جذور قلَّ تُذكَر اليوم، مَن له أن يعرف أحياء «الكويت» القديمة؟ وجُلُّ هـٰذا الجيل من أبناء «الكويت» يجهلها، فكيف عرف هـٰذا الغريب «براحة الدبوس»، وأتىٰ علىٰ ذكرها هنا في «جبل لبنان»؟!... وعند هـٰذا الخاطر، تنبَّه إلىٰ أن الرجل لا يتحدَّث بلهجة لبنانية أو سورية، ولا كويتية ولا غيرها، بل بالعربية الفصحىٰ التي لا تناسب ثقافة «الغجر» أو «البدو»، وكان قد حمل أزياء القوم والملابس التي يرتدونها علىٰ أنهم من «الغجر»، وظنَّهم من الرُّحَّل الذين صادَفَ مرورهم هنا، فكان منهم ما كان.

ثم ماذا أراد من قوله " بعض الرؤىٰ والأحلام " ؟ هل هو مطَّلع علىٰ هـٰذه الأسرار المستسرة؟... أدقِّ وأخفىٰ خفايا النفس؟ أتراهم من السحَرة الذين يتوغَّلون ويتسلَّلون إلىٰ المنامات؟!

تدبَّر شيئاً وتفكَّر، فحسِب أنَّ هـٰذا لم يكن... ولـٰكنَّه ما لبث أن عاد وتذكَّر أنه رأىٰ أحدهم في رؤيا، وكأنه شاهد هـٰذا الثاني أيضاً! بل سبق أن عاش هـٰذا المشهد وحضره! نعم، صدق الرجل في زعمه، لقد رآهم من قبل في منام، ودار بينهم مثل هـٰذا الكلام!

: إسمح لنا بمحادثتك، لقد قصدناك في حاجة! ولن تجد منا إلَّا ما يسرُّك.

عاد «نجيب» إلىٰ حيرته ورجع إلىٰ ٱضطرابه، الذي زال لِلَحظات فقط، فالأمر يبدو أكثر تعقيداً من حدَث عابر ومرورٍ خاطئ، أو قصدٍ لطلب مالٍ أو التماس إعانة ومساعدة كما ظنَّ وحدَّثته نفسه.

: من أنتم ومن أين أتيتم وكيف عبرتم هـٰذا الجبل، فلا طريق هنا يسلكها البشر؟!

: لسنا من البشر!

: ماذا تقصد؟ لستم بشراً، ماذا تكونون إذن؟

: عذراً علىٰ هـٰذه الفوضىٰ والجلَبة، إنه أول عهد هـٰذا (وأشار إلىٰ أحَدِ رفيقيه دون الآخر) بالتجسُّم في هـٰذه الأبدان! لم يسبق له أن ظهر وتمثَّل بشراً! هل لك أن تهدأ ولا توْجل، فما نريد بك إلَّا خيراً، وسترىٰ منَّا ما يرضيك ويسرُّك، وإن أبيت ورفضت عَرْضنا، فنحن راحلون... لن نقهرك ونُكرِهك. نحن لسنا من بني «آدم»!

هنا، عند بلوغ هٰذا المقطع وٱرتسام هٰذا المشهد، تفقَّد «نجيب» عوذة لا تفارقه، تميمة تتدلَّى من عِقد في عنقه، ولجأ إليها علىٰ عادته، فقد ٱتَّخذها منذ أمد حرزاً ما زال يكلؤه ويحفظه، يردُّ عنه المصائب والأخطار، ويدفع المعتدين والأشرار، وطالما جلب له الخيرات والمسرَّات، وحقَّق له الشفاء من الأسقام والبرء من الآفات: أيقونة " كفِّ العباس " .

هٰكذا عاد المفكِّر التقدُّميُّ رجعياً كما هو في حقيقته! وظهر الكاتب العلميُّ خيالياً يؤمن بالغيب ويحكِّم الأقدار، والفلسفيُّ المتعقِّل خُرافياً يقفز علىٰ قانون العليَّة والأسباب الطبيعية، وبانَ المثقف المتحضِّر قُرَوِياً يلُوذ بالتمائم والحجابات، وتبيَّن أنَّ الأديب البارع رجل شعبي تغلبه ثقافة العوَام... رجع إلىٰ أصله ومعدنه، وآب إلىٰ فطرته، تفوَّق عليه طبعٌ وقادته جِبلَّة يبدو أنها تستقي من " إيمان العجائز " وتُجاري فهم البسطاء... وكثيراً ما تعـرَّض إلىٰ تعيير زملائه، وتقبيح أقرانه، وطالما طالته سخريتهم، حين كانت تصدر منه مثل هٰذه الأفعال، وتظهر فلَتاتٌ لا تكون إلَّا من مُنتسِبٍ زوراً إلىٰ العصرنة، ومُندسٍ في الحداثة، وغريب عن العقلَنة.

دسَّ يده في جيبه بعد أن حلَّ عُرىٰ قميصه، وراح يبحث بين طبقات ثيابه، حتىٰ عثرت أصابعه بـ " الكفِّ " فالتقطها، ولزمها بكفِّه، وضمَّ أو أطبق عليها قبضته! وهي أيقونة أوْلاها خاصة عنايته، كان قد أوْصىٰ أن تُصاغ من خالص الفضِّة علىٰ يد صانع ماهر، وقد رصَّع أطراف أصابع " الكفِّ " بفصوص خمسة من أثمن المجوهرات وأنقىٰ الأحجار الكريمة: عقيق للإبهام، ودُرٌّ للسبابة، وماسٌ للوسطىٰ، وزبرجد للخنصر، وياقوت للبنصر... عندها، هتف في نفسه: " يا أبا الفضل " !

تبسَّم الثلاثة، وكأنهم سمعوا تلفُّظ النداء الباطني، ولعلَّه ظهر همساً نبَس به «نجيب»، أم تراهم يقرؤون خلجات الأنفس وخوَاطرها وتسري إليهم أحاديث الأرواح، فبلغتهم الندبة وإطلاق النداء؟!... غيَّرت الابتسامة الأجواء، وأوْرثت الحال هدْأة، وخلعَت عليه من الراحة مسحةً، وأعادت في نفس «نجيب» بعض طمأنينة، فقرَّ الرجل ثانية وسكَن شيئاً... أم تراها فِعل الأيقونة ـ التميمة وتفاعلات معادلتها وإكسيرها الخفي؟

تحدَّث الأقصر قامة معرِّفاً نفسه وصاحبيه:

هـذا «هب»، وهـذا «رع»، وأنا «عيص».
هـذان من سكان كوكب «الزهرة»، وأنا من جنٍّ «نصيبين»! وقد جئناك في حاجة وقصدناك لأمر خطير، لا ينهض به ولا يقدر عليه غيرك، عسىٰ أن لا تخيِّب رجاءنا!

ظنَّها مُزحة ودُعابة، وسجَّلها ثقيلة سمجة، عمد إليها بعض أصحابه ممن يقف علىٰ ميوله ويعرف العوالم التي يعيش والأجواء التي يتحرَّىٰ... فأخذ يتلفَّت وصار يتساءل عن موضع "الكاميرا" التي تلتقط وتسجِّل المشهد، وتوثِّق ردَّ فعله، وكيف تنطلي عليه المزحة؟! فلما ٱنتفىٰ هـذا الفرض، بعد ما رأىٰ من الجماعة وتلمَّس فيهم، ٱنتقل إلىٰ التحقُّق والتثبت، وراح يخاطب المتكلِّم الذي عرَّف نفسه وصاحبيه:

هل أنت جادٌّ أم هازل؟ ماذا جاء بكم؟
وكيف ظهرتم عليَّ؟ أتزعم أنك جِنيٌّ؟
وهـذان كائنان من سُكان «الزهرة»؟

وهل في «الزهرة» بشر؟ هل فيها أيُّ ضربٍ من حياة؟ أو عوامل وأسباب ترتكز عليها كلُّ حياة؟ هل هناك ماء وهواء، وبيئة تسمح بوجود كائنات حيَّة ولو بدائية؟ أي شكلٍ لعناصر ومواد عضوية؟... ناهيك بأن تكون مأهولة مسكونة بموجودات كاملة مثلكم؟ ها أنتم بشر، مثلكم مثلي، وإن بدت الغرابة في مُحيَّاكم وغلبت الٱستيحاش سيماكم!... ما هٰذه الصفرة والشحوب الذي يضرب وُجوهكم؟ هناك غرابة في أشكالكم، كأنكم هيئات مرسومة لا مخلوقة، مصنَّعة لا طبيعية، مسحة مرضىٰ وسَحنة موتىٰ، صوَر شاخصة لا حقائق ماثلة!

ماذا قلتَ للتو؟ بالله أعِد مقولتك وكرِّرها... كيف عرفت ٱسمي وحدَّدت هويتي؟ ما أراك إلَّا محتالاً، جعل المكر سبيلاً. ٱنصرف قبل أن أطلب النجدة وأستدعي "الدرك". طلَقٌ ناري وَاحد كفيل بٱجتذاب الجميع، أو صرخة مدوِّية ستشقُّ سكون هـٰذا الوادي، ويبلغ رجعها كلَّ بيت، وما هي إلَّا لحظاتٌ حتىٰ يجتمع أهل البلدة كلُّهم هنا.

: مهلاً يا «نجيب» ورفقاً بنا، نحن إخوة لك وأحبَّة. لم نأتِ معتدين ولا مفسدين بَطِرين، ولو عرفت ما لقينا في سفرنا وتجشَّمنا من عناء، لرحَّبت بنا وٱحتفيت، ولأحسنت وِفادتنا، فأنت كريم تُقري الضيف.

دع عنك طلب النجدة فتفسد أمراً عظيماً يوشك أن يقع لنا ولك! أمر ستبقىٰ أسير فضله ورهين بركته حياتك كلَّها، وسيلازمك خيره ويلحق بك في نشأتك القادمة، البرزخية، ثم المَعادِيَّة الأبدية الخالدة، ترفل من عطائه في الجنان، تنعم إلىٰ جوار أوليائك وسَادتك. إننا نحمل إليك بشرىً عظيمة، ونسوق ـ لو علمت ـ خيراً كثيراً.

إنَّ في هٰذا الجنيِّ لُطفٌ آسر، وفي صوته لَعُذوبة، وفي بيانه رقَّة تروق السامع وتستميل قلب الحاضر، وتذلِّل كلَّ عائق دون تصديقه، حديثٌ كأنه نغَم، وبيان كلُّه سحر! شيءٌ يستلب القلب ويهيمن علىٰ النفس، بسلطان وقهر، كأنه يخضعك ويُسَيِّرك... وليس «نجيب» ممن ينقاد ويخضع، ولا من سرعان الناس الذين يبادرون إلىٰ الٱتباع، ويسهل عليهم الٱقتناع، إنه مشاكسٌ عنود، وإن غلَبه العمر وسكَّن هٰذه الصفة وبدَّد هٰذه القوة فيه، لٰكنَّ المطاوَعة والٱنسياق، وقُل إن شئت الخضوع، لم يبلغ فيه مرَّة هٰذي الحدود، ولا جعلته مُسيَّراً مسلوب الإرادة كما يظهر الساعة!

تغيَّر لحن «نجيب» وتبدَّلت حالته، لَانَ وخضع، وتفوَّق فيه الطمع، غلب الحرص على الحذر، أو قُل سكَّن الأملُ القلقَ، فقد ٱستحوذت الجملة الأخيرة على مجامع قلبه وحظيت بعنايته، هيَّجت دفائن غرائزه، وٱستنهضت شهوة الفضول ورغبة حبِّ الاستطلاع في نفسه، وأجَّج الشوق للجائزة أهواءه، وفعلت اللهفة للبُشرىٰ الموعودة ـ وإن كانت من غريب يزعم أنه جِنيٌّ ـ فِعلها، فأمضت عزمه وغلبت تردُّده... فصار في غير موضع وحال، وأمسىٰ يحدِّث نفسه: " هٰذا الرجل يبدو صادقاً " !

والحقُّ أنَّ ما ٱستحثَّ «نجيباً» هنا، وما يستحثُّه في مثل هٰذه الحالات، بل في حياته كلِّها، هو الحبُّ!...

الرجل مُغرَم كلِف، مستهام دنِف، ولٰكن علىٰ طريقته المتعمِّقة في كلِّ شيء، لا يعشق فتاة حسناء أو ٱمرأة غيداء، ولا بلداً جميلاً ووَطناً عزيزاً، ولا مالاً يغنيه وجاهاً يحميه... بل يحبُّ شيئاً في داخله، خالَط طينته ومُزج بروحه، فتراه يُسقِط الحبَّ تارة علىٰ هٰذا، وأُخرىٰ علىٰ ذاك، يلتمس له مصداقاً، ويرجوه في كلِّ كامل وجميل، عسىٰ أن يلقىٰ مُناه.

وهنا، بعد تلك " الأيقونة " والعوذة التي تحميه وتُؤمِّنُه... يأتي " قرين " يصاحبه، وجليسٌ يعاضده، ورفيقٌ لا يخذله، يطلُّ عليه بين الفينة والفينة فيُلهمه، ويخلو به كلَّما دعَت الحاجة فيحدِّثه. أخبر عنه أحَدَ أصدقائه، فقال إنه وَهْمٌ من صنع خياله، شجرة يلجأ إلىٰ ظِلِّها من جدب الزمان وقحْل الليالي وهجير الأيام، وجدار يحتمي به وكهفٌ يأوي إليه، يداري عجز المفكِّر عن إعمال أفكاره، وإخفاقه في تنفيذ رؤاه، فينكفئ ليعيش آلامه وغُربته، فيسمع أصواتاً تحدِّثه وترتسم له صوَرٌ تسلِّيه!

وقد جمع «نجيب» إلىٰ معاناته من إصلاح الفساد وتقويم الزيغ، ولحق بهمومه في نشر العدل، وكلِّ كمال يطمح إليه ويقصُر عن تحقيقه، أمرَ تهذيب نفسه وتربيتها، وسعيه لتعادل القوىٰ في روحه وتزكيتها، ما كان يتطلَّب ـ في بعض الأحيان ـ سلوكاً غريباً يعمد فيه إلىٰ مخاطبة ومحاسبة نفسه بعالي صوته، ويُقرِّعها علىٰ آفاتها، ويُوبِّخها علىٰ زلَّاتها! يهينها ويحقِّرها، حتىٰ تنكسر وتذلَّ، فيخرج من معتزله ببعض سلامة وعافية!

هناك، في تلك المواضع والحالات، التي قد تكون معتكفاً كالذي يعيشه الآن، أو محراباً في مسجد يقضي فيه ليله، أو بقعةً مباركة في ربوع روضةٍ من العتبات المقدسة التي تكثر زياراته لها، رواقاً أو صُفَّة، يلوي بها عنقه كسائل مسكين، يمدُّ يَدَ الٱستجداء إلىٰ وَليِّه، وفي غير ذلك، حين يكون غارقاً في مكتبته، مستغرقاً في أبحاثه ومطالعاته... يأتيه صوتٌ، أو يغلبه خاطر لا يشكُّ أنه وَحيٌ يُلهمه. وصار "قريناً"، لم يخذله يوماً ولا خيَّبه مرَّة، وما زال ـ منذ أمد ـ يأخذ بيده ويسدِّده، ويقوده إلىٰ خيره وصوابه... و "القرين" الساعة يشير عليه أن يجاري هٰؤلاء، يسمع لهم ويلحق بهم، بل يُلزمه بذلك ويأمره، ويحذِّره أن تفوتَه هٰذه الفرصة وتضيع عليه!

وبينا الآخران في صمت مطبِق، بل جمود ووُجوم، لا تطرف لهما عينٌ ولا يرفُّ جفن، حتىٰ الأنفاس، محتبسة، ما كأنها تتصاعد في صدر! صمتٌ يبثُّ فيك تردداً وحيرة، وبعض عجب ووَجَل، ولٰكن يغلب ذلك ما يبدو في الوُجوه من سيماء الصلاح، وما يشعُّ من رسالة سلام ونداء أمان، علىٰ الرغم من تلك الصفرة والشحوب الذي يصبغ محيَّاهما، ويضفي تقاطيع كلَّها جِدٌّ وعزم... راح «عيص» يحدِّث ويبيِّن مفصِّلاً:

أنا جنيٌّ من أهل الإيمان، لا أُزكِّي نفسي ولا أغترُّ بحالي فأزعم أنني وَليٌّ لله، وصالحٌ من خيرة قومي، ولكنَّ الحال يقتضي البيان، وكلُّ ما أقوله الساعة هو أنني موالٍ ملتزم ـ إن شاء الله ـ أنحدر من سلالة جِنِّي «نصيبين»، الذي قدم «النبيَّ» ﷺ بـ «بطن النخل»، جاء مع الثمانية من «بني عمرو بن عامر» من جنِّ «اليمن»، من «الأحجة»، (أو «وَاحجة» التي تقع في تقسيمات اليوم ضمن محافظة «تعز»)، فاعتذروا بأنهم ظنُّوا أن لن يبعث الله أحداً، وهم «شضاه»، و«مضاه»، و«الهملكان»، و«المرزبان»، و«المازمان»، و«نضاه»، و«هاضب»، و«هضب»، الذين قال الله تبارك اسمه فيهم: ﴿وإذْ صَرَفْنا إليْكَ نَفَرًا من الجنِّ يَسْتَمِعُونَ القرءانَ فلمَّا حَضَرُوهُ قالوا أنصِتُواْ فلمَّا قُضِىَ وَلَّوْاْ إلىٰ قوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾﴾ (الأحقاف).

نحن الذين ذكرَنا مولانا «أميرالمؤمنين» عليه السلام، وفاخَرَ بنا اليهوديَّ الذي سأله عن فضل «محمد» ﷺ على جميع الأنبياء، قائلاً: هذا «سليمان» سُخِّرت له الشياطين يعملون له ما

يشاء من محاريب وتماثيل؟ فقال له «أميرالمؤمنين» عليه السلام: لقد كان كذلك، ولقد أُعطي «محمد» صلى الله عليه وآله أفضل من هذا، إنَّ الشياطين سُخِّرت لـ «سليمان» وهي مقيمة على كفرها، ولقد سُخِّرت لنُبوَّة «محمد» بالإيمان، فأقبل إليه تسعة من جنِّ «نصيبين» و«اليمن»، من أشرافهم، ولقد أقبل إليه أحد وسبعون ألفاً فبايعوه على الصوم والصلاة والزكاة والحج والجهاد ونُصح المسلمين، وٱعتذروا بأنهم قالوا على الله شططاً، وهذا أفضل مما أُعطي «سليمان»، سبحان من سخَّرها لنبوة «محمد» صلى الله عليه وآله بعد أن كانت تتمرَّد وتزعم أنَّ لله وَلداً، فلقد شمل مبعثه من الجنِّ والإنس ما لا يُحصى.

يا «نجيب»! لن ينالك منَّا سوء، وعما قريب ستنكشف لك الأُمور وتأنس بنا وتقرُّ عيناً، وتحدِث لربك شكراً. كل ما أُريده منك الساعة هو الصبر والٱمتثال، وأن تكفَّ ما ٱستطعت عن السؤال، وتترك إجابة ما يختلج في صدرك ويجول في ذهنك لساعاتٍ لن تطول، فلن يُضنيك الٱنتظار...

: ومَن هـٰذان اللذان معك؟

: إنهـما من سكّـان «الزهـرة»!... هـٰذا سيـدي «هب»، ما زلـت خادماً له حياتي كلَّها، وإن كـنتُ ـ حسب قـوانين عالمنا ـ مسخَّراً ومكلَّفاً فمُـرغماً، إلَّا أنـني أخـدمه عن شـوق ورغبة، وأتشرَّف وأفتخر بهـٰذه الخدمة.

إنه من كبار العلماء وكُمَّل العرفاء، أحد خيرة الحكماء المتـألهين في قـومه، المـشهـود لهم بـالتقـوىٰ والـوَرع، وبـالزهـد والاْنقطـاع إلىٰ الله... وهـو بعـدُ، مُعلِّمي وشيـخي، ولـه من الفضل عليَّ ما حقَّ أن أفديه بروحي.

أما «رع»، فخـادمه وحـارسه من بني جنسه. ولا بـدَّ أن يـصحبه أثنـاء الحركـة والاْنتقـال، للحماية والسلامة! فالسفر بين العوالم محفوفٌ بالمكارِه والمخاطر، والتنقُّل بينها أمرٌ عصيب عسير، والمراكب و " البِراق " جَموحَة، والمسارب وَعرة والمداخل مَنيعة، دونها عوائق الطبيعة، وأُخرىٰ من شيطنة سكّان " العوالم الموازية " ، تمنع المتوغِّل وتردُّه، وقد تتخطَّفه وتصرعه، أو تـستلبه وتـسترقه ثـم تسخِّره! وعلىٰ أية حال فهو سفَر كلُّه عناء ورهَق.

لذا لا بـدَّ من سرعة فائقـة، لـكن دون نزَق
وعجَل! هنـاك مـوَاقع عليه أن يهـرع فيهـا
ويمضي كشهاب ثاقب، يقطع كلمح البصر
ولمع البرق، وأُخـرىٰ يتريَّـث فيهـا ويتـوانىٰ،
يهوِّد ويتثاقل، يتخفَّىٰ حتىٰ لا تلحظه السدود
المانعة والحواجز الحارسة والجند المتربصة،
فيسلك بينها روَيداً ويتوغَّل خلالها مُخِفّاً!

وراح «عيص» يفصِّل في حال سكَّان السماوات، فظهر أنَّ منهم قطَنة الكواكب والأجرام، ومنهم متنقِّلون يقضون حياتهم بالترحال والتجوال، يقطعون المسافات ويخترقون العوالم وينفذون في الطبقات، وجلُّ كائنات الفضاء ملائكة، من كلِّ قبيلٍ ورعيلٍ: رُسُل ومسبِّحون وحفَظة وجوَّابون ورقباء، منهم مَن يضطلع بتكليف ومهمة وَاحدة، وهناك أُولي مهام مثنىٰ وثلاث ورباع، ويزيد الله في الخلق ويضيف في التكليف ما يشاء. وهناك حيَوات أُخرىٰ وعوالم موازية ودُنىً مقارِنة، تحيط بدُنيانا وتتخلَّل عالمنا وحياتنا، فناهيك بالعوالم الظاهرة كالحيوان (من الثديِّيات إلىٰ الحشرات والديدان والأميبيا ودقائق الأحياء الشفافة)، هناك كائناتٌ أُخرىٰ خفيَّة، قويَّة وفاعلة، لا يدرِكها الإبصار، وإنْ بالمجاهر المقرِّبة، تعيش بيننا، وبعضها يطَّلع علينا ويشهد حياتنا، ولبعضها الآخر دوْر في تدبير عالمنا! وإن أخلَت لإرادة الإنسان وأفسحت له حُرية الخيار والحركة، إلَّا أنها تدير الأُمور وتوجِّهها لتنتظم وتتوافق مع المشيئة والإرادة التكوينية، فتتدخَّل تارة لتلجم وتكبح، وأُخرىٰ لتحوط وتدفع، فتوَجِّه المسيرة نحو غاياتها المنظورة.

كائنات حيَّة، قد تَظهر لنا جمادات هامدة، فاقدة الإحساس والإدراك، معدومة الفعل والعمل! لكنَّ الحقيقة أن لا شيء في الوجود ساكن، ولا موجود خامل، لا المرئيُّ منها ولا المخفي، فلا شيء إلَّا يدرِك و "يعقل" ، ثم يعبد ربه ويسبِّح خالقه، ولكنَّنا لا نفقه تسبيحهم...

إذن، هناك مخلوقات مُصاحِبة لسكَّان الكواكب والنجوم، وهكذا الحال للبشر على كوكب الأرض، تعيش عوالم وتدور في نطاقات منفصلة عنه، وليس بالضرورة أنها مثل الجنِّ الذي يُقال أنه يقطن في الكهوف والمغاوِر، ويساكن الخفافيش والبُوم، وينزل الدور المهجورة والأطلال والخرائب، أو ينزوي في البراري والسهوب، وينأى في الآبار، ويستوطن بعض الحقول، أو يندسُّ بين صخور الشواطئ، أو يختبئ في الجرود والوديان القاحلة، ويبيت على رؤوس الأشجار، وفي سفوح الجبال شديدة الانحدار... بل قد تعيش معنا في بيوتنا وقُرانا ومُدننا وأسواقنا وحوانيتنا ومعامِلنا، فلا نحن نشعر بها، ولا هي تُعيرنا بالاً، تتجاهل وُجودنا وتمضي لتخترقنا وكأننا عدَم أو هباء، وإن التفت إلينا بعضُها لِعارض، فكما نلتفت نحن إلى نملة، أو ذرَّات غبار حطَّت على سطح منضدة، أو ميكروب أنزل بأحدنا وَعكَة، أو أجرام مزعجة أحدثت تلَفاً بآلة وألحقت عطَباً بجهاز.

وهي تعيش حياتها وتنهض بمستلزماتها، ولها بيوتها ومساكنها وبلادها وأقاليمها، وطرقها ومسالكها ووَسائل حركتها وتنقلها، ولها طعامها وزادها وقُوتها الذي قد يكون الهواء، أو ذِكراً يجول في نفسها، تستمدُّ منه الطاقة فتستمر به حياتها. ولها أسباب كسبها وسُبلُ معاشها، تفعل ذلك بكيفية تناسب طبيعة أبدانها، ورتب أرواحها، وما تتطلَّبه هذه وتقتضيه تلك...

كلُّ ذلك في عالم موازٍ لعالمنا، مقترِن به وبنا، ومتداخل مكاناً وزماناً، ومتقاطع مع عيشنا وحياتنا... ولكنَّها تختلف معنا في الأُفق والمدار، وقُل إن شئت: "النطاق"، الذي تحكمه كثافة الأجسام أو لطافتها، ما يغيِّر الطبائع والحاجات، وكذا الطاقات والإمكانيات، ولا سيَّما القدرة علىٰ الإحساس ومدىٰ التمتُّع بالملَكات والقدرات، وبالتالي ـ وهو الأخطر ـ سعة المدركات وحجم الفهم والتعقُّل، فالمعرفة.

كائنات مختلفة، غاية في الغرابة، جُلُّها شياطين وجنٌّ وعفاريت، تقابلها ملائكة، وخلق بين هذه وتلك، لعلَّ الخيال العلمي وأفلام السينما صوَّرت بعضها، وأُخرىٰ لا تطرق لها تخيُّلات ولا تبلغها أوْهام. قد تكون عبادة بعضها لِربها وَمضةً تعني التسليم والطاعة، وتشير إلىٰ بلوغ الوَجْد، وأُخرىٰ فكرة تختلجها إطراقة تأمل، فإذا بلغت "حالاً" ما، حقَّقت مطلوبها، واتَّصلت بخالقها وأدَّت صلاتها! وثالثة ورابعة... وهناك مَن أخرَسَت عظمة الباري ألسنتها فأبكمتها، وأشلَّت أعضاءها وأقعدتها، أشخَصَتها لا تطرف، تحدِّق في بهْت وذهول، تستلهم من البُهم الصافِّين الحافِّين بعرش الله، وتنهج طريقتهم. وفوق جميع الملائك وسائر الكائنات، مَن نكس الحياء طرفه وطاطأ حبُّ الله رأسه، وخلَّفه بين لهفة الوَصْل وشوق النظر إلىٰ جمال الحبيب، وبين الحياء والخفر من تجاوُز وتخطِّي حدِّ العبودية وبلوغ الكمال المطلق المندكِّ والممسوس في ذات الله!

وبعد، فإنَّ هذه الكائنات، سواء سكَّان الفضاء وقطَنة الكواكب والنجوم، أو الأُخرىٰ التي تعيش في العوالم الموازية لنا علىٰ الأرض، لا تتطوَّر في وَسائل عيشها ولا تغيِّر من كيفية حياتها...

ولربما ٱنزعجت ولحقها الأذىٰ من التطوُّر في حياة الآدميين، وما يخلِّفه من آثار بيئية، ويُحدِثه من تغيُّرات في أنماط حياتها وطُرُق عيشها، فبعضها تسكن قطعة أثاث أو تستوطن متاعاً، لا يلبث الإنسان أن يستهلكه أو يتلفه، فيستبدل به غيره، وقد تقطن في شجرة أو حصاة في مجرىٰ نهر، ونحن لا نراها ولا نشعر بها، ثم يقع منَّا الجرف والبناء والتطوير، والهدم والتعمير، ولعلَّه يشكِّل في حقِّها ظلماً وتقصيراً، يطال حياتها ويمسُّ ٱستقرارها، تماماً كما تفعل بنا الكوارث، تهبُّ رياحٌ وتعصف أعاصير وتطمو أمواج وتجرف سيول وتفيض أنهار وتدكُّ زلازل وتثور براكين، فتتدمَّر بلاد وتنتهي حيوات، وهي في نفسها حركاتٌ من طبيعة كائنات أُخرىٰ، أو ردَّات فِعل طبيعية وٱستجابات تلقائية، لا بدَّ منها، لسلوك ٱستفزَّها وٱستثارها.

ويبقىٰ حقُّ السبْقِ والأولوية في الأكرم علىٰ الخالق، لـ «بني آدم»، فهو الأسبق إلىٰ مرضاته والأقرب إلىٰ صورة أحبائه، وقد خُلِق في أحسن تقويم، وسُخِّر له كلُّ ما في هٰذه الأرض، وعلىٰ غيره أن يُكيِّف نفسه ويصعد بروحه، ويرقىٰ ويتكامل ليكون في سبيله! فيرىٰ الحجرُ تمامه وكماله أن يصبح لبِنة في جدار مسجد يتعبَّد فيه الإنسان، أو حتىٰ في دار تأويه، ويرجو الذهبُ أن يغدو سبيكة تزيِّن أيواناً وترصِّع ضريحاً أو قبَّة مقام، والحطَب وَقوداً يدفع البرد عن عابد في جوف الليل، والشاة ذبيحة يتغذىٰ بها، والريح دابة ومركباً له، وعين القِطْر معدناً مصهوراً يسيل، والجنُّ والعفاريت عمَلة وفعَلة وغوَّاصين يبنون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفانٍ كالجواب وقدور راسيات، ليقوم صرحٌ ممرَّد من قوارير، يغري ربيبة العزِّ والملك والجاه، فتحسبة لُجَّةً وتكشف عن ساقيها!

إنَّ جُلَّ الحروب والصراعات التي تقوم علىٰ الأرض، وكذا الاختراعات والتطوُّرات في العلوم التجريبية، هي من فعل وصنع الكائنات الأُخرىٰ ولا سيما الجن، المردة الشياطين، إما مباشرة عبر الصوَر والأشكال التي يظهرون بها، أو بالإيعاز لأوليائهم من الإنس، مُسخِّريهم ومخدوميهم، في ظاهر الأمر، لٰكن ـ في وَاقعه ـ فإنَّ الأمر معكوس، فالجنُّ هم المسخِّرون المخدومون! والحقيقة أنهم لا يعبأون ـ كما يفعل البشر ـ بهٰذا ولا يكترثون، لا يحرصون مَن هو السيِّد ومَن هو المسود؟ مَن الذي يسخِّر الآخر ويستخدمه لتحقيق أغراضه؟ إنما يريدون النتيجة والمحصِّلة، وهي الإفساد في الأرض ببثِّ الضلال والزندقة، وإهلاك الحرث والنسل، ما يثبت دعوىٰ جدِّهم الأعلىٰ وأبيهم الأوَّل وكبيرهم الذي تحدَّىٰ الله عزَّ وجلَّ، وما زال مُنظَراً منذ ذلك الحين، وسيبقىٰ إلىٰ يوم الوقت المعلوم، يشهد الموقف ويدير المعركة ويدبِّر لوازمها وينهض بمقتضياتها، يغوي ويضلُّ ويحشد ويعبِّئ...

إنَّ أغلب رؤساء الدوَل، وقادة الجيوش، وأرباب المال والأعمال، وأقطاب الإدارة والصناعة والاقتصاد، هم من هٰذه العوالم الخفية، أو المتحالفين معهم. إنَّ "الانغماسيين" الذين يطلبون الموت، يتمنطقون بالعبوات الناسفة، ويفجِّرون أنفسهم بين أبرياء، يفتكون بنساء وأطفال ورجال عُزَّل، يدمِّرون المساجد والمعابد... هم من مردة الجن، أو المسكونين بالجن، الممسوسين بشياطين توحي إليهم وتؤزُّهم أزّاً، فالحرب هنا تستقطب كُلَّ شرير، وفي بعض مراحلها ومعاركها تجدها تجتذب الأنصار والأتباع والشركاء من كلِّ حدب وصوب، كلُّهم يستنفرون ويستفزُّون خيلهم ورَجِلهم، ليُحقِّقوا نصرهم ويرغموا إرادة الله جلَّ وعلا.

وهنا الأرواح، أرواح الموتىٰ وعالمهم الذي يعيشون أو يحلِّقون فيه، يسبحون أو يقبعون، فهم إمَّا راحلٌ إلىٰ نعيمه في روضة من رياض الجنة، أو هاوٍ ومنحدِرٌ إلىٰ جحيمه في حفرة من حفر النيران، وبقيَّة مُرجأٌ أمرها، تنتظر مدَد خلَفها وعوْن أحبَّتها، أو نتاج وَقفٍ أو صدَقة أجرتها في حياتها، كلمة حقٍّ قالها يوماً يهتدي بسببها أحدهم الآن، أو يمتنع عن شرٍّ وسُوء كان المتوفىٰ قد ردع الناس ونهاهم عنه، وما زال يرقىٰ بسبب ذلك حتىٰ ينتقل إلىٰ رياض الجنة، أو ينتكس، إن أسَّس لباطل وزرع فتنة، فنمَت بعد موته، والناس من بعده يقعون في حصادها ويتيهون في غيِّها، فيؤخذ ـ وهو في قبره ـ بما كان سبباً له وعاملاً فيه، فيُغَلُّ في جحيم حفر النيران.

ولم يتبين علىٰ وَجه التحديد أين يكون "عالم البرزخ" الذي تعيشه الأرواح؟ والأشياء لا تعود مجرَّدة، مهما لطُف عنصرها وشفَّت مادَّتها ورقَّت أبدانها، عندما يحكمها الظرف والحيث والمكان والزمان؟ هل هو في المقابر والجبَّانات حيث ترتهن الأبدان، أم هو منغمِسٌ بيننا، متداخِلٌ معنا؟

وبعد، فمن الكائنات المقترنة الملتفَّة بنا، مَن خلَقتها أفكارنا وصنعتها أعمالنا... فالأفعال تصنع أشكالاً وتخلق أشخاصاً وتوجِد كائنات تعكس ذواتنا، وكذا تفعل الرغبات والأهواء، وكلُّ خاطر في النفس أو شهوة، وكلُّ فكرة في الذهن أو صورة، تخلق كائناً يطارد صاحبه ويلاحقه، فالأفكار تخلق، وكذا تفعل الأعمال! وكلُّ هٰذه المخلوقات التي نُنتج ونصنع بأعمالنا وأفكارنا، تعيش في عالم موازٍ، تنتظر ٱنتهاء هٰذه الدنيا بفارغ الصبر، لتنتقل إلىٰ العالم الأقرب إليها، والأنسب لسنخيَّتها، المتنزِّهة عن العناصر الغليظة، والأقرب إلىٰ التجرُّد والٱنفكاك عن الكثرات وتنزُّلات الماهيات.

هناك صوَرٌ تلازِمنا، كائنات حسَنة جميلة أو شرِّيرة قبيحة، يقضي كلٌّ عمره في إتمامها، أو القضاء عليها و إعدامها! فإذا ٱنتهت حياته وبلغ أجَله، وحان ٱنتقاله إلىٰ عالم البرزخ، حلَّ في البدن والموقع البرزخي الذي صنع وتبوَّأ لنفسه إبَّان حياته الدنيا، الصورة التي شكَّلها أو ٱختارها، كما فعل من قبل في " عالم الذَّر " ، هيَّأ ما يريد وٱختار ما يشاء ليظهر به في الدنيا. وبعد البرزخ معاد، ثمَّ خلود أبديٌّ لا نهاية له، ولا تعقبه فرصة أُخرىٰ يمكن من خلالها الرجوع، فالتصحيح والتبديل، ﴿حتىٰٓ إذا جآءَ أحَدَهُمُ ٱلمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ۝٩٩ لعَلِّيٓ أعمَلُ صَلِحًا فيما تَرَكْتُ كَلَّآ إنَّها كَلِمَةٌ هو قَآئِلُهَا ومِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إلىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝١٠٠﴾ (المؤمنون)...

أخذت الأفكار تتزاحم في ذهن «نجيب»، وقد ٱنزعج وهو يتصوَّرها تتجسَّم فوق رأسه، شبحاً أو غولاً يكاد أن يجثم عليه! ثم تبسَّم حين حملها علىٰ كائن رحمانيٍّ لطيف، ملَكٍ حسَن الطلعة جميل المنظر، يجلِّله ويظلِّله بجناحيه ليدفع عنه البلايا ويحول دونها، ويمدُّه بالعون والغوث كلَّما ٱحتاج وطلب، فهو لا ينوي بأحَدٍ سوءاً، ولا يضمِر حتىٰ لخصومه شراً، بل لا يرجو لهم ذلك ولا يفرح إن نزل بهم، ناهيك أن يشمت بهم.

وهو " ملتزم " ما وَسعه الٱلتزام. والأهمُّ الأخطر في سلوكه وشخصيته، وهو سرُّ التوفيق والسعادة التي حُرِمَها رفاقه من الأدباء والمفكِّرين، وأقرانه من الكتَّاب والمثقفين، فبرز من بينهم وتميَّز، سواء في مكانته والنظرة العامة إليه، أو في إبداعاته وعمق نتاجاته، وإن كان مُقلًّا، وكانوا مكثرين، إلَّا أنه كان مترقَّباً منتَظَراً، مترصَّداً مطلوباً، تلاحِق النخبة إصداراته وتتلهَّف للٱطلاع عليها، وتحرص علىٰ ٱقتنائها...

والسرُّ في ذلك، كما كان يحسب، ويهمس لبعض المقرَّبين، ليس في مقدرته وكفايته، وما يتمتَّع به من مواهب وقدرات أو مُكنة تفضي إلىٰ إبداعات، بل هي عطيَّة من سادته ومنحة من أوليائه، تلقَّاها في مناسبة، وخُلعت عليه في وَاقعة، يمتنع عن إذاعتها، ويكتمها إلَّا عن خاصَّة أحبَّته! لٰكنَّه يعلن الطريق إلىٰ ذلك والسبيل الذي ٱنتهىٰ به إليه، فعمَّه اللطف وشملته العناية الخاصة، فتلقَّىٰ الهبة وأُتحِف بالهدية...

إنَّه التأدُّب في حضرتهم! علىٰ المرء أن يخضع لسادته، يسِم جبينه ويدمغه بخاتم ملكيتهم، ويطوِّق عنقه ـ مرحِّباً ـ بنير المذلَّة وقلادة العبودية لهم. ثم لا يتكبَّر علىٰ علومهم ولا يتجبَّر، بل يعيش الخضوع أمام المعارف الإلهية، ولا سيما الولائية التي تصله بأئمته وسادته، ثم تأخذه إلىٰ معبوده وربِّه. لا تُطرح عليه فضيلة أو تعرض منقبة إلَّا تلقَّاها بالإذعان والقبول، ولا يأتيه خبر أو يسمع حديثاً يُنسَب إليهم، إلَّا سلَّم له وآمن به، فإن عسُر عليه هضمه أو لم يسَعْه فهمه، تركه في دائرة الإمكان، وأرجعه إلىٰ أهله... لا يدَّعي علماً ولا يزعم فضلاً، وإن لم يكن خالي الوِفاض، وكان يحسن بعض العلوم ويحيط بشيء من المعارف، لٰكنَّه لم يسمح لنفسه يوماً أن يخوض ويقحم ميدان علوم الدين، فيهتك ويمارس وَقاحة تنال من عقيدة، حذر أن تكون لها ـ في الواقع ـ قيمة، وتكون مرضيَّة عند سادته عليهم السلام، مطلوبة عند ربه جلَّ وعلا. إنه يعرف حدوده ويلتزمها، فلا يتجاوَز النطاقات المباحة ولا يخُلُّ بها، ولا يقحم المحاذير، إنه غير متخصِّص في علم الدين وليس من أهل الفنِّ والصناعة، فكيف له بالردِّ والرفض، والنقض والإبطال؟ كما يفعل زملاؤه، غير مبالين ولا مكترثين!

تحسبه ـ إن جالسته وسمعته يتحدَّث عن بعض عقائده ـ عجوزاً أُميَّةً، أو قُرَويّاً لا يعرف غير الرعي ولا يُحسِن إلَّا الفلاحة!... إلَّا أنه ـ مع ذلك ـ كان يفاجئ محدِّثيه حين يقدِّم لهٰذا الخطاب (الرجعي) جذوراً فلسفية ويعرض أُسساً منطقية ويأتي بأدلَّة شرعية غاية في القوَّة والإحكام! ويُثبت لهم بما يحجُّهم ويفحمهم ويبهتهم أنها أفكارٌ صحيحة وعقيدةٌ تامَّة، مبنيَّة علىٰ قواعدَ راسية، وقائمة علىٰ أُسس راسخة، وأعمدة وأساطين يعجزون مجتمعين عن هزِّ أقلِّها والنيل من أصغرها، ناهيك بهدمها وتقويضها!

كان يقول إن فكرة "برهان الصدِّيقين"، وشهود الحقائق ومثولها في النفس، صادقةٌ في نبوَّة «محمد» وولاية «علي» كما في التوحيد، فالولاية فرع التوحيد، ولا شيء في الوجود أجلىٰ ظهوراً وأكثر وُضوحاً منه... يُلحِق ذلك بمقاطع من "دعاء عرفة": "كيف يُستدَلُّ عليك بما هو في وُجوده مفتَقِر إليك؟ أيكون لغيرك من الظهور ما ليس لك، حتىٰ يكون هو المظهِرَ لك؟ متىٰ غِبت حتىٰ تحتاج إلىٰ دليل يدلُّ عليك؟ ومتىٰ بعُدْتَ حتىٰ تكون الآثار هي التي توصِل إليك؟ عمِيت عينٌ لا تراك عليها رقيباً، وخسرت صفقة عبد لم تجعل له من حبِّك نصيباً... إلهي أمرتَ بالرجوع إلىٰ الآثار فأرجعني إليك بكِسوة الأنوار، وهداية الٱستبصار، حتىٰ أرجع إليك منها كما دخلتُ إليك منها، مَصُون السرِّ عن النَّظر إليها، ومرفوع الهمَّة عن الٱعتماد عليها... إلهي هٰذا ذلِّي ظاهرٌ بين يديك، وهٰذا حالي لا يخفىٰ عليك، منك أطلب الوُصولَ إليك، وبك أستدلُّ عليك، فٱهْدِني بنورك إليك... إلهي حقِّقْني بحقائق أهل القرب، وٱسلُك بي مسلك أهل الجذب، إلهي أغنني بتدبيرك لي عن تدبيري، وبٱختيارك عن ٱختياري".

كان يطيب له أن يصِف نفسه بـ " خادم الحسين " ، وكثيراً ما يقول ويُردِّد إنه عبدٌ قِنٌّ (متمحِّض في العبودية) لـ «آل محمد» عليهم السلام، ويفتخر أنه يلحس قِصاعهم، ويقتات من فتات موائدهم، ويستجدي إحسانهم وصدقاتهم، ويكحل ناظره بتراب نعلهم، بل هو كلبٌ يبصبِص ويهزُّ ذيله ملَقاً بين أيديهم... وكان يغتنم الفرصة من جلّاسه ليحدِّثهم عن نِعَمِ أسياده عليه وأياديهم لديه، وأنَّ مدَدَهم يغمره في الشدَّة والعُسر والبلاء، كما في العافية واليُسْر والرخاء، وأنه عاش يرفل في فضلهم ويتقلَّب في جُودهم.

لٰكنه ـ علىٰ صعيد آخر ـ ما زال يعاني ويعجز عن التَّحرُّر من إطار... فهو يعيش " الأنا " ويدور حول نفسه، يجعلها محور حياته وقطب حركته، يعجز عن التحليق في سماء وأُفق القيمة بما هي هي، لا بما هي وَسيلة تخدمه (هو) وقنطرة تنقله إلىٰ المكانة التي يصبو إليها ويتمنَّاها! وإن صحَّح الفكرة، والتمس لها الحجَجَ والأدلَّة، ومنها ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾، ووَقع علىٰ ما يبرر للٱنطلاق من الذات، فلا يخرج هاجسُ الخلاص، أو تحقيقُ الأماني والآمال، والنجاةُ والفلاح، من الهدف الشخصي، فحتىٰ العيش للآخرين، والبذل والعطاء علىٰ هٰذا الصعيد، وذروته التضحية والفداء، مردُّه رجاء التكامل وطلبه لسُموِّ النفس. وإن أحسن ولم يبلغ في الأنانية المدىٰ، فيرجو لمَن بعده الطوفان!

عاد «نجيب» وسأل «عيصاً»... ويبدو أنه وَجَّه سؤاله متعنِّتاً، فقد كانت الإجابة ترتسم في نفسه، وتمثل أمامه من تلقائها، أو أنها تقرب من ذلك، ولٰكن الطبع يغلب التطبُّع، واللهو يهزم التعقُّل. أو أنه أراد المزيد، فكابَر عن السؤال، وأنِفَ من الطلب، فٱحتال بهٰذا الٱستنكار!

: ولـٰكنكم، كما أُشاهد وأرىٰ، بشرٌ مثلنا لا تختلفون بشيء يذكَر، اللهم إلَّا كما تختلف الأعراق والسُّلالات؟

: كلَّا، لسنا مثلكم ولا من جنسكم، نحن كائنات ومخلوقات أُخرىٰ! لقد تمثَّل هـٰذان بشراً وتلبَّسا هيئة بني آدم، كما فعلتُ أنا الجنيُّ، فالدخول في عالمكم والٱنكشاف والظهور عليكم، يقتضي لبس أزيائكم، لا هـٰذه الأثواب والخرَق، بل الهياكل والأبدان التي تُناظر أشكالكم، وتسمح بها طبيعة كوكبكم وأرضكم، ويفسح له عالمكم.

نعم، قد يحلُّ بعضنا أو يظهر في حيوان أو نبات أو جماد، صورة أو حقيقة، يسكنه أو يلازمه، حسب ما تقتضي مهمَّته ويتطلَّب العمل الذي جاء به ونقلَه ليحضر هنا، فبعض المهامِّ والتكاليف تلزمها الحركة والنطق، ما يتطلَّب هيئة بشَرٍ وصورة إنسان! وأُخرىٰ هي مجرَّد ٱستراق سمع ومراقبة، أو إلحاق أذىً بشخص أو بشيء، وإفساد عمل وإفشاله، أو هي مدَدٌ بعوْن ودعم ونُصرة، فيظهر في دابَّة أو حيَّة أو موج وريح!

ولربما سكَن بعضنا جداراً وحلَّ في مَتاع، أو دخل في آنية ووِعاء، أو ظهر كأثلة أو جُمَّيزة، أو تراءىٰ كغيمة أو سراب، أو تقمَّص حجَراً ونزل بئراً! ولو ٱطَّلعت علىٰ هيئتنا الأصلية وخَلْقنا في العالم والنشأة التي نعيش، لوَلَّيت منَّا فراراً ومُلئت رعباً. لا أنتم تطيقون رؤيتنا ولا نحن نتحمَّل الظهور بها.

ومع كلِّ ذلك، فكثير منكم معشر البشر يعبدوننا! يعبدون عظماءنا وكُبراء المردة منَّا، عصاة وطُغاة، فسقة وكفرة، يرجون طاقاتهم ويلتمسون قدراتهم، يسخِّرونها للٱستحواذ علىٰ الملك والمال والجاه والنساء!

ونحن طوائف وقبائل نتفاوت في أشكالنا حتىٰ نكاد أن نتباين... فالٱختلاف بيننا ليس مثله بينكم، تتفاوت أعراقكم: جنسٌ أسود وعرقٌ أبيض وسلالة صفراء، زنج وعرب وروم، فيضخم أنفٌ أو يفطس، يسترسل شعر أو يجعد، تغلظ شفَة أو ترِقُّ، تطول قامة أو تقصر، يسمن جسم أو يهزل... بل نحن نتفاوت حتىٰ يحسبنا الناظر كائنات مختلفة، لسنا من جنس وَاحد.

وبعض هـٰذا العالم موَازٍ لعالمكم، متداخِل مع دنيـاكـم، فلـو تطـوَّرت آلات الكـشف عندكم لاَلتقطت لنا صوَراً طيفيَّة، ولرأيتم أشخـاصنـا، عندها سيفجِئ الروعُ الـرائي، ويعقل الرعب يديه ورجليه، حتىٰ يصرع!

أمَّا هـٰذان، فوجودهما في عالمهما والأجسام التي يحيون بها في وَطنهما أشبه بالتموُّجات أو التكثُّفات، جزيئات تتعاكس وتتخالف، تتقدَّم كتلة وتتأخر أُخرىٰ، تعلو وَاحدة وتهبط ثانية، فتتكوَّن أشكالٌ وتفرز وتخلق كائنات، أشبه شيء بفقاعات وقوارير أو ألواح الزجاج، أو شرارات كهربية وبوارق مستمرة في التتالي والاَنسياب كبلَّورات تتدفق بالحياة، تتموج في خيوط تنحدر إلىٰ أديم كوكبها، ثم تعود إلىٰ مداها الأعلىٰ لتنساب ثانية وتتوالىٰ سَيْلاً أو شلَّالاً متدفقاً من الوَمضات، يخلق دوائر وكُرات من مكامن الطاقة وتجلِّياتها، تكمن في أجرام وأجسام لا يمكنني وَصفها، لأنَّ الأرض لا تعرف مادتها وعنصرها، لا هي تراب ولا نار، لا حجر ولا معدن، لا خشب ولا هواء.

تـدرِك وتعقل وتحيـط بما حـولهـا، لـكن دون جوَارح ممـا للبشر، فلا جلـد يلمس ولا عين تبصر ولا أُذن تسمع ولا أنف يشم ولا لسان يذوق! نعم، لعنصرها صِلَة بالماء، وكلُّ شيء في الوجود كذلك، ولـكنَّه ضرب متطوِّر، لا المتحوِّل من السائل إلىٰ الغاز (البخار) أو المتجمد (الثلج)، بل حالة رابعة، تعصي علىٰ تصوُّرك، وهناك حالة خامسة وسادسة وعاشرة للماء الذي يدفق الحياة في كلِّ شيء ويشكِّل مادتها الأساس وعنصرها الأول.

كيف لي أن أصفهم وأقرنهم بما تدرك وتعرف؟ إنهم " أثير " يتكثَّف كبلورات أو قطرات ندىً مضيئة، تسبح في عالمها وتتشكَّل في قوالبها... حياتها المعنوية بدائية، وكذا تكاليفها، أشبه بتكاليف الملائكة، محدودة مقتضَبة رتيبة، لـكنَّها تلتقي مع تكاليفنا علىٰ جوهر وَاحد وتحمل الرسالة نفسها، فهم مثلنا، في ٱمتحان وٱبتلاء، وٱنتظارٍ أن تنتهي الحياة، لتأتي القيامة ويحين المعاد، لِتُحشَر في أبهىٰ صورة وأتمِّ نشأة، أو أخسِّ شكْل وأردأ خِلقة، كلٌّ حسب ما نزعت به همَّته وٱرتقىٰ به عمَله.

وهـم الآن ـ كـما نحن ـ في مـنـدوحـة للتـزوُّد والكـسب، وسَعـةٍ تتيح لهم الـترقِّي وتـسمح بالتكـامل، وبلوغ ما يأخذ بعضهـم إلىٰ غير حياتهم وعالمهم من التقدُّم والتفوُّق.

وهـٰذا هـو ما جـاء بصاحبنا «هب»، ومعه «رع» إلـىٰ الأرض... محـور الكـون وقطب رحىٰ الـوجود، منزلِ وَلي الله الأعظم وقبلـة الله الحيَّـة النـاطقـة، وسـترىٰ ـ إن شـاء الله تعالىٰ ـ أين سيأخذه ويبلغ به الكمال!

أما قدرات هـٰذه الكائنات ومـدىٰ تطوُّرها الـدنيويِّ الحسي، مما تسعون إليه معشر البشر وتلاحقونه في " التجريبيات " و " التقنيات " ، فهي خارقة بالنسبة إليكم، تتقدَّمكم بأشواط وتتفوَّق عليكم بمراحل، بل هي تفوقنا حتىٰ نحن معاشر الجنِّ بكثير، سواء في حجم المعلوم وكيفية تحصيله، أو في الطاقات والقدرات... إنها تستطيع أن تقطع مسافات شاسعة بطرفة عين، ويمكنهـا أن تـرفع هـٰذا البنـاء وتقلع هـٰذه الربوة بإشارة، وتقدر علىٰ تحويل هـٰذا الحجَـر والتراب ذهباً بإرادة، وأن تحرق هـٰذا البستان بمحض عزم ورغبة!

وناهيك عن إمكانياتها الذاتية، فإنها توظِّف إكسيراً وتستخدم معادلاتٍ جفريَّةً تجعلها تحيط ـ إذا شاءت ـ علماً بما يدور حولها، بتفاصيل متناهية في التفريع والدقة والتجزيء! بمجرَّد أن تُجيل النظر، فكأنها " تمسح " المشهد بعينها أو أداة الإبصار لديها، وتنقل المعلومات إلىٰ عقلها أو " مخِّها " ومركز الإدراك والفهم والتحليل فيها.

: هل تعاني نقصاً وتشكو عجزاً؟ ترجو شيئاً فلا تطاله، وتحاول أمراً فلا تقدر عليه؟

: نعم، إنها في هٰذا مثلنا ومثلكم، تعيش ملذَّاتها وأهواءها، وتغالبها شياطين تغويها، ويهديها عقل، ويرشدها إمام و«حُجَّة».

وهي تتناسل وتتكاثر، ويكون ذلك بالٱنشطار والٱنقسام، أو الٱستنساخ، الذي يعرض لمن بلغ منها في التطوُّر شأواً، وفي الرقيِّ منزلة، ويصير في حالة متقدِّمة من الكمال، وقد يرثه خَلَفه في رُقيِّه أو لا يكون مثله! وبعد، فهناك زمانٌ يجري، ولأهل «الزهرة» وسكَّانها أعمارٌ تتقادم، وهم ميِّتون في نهايتها، منتقلون إلىٰ برزخهم.

والتكامل في ذلك العالم، لبساطته وبُعده عن "الكثرات" وتزاحمها، والحياة وتعقيداتها، والشهوات وتركُّبها، والإغواءات وتضاعفها، ولقربه ودنوِّه من التجرُّد والتنزُّه عن المادية والكثافة... يرتكز على التحبُّب والتقرُّب إلى الكمالات المطلقة، والانطلاق في عبادة الله تعالى والتسليم له، على التوسُّل بها.

كلُّ ما عليهم أن يفعلوه هو معرفة وَليِّ الله، النور الذي انحدر الفيض الإلهي عن طريقه، وخلع الله سبحانه على الأشياء حلَّة الوجود بسبيله. ثم التقرُّب إليه والسَّعي للدنوِّ منه والتزلُّف لديه، حتى يبلغوا النظر إلى جماله، والاقتباس من ضيائه، والتغنِّي بكماله، ما يرسخ في وُجودهم حبَّه، ويعمِّق في أرواحهم التعلُّق بشخصه.

هذه هي عبادتهم، كما الملائكة، رعيل مستغرق في الحمد والتسبيح، وآخرُ في التهليل والتقديس، وثالث في التكبير والتمجيد، وهكذا، لا يفعلون غير هذا، وهو غذاؤهم وقوام عيشهم وسبب حياتهم، كما هو أُنسهم ومبلغ سعادتهم...

إنَّ عبادة سكَّان الكواكب والنجوم والمجرَّات المبثوثة في الوجود، سواء في الآفاق والأقمار القريبة منَّا أو في السماوات السبع النائية عنَّا، هي عشق «آل محمد» عليهم السلام! هٰذا هو شغلهم الشاغل، وفعلهم الذي لا ينقضي.

يصبحون علىٰ هٰذا، بعد ليلٍ قضوه في التبرِّي ولعن الجبت والطاغوت والشياطين وحزبهم الظالمين لـ «آل محمد». وما تكاملهم إلَّا النَّهل من معين جمال «محمد» و«علي»، والحَوْم في فضاء وَلاء بنيهم، والسَّبحُ في فلك عشقهم، بعد البراءة من أعدائهم... لا طاعة ولا عبادة، ولا شغل ولا عمل لهم غير هٰذا!

وقد جاء " البيت المعمور " سلوةً لهم وعوَضاً، كعبة يؤمُّونها ويحدقون بها ويطوفون حولها، تمثِّل مظهراً مشهوداً وشاخصاً محسوساً يسكِّن بعض اللهفة والشوق الذي يعتلج في أنفُس العاشقين، وتحكي حضوراً يعوِّض الفقد والحرمان الذي يقاسون، وتوفِّر قِبلة يتوجَّه إليها مَن يريد الاتصال و " الصلاة " ، كما تفعلون أنتم في الأرض، تؤمُّون وتقصدون بـ «بكَّة» البيت العتيق.

كلُّ معاناتهم وآلامهم وأسفهم ولوْعتهم أنهم من طبيعة "سِنْخ" و "جنس" آخر غير الذي ظهر فيه «الأئمة» عليهم السلام، ومنتهىٰ حسرتهم، هو ٱفتقادهم حضور أشخاص وأعيان «الحجَج» في عالمهم، فهم ناؤون "متغرِّبون" في أصقاع قصيَّة، ولا تسعهم "الهجرة" ولا يملكون التحوُّل والاْنتقال، ما يجعلهم محرومين، يفتقدون النعمة الكبرىٰ واللذة العظمىٰ والنشوة التي ليس بعدها شيء...

فـ «الأئمة» بين ظهرانيكم أنتم، بشَرٌ من نوعكم، وهناك الملايين ـ عبر العصور ـ ممن شاهدهم والتقاهم، سواء من خاصَّة أصحابهم ومواليهم، أو من عامَّة الناس... إنها نعمة عظمىٰ، بل النعمة العظمىٰ والمنَّة الكبرىٰ أن لبسوا حلَّتكم، وتمثَّلوا هيئة البشر، فجعلهم الله تعالىٰ في بيوت، وصاروا يُرَوْن ويُشاهَدون، ويُشار إليهم ويعيَّنون، ويُنادَوْن بأسماء، ويخاطَبون بِلُغة، وما زالوا حتىٰ ٱنتقلوا إلىٰ عالم آخر، فخلَّفوا فيكم قبورَهم ومراقدهم، وفتحوا منها أبواباً علىٰ الاْتصال بهم في العالم الذي هُم فيه!

إنها النعمة التي تحكيها أُنشودة الغزل التي ما زال يترنَّم بها أهل الأرض في زيارتهم أئمتهم: " ذكركم في الذاكرين، وأسماؤكم في الأسماء، وأجسادكم في الأجساد، وأرواحكم في الأرواح، وأنفسكم في النفوس، وآثاركم في الآثار، وقبوركم في القبور، فما أحلىٰ أسماءكم، وأكرم أنفسكم، وأعظم شأنكم، وأجلَّ خطركم " !...

إن سكَّان الفضاء لا يملكون ذلك، إذ قلَّ أن يحضر «الإمام» بشخصه دون مثاله، وندَر أن يشرق ببدنه، ناهيك بأن يحيا بين ظهرانيهم ويعيش معهم ويتردَّد بينهم، فإن أطلَّ عليهم وأمطرهم، فعارِض، وإن زارهم، فغبٌّ... حكايا صارت في نوادر التاريخ، يتناقلونها جيلاً بعد جيل، عن حضور «الإمام» مرَّة لإخماد حرب كادت أن تُودي بالكوكب، وهدَّدت أن تُخرج الحياة هناك عن مسارها المرسوم، فحضَر عليه السلام وحسَم الأمر بسيفه.

لذا فهم يبحثون عن سلوتهم في الصُّوَر العلمية، وفي الفكرة والمثال، بعد حرمانهم من الذوات المتجسِّدة والأعيان الظاهرة.

والعلماء منهم يتطلَّعون إلىٰ ذُرىٰ الكمالات وقممها، والتعمُّق في معرفة مظاهر الأسماء الإلهية ومجاليها. هٰذا هو ميدان وساحة التكامل عندهم: التزلُّف والتطلُّع إلىٰ ما يتبع ويَلحق "الأعيان الثابتة" التي صدرت في صبح الأزل بفيضه الأقدس جلَّ وعلا، وتمثَّلت بعد ذلك بفيضه المقدَّس. لقد شطح يا «نجيب» من زعم أن "الأعيان الثابتة"، لم تشُمَّ رائحة الوجود!...

ذُهِل «نجيب» بكلام «عيص»، وشغل به عن كلِّ العجائب التي كانت تحفُّ بالمشهد وتكتنف اللحظة... فهٰذا الجنيُّ يبدو عالماً ضليعاً، وقد أشار الساعة إلىٰ فرق ونزاع بين الفلاسفة والعرفاء، حول "الأعيان الثابتة"، وهٰذا مما لا يحيط به إلَّا أهل الفنِّ من ذوي الٱختصاص. ولم يكتفِ «عيص» بما قال، ولا سيما أنه رأىٰ علامات الإعجاب ترتسم علىٰ وَجه «نجيب»، فراح يُسهِب في بسط مقولته ويفصِّل في الٱستدلال علىٰ زعمه، بطلاقة وٱسترسال، وكأنه يتلو من صحيفة ويقرأ من كتاب!:

فكما أنَّ "الأحديَّة" عبارة عن الذات الإلهيَّة التي ليس للأسماء ولا الصفات فيها ظهور. فهي ٱسمٌ لصرافة الذات المجرَّدة عن الٱعتبارات الحقِّية والخلقيَّة. وهي مرتبة لا يمكن لأحَدٍ إدراكها ولا الوصول إليها.

فإنَّ "الواحديَّة" عبارة عن الذات الإلهيَّة التي تظهر فيها الأسماء والصفات. فهي مَرتبة يمكن معرفتها بما تمتلك من صفات وأسماء ظاهرة في المراتب، فإنَّ للأسماء الإلهيَّة صوَراً معقولة في علمه تعالىٰ، لأنَّ الله سبحانه عالم بذاته لذاته وأسمائه وصفاته. وتلك الصوَر العلميَّة من حيث أنها عين الذات المتجلِّيَّة بتعيُّن خاصٍّ ونسبة معيَّنة، هي المسماة بـ "الأعيان الثابتة" .(١)

(١) مرتبة ثبوت جميع الأُمور الممكنة والممتنعة، الكلية والجزئية، وهذا الثبوت علميٌّ لا خارجي، فـ "الأعيان الثابتة" هي صوَر الأسماء الإلهية الفائضة عن الذات الإلهية بالتجلي الأول، فهي ثابتة بتبع الأسماء والصفات، ويطلِق العرفاء علىٰ هذه المرتبة مرتبة "الفيض الأقدس"، مقابل مرتبة "الفيض المقدَّس"، وهي مرتبة ثبوت الممكنات ثبوتاً خارجيّاً وهي المسماة بـ "النفس الرحماني" و "الوجود المنبسط".

والفلاسفة لا يوافقون العرفاء في ما ذهبوا إليه، ويرون أن كلامهم في الأعيان الثابتة بعيد عن القواعد الفلسفية. وهم يساوون بين الأعيان الثابتة والماهيات، لأن الماهيات اعتبارية لا حقيقة لها ولا أصالة. ومعنىٰ قولهم إن "الأعيان الثابتة ما شمَّت رائحة الوجود" يفسره قولهم أنها ليست موجودة من حيث أنفسها، ولا الوجود صفة عارضة لها، أي أن الأعيان بما هي هي بذاتها، ليس للوجود دخل في حدِّها، فلا يكون ذاتياً لها ولا هو يعرض عليها، فقولهم شبيه بقول الفلاسفة بالنسبة للماهيَّة، من أن الماهيَّة بما هي هي لا موجودة ولا معدومة، أي لا يدخل الوجود ولا العدم في حدِّها ولا تعريفها، ولا يكونان لا ذاتاً ولا ذاتياً لها. فكذا الأعيان إذا نظرنا إلىٰ حقائقها كما هي بذاتها نراها لا يثبت لها الوجود، نعم هي موجودة بمُوجِد وهو الذات الإلهية. وبالتالي فقولهم "معدومه ثابتة في علم الله" أي معدومة بلحاظ ذاتها، وأما بلحاظ إفاضتها فهي ثابتة بالثبوت العلمي في مقام الوَاحدية.

ولك أن تتأمَّل، فلعلَّ الإشارة إليها في قول «أميرالمؤمنين»: "يا من دلَّ علىٰ ذاته بذاته وتنزَّه عن مجانسة مخلوقاته"، ثم قول «الصادق»: "خلقَ الله المشيئة بنفسها ثم خلق الأشياء بالمشيئة".

دُهش «نجيب» من قولٍ يقرع سمعه وكأنه "كلام معهود"، رسالة موجَّهةٌ إليه، قصد "الجنيُّ" حملها أم جاءت منه عفواً، فهي معضلةٌ عقَدِيَّة وأزمة فكريَّة سبق أن عاشها، ومعركة سلوكيَّة خاض غمارها، وإن لم يكابد في الخلاص منها، إلَّا أن شوائبها علقت بذيله حيناً، ولوَّثته وأزعجته قليلاً!... مصادرةٌ وَقحة وإسقاط جهول سمِج لفكرة "الأعيان الثابتة"، خلَق مقولة التوجُّه في التعظيم إلىٰ القيَم، ودفَع تجاه القصد في العبادة نحو المُثُل، لا النظر إلىٰ الأشخاص والتطبيقات، ولا لَحْظ المصاديق، وشُبهة "الصنميَّة" التي تحوم في هٰذا الفضاء. أن يتوجَّه المرءُ إلىٰ العلم والعدل والإنصاف والصدق والأمانة والوفاء والشجاعة والكرم والجمال، وكلِّ حسَن يدفع قبيحاً، دون التعلُّق بالجميل الكريم الشجاع الوَفي الأمين الصادق المنصف العادل العالم... وهي من المقولات التي أطلقتها "مدرسة الحداثة"، وٱنبرىٰ «المعمم الضلِّيل»[1] لترويجها، مزيجٌ غريب يجمع فكراً وروحانيَّة صوفيَّة مفرِطة، مع ماديَّةٍ حسيَّة غالبة، وجلافة وغلظة، تنفي الحبَّ وعالمه، ما أبدع ضلالاً ومارَس إضلالاً لم يُسبق!

---

(١) نبزٌ علىٰ غرار "الملك الضلِّيل"، لقب «ٱمرؤ القيس» (٥٢٠ ـ ٥٦٥ م) من ملوك «كندة»، من أعظم شعراء الجاهلية، صاحب معلقة: "أفاطم مهلاً بعض هٰذا التدلل"، يُعرف في كتب التراث بٱسم "الملك الضليل"، لأنه نشأ مترفاً لاهياً شأن أولاد الملوك، يتهتَّك في غزَله ويفحش في سرد غرامياته، ويتسكع مع صعاليك العرب. فعُرف بالتهتك والمجون. كان يسير في أحياء العرب ومعه أخلاط من شُذَّاذ القبائل، فإذا صادف غديراً أو روضة أو موضع صيد، أقام فذبح وشرب الخمر وسقاهم، وتغنِّيه قِيانُه، لا يزال كذلك حتىٰ يذهب ماء الغدير، فينتقل إلىٰ غيره. لم ترُق لوالده حياته، فردَّه إلىٰ «حضرموت» بين أعمامه أملاً في إصلاحه. لٰكنه مضىٰ علىٰ مجونه ومرافقة الصعاليك وألف نمط حياتهم في التسكُّع بين أحياء العرب والصيد والهجوم علىٰ القبائل وسلب متاعها. و«المعمم الضلِّيل» ضرب يحاكي الشاعر ـ الملك في بطَره ورعونته وتهتكه وعبثه بالدين، فحكم الفقهاء والعلماء بضلاله.

مَقولة تفضي معطياتها إلىٰ التساوي بين الدير والكنيسة وبيت الأوثان والمسجد، كما أنشد «ٱبن عربي» في " ألا يا حمامات الأراكَة والبَان " :

لقد صار قلبي قابلاً كلَّ صورة
فمَرْعىً لغزلان وديرٌ لرُهبانِ
وبيتٌ لأوثانٍ وكعبةُ طائفٍ
وألواحُ توراة ومصحفُ قرآن
أدينُ بدينِ الحبِّ أنَّىٰ توجَّهتْ
ركائبه فالحُبُّ ديني وإيماني

فالمعبود عند الصوفي جوْهر وحقيقة، والطريقة مجازٌ وعرَض، وعند «المعمم الضلِّيل» مفهومٌ وفكرة، والدين والشريعة تحوم حولها، لا وُجود لشخص ولا شاخص، لا «نبي» يُعشَق ولا «إمام» يُوَالىٰ، لا نموذج يُقتدىٰ ولا «وَلِيٌّ» يُتِمُّ الحجَّة... فإذا أزاح فكرُ المنذرَ وغَيَّبَ الهادي، أُخلي الميدان لـ «إبليس»، وأُفسح له ليغوي ما يشاء، وقديماً قيل: " إذا أردت أن تحرق شيئاً فٱحرق حمَلته ودُعاته " ، والمضلَّل يحسب أنه يرتقي ويكمُل، ويتنزَّه عن الوثنية ويترفَّع عن الصنمية، ويتوجَّه إلىٰ الله مباشرة، عبر ما ندَبَ إليه من قِيَم وخُلُق! وهنا ٱستحضر «نجيب» فضل " شيخ " ٱنتشله من هذا اللوث، وأرجعه إلىٰ عشق أسماء الله، وآيات صفاته، وأعيان تجلِّيات جلاله وجماله، أي ذوات قُدس «النبي» والأطهار من «آله»... لا بدَّ من «إمام» وإن كمُل الدين وتمَّت النعمة، ورُسِم النهج وٱتَّضحت الفكرة، ولا بدَّ من كعبة وقبلة، وإن كان ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾، كما لا بدَّ من نُصْبٍ يُرجَم، وإن كان الشيطان يسكن القلوب ويجري مجرىٰ الدماء في العروق.

وعلىٰ ٱحتمال أن «عيصاً» كان يعرِّض به، ويعيب عليه ماضيه، حين ٱنتسب إلىٰ تيار الحداثة هـٰذا جهلاً وغفلة، وصدَّق مقولاته وٱتَّبع نهجه طوراً وفترة، قبل أن يلتقي " شيخه " ويغنم من صُحبته ما كشف له تلك الترَّهات وعرَّىٰ التفاهات... أخذت «نجيب» الحميَّة وغلبته العصبية، فأبىٰ إلَّا أن يردَّ عليه، ويذهب إلىٰ جدال ولو كان مراءً!:

أليس الحبُّ كمالاً في نفسه، وأمراً سامياً وحسَناً علىٰ كلِّ حال؟ أينما وَقع أخذ إلىٰ الكمال المطلق وٱنتهىٰ إلىٰ عشقه؟!

: هـٰذا من أخطر أبواب الشيطان، يَلِج فيه ويتوغَّل ليطالَ الأشراف وينال من النجباء وذوي المروءات! الذين يعفُّون عن الرذائل ويترفَّعون عن القبائح والفواحش لكريم خِصال فيهم وسامي نشأة حكَمتهم، تراهم يتنزَّهون عن الخيانة والسرقة والزنا طبعاً، ويتجنَّبون الكذب والغشَّ والخداع سجيَّةً، سقوطٌ تأباه نجابتهم قبل الدين، وٱنحدارٌ تنهىٰ عنه أخلاقهم قبل الشريعة. هـٰؤلاء، لا سبيل للشيطان عليهم إلَّا بلطائف الخُدَع وخفيِّ الحيَل، ومنها مصيدة الحبِّ وأُحبولة العشق: يملأ قلب أحدهم بحبِّ الشهوات، فلا يعود فيه لحبِّ الله موْضع!

يوَسوِس إليه بأنك حين تعشق الجمال، ٱمرأةً أو طبيعة أو أيَّ ضرب من الزينة، فأنت تهفو إلىٰ الجمال كمفهوم وقيمة، والجميل هو الله، تعشق المال وتطلب الثراء، والغنيُّ هو الله، تعشق القوَّة، والقويُّ الذي لا يُغلَب هو الله، تعشق السلطة، والسلطان الذي لا يُقهَر هو الله، وهٰكذا... إذن أنت في الحقيقة أو المآل تعشق الله! يأخذه في هٰذا حتىٰ يمتلئ قلبه بحبِّ الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسوَّمة والأنعام والحرث كما في القرآن، فيختم عليه!

: هل يعرفان (أي «هب» و«رع») القرآن؟

: أكثر مما تعرفه أنت! وهل هو إلَّا «الإمام» الذي عشقوه، هٰذا صامت وذاك ناطق! إنَّ " كلام الله " يتجلَّى لهم هناك في صورة خلق عظيم لا يطيقه الوَصف، يعجزون عن النَّهل منه والإحاطة به. وأوَّل ما يتطلَّع القادمون إلىٰ الأرض، أمثال أخوَينا هٰذين، هو تعلُّم صورته في هٰذه النشأة، والنظر في الكتاب الذي أنزله الله علىٰ ٱسمه الأعظم وتمام عدَّة مظهره الأتمِّ، منطوقاً مقروءاً!

من هـٰذا البـاب، يـأتي الـشيطـان أوليـاءه بـ: " عـشـق الكـمال " ... ومَـن تـراه وعـسـاه، أن يقدِّم " حُسن مآب " علىٰ " متاع الحياة " ؟ فلا يـرىٰ جميلاً، إلَّا يـرىٰ الله قبله وبعـده وفيه ومعه؟ يسخِّر كلَّ جميل ليؤدِّي دوره، ويوظِّفه ليشير إلىٰ ذاك الجمال المطلق، الـذي نسعىٰ إليه بالفطرة فننشغل عنه بالعارض الزائل؟

إنَّ الشيطان يعمل بدِقَّة متناهية يا هـٰذا، لا حدَّ لمكائده ولا حصر لطرُقه وحبائله، وهي تتجدَّد في كلِّ لحظة، وتتطوَّر في كلِّ آن، يرمي كلَّ غـرَضٍ بـسهم مُحدَّدٍ منتقىً من كنـانته، يسدِّد من قوْس حفوز دفوع، تزفُّ السهم زفياً، عن بَزْم وَتَر أحسن شدَّها، فتأتي الرمية دون حنين ورنين، خرساء كتوماً، لا تشعر بها إلَّا وقـد أردَت وصرعـت. واللعين ينتـدب لكلِّ عبدٍ صالح ما يناسبه من كتائب جنده، ويحشـد لـه من أولاده وأعـوانـه، فما يـضلُّ به المؤمن العابد، غير ما يزيِّن للفاسق والمنافق، أو الملحد الجاحد، وما يغوي السفلَة الطغام والأشرار اللئـام، لا يـصلح لتطـويع البَـرِّ الشريف، وإفساد النبيل العفيف.

هٰكذا ساق «عيص» الحوار، وٱحتال لينتزع بقايا كِبْرٍ خفيٍّ، وعصبية متوارية في نفس «نجيب»، في غور بعيد لا يشعر به، ولا تطاله يد مُربٍّ أو مرشد، اللهم إلَّا أن يُهيَّج فيُستفزَّ ويُستنهَض علىٰ يد جنيٍّ مكلَّف!

عاد «عيص» إلىٰ عرضه، وٱندفع في بيانه:

إنَّ الصوَر العلمية قد تكون كليَّة، وقد تكون جزئية. يطلق الفلاسفة علىٰ كلِّياتها عنوان الماهيَّات والحقائق، وعلىٰ جزئيَّاتها الهويَّات، أمَّا كيف تحصل هٰذه الأعيان؟ فالعرفاء يعتقدون أنها نتيجة الفيض الإلهي الأول. إذ أنَّ الله تعالىٰ يُوجِد الأعيان بداية بفيضه الأول (الأقدس)، وبالثاني (المقدَّس) يخرجها إلىٰ الخارج.

كما أنَّ العوالم والحضرات هي كلُّ ما يشار به إلىٰ الله تعالىٰ. وبما أن ما يدل علىٰ الله تعالىٰ غير مُتناهٍ، فالعوالم غير متناهية أيضاً. أما الحضَرات، فهي المراتب الكليَّة للتجلِّيات، وبعبارة أُخرىٰ هي مظاهر الحقائق المنسوبة إلىٰ الله تعالىٰ، والحضرات متناهية وهي خمس. أي أنَّ مراتب التجلِّيات خمس، وبما أنَّ لكلِّ حضرة عالَم، لذلك لا بدَّ وأن تنتهي العوالم أيضاً من هٰذه الناحية.

ومن هنا يتحدَّث العرفاء عن العوالم الخمسة
والحضرات الخمس. فالعوالم خمسةٌ بتبع
الحضرات، وهي على هٰذا النحو:
أول الحضرات، حضرة الغيب المطلق، وعالمها
عالم الأعيان الثابتة، ويقابلها حضرة الشهادة
المطلقة، وعالمها عالم المُلْك، والثالثة حضرة
الغيب المضاف إلىٰ الغيب، وعالمها عالم
الجبروت، والرابعة حضرة الغيب المضاف
إلىٰ الشهادة، وعالمه عالم المثال، والخامسة
الحضرة الجامعة، وعالمها العالم الإنساني
الجامع لجميع العوالم وما فيها.

سكت الجنيُّ هُنيهة وأوقف ٱندفاعه وٱسترساله، وكأنه شعر بتجاوزه دوره، وتنبَّه إلىٰ إخلاله بمقتضيات الحال ومستلزمات المقام، فأمسك عن المضيِّ في عرض ما عنده، لٰكنه ٱنثنىٰ وعاد إلىٰ «نجيب»:

هٰذا غيضٌ من فيض يا أخي، ولو شئت
لأسهبتُ وتعمَّقت، ولكني أعرف حدَّك
وسطحك، ولا أُريد لك أن تتيه وتضيع!
لا درَّ دَرُّكم معشر البشر، ما أجهلكم وأبشع
أفعالكم وأشنع ظُلمكم! تؤلمكم البقَّة
وتقتلكم الشرقة وتُنتنكم العرْقة، ثم تطغون
كبراً وتعلون غروراً وتيهاً؟!

تلاحقـون الـرؤى والأحلام، وتعيـشـون الأماني والأوْهام، تُؤمِّرون الأراذل وتقدِّمون الأذناب، وتُسلمون حلفاء الشياطين القياد، وتنصرون الظلَمة وتولُّون حكَّام الجوْر البلاد، ثم تشمخون بأنوفكم، تزعمون إصابة الحقِّ والتزام الحكمة؟!

فإذا أبت ثُلَّة الانحراف، ورفضت فئة التيه والضلال والانجراف... تموضعتم ضدَّها وتخندقتم لحربها وناصبتموها العداء. وما زلتم تلاحقون حمَلة الحقِّ قتلاً وحبساً وتهجيراً، وقهراً واضطهاداً وتنكيلاً، تكبتون كلَّ حُرٍّ ثائر، وتخمدون كلَّ مُصلح غيور، وتقمعون كلَّ مخلِص ناصح، وتُسقطون كلَّ صوابٍ وسَداد، تأبون إلَّا الانحطاط، وتتمسَّكون بالانتكاس! بالله أيُّ خَلْقٍ أنتم؟ تتقاتلون شرَّ قتال، تسفكون الدماء وتهلكون الحرث والنسل، وتدمِّرون الأرض ومَن عليها، وتحسبون أنكم تحسِنون صنعاً؟!

ومن عجائب الدَّهر وغرائب الخلق، أنكم تفعلون كلَّ هذا... وأنتم المحسودون في السماوات، والمعظَّمون في المجرَّات!

أنتم عندنا القمَّة والذُّروة، وكوكبكم قطب الوجود ومَداره! فقد ٱختار الله أرضكم، وجعلها موطن حبيبه وسكَن وَليِّه الأعظم.

أتدري يا «نجيب» أنَّ العالِم العارف من سكَّان السماوات والأفلاك، يقضي حياته كلَّها يتمنَّىٰ أن يكون منكم، ويتحسَّر علىٰ فوت الفرصة وتقاعسه في النشأة الأُولىٰ (في «عالم الذَّر»)، حين عُرض علىٰ الكائنات الٱختيار ووَقع الخلق في الٱختبار، فلم يغتنم الفرصة إلَّا أنتم، ولم يحظَ بها سواكم!

أنتم فحسب أردتم أن تكونوا أناسيَّ، من الخليقة التي ٱصطفاها الله وكرَّمها، والبشرية التي ٱرتضاها حُلَّةً لأنواره ومجلاةً لأسمائه وصفاته، ووَقع ٱختياركم علىٰ الأرض التي ٱنتجبها وٱختارها مأوىً وموطناً لهم، فكانت مزرعة لأُخراكم وقنطرة إلىٰ معادكم!

وأنا ٱخترت أن أكون من الجانِّ، وهٰذان أرادا أن يكونا من سكان «الزهرة»، وغيرهم، مما لا يعلم بهم إلَّا الله، ٱختاروا أن يكونوا حَجَراً ومدَراً وشجراً وعجماوات، وسكَّان أجرام أُخرىٰ، وقُطَّنَ أفلاك وسماوات.

وقد كاد «هب» أن يهلك حسرة، وتذهب نفسه حرضاً من فرط ما تطلَّع لزيارتكم وتمَّنىٰ أن يحظىٰ بفترة بين ظهرانيكم؟

إنَّ في كلِّ لحظة هناك ملايين الكائنات من سكَّان السماوات، علىٰ ٱختلاف أنواعها تهلك في طريقها إليكم؟ وهي تحاول أن تقطع وتتجاوز الأغلفة والطبقات التي تفصلها عنكم؟ فلا " بُـراقَ " يحملها ولا سفينة تقلُّها!

تريد أن تصل إلىٰ الأرض وتلتقي بقطب عالم الإمكان، ووَاسطة الفيض الإلهي، أو تحظىٰ ولو بنظرة إلىٰ " الخلق الأتمِّ " ، وتشاهد تجلي ٱسم الله الأعظم... كيف يحوي هـٰذا الكائنَ بدنٌ؟ وكيف عساه أن يأكل الطعام ويمشي في الأسواق ويعيش كما الناس؟

إنهم يعرِّضون أنفسهم للهلاك، يتناوشهم الحرَّاس، وتتلقَّاهم الرجوم، ويهوون في النيازك والشهُب، وذرَّات " الغبار الكوني " ، يفتك بهم خرْق الطبيعة، حين يعجزون عن ٱرتداء هياكل هـٰذا العالم ولبس أزياء هـٰذه النشأة، فيتلاشون ويتبدَّدون كهباء، يحترقون كما فراش النار... لا تشعرون بهم ولا تدرون عنهم.

كلُّ هـٰذا في سـبـيل أن يـبلغــوا عــالمكـم و "يتشرفوا" بـأرضكـم، هـٰذه التي تتفنَّنون في تلويثها، وتبدعون في تخريبها وتدميرها!
لَعمري كـم أنتم غـارقـون في الجـهل، متردُّون في الكِبر، ملوَّثـون بـالغـرور، مُنغمِسـون في الاْنحراف والضلال، ظلَمَةٌ قُساة، جبابرة عُتاة... كلُّكم طغاة! إما بـالفعل أو بـالقوَّة، تعترضـون عـلىٰ حكَّامكم وتشكـون جوْر كُبرائكم وأنتم تعينـونهـم وتنـصرونهم! ولـو سنَحت لأحَدِكم فرصة، وأقبلت إليه وبُشِّر بها، لخرج إليها يسـعىٰ، ولَمـاتَ في سبيل نيْلها، ثم لَوَقع في ما وَقع فيه الطغاة، ولمارَس أضعاف ظُلمهم وجوْرهم!
لقد أعرضتم عن الخير الذي يتحرَّق سكَّان السماوات ويموتون شوقاً إليه!
أمَّا أنت يا «نجيب»، فأخٌ كـريم لنا، يجمعنا الحبُّ والـولاء، والمعـرفـة بـالله وأوْليــائه، وخـالِص الحقـائق، وقـد قـصـدنـاك لشـأنٍ خطير، سيعود عليك وعلينا بفضلٍ جزيل وخير عميم... فـدَعْنـا نـأنس ونقضي من الراحة وَطراً، فغداً ينتظرنا خطْبٌ عظيم!

زال عن «نجيب» الروَّع تماماً واطمأنَّ إلىٰ القوم، وقد بدَّد الحوار ولا سيما العرض المعرفي الذي نهض به الجنيُّ كلَّ هواجسه وأزال ظنونه، وخلق فيه سكوناً وبعث شعوراً بأُنس وأُلفة، وكأن سابق معرفة قد جمعته بهم، وكأنهم أصحابٌ وإخوة له منذ عهدٍ بعيد!...

لكنَّ الأسئلة لم تزل، بل تكاثرت في ذهنه وتزاحمت، وإن انتقلت من الاستنكار والتعنُّت إلىٰ الاستفهام، وقد بانَ أن لا صدفة جاءت بهؤلاء، ولا لقاء عابِر جمعه بهم: جاء في طريقهم، فوَقع عليهم وكشف أمرهم، فانفتحوا عليه وحدَّثوه، وهم منصرفون غير لابثين... كلَّا، بل هناك سابقُ قصد وترصُّد، ونيَّةٌ مبيَّتة وعزْم واستهداف:

تُرىٰ ماذا يريدون، وماذا يمكنني أن أقدِّم لهم، ولِمَ وَقع خيارهم عليَّ وانتهىٰ سعيهم إليَّ؟ لماذا الساعة وفي هذا الأوان؟ ثم ماذا بعد هذا اللقاء، هل ثمَّة حدَث وخطب؟ وهذا «عيص» ما فتئ يكرِّر أنه ينتظرني؟ وما هي "اللحظة" التي حانت وعرضت، فاستنزلت الجنَّ والكائنات الفضائية!؟... كما يقول «الأعشىٰ»:

والشِّعْرُ يَستنزِلُ الكريمَ كما اسْـ * ـتنزل رَعْـدُ السحابـةِ السَّبَلا

وكانت التساؤلات ما تزال تدور في نفسه علىٰ محوره هو: ماذا يريدون مني "أنا"؟ ولماذا اختاروني "أنا"؟ دون الفكرة في أصل الحدث وخطر الوَاقعة، والتطوُّرات التي قد تعقبها وتلحَق بها (وإن انفكَّت عنه هو)!

بينا «نجيب» في هٰذا، يجول ويسعىٰ بين محاورة «عيص» وتساؤلاتٍ تملأ قلبه وتثقل رأسه، تنقله إلىٰ آفاق تصدمه وتورثه ٱضطراباً، إذ تقدَّم «هب» نحوه، تحرَّك وكأنَّ الروح دبَّت فيه فجأة بعد سكون وهمود، كلَوْحة علىٰ جدار، ٱنبعثت حيَّة فتجسَّمت!... أشرق وَجهه، ونضح ماء الحياة في مُحيَّاه، وبدت حمرة البرد علىٰ وَجنتيه، وتصاعد البخار من فمِه جرَّاء تكثُّف أنفاسه من برد وصقيع، تقدَّم بهيبة وجلال، مُقبِلاً نحو «نجيب» في خفَر، وكأنه خلق الساعة، ما كأنه كان قبل قليل منزوياً وصاحبه «رع»، كخلفيَّة لا تُلحظ من المشهد، وجُزءٍ جامد من المنظر...

سَبْطُ القوام، متناسب الأعضاء، تامُّ الطول، أو قُل رَبعةٌ إلىٰ الطول، أي دون هوَج وخطَل وتماحُل، قدٌّ كقناة أو سارية علَم، معتدل الأعضاء، متناسب الأطراف، وَثيق التركيب، منطوي البطن، يأسرك مرآه، فلا تملك إلَّا أن تحدِّق وتمعن النظر إليه، ثم تتفرَّس في هٰذا الخلْق الجميل، وتتفكَّر في هٰذه الطلعة البهيَّة الغرَّاء...

هٰكذا تلبس الروحُ الثوبَ الذي يناسبها، وتخلع علىٰ نفسها الرداء الذي يوَافقها، والجسم الذي يحاكيها، وتظهر في هيكلٍ وبدَن يليق بها كمالاً وجمالاً، أو يوافقها قُبحاً ونقصاً. فالسيرة، وإن لم تكن فعلاً وممارسة بعد، وكانت محضَ عزْم ومجرَّد نيَّة، ولم تنتقل إلىٰ الفعل من القوَّة، وتنعكس صورة. وحُسْن الظاهر أمارةٌ علىٰ حُسْن الباطن، أو كاشفٌ عن طيب السريرة، وعلىٰ طهارة النفس وخلوِّها من الرذائل والخبائث... هٰكذا تظهر الأرواح في هياكل تليق بها، وتتجسَّم علىٰ قدر سموِّها وألَقها، وكيفما ٱختارت لنفسها، حتىٰ لَيتمثَّل الناظر إليها: "كأنك قد خلُقت كما تشاء".

لم تأتِ مقولة "التمسوا حوائجكم عند صِباح الوُجوه" من فراغ، ولا قاسَ الحكماء وأنزلوا المظهَر والمنظَر على الباطن والمخبَر إلَّا لأدِلَّة وعن تجربة أوْرثت قناعة. فالصورة أو الشكل الذي يظهر فيه كلُّ إنسان، بل كلُّ شيء وكلُّ كائن، هو خياره وإرادته التي وَقعت عليه دون غيره، قدَّمت هذا الأنف، وفضَّلت تلك العين، ورجَّحت هذه البشرة واللون، ورضيت بهذه القامة... كان جميلاً في روحه، متكاملاً في نفسه، فٱختار الجمال وٱنتخب الكمال، أو الأقرب فالأقرب إلىٰ الأكمل والأجمل، من الممكن المبذول، ويبدو أن لا حدود للمبذول هناك! كما كان غيره ناقصاً قبيحاً لأن خياره وَقع من قبلُ علىٰ الناقص والقبيح، ولنقُل: كان سقيماً، أو كان منشغلاً بغير المظهر، فلم يعتن بخياره. أو هو ملزوم خيارات أعظم، كالفضل والخُلق، وقد ٱنحدرا في نسلٍ يلزمه هذا الشكل، فوَرثه منه.

هذا ما يجلُّه الحكماء ويعظِّمونه في هؤلاء الأشخاص... لم يسبق أحدٌ غيره، ولا تفوَّق علىٰ نظيره، في الأُمور التي تظهر موروثة، التي أُكرهنا عليها كقَدَر لا يُبدَّل، إلَّا لتفوُّق في روحه وسبْقٍ في خياره.

: لمْ نشأ لأنفسنا هذه الصورة، ولم نختر لنشأتنا التالية هذا الهيكل البديع، وقد كان مبذولاً في عالمنا الأول، مُتاحاً ميسَّراً، يمكننا أن نختاره أو نختار حتىٰ الأفضل منه! إلَّا لدناءة أنفسنا، وتردي قابليَّاتنا، ما أسقَطَ الهمم وٱنحطَّ بالعزائم، فٱختارت الأسوَء.

فهل يحقُّ لأحَد أن يعترض أو يستنكر؟

وَجهٌ أزهر اللون، مَسنونٌ مخروط، كلُّه حُسنٌ وبهاء ونضرة، صافي الأديم، أسجَح الخدِّ، قليل اللحم، أخطم الأنف بأرنبة وَاردة علىٰ سبَلَته (البؤرة التي تتوسط الشارب في الشفة العليا) تجعل فيه شمماً مع بعض قنا، جميل لا تطيق أن تصرف نظرك أو تشيح وَجهك عنه، له لحيةٌ سبلاء، أرخاها دون القبضة، تسلَّل إليها بعض الشيب الذي ينبئ أنه أربعينيٌّ قد ٱكتملت عدَّة العقل وتوَازنت فيه القوىٰ، دون فُودَيْه المرخيين، وجديلتَيْه المتدليتين علىٰ عاتقيه، فقد كانتا فاحمتين... لعمري ما هٰذا عالم عارف فحسب كما عرَّفه «عيص»، بل هو أمير من أبناء الملوك، لا غروَ أنه سليل نُبل وفخر، فهو قبل أن يتلقَّىٰ العلم ويكتسب الفضل، تسنَّم ذُرىٰ مجدٍ أثيل، وتربَّع علىٰ قِمَّة شرف رفيع، وخُلِعَت عليه عزَّة لا تُسامىٰ، وٱرتدىٰ جاهاً لا يُبارىٰ، أتاه من سامي منبته، ووَرثه من كريم محتده!

و«نجيب» متفرِّسٌ من الطراز الأول، ألحَق الملَكَة وأتبَع الموهبة، بعِلم صقَلَها ودراسة تعمَّق فيها. و«الفزيوجنومية» (physisgnome وتعني معرفة الجسم) وإن لم ترقَ إلىٰ " علم "، وبقيت في مجال " شبه العلمي "، إلَّا أنَّ تيار " المعارف السرية " (في التاريخ القديم) أو عالم " العلوم الغريبة "، ما زال يثبت نفسه ويحتلُّ موقعه في عصرنا. وقد حظي بٱنتشارٍ وَاسع في القرنين الماضيين، وفي أُوروبا ٱتخِذت الفراسة (بالإضافة إلىٰ أشياء أُخرىٰ) كتعليل للعنصرية، وموقع الخارطة الوراثية في شكل الإنسان وسلوكه. وقد ألحق «نجيب» بهٰذا وذاك بعض وَحيٍ وإلهام! يراهن علىٰ " فاضل الطينة "، النور الذي يأتي المؤمن من «أئمته»، فيمتزج بطبيعته، وما زال ينزع به إلىٰ علم ربانيٍّ يغلب بشريَّته ويتجاوز حسِّيته.

ففي الذكر الحكيم: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾، أي: المتفرِّسين. وعن «النبي» ﷺ: "ٱتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله". ورُوي عن «أُويس» رحمه الله أنه لما قصده «حيَّان بن هرم» قال له حين رآه: السلام عليك يا أخي «حيَّان»! فقال له: من أين لك معرفتي ولم ترني؟ فقال له: المؤمن ينظر بنور الله، وإنَّ أرواح المؤمنين تُسام كما تُسام الخيل.[1]

كان «نجيب» يقرأ الوجوه فيصيب، ويحسن تعبير القسَمات ويجيد تأويل بُنية الأبدان فلا يخيب... ولن يغفل مثله عن هٰذه الملامح والأوصاف التي عزَّت، فقلَّ أن يلتقي بها، وندَر أن يجدها في أحد.

كان يناجي نفسه، ويجول مع خاطرٍ يحدِّثه:

إنَّ هٰذا الرجل، أو المخلوق الظاهر في هيئة إنسان وبشَر، يحمل خصوصيَّة نادرة، وهو ذو شأنٍ وخطَر... لا تجتمع الصفات عبَثاً، ولا تلتقي الهيئة والشكل مع الروح، وتظهر بهٰذه الصورة الرائعة صُدفةً.

---

(١) الفراسة، كما يذكر «الديلمي» في ‹إرشاد القلوب›: "أنوارٌ سطعَت في القلوب بحقائق الإيمان، ومعرفة تمكَّنت في النفوس فصدرت من حال إلىٰ حال، حتىٰ شهدت الأشياء من حيث أشهدها سيدها ومولاها، فنطَقَت عن ضمائر قوم وأمسكت عن آخرين. والفراسة أيضاً نتيجة اليقين، وطريق المؤمنين. وسُئل «النبي» ﷺ عن قوله تعالىٰ: ﴿فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام﴾ قال: يقذف في قلبه نوراً فينشرح ويتوسَّع. والتفرُّس من خوَاص أهل الإيمان، سطعَت في قلبه أنواراً فأدرك بها المعاني، ومن غضَّ بصره عن المحارم، وأمسك نفسه عن الشهوات، وعمَّر باطنه بصفاء السريرة ومراقبة الله تعالىٰ، وظاهره بٱتباع الكتاب والسنة، ولم تدخل معدته الحرام، وخرس لسانه من الكذب والغيبة ولغْوِ القول، لم تخط فراسته". ٱنظر: ص ١٣١.

ألقىٰ «هب» التحية والسلام بأدب جمٍّ وبِشْر وتواضُع، لـكن دون أن يمدَّ يده لمصافحة أو يفرد ذراعيه لمعانقة، مكتفياً بإيماءةٍ من رأسه، رفع معها راحته ووَضعها علىٰ صدره، وسؤال حمل إجابته:

أنت «نجيب»؟ لكُلٍّ من ٱسمه نصيب، النجابة حقيقةٌ فيك، بادية عليك! أما أسماؤنا فلَها منشَأٌ آخر، وهـٰذه التي وَردنا بها عليكم وحملتنا إليكم، ضرْبٌ من ترجمة إلىٰ لغتكم، أو محاكاة حالٍ تُوَافِق طبيعتكم، ولـٰكنَّها غير تامَّة. ولو أردتَ المعنىٰ الذي يقابل ٱسمي، دون التفات إلىٰ الألفاظ والمنطوقات، وٱرتباط بالهيئة والإشارات، لكنتُ " حسناً " ، أو بصيغة ٱسم الفاعل " محسناً " . نحن نعوِّل علىٰ الأسماء، نرتِّب الآثار ونلحِق التبعات!

: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته. الحق أنني في شغلٍ عن الأسماء والمسمَّيات، وما زلت في دهشة المشهد وذهول الحدث، لا أكاد أفقه ما يدور حولي!

: ستفهمني جيداً إن شاء الله يا «نجيب»، فأنت عاشقٌ مثلي، وفي قلبك لَوْعةٌ كلَوْعتي! ولا يعرف الحبَّ إلَّا مَن يكابده، ولا الصبابة إلَّا مَن يعانيها.

إنَّ ما عليك أن تفهمه يا «نجيب» وتعيَه جيداً، وأظنُّك فعلت وتفعل، وإلَّا لما ظهرنا عليك ولا توصَّلنا إليك، أنَّ في طول هٰذه العوالم وعرضها، في حاضرها وماضيها، وكذا ما هو كائنٌ في مستقبلها، منذ الأزل وإلىٰ الأبد، هناك ظهوراتٌ للأنوار التي تجلَّت عن البارئ جلَّ وعلا في الصادر الأول، والتي شكَّلت حُجَج الله، وكمالَ مظهر أسمائه وصفاته، وتمام آياته... وهي حاضرة بحقائقها، ماثلةٌ بأعيانها، وإن تعدَّدت وتنوعت في نشآتها، وتعاقبت علىٰ الخلائق والبرايا، وتقلَّبت في صُوَر العبودية لخالقها، وتفنَّنت في التذلُّل له، والخضوع لإرادته، وٱلتذَّت بتنزُّلاتها في سبيله.

نحن يا أخي، قضينا ونقضي حياتنا نجدُّ السير والسعي نحوهم، ثمَّ إذا دنَوْنا وبلغنا بعض القرب منهم، ودخلنا في حماهم، ٱنتقلنا ـ بعد السعي ـ إلىٰ الطواف حولهم، والتعلُّق بأستارهم، والتماس أركانهم، وٱستلام أحجارهم، وتقبيل أضرحتهم... وها نحن الساعة علىٰ مشارف الوصول!

وراح «هب» ـ وكأنه ٱنصرف عن «نجيب» ـ يتلو بنشوة وطرب، مناجاة المريدين لـ «زين العابدين» عليه السلام، أسبل جفنيه، رفع وَجهه نحو السماء، وأخذ ينوء برقبته ويميل بقدِّه، ويمدُّ كفَّه كالمستعطي المستجدي، فتشعر أنه يعيش كُلَّ كلمة يقولها، ويعني كلَّ فقرة يتلوها:

" سبحانك ما أضيق الطرُق علىٰ من لم تكن دليله، وما أوضح الحقَّ عند من هديته سبيله. إلهي فٱسلك بنا سُبل الوصول إليك، وسيِّرنا في أقرب الطرِق للوفود عليك، قرِّب علينا البعيد، وسهِّل علينا العسير الشديد، وألحِقنا بعبادك الذين هم بالبِدار إليك يُسارِعون، وبابك علىٰ الدوام يطرقون، وإياك في الليل والنهار يعبدون، وهم من هيبتك مشفقون.

الذين صفَّيت لهم المشارب، وبلَّغتهم الرغائب، وأنجحتَ لهم المطالب، وقضيت لهم من فضلك المآرب، وملأت لهم ضمائرهم من حبِّك، وروَّيتهم من صافي شِربك، فبك إلىٰ لذيذ مناجاتك وَصلوا، ومنك أقصىٰ مقاصدهم حصَّلوا، فيا مَن هو علىٰ المقبلين عليه مُقبلٌ، وبالعطف عليهم عائدٌ مُفضل، وبالغافلين عن ذكره رحيمٌ رؤوف، وبجذبهم إلىٰ بابه وَدودٌ عطوف. أسألك أن تجعلني من أوْفرِهم منك حظاً، وأعلاهم عندك منزلاً، وأجزلهم من وُدِّك قِسَماً، وأفضلهم في معرفتك نصيباً، فقد ٱنقطَعَتْ إليك همَّتي، وٱنصَرَفَتْ نحوك رغبتي، فأنت لا غيرك مُرادي، ولك لا لِسوَاك سهَري وسُهادي، ولقاؤك قُرَّةُ عيني، ووَصلُك منىٰ نفسي، وإليك شوقي، وفي محبَّتك وَلهي، وإلىٰ هواك صَبابتي، ورضاك بُغيتي، ورؤيتك حاجتي، وجِوارُك طلبي، وقربُك غايةُ سؤلي، وفي مناجاتك رَوْحي وراحتي، وعندك دواءُ علَّتي، وشفاء غُلَّتي وبرْد لَوْعتي، وكشفُ كُربتي " ...

: إنَّ أعظم ما لديكم، وأخطر ما تقدرون، وأنفسَ ما تملكون، ثمَّ ـ ويا للحسرة والأسف ـ لا تُثمِّنون!... هو أن أُطلقت ألسنتكم وأُفسح لكم لمناجاة الحبيب ومخاطبة الطبيب، فُتِح لكم السبيل إلىٰ النجوىٰ والباب للشكوىٰ، بل بُذلت لكم مادَّتها ومُكِّنتم من أداتها.

هٰذا القرآن الصاعد الذي أنشأه الله لكم علىٰ لسان حُجَجِه، وظهر لكم من تلألؤِ أنواره، يلهج بينكم فلا تسمعون، ويشنِّف آذان الكائنات، في جميع الآفاق والطبقات، فلا تصغون، ويغلبكم الوَقْر فتصمُّون!

إنَّ هٰذه المناجاة الصاعدة إلىٰ العرش هي قُوتُنا، وبها يقيم أحدنا قامته ويشدُّ صُلبه! ونحن في عالمنا نتلقاها بِلُغتنا، كما يفعل أهل كلِّ جرم سماوي، وسكَّان كلِّ نجم وكوكب، تأتيهم وتبلغهم بِلُغاتهم، حتىٰ إذا بلغت الملكوت الأعلىٰ عادت إلىٰ أصلها، وتركَّبت عربيةً فصيحة، لغة أصحابها ولسان منشئيها صلوات الله عليهم، التي ما رجح حظِّي وعلا كعبي إلَّا حين أجدْتها وأتقنتها.

وبعد سُكر التلاوة ونشوة النجوىٰ، والفراغ من الحسرة والشكوىٰ، التفتَ «هب» إلىٰ «نجيب» وتوجَّه إليه بلُغة جادَّة، وقول قاطع حازم:

إنَّ "اللحظة" تنتظر رجالها، والخيل تطلب فُرسانها، ليست هٰذه ساحة متردِّدٍ غامَ أُفقه، ومتوقِّف أدجنت سماؤه، ولا مرتابٍ عُمِّيت عليه مسالكه، بل ميدان مقدام جَسور، نفض عنه غبار اللَّبس، وخرج من ظلمات الغموض، وٱنزاح عنه حجاب الرَّيب والشك، وٱنحسرت دونه ظلال الإبهام، وإن ٱستوقفه شيء وٱستمهله، أعرض عنه لِعِظَم الخطْب، وقحم مجازفاً خوف الفوْت.

قد تصبُّ "اللحظة" في لوْحة تُرسَم، أو قصيدة تُنظم، أو مقامة ومقالة تُنثَر، أو حتىٰ مقطوعة تعزَف، لا بآلات وَتريَّة ونفخيَّة، بل بمزامير داووديَّة، ترانيم ملكوتية وأناشيد عرشية، تأتي من ريح تهبُّ لتتخلَّل الأشجار، فتُحدِث نغماً وتُنشئ صوتاً لو ٱستمع أهل الأرض إلىٰ لحظة منه لماتوا شوقاً!... يحكي قصَّة عشق ما زال الملكوت الأعلىٰ يحنُّ من عجَبها ويئنُّ من نشوَتها، وتهتزُّ أركانه من هوْل ما يجري في ملحمتها...

ولـكنَّها ليست ساعة حُلْم ورخاء من تلك
التي يعيشها السالك بعد الوُصول ويهنأ بها
عند اللقاء، بل هي ساعة سعْي وعَناء، لا
تحتمل دَعَةً وٱسترخاء، ناهيك بلغْوٍ ولهو، أو
جدال ومراء، فلا تركَن إلىٰ الهواجس
والأهواء، ولا تعِشْ صغَر النفس ولا
يغلبنَّك سقوط الهمَّة، ٱطلب المعالي وٱلحَقِ
الذرىٰ، تأهَّب لها وتهيَّأ، شمِّر عن ساعد
وٱحسر عن ساق، ٱشدُدْ حيازيمك وٱجمع
ذيلك، وٱمضِ علىٰ بركة الله وفي رعايته...
وقد فاز باللذاتِ الجسور.

أنسَ «نجيب» من هـٰذا الحديث وٱنتشىٰ، وبدأت تغشاه أجواء غريبة، عادت به إلىٰ حالة نزلت به وأصابته لمرتين في حياته، وهو يشعر الساعة أنها مقدِّمات وَاحدة جديدة، ثالثةٍ سوف تحلُّ عليه وتعتريه بعد قليل!

حالة عرَضت له أوَّل مرَّة في وهو في العشرين من عمره، جاءته حين كان في طوْر الإفاقة من تخدير ٱقتضته عملية جراحية أُجرَيت له، وقد نزلت به ـ كما قيل له فيما بعد ـ من آثار المخدِّر، من زيادة أو نقصان فيه، وعدم ضبط لجرعته، أو هي من قوَّة أعصابه ومناعتها، أخذت تصارع المادة المخدِّرة وتغالبها، فأبقته في وَسطٍ بين اليقظة والغيبوبة، بل أخذته إلىٰ برزخ بين الحياة والموت! كان يرىٰ الطاقم الطبيَّ حوله، ويشعر بهم يتحسَّسون بدنه، ويرىٰ جسمه ممدَّداً في فراشه، غائباً عن الوَعي!

كان يشعر بكلِّ شيء، لكن دون ألم، ودون قدرة على الحركة، يرى ويسمع ما يدُور حوله، رآهم ينقلونه من سرير الجراحة إلى غرفته، وسمع الممرضة تحدِّث صاحبتها، وتصلح " المصل " الذي غُرِس في ذراعه... وهو شعور مصحوب بأُنس ولذَّة، شيءٌ له طعمٌ ونكهة، غشي روحه وسرى في بدَنه، ليس من قبيل الحلو بعد المرِّ، أو الحامض بعد المالح واللاذع، بل لذَّةٌ غريبة، لم ينسها، وحالة بقي يتمنَّى تكرارها والعودة إليها!

حتى نزلت به مرَّة ثانية واعترته حين توُفِّي عزيزٌ عليه، بل حبيبه الأعزُّ، شيخه ومراده، معلِّمه وأُستاذه، تأثَّر وانفعل، شعر بوحدة ووَحشة، غلَبه حزنٌ والتِياع، وغدا ساهماً كاسفاً، كئيباً كمِداً، فكأن الدنيا انتهت برحيل معلِّمه، ولا معنى لبقائه وحياته بعد شيخه، وما زال في هذا، حتى أدركته لحظةٌ انفصل فيها عن محيطه، انخلع عن بدنه وارتحل إلى ذلك العالم...

ولما عادَ وأفاق، بقيت في روحه بقايا السفر والرحلة، ووَرِث بعض الحال التي وَجَدها وعاشها هناك، سُكرٌ ونشوة، وخدَر وابتهاج... أطبق فمه ولم يفشِ سرَّه، ما كان يريد أن يشاركه فيه أحد! ثم ماذا عساه أن يقول؟ كيف يصف ما انتابه ويبيِّن ما اعتراه؟ وهو شعور وذوق. ولعمري ماذا كنتَ ستطلق على طعم الشَّهْد إن لم يكن الوَضعُ تسالَمَ على مدلول الحلاوة وضدِّها المرارة؟ فكيف تحكي عن حالٍ لم يوضَع له لفظ؟ أم تراهم فعلوا ووَضعوا؟! لكنَّ «نجيباً» لم يكن قد قرأ في هذا ولا بحَث، ليعرف الجواب هنا، لذا عاش الحالة وأخذته إلى عالمها، عملاً وحضوراً وشهوداً، دون مقدِّمات ومداخلات، قد تأتي من معرفة نظرية مُسبقة، تفتح باب الخلط واللبس، وتأخذ صاحبها في الهوَس وتنقله إلى الخيال والخبل!

ها هي الآن مقدمات الحالة تغشاه!... ويبدو أنها تأتيه الساعة مضاعفة، فهو يشعر في نفسه بالإقبال علىٰ تلقِّي جرعةٍ كبيرة تفصله تماماً، وتأخذه بعيداً، إنه علىٰ مشارف " ٱنقلاب " .

لم تبلغ الحالة ولا اللذة في المرتين السابقتين هٰذا الحد، يبدو أنَّ الأجواء التي تحكم العطاء وتحفُّ بالسماع هٰذه المرَّة، تضافرت مع نوعية ما يتلقىٰ ومادَّة الفيض التي سيُتحَف بها. كأنَّ «هب» لا يفصح بكلام ويخطب ببيان، ولا ينصح ويوجِّه أو يأمر ويرشد، بل يلقي سحراً خفقت له الأفئدة وطارت النفوس، فملك أعِنَّتها وردَّ شارد أهوائها!... نشوة يهتف لسان حالها: هٰكذا يكون تشنيف المسامع والطرب! وتُعلِّم المستمع أي الأصوات والمعاني تخلقه في النفس، تزرع أُصوله فتُنبتها وتبثَّها في الروح، لتبلغ بها الخفَّة التي ينشدها الباحثون عن " الٱنفصال " ، تُعساء يطلبونه في مخدِّرٍ ينتشلهم من الصعاب ويُنسيهم الهموم، وقد يختلسهم من الحياة! أو أولياء ينشدون " الأجواء " في صوت يأخذهم إلىٰ " الفناء " ... هٰذا طربٌ يأخذك وينتهي بك إلىٰ " الٱتصال " !

: إننا مقبلون يا «نجيب» علىٰ أمر خطير، قد يُقيِّض لنا رؤية إمامنا، ولقاء وَلينا فنحظىٰ! هو يدير الوجود، وينظر إلىٰ العالم، وأنا أنظر إليه، وما زلت أحيا علىٰ أمل أن ينظر إليَّ. أنا عاشقٌ يبحث عن حبيبه، يريد النظر إلىٰ وَجه الله، ساقَني قدَري وقادني فلاحي، وٱنتهت بي سعادتي، إلىٰ هٰذا الموقع والحال!

تـاهَ أربـاب الظـاهـر وشـطحـوا، وأسرَهـم
جمودهم وأقعدتهم ضحالتهم، إذ أنكروا علىٰ
أهل الـذوق والنـظـر أن يقع الحبُّ إلّا مع
ٱتحاد السنخيَّة، فكيف للجسم العنصريِّ
المركَّب، أن يحبَّ المطلقَ المجرَّدَ البسيط؟
لعمري، ما عرفوا الحبَّ ولا ذاقوه، وإلّا لما
جهلوا وَليَّ الله: وَجهه ويده ولسانه...
هلُمَّ لنفرش دربنا بورود الجمال ورياحين
الجلال، ونبسُطه بكرامة العشق وحبور
الوَلاء. دعني أُحدثك وأذكِّرك بما تأنس
وتعرف، وطالما كنت تبثُّه وتوصي به!

راح «هب» يسرد بعض ما كان «نجيب» قد قرأه غير مرة في سِفْر نفيس، وكان يعيد قراءته ويكرِّر مطالعته، ويحرص أن يوصي به غيره: عليكم بقراءة ‹جامع السعادات› لـ «النراقي». والغريب أنَّ هٰذا الإخبار لم يفاجئ «نجيباً»، فلم يسأل ولا تساءل في نفسه: من أين عرف عنه ذلك؟! لا عن غفلةٍ وعدم التفات إلىٰ مدلول هٰذا الإخبار، بل لدخول الرجل في التسليم، والاْنتقال مع مخاطَبه إلىٰ الإذعان... نقل من فصلٍ في:

ثبوت حقيقة المحبَّة ولوَازمها من الشوق والأُنس لله تعالىٰ، وأنه سبحانه المستحقُّ للحبِّ دون غيره، وبذلك ظهر فسادُ زَعْم مَن أنكر إمكان حصول محبَّة العبد لله تعالىٰ وقال: " لا معنىٰ لها إلّا المواظبة علىٰ طاعة الله، وأمَّا حقيقة المحبَّة فمُحال، إلّا مع الجنس والمثل " .

كيف ينكرون حبَّ الله وعشق أوليائه، وهم يعيشونه بالوجدان، وقد ذكرته آيات القرآن، فأغنت عن كلِّ برهان، كقوله تعالىٰ: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥ﴾ (المائدة)، و﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ (البقرة)، ناهيك بقصصه وحالاته المشهودة الثابتة بالتواتر؟

وقد بلغهم قول «رسول الله» ﷺ: "لا يؤمن أحدُكم حتىٰ يكون الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما". وقال: "الحبُّ من شروط الإيمان". وقال: "أَحِبُّوا الله لما يغدوكم به من نعمة، وأَحِبُّوني لحبِّ الله". وقد نظر ﷺ إلىٰ بعض أصحابه مقبلاً وعليه إهابُ كبش، فقال: "ٱنظروا إلىٰ هٰذا الرجل الذي قد نوَّر الله قلبه، لقد رأيته بين أبويه يغذوانه بأطيب الطعام والشراب، فدعاه حبُّ الله وحبُّ رسوله إلىٰ ما ترون". وقال ﷺ في دعائه: "اللهم ٱرزقني حبَّك، وحبَّ مَن يحبُّك، وحبَّ من يقرِّبني إلىٰ حبِّك، وٱجعل حبَّك أحبَّ إليَّ من الماء البارد".

وفي الخبر المشهور: "أنَّ «إبراهيم» عليه السلام قال لملك الموت، إذ جاءه لقبض روحه: هل رأيت خليلاً يُميت خليله؟ فأوحىٰ الله تعالىٰ إليه: هل رأيت مُحبّاً يكره لقاءَ حبيبه؟ فقال: يا ملك الموت: الآن فٱقبض".

وأوحىٰ الله إلىٰ «موسىٰ» عليه السلام: "يا «ٱبن عمران»! كذب من زعم أنه يحبُّني، فإذا جنَّه الليل نام عنِّي، أليس كل مُحبٍّ يحبُّ خلوة حبيبه؟ ها أنا ذا يا «ٱبن عمران» مُطَّلع علىٰ أحبائي، إذا جنَّهم الليل حُوِّلت أبصارهم إلىٰ قلوبهم، ومَثُلَت عقوبتي بين أعينهم، يخاطبوني عن المشاهدة، ويكلموني عن الحضور، يا «ٱبن عمران»! هب لي من قلبك الخشوع، ومن بدنك الخضوع، ومن عينك الدموع في ظُلَمِ الليل، فإنك تجدني قريباً".

ورُوي: " أن «عيسىٰ» عليه السلام مرَّ بثلاثة نفَرٍ قد نحُلت أبدانهم وتغيَّرت ألوانهم، فقال لهم: ما الذي بلغ بكم ما أرىٰ؟ فقالوا: الخوف من النار. فقال: حقَّ علىٰ الله أن يؤمن الخائف. ثم جاوزهم إلىٰ ثلاثة أُخر، فإذا هم أشدُّ نحولاً وتغيراً، فقال لهم: ما الذي بلغ بكم ما أرىٰ؟ فقالوا: الشوق إلىٰ الجنة، فقال: حقَّ علىٰ الله أن يعطيكم ما ترجون. ثم جاوزهم إلىٰ ثلاثة أُخر، فإذا هم أشدُّ نحولاً وتغيُّراً، كأنَّ علىٰ وُجوههم المرايا من النور، فقال: ما الذي بلغ بكم ما أرىٰ؟ قالوا: حبُّ الله عزَّ وجل. فقال: أنتم المقرَّبون " . وفي بعض الروايات: " إنه عليه السلام قال للطائفتين الأوَّلتين: مخلوقاً خفتم، ومخلوقاً رجوتم، وقال للطائفة الثالثة: أنتم أولياء الله حقاً، معكم أُمرتُ أن أُقيم " .

وقال «رسول الله» صلى الله عليه وآله : " إن «شعيباً» عليه السلام بكىٰ من حبِّ الله عزَّ وجلَّ حتىٰ عميَ، فردَّ الله عليه بصره، ثم بكىٰ حتىٰ عميَ، فردَّ الله عليه بصره، فلما كانت الرابعة أوْحىٰ الله إليه: يا «شعيب»! إلىٰ متىٰ يكون هـٰذا أبداً منك؟ إن يكن هـٰذا خوفاً من النار فقد أجرتُك، وان يكن شوقاً إلىٰ الجنة فقد أبحتك. فقال: إلهي وسيدي! أنت تعلم أني ما بكيت خوفاً من نارك، ولا شوقاً إلىٰ جنتك، ولـٰكن عقَد حبُّك علىٰ قلبي، فلست أصبر أو أراك. فأوْحىٰ الله تعالىٰ إليه: أما إذا كان هـٰذا هـٰكذا، سأُخدِمك كليمي «موسىٰ بن عمران» " .

وروي: " أنه جاء أعرابي إلىٰ «النبي» صلى الله عليه وآله فقال: يا «رسول الله»! متىٰ الساعة؟ فقال صلى الله عليه وآله : ما أعددتَ لها؟ قال: ما أعددتُ لها كثير صلاة ولا صيام، إلَّا أني أُحبُّ الله ورسوله، فقال له «النبي»: المرء مع مَن أحبَّ " .

وقال «أميرالمؤمنين» عليه السلام في "دعاء كميل": "فهبني يا إلهي وسيدي ومولاي وربي صبرت على عذابك، فكيف أصبر على فراقك"؟

وقال عليه السلام: "إن لله شراباً لأوليائه، إذا شربوا سكروا، وإذا سكروا طربوا، وإذا طربوا طابوا، وإذا طابوا ذابوا، وإذا ذابوا خلصوا، وإذا خلصوا طلبوا، وإذا طلبوا وجدوا، وإذا وجدوا وصلوا، وإذا وَصلوا ٱتصَلُوا، وإذا ٱتصَلُوا لا فرْق بينهم وبين حبيبهم".

وقال «سيد الشهداء» عليه السلام: "يا مَن أذاقَ أحبَّاءَه حلاوة المؤانسة فقاموا بين يديه متملِّقين".

وفي المناجاة الإنجيلية المنسوبة إلىٰ «سيد الساجدين» عليه السلام: "وعزَّتك! لقد أحببتك محبَّةً ٱستقرت في قلبي حلاوتها، وأنِست نفسي ببشارتها، ومُحالٌ في عدل أقضيتك أن تسدَّ أسباب رحمتك عن معتقدي محبَّتك".

وفي مناجاة أُخرىٰ: "إلهي! مَن ذا الذي ذاق حلاوَة محبَّتك فرَامَ منك بدَلاً، ومَن ذا الذي أنِسَ بقُربك فٱبتغىٰ عنك حِوَلاً؟ إلهي فٱجعلنا ممن ٱصطفيته لقُربك ووِلايتك، وأخلَصته لوُدِّك ومحبَّتك، وشوَّقته إلىٰ لقائك ورضَّيته بقضائك، ومنحته النظر إلىٰ وَجهك وحَبَوْته برِضاك، وأعَذته من هجرِك وقلاك، وبوَّأته مقعد الصِّدق في جوَارك، وخصصته بمعرفتك، وأهَّلته لعبادتك، وهيَّمت قلبه لإرادتك، وٱجتبيته لمشاهدتك، وأخليتَ وَجهه لك، فرَّغت فؤاده لحبِّك... يا مَن أنوارُ قُدسه لأبصار محبِّيه رائقة، وسُبُحاتُ وَجْهه لِقُلُوبِ عارِفيه شائقة، يا مُنى قلوب المشتاقين، ويا غاية آمالِ المحبِّين، أسألك حُبَّك وحُبَّ مَن يحبُّك، وحُبَّ كُلِّ عَمَلٍ يُوصِلُني إلىٰ قربك، وأن تجعلَكَ أحَبَّ إليَّ مما سِواك...".

وقال عليه السلام أيضاً: "إلهي! اجعلني ممن مَلأت لهم ضمائرهم من حبِّك... أنت لا غيرك مُرادي، ولكَ لا لِسِوَاك سهَري وسُهادي، ولقاؤك قُرَّة عيني، ووَصلُك مُنىٰ نفسي، وإليك شوقي، وفي محبَّتك وَلَهي، وإلىٰ هوَاك صَبابَتي، ورِضاك بُغيتي، ورؤيتك حاجتي، وجوَارك طلَبي، وقُربك غاية سُؤلي، وفي مناجاتك رَوْحي وراحتي، وعندك دوَاء علَّتي وشفاء غُلَّتي وبَردَ لَوْعتي وكشف كُربتي".

وعنه عليه السلام أيضاً: "إلهي! ما ألذَّ خواطر الإلهام بذكرك علىٰ القلوب، وما أحلىٰ المسير إليك في مسالك الغيوب، وما أطيب طعمَ حبِّك، وما أعذَب شرب قربك".

وقال عليه السلام: "وغُلَّتي لا يبرِّدها إلَّا وَصلك، ولَوْعتي لا يطفيها إلَّا لقاؤك، وشوقي إليك لا يَبُلُّه إلَّا النظر إلىٰ وَجهك، وقراري لا يقرُّ دون دُنُوِّي منك، ولهفتي لا يردُّها إلا رَوْحك، وسقمي لا يشفيه إلَّا طِبُّك، وغَمِّي لا يُزيله إلَّا قُربك، وجرحي لا يبرؤه إلَّا صفْحُك، وريْن قلبي لا يجلوه إلَّا عفوك، ووَسواس صدري لا يزيحه إلَّا أمرك".

وقال «أبوعبدالله الصادق» عليه السلام: "حبُّ الله إذا أضاءَ علىٰ سرِّ عبدٍ، أخلاه عن كلِّ شاغل، وكلِّ ذكْرٍ سوىٰ الله، والمحبُّ أخلصُ الناس سراً لله، وأصدقهم قولاً، وأوْفاهم عهداً، وأزكاهم عملاً، وأصفاهم ذكْراً، وأعبَدهم نفساً. تتباهىٰ الملائكة عند مناجاته، وتفتخر برؤيته، وبه يعمر الله بلاده، وبكرامته يُكرِم الله عباده، ويعطيهم إذا سألوه بحقِّه، ويدفع عنهم البلايا برحمته، ولو علم الخلق ما محلُّه عند الله ومنزلته لَدَيه، ما تقرَّبوا إلىٰ الله إلَّا بتراب قدَميه".

كان «هب» ينقل أحاديث الحبِّ هذه، ولا سيما مقاطع المناجاة، بقلب خاشع ونفْس منكَسِرة، وأنفاس تتصاعد، تحسبها تذهب بروحه، فلن تعود وترجع، فكأنه يلفظ روحه ويلقي وُجوده في كلامه، فلا شيء من بعدُ هنا، إلَّا جثَّة هامدة وبدنٌ ميتٌ فارقته الحياة! ولم يكن «نجيب» قد عرف أحَداً عن قرب، ولا مرَّت به مثل هذه الحالات، على الرغم من انخراطه إلى حدٍّ ما في "الطريقة"، ووُقوفه، بل انتسابه بدرجة لا تُنكر للمشرب... لكنَّه ما التقى يوماً بروحانيٍّ ولا عرف عاشقاً من هذا الطراز! كان وهو يتلو: "إذا شربوا سكروا، وإذا سكروا طربوا، وإذا طربوا طابوا، وإذا طابوا ذابوا"... يتمايل وينوء برأسه كثَمِل، أو هائم سيُحلِّق بعد حين ويطير، وأنَّ الأرض ما عادت تستطيع إبقاءه على أديمها أو أن تعمل فيه جاذبيتها، فقد تلبَّسه هذا الكلام الملكوتي، وغمَره بنفحةٍ، صبَّت روحه في هيكل عالم آخر، فلا بدَّ له من الانتقال إلى صقع جديد وحضرة أرقى وأسمى!

وما جوهر المعراج وحقيقته، من حيثيَّة وفي جانب منه، إلَّا هذا... فإنَّ كلَّ حالة تقتضي ظرفاً، وكلَّ حركة تتطلَّب زماناً ومكاناً، والرقيُّ الروحي قد يبلغ حدّاً ويصل درجة، لا يعود الحيِّز الذي يشغله المرتاض السالك يطيقها، لا في بدنه ولا محيطه، لا في هيئته ولا أذكاره وطقوسه، فيهوي إلى السجود، وأقرب ما يكون العبد إلى ربه وهو ساجد، فإذا لم يكتفِ وَقع له "الإسراء"، انتقل إلى محلٍّ آخر، بقعة تتيح له مزيد تقدُّم وتفسح للارتقاء (كـ«مكة» و«المدينة» وباقي العتبات العاليات). ثم قد لا يكتفي، فلا تطيق الأرض كلُّها ولا تبلغ به كفايته من السُّموِّ، فيعرض له "المعراج"، يذهب إلى حضرة في الملكوت الأعلى، ويرحل إلى ذلك الأُفق الأعظم!

لم يملك «نجيب» مزيد صمت وسكوت، وقد شعَر أنَّ الأسئلة التي تتزاحم في ذهنه ستضيع وهي تتجاوز مكانها من فرط ما يتلاحق عليها، فتدخَّل ليقاطع السرد ويقطع الٱسترسال، لكنَّ «هب» مضىٰ...

وقد روي " أن «داود» ﷺ سأل ربه أن يريه بعض أهل محبته، فقال له: ٱئت «جبل لبنان»، فإن فيه أربعة عشر نفساً، فيهم شُبَّان وكهول ومشايخ، وإذا أتيتهم فٱقرءهم منِّي السلام، وقل لهم: يقول ربُّكم ألا تسألوني حاجة؟ فإنكم أحبَّائي وأصفيائي وأوليائي، أفرح لفرحكم وأُسارع إلىٰ محبَّتكم. فأتاهم «داود»، فوَجدهم عند عين من العيون يتفكَّرون في عظمة الله وملكوته. فلما نظروا إلىٰ «داود»، نهضوا ليتفرَّقوا عنه، فقال لهم: أنا رسول الله إليكم، جئتكم لأُبلغكم رسالة ربكم. فأقبلوا نحوه، وألقوا أسماعهم نحو قوله، وأبصارهم إلىٰ الأرض، فقال «داود»: ربكم يقرئكم السلام، ويقول لكم: ألا تسألوني حاجة، ألا تنادوني فأسمع صوتكم وكلامكم؟ فإنكم أحبَّائي وأصفيائي وأوليائي، أفرح لفرحكم وأُسارع إلىٰ محبَّتكم، وأنظر إليكم في كلِّ ساعة نظرة الوالدة الشفيقة الرفيقة. فلما سمعوا مقالة «داود» جرت الدموع علىٰ خدودهم، وسبَّح كلٌّ ومجَّد ربَّه، وناجاه بكلمات تدلُّ علىٰ ٱحتراق قلوبهم حبّاً وشوقاً " .

ثم التفت «هب» إلىٰ أصحابه وقال:

ها قد أتينا «جبل لبنان»، ونزلنا ـ إن شاء الله ـ دارَ إيمان... ومنها سننطلق معاً لنجِد كهفاً يأوينا، نلبث فيه ما شاء الله، حتىٰ تأتي الرخصة ويصدر الإذن باللقاء.

علينـا أن نجِـد "منصَّـة الاْنـطلاق" نحـو الهدف، ومرفأ الحركة تجاه الغاية...

وقد دلَّت الحسابات عنـدي علىٰ موقعين، أحدهما في «القاهرة»، بقعةٌ في صُفَّة إلىٰ يسار الضريح المشرَّف لـ «السيدة نفيسة» عليها السلام، ٱبنة «الحسن الأنـور بن زيـد الأبلـج بن الحسن السـبط» عليه السلام... سنجعله الثـاني، إن خـاب مسعانا الأول.

والآخر الـذي سنقصده بعد قليل، كهفٌ في كتف هـٰذا الجبل، علىٰ سفحه الشرقي، إلىٰ جوار قبر يُنسب لصاحب الطوفان الأول، «نـوح» عليه السلام، في قريـة من ضـواحي «زحلة»، يقال لها «كـرَك»، تطلُّ علىٰ «سهل البقاع». يمـرُّ بحـذائهـا «نهـر البردوني»، تتَّصِل بهـا الأدغـال من جهة الجبل، بينما يربض عند أسفلها "سهل خصيب".

لن يضنينا العثور عليها والوُصول إليها.

: أعـرف هـٰذه القـريـة، وقـد زرت فيهـا قبر النـبي «نـوح» عليه السلام مـرَّة. ولـٰكن مـاذا تعني بالمرفأ ومنصَّة الاْنطلاق؟ مـاذا في الكهف الذي تبحث وتستكشف؟!

: إنه الموقع الذي ننطلق منه تجاه هدفنا، «الجزيرة الخضراء»...

هناك بؤر اتصال، كُوَّات ومشكاوَاتٌ ونوافذ تفضي إلىٰ قنواتٍ ومساربَ وأنفاق.

لا بدَّ لهٰذا السَفَر، وكلِّ سَفَر، قبل الميرة والدابة، والزاد والراحلة، من معرفة الطريق ورسم المسار! مما لا يكون هنا إلَّا عبر إحداثيات، خطوط طول وعرض، سَمْت وزاوية، أُفق ومدىٰ، حساب مثلثات وجداول، أبراج ومنازل ومَدارات، تلتقي كلُّها لتخلق أعداداً وتصنع أرقاماً، تتوافق مع المعادلة الجفريَّة الكبرىٰ التي تسمح لنا بالاتصال، وتتيح لنا الانتقال. هناك أعدادٌ تامة وأُخرىٰ ناقصة وثالثة زائدة، ثم عددان متعادلان وآخران متحابَّان، علينا أن نستخرج هٰذه ونكتشفها، ثم نُحسِن توظيفها ونُحكِم تركيبها، نفعل ذلك بدِقَّة، لتنطبق وتنفعِل، ثم تحدِث " التردَّد " المطلوب و " الذبذبة " اللازمة.

: ربَّاه لا أدري أين يمضي هٰذا " الفضائيُّ " ، وماذا يُراد بي، وأين سينتهي بنا المقام!

: ٱطمئن يا «نجيب» وٱسكن. وكُن سلس
القياد، هشَّ العِنان، وإلَّا فلن تستطيع معنا
صبراً، وستبقىٰ هنا، لا تبرح عاكفاً علىٰ
دنياك، مُكبّاً علىٰ أهوائك، تدور في متاهتك!
لقد قدَّمتُ لك بأنه سَفَر محفوفٌ بالمخاطر،
وسعي كلُّه مشقَّة وعناء، يطلب طلَّاع ثنايا،
يسمو إلىٰ المعالي، وبطَلاً يتسوَّر شرُفات العزِّ
ويتطلَّع إلىٰ يَفاع المجد، وينبذ خمول الحسِّ
وضعف الهمَّة، ومَن يتهيَّب صعود الجبال،
يعش أبد الدهر بين الحفَر.

ومما تجاوزه «هب» هنا وأعرض عن بيانه، ولم يقُله عن هدفه وضالَّته، أنَّ " منصة الٱنطلاق " التي يتحرَّاها، أو الكُوَّة والمرفأ الذي سيُبحرون منه، والرحلة التي سيأخذون فيها بعد ذلك، هي بمثابة " بحر الظلمات " الذي يحيط بـ «الجزيرة الخضراء»، لا البحر الأخضر و«الأُوقيانوس» (مما كان يعبَّر به عن المحيط الأطلسي)، الذي تحدَّث عنه «ٱبن خلدون» في ‹المقدمة›، وذكره «الإدريسي» في ‹نزهة المشتاق في ٱختراق الآفاق›، و«الحميري» في ‹الروض المعطار في خبر الأقطار›، و«المسعودي» في ‹مروج الذهب›... بل هو: بوْنٌ ومسافة ونطاق، فاصلٌ وحاجز، حاجبٌ وحائل، يجب أن يُجتاز هٰذا ويُقطع ذاك، حتىٰ يصل الراحل ويبلغ المسافر «الجزيرة الخضراء». وفيه من الأهوال والمتاهات، وخطر الضياع والغرق، ما يشيب الصغير ولا يتمالك له الكبير، اللهم إلَّا مَن صدر له الإذن وحمل " الترياق " .

تجاوز «هب» هٰذا، وأعرَض عن شرحه وبيانه، وكأنه لا يكترث إلَّا بالحقائق وسامي الأهداف، ويرىٰ المثمَن أعزَّ من أيِّ ثمن، فلا بخس هنا ولا غبن. ثم لا وَقت ولا سَعَة لما يثير الأسئلة ويُذكي الحيرة، أو يبعث الخوف والترديد في نفس هٰذا الكهل المتأني والمترف المرتاب! ما كان يريد الاْنشغال بأيِّ أمر "عارض"، وهو يراهن علىٰ الوَاقع المشهود، وما سيعيشه مخاطَبه بالعيان، ويدركه بعد حينٍ بالوُجدان. لٰكنه مع كلِّ هٰذا وذاك غلبته الشفقة، فعاد وشرح شيئاً وأضاء جانباً، فقال:

نحن بصدَد أمرٍ والدخول في نطاق سيخرق عالمكم هٰذا إلىٰ آخر موازٍ له، ننتقل إليه بصوَرنا وأبداننا هٰذه، ونصير فيه، وإن كان بطبعه وتكوينه يصدُّ غير أهله، يمنع الغرباء، ويلفظ الأغيار.

إنه موقع في عالَم قائم علىٰ هٰذه البسيطة، موجود علىٰ كوكب الأرض، لٰكنه منفصِل، يوَاكب أو يوَازي العالَم الذي تعيشون، دون أن يمسَّه أو يتداخل معه.

إنه من أعقد العوالم وأصعبها، ليس كعالَم الجنِّ أو الأرواح أو الملائكة، أو غيرها من الكائنات الخفية، إنما هو عالَمُكم نفسُه، لٰكن بأُفُقٍ يختلف... وله موقع الناظر والمهيمن، ومنزلة المتقدِّم المتفوِّق.

عالَـمٌ لا سبيل إلىٰ بلُوغه، لا لإنس ولا جانٍّ، ولا حتىٰ ملَك! ناهيك بسائر المخلوقات، إلَّا بتكليف وٱنتداب، أو إذن ودعوة، فلا يلِجه إلَّا مَن سُمح له، ولا يدخله إلَّا مَن أُفسِح له... ولا تجدُ فيه إلَّا الكُمَّل والأكمل من كلِّ شيء، القمَّة من النعم والذروة من المخلوقات: أعذبَ الماء وأنقاه، وألطَف الهواء وأرخاه، أنضر البساتين وأغناها، أبذخ القصور وأفخرها، أطيب الطعام وأشهاه، ألذَّ الفاكهة وأفضلها، أحسن الطيور وأزكىٰ اللحوم، أرفه المراكب وأغلىٰ الدواب، أصبح الوِلْدان وأطوَع الخدَّام، أجمل الخود والخرائد، وأهنأ الغيد والعرائس.

لا نصَبَ هناك ولا لغَب، ولا عناءَ ولا تعَب، لا كمَد ولا أسَف، ولا غمَّ ولا لهَف، لا فزَع ولا وَجَل، ولا ذُعْـر ولا وَهَل، لا قلَق ولا ٱضطراب، ولا قسْرَ ولا إكراه، لا مكدِّرات ومنغِّصات، ولا أمراض ولا آفات، لا صحَّة تعتلُّ ولا مزاجَ يسقُم، فلا جراثيم هناك ولا ميكروبات، ولا ضارَّ يطيق العيش في ذلك العالم والبقاء علىٰ تلك «الجزيرة»!...

إنَّ اللـذة التي ستغمُرك في ذلك العـالم، تبلغ حـدّاً يجعلك تـزدري مـا أنـت فيه هنـا، بل يصغر أمامه أقصىٰ ما يتمنَّاه البشر، وذروة ما يرجونه من عـالمهم ويشتهونه في دنياهم! وإن كـان من جنسه وطبيعته، وكـان السبيل إلىٰ معرفته وإدراكه. و " قد عَلِم أُولو الألباب أنَّ ما هنالك لا يُعلَم إلَّا بما ها هنا " .

فإذا دخلت ذلك العـالم، فلا تخف شيئاً ولا تخشَ أحداً، فأنت في " الحمىٰ " !

: ألهبتَ شـوقي يـا أخي، وأجَّجت فضولي، وأثـرت في نفسي سيلاً من التساؤلات... ما أراك تصِف إلَّا الجنة! لعمري أيُّ حمىً هـٰذا وأيُّ جوار؟!

: لا نـدري كـم تفسح لنـا الفـرصة ويتيح الظرف، إنَّ الوقت يدهمنا يا صاحبي، فلا سعَـة للتـوضيح والبيـان، ولا منـدوحـة للمحادثة والحوار... ثم إنني في غاية الحرص علىٰ الاْنقطاع والخشوع، والحذر مما يصرف النيَّة أو يشتِّتها، ويبدِّد العزيمة أو يضعِفها، لا أُريد أن أخوض في مـا يتلف التهيُّؤ، ولا أن أفتح الباب لما ينال من الإعداد!

إعداد الأرواح وتهيئتها لما هي مُقدِمةٌ عليه ومقبِلةٌ إليه. فبعد تحرِّي المكان والبحث عن " منصَّة الانطلاق " ، أو قبل ذلك، بل معه وفي كلِّ لحظة وآن، علينا أن لا نغفل عن ٱستعداد الأرواح وبقاء قابليَّتها، نفي عِلل شَقائها، والحفاظ على أسباب سعادتها، وإلَّا طاش السهم وضاعت الفرصة... فكثيرٌ من المؤمنين يمُرُّون في حركتهم، في معرِض تنقُّلهم وتجوالهم، في حِلِّهم وترحالهم، بـ" مواقع العروج " و " منصَّات الانطلاق " ، يبلغونها ويتجاوزون عنها فلا يشعرون، يحسبونها مثل باقي المواقع والبقاع، ومن سائر الأصعدة والعرَصات!

ولربما التقى أحدهم بشخص «المولى» عليه السلام في الموسم بـ «مكة»، في المسعى أو المطاف، في الموقف بـ «منى» أو «عرفات»، أو في روضة مقدَّسة من العتبات العاليات، أو في ركن مجلس يقام فيه عزاء «سيد الشهداء»... فوَقعت عينه على جمال «إمامه»، لكنَّه ما عرفه ولا ميَّزه، ناهيك بأن أخذ منه وحدَّثه، وتلقَّى منه ما رفعه وكمَّله!

تعـال يـا «نجيب» لـنَفُكَّ أسر أرواحنـا ونُحرِّرها من أغلالها، ونطهِّرها من لوْثها، وننزِّهها عما يزري بها وينال منها.

: لا بأس يا أخي، لِنفعلْ ذلك، وأنا طوْع بنانك، مُرني بما تشاء، وستجدني إن شاء الله صابراً ممتثلاً!... ولكن، ألا يحقُّ لي أن أكون علىٰ بيِّنة من أمري، وبصيرة في عزمي؟! إنك تتحدَّث عن هٰذا الدرب وكأنك تعرفه وسبق أن قطعته! كأنك رأيت «الجزيرة» وزرتها؟! إنها ـ يا أخي ـ لُغة حسٍّ وشهود، ويقين ودراية، لا حديث حدْس وإخبار، وإن صاحَبه إذعانٌ واقترن بإيمان.

وكان هٰذا مما أخفاه «هب» أيضاً ولم يكشف لصاحبه الإنسيِّ، فهي زيارته الثانية!... لقد سبق أن جاء إلىٰ الأرض وحظي بالسعادة وتشرَّف باللقاء، وذلك قبل نحو أربعة قرون ونيِّف مضت! قدم من وَطنه، أو من بعض الكواكب الأُخرىٰ حيث كان يجول مُبلِّغاً، ويدور بطبِّه مداوِياً، وما مراهمه إلَّا إكسير العشق، ولا ترياق في جعبته إلَّا تعريف الخلق بسادتهم وجذب قلوبهم إلىٰ «أئمتهم». كان قد بلغ الأرض من قبل ووَصل «الجزيرة الخضراء» مرَّة، وعاش فيها يوماً وبعض يوم، وقد كحَّل ناظره وزيَّن روحه وتشرَّف بلقاء «سيِّده» عليه السلام... لكنَّه آثر أن يكتم الأمر عن «نجيب»، كما فعل مع بني جنسه وسكَّان وَطنه، ولا يدري لماذا!؟

ومع سؤال «نجيب» وملحوظته، أحسَّ بوَخز في ضميره وغمزة في خاصرة نفسه تلومه، أخذته إلىٰ أغوار نفسه وأعماقها، حتىٰ وَقف وأشرف علىٰ " اللاشعور " ، فأدرك وشعَر، بعد غفلةٍ وخدَر! اَطَّلع علىٰ المكنون المخفيِّ، والمهمل المخبوء هناك، وقد جرَّدت الإطلالة ستراً مُرخىً ما زال يغطِّيه، وأزاحت الوَقفة دثاراً ما اَنفكَّ يلفف ما سكَن وقبعَ فيه.

وقد هاله ما اَنزوىٰ وتوارىٰ واَختبأ هناك (في اللاشعور) من قبائح وآفات، اَستوطن في " العادة " التي يدرج عليها المرء، و " الطبيعة " التي تغلبه باَسترسالها، دون صخَب صراعٍ وضجَّة معارضة! فضحَت الوَقفة مكنون الأهواء وكشفت مستسرَّها، فطرح السؤال: لماذا أخفىٰ هذه المعلومة؟ وإن وَجد الجواب في شأنه مع قومه وحاله في بلاده؟ لكنه عجز عن تبرير حجْبها عن " الإنسيِّ " ، وهو رفيق سفره القادم؟ وقد اَحتال في ذلك بشتَّىٰ العناوين والتمس له مختلف الأعذار والمسوِّغات: " حذر أن يفجئه الأمر ويفزعه، ولربما كذَّبه ولم يصدِّقه، فلماذا الإثارة والدخول في الجدال " ؟ فإذا غلب هذا الخاطر سيل الموارد الشبيهة التي صعقت الرجل، وكادت أن ترديه أو تنزل به الجنون، وأوَّلها حضور الجنِّ وكائنات الفضاء أمامه، وقد تقبَّلها واَرتاضت نفسه بل طابت لها، عاد وَجهٌ آخر يسوِّغ: " إنه تفاخرٌ وزهْو، وتعالٍ وتفوُّق، يُشعِر المقابل بالتردِّي والعجز " ... لكنَّ الحقيقة من إخفائه أمره، وَقفت أمامه عاريةً، فهو إنما أراد " التميُّز " ! ولم يرِدْه مظهراً، يباهي ويصعِّر به علىٰ الناس خدَّه! بل طلبه شعوراً وبرداً يدغدغ روحه، رعشة تستحوِذ علىٰ شغاف قلبه... والشرْكُ أخفىٰ من دبيب النمل علىٰ الصخرة الصماء، وكذا بعض حبائل الشيطان وشراكه!

: نعم، لقد رأيتها وتشرفت بزيارتها! لقد كنت هنا قبل نحو أربعمئة عام. وأرجو أن تعذرني علىٰ كتمان هـٰذا الأمر وإخفائه عنك.

هـٰكذا خرج من إطراقة ألقاه السؤال فيها، تنفَّس الصعداء، وعلم أنها " هنة " أخيرة، بقيَّة يجب أن يُخرِجها من نفسه وفضْلَة عليه التخلُّص منها، " نعل " لا بدَّ أن يخلعه، قبل أن يُفسَح ويؤذن له بهـٰذا السفر. راح «هب» يعرض قيمة سامية، ويشير إلىٰ نكتة أخلاقية لطيفة، ويبلْوِر الصورة عن مفهوم دقيق، قدَّمه لصاحبه في عريضة التماس، رجاء أن تكون كفَّارةً:

كما نستغفر من خطايانا، علينا أن نعتذر عن أخطائنا، لا ٱحتراماً للضحية وتبجيلاً له فقط، ولا ردّاً لحقِّه وإكراماً له بعد بخْسِه فحسب، بل تربية لنا وتزكية لأنفسنا...

لا شيء يضرُّ بالنفس ويهلك الروح ويدمِّر بناءها مثل الكِبر، والأنفة عن الٱعتراف بالخطأ، والتعالي عن الٱعتذار.

لقد أخفيتُ الأمر عنك لنزعة شيطانية غلبتني! أردت التفوُّق عليك بما أعرف وتجهل، والتميُّز عنك، واللذة في مراقبة ٱنعكاسات الحدث علىٰ وَجهك، وردَّات فِعلك علىٰ ما سترىٰ وتلقىٰ، وأنا مسبوق به، آمِنٌ في سرب الخبرة وحياض التجربة!

إنَّ «المـولىٰ» الذي نـدين بـولائه ونهيم بحُبِّه،
لا يطيق تحقير فرد من رعيَّتـه، ولا يغفر لأحَد
ٱمتهان وَليٍّ من شيعته، ولـو بنظـرة ٱستشعَر
منها الـدونيَّة، أو كـان غـافلاً فلم يستشعر،
لـٰكنهـا تـورثه ـ في الـوَاقع ـ ضَعَـة وهـوَانـاً،
فكيف بفعلٍ وممارسة بلَغت الظلم!
إنها خِسَّةٌ منِّي ودناءة! أن أُسخِّر صاحبي
ورفيق دربي لغـرض كتمته عنه، لا لمصلحة
لـه، أو لحِكمـةٍ وضرورة، كما أغـرتني نفسي
وخدعتني بتبريراتها وسوَّلت لي بأباطيلها، بل
لمـا قلتُ الآن وٱعترفت، من غلَبـة هـواي،
فلك العُتبىٰ حتىٰ ترضىٰ!
لن يـرقىٰ أحدٌ وهـو يزدري غيره، لن يسمو
وهو يظنُّ في نفسه تفوُّقاً وفضلاً.

كـانت الحـالـة والأجـواء تـأخـذ المـشهـد إلـىٰ الاَنفصـال عن الأرض والاَرتفاع أو الترفُّع عنها، وتنزع إلىٰ التحليق والملكوتية وتنحىٰ صوبها... الفضاء يفعَم بالعصمة والرفعة، كأنَّ السموَّ غمامة دنت فتدلَّت، أو ضبابٌ هبط وسديمٌ حطَّ ونزل، حتىٰ أحاط ولفَّ كلَّ شيء هنا، فٱستقرَّ نَداهُ علىٰ الحجَر والمدَر، وسرىٰ خضله وعمَّ نـواله فبلغ باسقات السرو وشامخات الصنوبر، فغدا المشهد سامياً متفوِّقاً، يرفل بقُدس قلَّ نظيره، وتغشاه أنوار ويعمُّه ألَق، ما أظنُّ هـٰذه البقعة عرفته يوماً، ولا مرَّ فيها مرَّة!

هٰكذا أمرَع الحقل وٱعشوشب المرعىٰ، نضج الثمر وأينع الجنْيُ وآن الحصاد، ٱستوفىٰ الأمر أجَلَه، وبلَغ مَداه وذُروته، وأخذ هيئته وأكمل عدَّته، وقد طاب السعي وهنأ، ولم يعد للخيبة محلٌّ ولا للخوف والترديد نطاق... ما عاد الحدث ينتظر إضافةً ولا يرتقب إلحاقاً وزيادة، فقد حان القطاف وحلَّت " اللحظة " .

أشار «هب» إلىٰ صاحبه «رع»، دون أن يحدِّثه ولا حتىٰ أن يومئ إليه، رمَقه فحسْب! فتقدَّم " الفتىٰ " وكأنه تلقَّى الأمر مفصَّلاً بلائحة تعليمات مطوَّلة حفظها وصانها... أخرج من عِطاف ردائه أو من جيب طيلسانه، عصاةً غريبة الشكل، بدا أنها ٱتخِذت من شجر التوت، لا تدري كيف داراها بين ثيابه وأخفاها إلىٰ جنبه! تقدَّم ليتخيَّر موقعاً من الرحبة، الفناء الملحق بالدار، راح يدير رأسه ويتلفَّت، ويجول ببصره شيئاً، حتىٰ إذا وَقع منه الخيار، وٱنتخب المكان، توجَّه إليه وٱستقرَّ فيه، وقد جاء بحذاء الوَادي المطِلِّ علىٰ مدخل البلدة، فوَقف صافّاً قدميه، كمَن يتهيَّأ للصلاة، لٰكنَّ وُجهته كانت يمين القبلة لا إليها، فإذا عيَّن مَوضعه وثبَّت قدميه، وكأنه غرسهما غرساً، مكث هُنيهة كمَن ينتظر أمراً جديداً... وما إن التقت عينه بعين «هب»، حتىٰ بدأ يختطُّ دائرةً بقُطر يبلغ نحواً من مترين. كانت العصاة تطول في يده وتتمدَّد، وكأنها طوْع رغبته ورهن حاجته، فصنع والعصا ذراعي أو ساقي فرجار (فرْجَل أو بِركار)، وهو في مركز الدائرة وقطبها، وأخذ يدور حول نفسه، دون أن يرفع رجلاً ويضع أُخرىٰ أو يحرِّك قدميه، كأنه علىٰ وِسادة هوائية، أو هو وَتَدٌ ٱرتكز في موضعه، أو أنَّ البقعة التي ٱنتصَبَ فيها (موضع قدميه) هي التي كانت تدور!

وقد تغيَّر شكل العصا ـ العكَّاز عن صورتها الأُولىٰ وتبدَّل، فبدت كعتَلة من حديد أسود، لا قناة يُركَّب عليها نصْلٌ ويُنزع في رأسها سِنان، إنما قضيبٌ، بل عمود من صُلب! غلبه في بعض المواضع اللون الفضي، وفي أُخرىٰ الذهبي، أو هو لون الصدأ... سميك غليظ، لا تحتوي عليه إلَّا أكفُّ الأبطال، مليئ بالنتوءات والتعرُّجات، اللهم إلَّا موضع القبضة، في الثلث الأوَّل منه، بعد الكعب والسافلة في نظيراته من القنا والرماح، فقد ملُس وٱستوىٰ ونعُم. وقد ظهرت فيه بؤرٌ مضيئة، وخطوطٌ متعرِّجة تحكي العروق النافرة في عضد مفتول العضلات، وكانت تنتفخ حيناً وتضمر أُخرىٰ، كأن شيئاً يسري فيها، يدبُّ تحت الليطة ويتحرَّك!

لم يترك الخطُّ أثراً، ولم يرتسم علىٰ الأرض المبلَّطة شيء...

وهنا نادىٰ «هب» «نجيباً»، وصحِبه ليدخلا في النطاق الذي ٱختطَّه «رع»، ويبدو أنه كان يرىٰ حدوده ويشاهدها دون صاحبه.

ومع تمتمة وغمغمةٍ بدأها «رع»، تخالها لوَهلة لغة غريبة ولساناً تجهله، غلبك خفض الصوت وسرعة التلفُّظ علىٰ سماعه أو فهمه، لـٰكنه في الحقيقة لم يكن نُطقاً ولا كلاماً، بل أشبه بحشرجة، كصوت الأنفاس إذا ٱحتبست في الصدر، ولعلَّه كلام ولغة هـٰذه الكائنات في عالمها، ذِكرٌ لا مقابل أو ترجمة له في لُغتنا، ألقاه كما هو لتتحقق آليَّة الٱنتقال وتتمَّ معادلة ٱستدعاء " البراق " ؟ فجاء خليطاً أشبه بنئيم الظباء ولَغط القطا، ثم نداء الحيتان...

وفي حركة مفاجئة، جاءت في دقيقة مُحدَّدة معيَّنة، ضرب «رع» برمحه الأرض، وغرس نصْله فيها، فنفذ في مرصوف البلاط، وأحدَث فيها ٱهتزازاً ورجفة، خلقت صوتاً أقرب إلىٰ أزيز الطائرات!

ومع تصاعد الحالة وٱشتداد الرجفة، أخذت البقعة تتموَّج! وبدأ شيءٌ أشبه بـ " البساط " يتكوَّن تحت أقدام الثلاثة!

أمر «هب» «نجيباً» بالٱستواء علىٰ صفحة البساط، والجلوس في وَسَطه، وطلب إليه السكون وتجنُّب الحركة ما ٱستطاع... وهنا خفَّ «عيص» ووَثب ليَلحقهم، كمَن يتوغَّل ويندسُّ حذر أن تفوته الفرصة ويُعتَذَر إليه بالزحام ـ مثلاً ـ وٱمتلاء المكان!

ألقىٰ عليهم تعليماته وزوَّدهم بآخر إرشاداته، ثم توَجَّه إلىٰ «نجيب»، بشَّ في وَجهه وخصَّه بمزيد عناية، كأنه يريد أن يخفف عنه ويهدِّأ من روْعه، ويحسِن إعداده لما ينتظره... فقال:

عليك أن تخبرني إذا ٱعتراك شيءٌ لم تعرفه من قبل... ستتبادر عليك بعد حين إشاراتٌ، وتظهر علامات، وتتغيَّر أوْضاع. لن تبقىٰ علىٰ حالك بعد الآن! لا أقصد ما سينزل ببدنك من رهَق، بل ما سينال روحك حين تلطف وتخف! فالنفس أوَّل عهدها بهذا العالم الذي ستقدم عليه الآن، حين تستشرف آفاقه وتعيش علىٰ أعتابه، وتشتم عبَق أجوائه، يغلبها الشوق وتستولي عليها اللهفة، فتراها تصبو وتتطلَّع للمزيد، ولعلَّها تتهور وتندفع، فتقحم رحاباً وتطفر إلىٰ درجات لم يأن أوانها، فتُفسِد الأمر وتبطله!

ٱمتثل «نجيب» وٱنقاد، وشعر أنه طفلٌ صغير عليه أن يلزم يد أبيه في سوق مزدحمة، أو هي قاعة مطار أو محطَّة قطار، وإلَّا لَفُقد وزاغ، وهذه متاهة يضيع فيها الكبار والخبراء، فكيف بغِرٍّ مثله، ما زال يحبو على الأعتاب ويدرج مرقاة فمرقاة!...

إلى السماء يعرج الشخص المحمدي والشكل الأحمدي، الذي بشرفه قام عمود خيمة الكون، وبجلاله ٱنتظم سمط وُجود العوالم، سرُّ كلمة كتاب الملك، ومعنى حرف فعل الخلق، وقلَم إنشاء المحدثات، ولوح تجلِّي الممكنات، حتى دَنا فتدلَّى فكان قاب قوسين أو أدنى، وصار في حضرة أعجزت خطْوَ الناموس الأكبر، يرتع من حياض القرب وينهل حتى يغوض وينغمر، يندكُّ في الذات خبيراً حتى صار بالعماء بصيراً!...

وإلى سليله ووَارثه، خليفته وحامل سرِّه، سيِّد الكون والمكان، قطب رحى عالم الإمكان، الذي تستقر السماوات وتثقل الأرضون بوجوده، فلا تميل ولا تسيخ... تحجُّ الكائنات، ويقصد الفضائيون وسكَّانُ السماوات، وهم يصحَبون ـ الساعة ـ معهم أرضيّاً سعد وفاز، فصار في رتبة كلب يبصبص، ويهزُّ ذيله ملَقاً على تلك الأعتاب.

• • •

(٣)

ثلاثة رابعهم كلبهم

علىٰ أطراف «الكرَك»، من أبرز حواضر الشيعة في تاريخ «لبنان»، موطن «المحقِّق الكَركي» وٱبنه «الشيخ عبدالعالي»، وحوزة قصدها يوماً «الشهيد الثاني زين الدين الجبعي» طلباً للأخذ من مشايخها العظام، كما فعل «المحقق الميْسي» و«الشيخ البهائي» ومعاصره «السيد ميرزا حبيب الله الحسيني الموسوي العاملي» و«السيد نورالدين ٱبن فخر الدين العاملي»، وغيرهم من أعلام الطائفة وأعيانها...

هبط البساط الذي أقلَّ الجمْع برفقٍ وحطَّ بسلام، في منطقة وَعرة، لـٰكن يبدو أنَّ البُراق أو السفينة تقوم من تلقائها بمَهْد ورصف المدرج الذي تهبط فيه، وهي تفعل ذلك بجدارة وتؤدِّيه بكفاية، فكأنَّ الموقع والبقعة التي نزلت فيها، منصَّةٌ سبق إعدادها وتجهيزها بأرفع هندسة وأتمِّ بناء، فُرشت بخرسانة مُسلَّحة، أو دكَّت ثم بُلِّطت وبُسطت بالحجارة، التي رُصَّت بإحكام، ما منع أيَّ ٱهتزاز وٱرتجاج يصَاحِب الهبوط.

صَدَفُ جبلٍ أقرب إلىٰ جانب شِعْب من شِعاب «صنين»، لم يبدُ باذخاً شاهقاً، علىٰ الرغم من علوِّه، فهو يناهز ١١٠٠متر عن سطح البحر، لـٰكن لما كان حضيضه سهل البقاع (المرتفع أصلاً)، بدا متوَاضعاً في ٱرتفاعه. إلىٰ شماله، بعيداً عنه بعض الشيء، طَغية، صفاةٌ صعبة المرتقىٰ، ملساء، وتعلوه من فوقه قُنَّةٌ تستدير في قمَّته، وتنهي علياءه.

ترجَّل الجمع، بل نهضوا من مَوَاضعهم ومضوا إلىٰ شأنهم، فقد ٱختفت المركبة مع هبوطها وتلاشت عند وُصولها! كأنَّ الأرض ٱبتلعتها، فلا عربة ليُخلُوها أو مركبة ليترجَّلوا منها... وراحوا يتجوَّلون بين أكَماتٍ وشجيرات حرجيَّة قصيرة، يدوسون رضاض حصىً أو هو فُتات صخر، وخَبَطٌ ونَفَضٌ ٱفترش الأرض من فعل الرياح والثلوج، أو من عِصِيِّ الرعاة، يُهيِّئون لماشيتهم كلأً عزَّ في الشتاء. ٱنتشر الثلاثة في المكان وتفرَّقوا للحظات، ثم ما لبثوا أن عادوا وٱجتمعوا، كأنهم ٱستطلعوا الموقع وفتَّشوه، أو أرادوا الخروج من " حالة " التحليق التي لازَمتهم ردحاً من الليل طويلاً!

أمَّا «نجيب» فقد كان يغالب مشاعره، ويتفكَّر في الحدث و " اللحظة " ، قلَّ أن يصرفه عنها شيء، كأن ينشغل بما يجري حوله.

كانت الإضاءة التي تنبعث من القوم، وكذا من مركبتهم قبل ٱختفائها، قد خبَت وخفتت، وأمست تُعين الظلام وتداري السطوع والبلَج، كأنهم ما عادوا يسنمون سرُجهم ويمدُّونها بزيتٍ يزهيها! حسب «نجيب» أن جهد السفر وعناءه قد أخذ منهم وٱستنفذ طاقتهم، فغلبهم الشحُّ وبدأوا بالتوفير والٱقتصاد. ولم يكن الأمر كذلك، فقد كان يسعهم بثُّ أنوار ونشر ضياء يبدِّد كلَّ عتمة، لـٰكنَّ مقتضياً آخر قام، ومانعاً جديداً طرأ.

وقد بدَوا حريصين أن لا يرتفع أو يعلو لهم صوت، ناهيك بأن يثيروا ضجَّة أو صخباً، يتحركون ببطءٍ وتؤدة ومهَل، وإذا دعت الحاجة إلىٰ التخاطب بينهم نبَسوا وتهامَسُوا. وهي حالة لم تكن فيهم هناك، في «فالوغا»، علىٰ الرغم من الهدوء والوَقار، والخفض والرزانة التي ما ٱنفكَّت تحكم حركتهم وتغلب أفعالهم وتسِمُ سلوكهم...

وقد وَجد «نجيب» أنَّ هبوطهم جاء بإزاء مغارة، لم تتبيَّن له معالمها، لـٰكنَّ مدخلها كان ضيِّقاً، والأُسكفة منها أو العتبة العليا كانت منخفضة، لا يسعك الولوج إليها والدخول فيها إلَّا منحنياً مُطأطئاً.

كان الهدوء طاغياً، يحكم الأجواء، فلا صوت إلَّا حفيف شجر وصفير ريح، فإذا سكَنَتْ، سمعتَ نقيق العلاجم ونشيجها، يقال أنها تستدعي الضفادع للسفاد، ما يعني أنَّ العيون والينابيع هنا كثيرة، أو هي أحواض وبِرَكٌ تجتذب الزواحف والهوام... وقد تسمع ضُباح البوم تعلن ٱنقضاء الليل، وغَقغَقة البواشق تؤذن بٱنبلاج الفجر، وقرب سعيها وَراء طرائدها، أصوات تُشعِرك بالٱرتفاع وتأخذك إلىٰ فضاء القمَم، بعد تسافل تلك إلىٰ حضيض القيعان وأسَن المستنقعات، بأعشابها اللزجة المتشابكة!

كسر «نجيب» الصمت، وتوجَّه إلىٰ «عيص» بسؤال:

: أرىٰ أن الرحلة قد طالت بنا وٱستغرقت من الوقت أكثر مما ينبغي ويتطلَّب! ونحن في بساط تحمله الريح، لا سيارة تُجبَر علىٰ متعرِّج الطرُق وبُعْد المسافات. أترىٰ سائقنا «رع» قد ضلَّ الطريق وتاه؟!

: بل تعمَّد الإطالة وقصد التباعد! إنما ٱمتدَّت رحلتنا لمقتضيات أمنيَّة، وأسباب أُخرىٰ فنيَّة خارجة عن إرادتنا. ضوابط علينا التزامها ومراعاتها، دعتنا لنسلك طرُقاً ملتوِية باعَدَت علينا المسافة، فٱمتدَّت بنا الرحلة وطالت، وهي ـ في وَاقعها ـ لا تستغرق دقائق معدودة! لقد توجَّهنا شمالاً وحلَّقنا فوق قمَّة «مزار» في «عيون السيمان»، ومنها ٱنحدرنا غرباً إلىٰ خليج «جونية»، وسلكنا طوْقاً فوق البحر حتىٰ بلغنا «حيفا»، فبحيرة «طبريا»، ومنها عُدنا إلىٰ «دمشق»، فـ «الزبداني»، فـ «الكرَك»! ولعلَّك أحسَسْتَ بمناورات الصعود والهبوط والاٌنعطاف، والسرعة والإبطاء.

: مَن له أن يفرض عليكم شيئاً أو يُلجِئكم إلىٰ فعل؟ كنت أحسب أن لا أحَد يفوقكم قُدرة وسلطة، وأنتم بهٰذا البأس والقوَّة؟

: هناك راداراتٌ ومجسَّات، وأقمارٌ صناعية، ومَراصد ألكترونية، وأعينٌ حرارية، ومناظيرُ ليليَّة، وطائرات تجسُّسٍ تجول وترصد، تعمل علىٰ مدار الساعة... هٰذا من البشر، أما الكائنات والعوالم الأُخرىٰ فحدِّث ولا حرَج!

إنَّ هـٰذه السماء مليئة مكتظَّة يا «نجيب»!
لسنا وَحدنا، لا هنا ولا هناك. ونحن لا نريد أن يشعر بنا أحَد، وأية غفْلة وتهاون قد يفسد الأمر ويبطله، وكفىٰ به سبباً للحيطة والحذر.
: ماذا عساهم أن يفعلوا إن علِموا بنا؟
: إنها مقدمة رحلتنا الأصلية، وطريق الحدث الأعظم الذي ينتظرنا، ولو رُصدنا وعلِموا بأمرنا، لأفسَدوا علينا سفَرنا!
: أتقصد أنهم يستطيعون اللحاق بنا؟
: إن الأعداد والمعادلات الجفريَّة التي تكوِّن الكُوَّة وتفتح المنفذ إلىٰ ذلك العالم، أمرٌ في منتهىٰ الخطر والسريَّة، لا ينبغي أن تُكشَف وتقع في يد أحَدٍ ألبتة. هناك مَن نذَر نفسه وصرَف عمره وفرَّغ وَقته كلَّه في ملاحقة هـٰذه الأُمور، عبر محاسبات معقَّدة، ورياضات مضنية، واتصالات مهلِكة، علَّه يقع علىٰ شيء. وفي هـٰؤلاء أخيارٌ، ساعون ومتلهِّفون للقاء، وأشرارٌ يريدون سُوءاً بـ «المولىٰ» عليه السلام ويتآمرون للنيل منه. وجُلُّ أدعية حفظ الناحية المقدَّسة إنما تتوجَّه إلىٰ هـٰذا الشرِّ، وتقصد دفع هـٰذا الكيد وردِّه في نحُور أهله.

كان «نجيب» يستفهم ويطلب الجواب علىٰ أسئلته، ولربما ناظَر محدِّثه وحاوَره، وهو شارد الذهن! فهو ما إن خرج من الصدمة الأُولىٰ وما حلَّ به من لقاء القوم، حتىٰ التفت فأدرك مدىٰ الحُظوَة وحجم السعادة التي بلَغها، فسمَحت له بهـٰذه الرحلة؟! وقد أمسَت وَاقعاً يلمِسه بالحسِّ ويشهده بالعيان، وحقيقة تحقَّقت بالفعل وصار يعيشها بالوجدان.

وقد أخذه ذلك إلىٰ الفكرة في أسباب هـٰذا التوفيق، فلا هو عالِم ربانيٌّ وعارف صمداني، ولا فقيه عامل ومرتاض كامل! بل هو لم يبلغ في الدين من الجديَّة والاْلتزام أدنىٰ الحدود التي يطمح ويرجو، وما زال يشعر بالتفريط ويلوم نفسه علىٰ التقصير... فكيف يحظىٰ بها دون ملايين المؤمنين الأرفع منه شأناً والأفضل منه مكانة، علماً وعمَلاً؟!

ماذا فعل في حياته؟ أين أصاب وأفلَح، واْغتنم واْقتنص حتىٰ وُفِّق وسُعد؟ وبلغ في التوفيق والسعادة هـٰذا المدىٰ؟!

نعم، أقبلت إليه الدنيا أكثر من مرَّة في منصب ومقام يُشبع رغبته في الإمرة وهوَاه في السلطة، ويحقِّق له السمعة والشهرة، مما يصبو إليه أيُّ بشَر وتميل كلُّ نفس، فرفض ذلك وأباه. سنَحت له فرَصٌ يتهالك عليها غيره، يسعىٰ إليها أقرانه، ويستميت دونها أصحابه، ويرجوها أغلب العاملين في الساحة الإيمانية. لم لا؟ وفي ثقافة المتدينين أنَّ الدنيا إذا أقبلت، فأبرارُها أولىٰ بها من فُجَّارها، والملتزم أحقُّ بها من الفاسق، وهو في الأدنىٰ لا يقلُّ تديُّناً عن غيره ممن تبوَّأها، ولعلَّه يفوق جلَّهم ويتقدَّم علىٰ أكثرهم... عفَّ الرجل وكفَّ، وتنزَّه وترفَّع، وبقي في شأنه واْنصرف إلىٰ ميدانه: التأليف والكتابة. حتىٰ في هـٰذا، بقي مغموراً لا يعرفه إلَّا النُّخبة!

أترىٰ هـٰذا هو ما جذب إليه المكافأة، وٱستحقَّ به الجائزة، أم هناك شيءٌ آخر؟... راح يعتصر ذاكرته ويستحضر ما فعل في حياته، معروف أسداه لهـٰذا وإحسان إلىٰ ذاك، يدٌ بيضاء له هنا وأُخرىٰ هناك، فوَجدها كُلَّها ضئيلةً حقيرة، لا تقاس بما يقوم به غيره، ولا تقوىٰ علىٰ منافسة أهل الصلاح والأخيار... ثم خطَر له خاطرٌ وفكَّر في أمر!

دخَل في روعه، كهاتف من الغيب أنه السرُّ والعلَّة!

لقد ٱتَّخذ في حياته الإيمانية ومسيرته الدينية، موَاقف حادَّة خطيرة، وخاض صراعات شديدة مريرة، ودخل في صدامات محتدمة كبيرة، قحم ساحات وميادين عصيبة، ونطاقات تفوق حجمه وقدرته، ركب فيها أكتاف الشدائد، وٱقتعد ظهور المكاره! وهي حروب ومعارك قلَّ أن ينجو منها أحَد، ولا سيما أمثاله الذين لا يستندون إلىٰ حزب، ولا يحظون بغطاء جماعة... فعل كلَّ ذلك دفاعاً عن «أهل البيت»! نهض بنشاط ثقافي وإعلامي كبير، ولعلَّه قادَ حملة في هـٰذا، كتب بيانات ومنشورات، وسطر مقالات، وأصدر كُتُباً ومجلَّات، فضحت الإسلاميين الحداثويين، تصدَّت لخداعهم ودجَلهم، برهنت علىٰ ٱنحرافهم وأثبتت نفاقهم، أدانتهم وكشفت للعامة والخاصَّة زيفهم وضلالهم. وكان الدفاع عن شفيعته «الزهراء» عليها السلام (كما يعبِّر عن تعلُّقه بها) محوَر معاركه ومَدار الحرب المستعرة التي ما ٱنفكَّ يخوضها ضدَّهم، وما زال يرصد: ما إن يجنح ضالٌّ فيمسَّ ظُلامتها، وينفث خبيثٌ سموماً تنال من مقامها ومنزلتها، حتىٰ ٱنبرىٰ له وصدَعه، دمغه وأفحمه، قرَعه وقرَّعه، فلا ينثني ويكفُّ دون أن يبكِمَه ويقصمَه، ويردُّه صاغراً لا يعرف كيف يداري خيبته ويستر سوْأته!

والحق أنه كان شديداً في هـٰذا، لا يهادن ولا يضارع، ناهيك بأن يتملَّق ويُصانع، أو يماسح ويُداهن، وقد أغرق في الخصام وبالغ في الصدام! ولم يبالِ أن يكون عدوُّه ذا خطب وخطَر، ولا ٱكترث إن كان زعيماً ذا سطوة، وركناً ذا جبروت وقوَّة، وكان يستهدف المعمَّمين الدعاة، كبيراً ينظِّر للفكرة، أم تابعاً مُقلِّداً جهولاً، يجترُّ ما أُملي عليه ويبثُّ ما لُقِّن.

وما زال في هـٰذا حتىٰ تمحوَرت حياته وتموَضَعت مَواقفه وجبهاته علىٰ ذلك، وٱنتظمت ٱصطفافاته، وفُرِزت صداقاته وصُنِّفت عداواته! وما كان الأمر يخلو من نزَعات غلبته هنا وطباع حكمته هناك، ولـٰكن سلوكه العام، والصورة التي ٱرتسمت عنه، وصار يُشار بها إليه، هي تلك العقائدية الولائية، وفي نظرة أعدائه، الرجعية المتشددة المتعصِّبة.

ولم يقصِّر القوم في أذيَّته ولا ترفَّقوا في مواجهته، ألدُّوا في خصامه وأسرفوا في عدائه، وهاجموه بقسوَة وشدَّة، وناصبوه بلا هوادةٍ أو رحمة. وقد دفع الثمن غالياً من أمنه وسلامته، ناهيك بسُمعته ومكانته. حاصروه ولم يوَفِّروا جهداً في تسقيطه، وصار يُشتم ويُقذَف في أوْساط الحداثيين، وتلوكه ألسُن الحزبيين بالفرية والتهمة، وترشقه سهامٌ تفرغ حقدهم أو تسجِّل ما يقرِّبهم من ربِّهم ويزلفهم عند أميرهم!... ومضىٰ علىٰ هـٰذه الحال سنين متمادية، لم يغيِّر موقفه، ولا بدَّل أهلُ الشَّنآن بُغضَهم محبَّةً، ولا قلَب أهلُ البغي حسَدهم موَدَّة، ولا حوَّل أهل الصلاح ظِنَّتهم ثقة، ولا صرَف الأدنون عداوتهم إلىٰ وِلاية، ولا ترك ذوو الأرحام عقوقهم فوَصلوه يوماً وبرُّوه مرَّة، ولا غيَّر الأقربون خذلانهم نُصرة، كما لم يجد في ردود الملابسين كَرَم عِشرة، ولا ذاق من مرارة خوف الظالمين ساعةً حلاوة أمَنَة!

ولـٰكنَّه مع هـٰذا كلِّه، لم يهِن ولم يـضعُف، بل مضـىٰ بعـزم وصلابـة، وٱستقامَ حتىٰ أعجَز أعداءه وهزمهم، وكان يشعر بفخر وزهْو، ويعيش لذَّة غريبة ونشْوة عجيبة لا يعرفها إلَّا مَن عاشها ومرَّ بها!... وما زال الغوث يأتيه ويدركه: يداً علىٰ مَن ظلَمه، ولساناً علىٰ مَن خاصمه، وظفراً بمَن عانده، ومكراً علىٰ مَن كايده، وقُدرة علىٰ مَن ٱضطهده، وتكذيباً لمن قصَبه، وسلامة ممن توَعَّده، ثم توفيقاً لطاعة مَن سدَّدَه ومتابعة مَن أرشده.

وكان قد رأىٰ من قبل رؤياً تبشِّره بأنه سيلقىٰ ـ في الدنيا قبل الآخرة ـ بعض الأجر علىٰ موقفه، وأنه سيُكافأ علىٰ فعله وصنيعه، وأنَّ «سادته» حفظوا له ما قام به، وأنهم سيجازونه عليه في العاجل والآجل...

ومن غريب ما كان يجده «نجيب» في خضمِّ معركته هـٰذه، هو ما يلقاه في خصومه من نزول البلاء عليهم وإحداقه بهم! فكثيراً ما كانوا يُصابون في أبدانهم وأموالهم وأولادهم، دون مقدمات أو عِلل وأسباب وَاضحة، ما يشغلهم عن أذاه ويصرفهم عن متابعة أحواله وإرصاده لإضراره... وكان في بداية الأمر يحسبها صُدفاً وأُموراً عرَضيَّة، لـٰكن ما لبث أن وَجدها حالة تتكرَّر وسيرة لا تنفك، حتىٰ ركن إلىٰ أنها من الغوْث والمدَد، وكرامةٌ تلحق بمَن نصر «الزهراء» عليها السلام، وإن لم يكن أهلاً ومستحِقاً.

حتىٰ رأىٰ تلك الرؤيا، وعبَّرها له بعضهم بأنه سيلقىٰ نُصرة أُخرىٰ، وأنهم عليهم السلام سيكرمونه بكرامة أعظم!... وقد خطر في باله وٱنقدح في ذهنه الساعة، وهو يقف علىٰ باب المغارة، يشهد الحدَث ويحار في تلاحق فصوله، إنَّ " الرحلة " هي التحفة الكبرىٰ والمكافأة العظمىٰ والمكرمة المنتَظرة والهدية المرتقبة، التي تأتي علىٰ قدْر مُهديها، لا قدْره وٱستحقاقه هو.

كان «نجيب» يتأمل السماء مستطلِعاً دخول الفجر، أو بقاء السَّحَر، أفضل ساعات التهجُّد ونافلة الليل، يخشىٰ أن ينجلي فتفوته، ثم يعود ويجيل نظره في هٰذه الكائنات السماوية التي حلَّت هنا، وحلَّ هو بينها، وصار في رفقتها وصُحبتها! ويتساءل في نفسه:

ما هٰذا الذي يجري؟ أين كنت عند العشاء،
وأين أمسيت، وأين أنا الآن؟ ثم أين تراني
سوف أُصبح غداً؟ هل هو طيفٌ وخيال؟ أم
حقيقة يشهد عليها هٰذا التساؤل، والاْلتفات
إلىٰ الإرادة والقدرة علىٰ تغيير الحال؟!

شعَر أنه بحاجة إلىٰ الصلاة. حالة تعرِض له بين حين وآخر، تنتابه كلَّما لقي صعاباً وغلبته مشاقٌّ، تضغط علىٰ نفسيته وتنهك روحيَّته، فيلجأ إلىٰ الصلاة، يفزع إليها أملاً في الراحة، وبحثاً عن الأمان. لٰكنه يريدها الآن ويطلبها لشيء آخر: أداء حقِّ الشكر. لا يعاني صِعاباً ولا يشكو ضغوطاً، بل يريد أن يسدَّ بالصلاة فراغاً، هو الاْمتنان والغفلة عن شكر النعمة. عليه أن يستدرك غفلته سريعاً، إنه يتقلَّب في نعمة عظمىٰ تغمره منذ ساعات، لم يعرف قدْرها ولم يؤدِّ بعض حقِّها، اْنشغل عن شكرها بتتابع الحدَث وتلاحُق فصوله، وهُزمت نفسه الضعيفة بسعيها لِفَهمه ومحاولتها مواكبته، وأعمال الفحص والتحقيق، فتراكمت عليه الشواغل واْحتوشته من كلِّ صوْب. وهو يريد الآن الخلاص من معطيات تزاحمت عليه وكأنها تواطأت علىٰ إشغاله... يريد الصَّفْو، صَفْو الروح الذي يأخذه إلىٰ شكر الله وحمده. خاف أن تزول النعمة، ولا يُكتَب إتمامها!

كان قد رأىٰ بعض المغارات في «ماربل» و«التاميرا» في «أسبانيا»، لٰكن هٰذه لم تكن مثلها، ولا مثل كهوف «قاديشا»، أو «جعيتا» ذات الصواعد والهوابط (stalactite,stalagmite)... كان كهفاً متَّسعاً رحيباً، علىٰ خلاف ما يظهر من مدخله، وفي نهايته " هوَّة " سحيقة، رمىٰ «نجيب» حجَراً ليستطلع عمقها، فما بلَغه صوت وُصوله إلىٰ قرارها! كانت أرضية الكهف ممهَدة ونظيفة، لا خشاش فيها ولا مدَر، ولا أثر لسلْح أو روْث حيوان، أو عظام وبقايا جيفة من أكل السِّباع، كأنه كهفٌ مسكون يقوم عليه أحَد، وأنَّ يداً أتت عليه بمِكنسة فكسحته ونظَّفته. وفي أرجائه أحجار مكعَّبة، ملسَاء ناعمة، جلَتها المباشَرة والاْحتكاك، حتىٰ شفَّت وظهرت عروقها، وهي متفاوِتة في الحجم والاْرتفاع، شكَّلت مَصاطِب ومتَّكآت، وصنعَت مع الجدران الرمادية أو الفضيَّة، المموَّهة باللون الذهبي، منظراً جميلاً، يورِث بهجةً ويخلق اْنشراحاً ينفي وَحشَة المغاوِر وضيق الكهوف.

أمرَه «عيص» بالاْبتعاد عن " الهوَّة " ، ثم أشار له ودلَّه علىٰ ماء ينضح من جدار في ناحية الكهف، يتجمَّع في وِعاء أو إناء حجَري، ثم يجري في مسرب ضيِّق يشقُّ الأرض، يترقرق نحو " الهوَّة " . والوِعاء أشبه بـ " جُرْن " منحوت، من تلك التي تُداس فيها الحبوب وتطحَن، أو تدقُّ اللحوم لِعمل ما يعرف بـ " الكبَّة " ، حين يضاف إلىٰ اللحم جريش القمح قبل أن ينضُج، فيُهرَسا معاً، ويكبَّب المعجون ويُطهىٰ، ولربما تناوله اللبنانيون نيِّئاً دون طبخ ولا شواء، مكتفين بـ " نضجه " بالدَّقِّ، وبالمطيبات من بِزْر وتابل، يتولَّىٰ إزالة قتره وزنخه. ولعلَّ الوِعاء الحجريَّ كان جُرناً من تلك التي تُملأ قديماً بالماء، لتكون أحواض تعميدٍ في الأديرة والكنائس.

: جدِّد وُضوءك، وتنفَّل ما شئت، وٱقض وَطَرك من الصلاة والعبادة. ولك أن تنام إن غلبك النُّعاس والتعب، فنحن لا ندري كم سنبقىٰ هنا! قد يمتدُّ بنا المقام ويطول، نحن بٱنتظار صدور الإذن والرخصة، وسفرنا القادم أكثر مشقَّة، وستلقىٰ من الرَّهَق أكثر مما لقيت في ما مضىٰ.

سنلبث في الكهف إلىٰ حين، وٱعلم بأنك لن تجوع هنا ولن تظمأ، ولن ينزل بك مرض ولا تصاب بدَاء، لا بأس عليك ولا خطَر، فأنت في سلامة وأمان... ولكن عليك البقاء هنا والتزام المكان، ليس لك أن تخرج، لا لِتنزُّه، ولا لِقضاء حاجة، فلا حاجة! إنَّ هٰذا الكهف هو مقرُّنا ومكمننا إلىٰ أن تحين ساعة الٱنطلاق والسفَر.

ولكنَّي أنصحك باليقظة والعمل، أن تنصرف إلىٰ العبادة وتنشغل بها، كافح التعب وغالب النُّعاس، فأنت لا تدري متىٰ يأتي الإذنُ فنشدُّ الرِّحال؟ لعلَّه يصدر بعد لحظات، أو قد يبعُد فيُرجأ، ويتأخَّر لأيام وأشهر وسنوات... لا أحَد يدري!

هل تحفظ شيئاً من الدعاء والمزار؟ إننا لا
نحمل الكتب، خذ أنت في ما تستذكر،
وسلني عما تريد، فأنا أحفظ الأدعية كلَّها،
إنَّ (مصباح) «الشيخ»، و(إقبال) «السيد»،
و(مفاتيح الجنان) كلَّها هنا!

ضرب على صدره، وتبسَّم. وترك محدِّثه يفكِّر، فهو لم يرَ أحداً منهم يحمل زاداً، ولا ٱحتمل أن يحوي هذا الكهف طعاماً، لكنه لم يسأل عن أمر ٱنتفاءِ الجوع وكيف سيكون؟! كأنه تعالىٰ عن ذلك وأنِف، وهو في بداية ضيافتهم، فهل له أن يسأل عن طعامه؟ أو أنه بدأ يشعر في نفسه وبدَنه حالة جديدة بالفعل، يستغني معها عن الطعام!

ثم فكَّر للحظةٍ في ٱستمرار بقائهم في الكهف ـ كما ٱحتمل «عيص» ـ لأشهر أو لسنين! وكيف سيعالج أمر غيابه عن داره، وماذا سيجري إثر ذلك، وكيف سيهرع أصحابه للبحث عنه، وبمَ سيُبرِّرون ذلك ويفسِّرونه، سواء لأنفسهم أو لأهله في وَطنه؟ سيُتَّهم ـ ولا شك ـ بعض الأبرياء بٱختطافه، وسينتظر أهله ومعارفه طلَب الفدية لإطلاق سراحه، وستبحث الشرطة وقوىٰ الأمن عنه، ولَرُبما كتبت الصحافة وتناولت محطَّات التلفاز الخبر: "ٱختطاف سائح خليجي"، فهو مما يحمل رنيناً وصدىً تبحث عنه وَسائل الإعلام وتتحرَّاه!...

لكنه تخطَّىٰ هذا أيضاً دون إبطاء، تجاوَزه بجواب لا يخلو من رعونة وٱستهتار، أو قُل من تسليم وٱنصراف إلىٰ الخطب الأعظم والشأن الأجلِّ الذي يهون في دربه ويصغر في سبيله كلُّ شأن:

ليكن ما هو كائن، فليحتاروا ويتخبَّطوا،
وليحسبوني مختَطَفاً أو ميتاً، ماذا عساي أن
أفعل؟ سيحزنون فترة ثم يتكيَّفون، إن طال
غيابي، أو لم تكتب لي العودة من سفري هـٰذا،
ثم سينسونني وينشغلون بشؤونهم وحياتهم،
الأيام كفيلة بمُداواة الجراح.
لن تلهيني هوَاجس لا طائل منها، فأُفرِّط
بهِبَة نزلت عليَّ من السماء! أيُّ ٱنشغال عن
هـٰذا الخطير غُبنٌ وخسارة لا تُعوَّض، لن
أسمح لنفسي أن تنصرف لتفكِّر حتىٰ للحظة
في هـٰذا الأمر، وهو ٱحتمالٌ في ٱفتراض!

كان «هب» قد تنحَّىٰ جانباً وٱتخذ في الكهف ركناً، وٱنصرف لشأنه... يتلو شيئاً، يتمتم بلغته وهمهمته تارة، وبعربية فصيحة أُخرىٰ، وينظر في كفِّه اليسرىٰ، يمسح عليها باليمنىٰ مرَّة بعد مرَّة، من اليمين إلىٰ الشمال، أو من الشمال إلىٰ اليمين. ولَرُبما ضمَّها كمَن يقبض علىٰ شيء، أو قلَبها وكفأها ثم عاد وبسَطَها، لا تدري ما يصنع، إلَّا أنه كان يغيِّر وُجهته ويعدِّل جلسته حيناً بعد حين! ولَرُبما أشار إلىٰ «رع»، فدنا منه ليُطلِعه علىٰ شيء في كفِّه، فإذا تلقَّاه، رجع القهقرىٰ، محافظاً علىٰ هيئته، مكفِّراً يديه، مطأطئاً رأسه، كلُّه خضوع وٱمتثال. وفي مرَّة أخرج «رع» من جيبه لوْحاً (يا لله وهـٰذا الجيب وما يحوي، يدُسُّ يده فيُخرج ما يشاء!) كأنه من زبرجَد أو ياقوت أخضر، وَضعه بإزاء «هب»، ليطَّلع علىٰ ما فيه، ثم رفعه.

بعد مضيٍّ نحو من ساعة علىٰ ٱستقرارهم في الكهف، أعلن «هب» عن دخول وَقت الفجر، وأمر أن يُرفَع الأذان، فأدَّوا صلاتهم، وما زالوا في تعقيباتها، لم ينفتلوا حتىٰ أشرقت الشمس، ثم ٱلتفت إليهم «هب» وراح يحدِّثهم ويعِظهم... تحدَّث عن فكرة " قيمة العمل " وألقىٰ محاضرة قيِّمة في ذلك، وأنه في عالم الحقائق ومعاييره، وميزان الحقِّ وحُكْمه، لا يُنظَر في العمل إلىٰ الكمِّ والحجم والمقدار، ولا إلىٰ التأثير والنتاج والثمرة، ولا حتىٰ إلىٰ الكيف والإتقان والجودة... إلَّا عند البناء علىٰ الإخلاص في النيَّة. ذلك بطبيعة الحال، بعد الفراغ من التزام أصل الشروط وأساسها، أي الوِلاية، فالفرض أنها أعمالٌ مفروغ عن سمْتها وهدْيها، الأرضية التي تنطلق منها، والغطاء الذي يجلِّلها ويضفي عليها المشروعية، وإلَّا فإن تلك التي لا تحمل الوِلاية، فلا تصاحبها وترافقها وتلازمها، بل تمازجها وتندكُّ فيها... تذهب كلُّها هباءً منثوراً، كأنَّ شيئاً لم يكن.

مهما كان العمل كبيراً وعظيماً، وكان مُصيباً ناجحاً، ومحكَماً متقَناً... فلن يحظىٰ بقيمة وخطر، ما لم تقوده النيَّة وتسوقه الوِلاية.

وكما في النبويِّ الشريف: " فوق كلِّ ذي برٍّ بِرٌّ حتىٰ يُقتَل الرجل في سبيل الله، فإذا قُتِل في سبيل الله فليس فوْقه بِرٌّ "، لٰكن إذا ٱنسلخ هٰذا القتل عن الوِلاية، وخلىٰ من الإيمان، لم يعد جهاداً وٱستشهاداً، بل حقَّ أن يُلقى القتيل ككَلب قد نفَق! وإذا قصد الرجل في جهاده الإمرة والرئاسة، أو أراد منه المال والثراء، أو ٱنطلق فيه من السمعة والرياء، ومضىٰ علىٰ ذلك، خرج من سبيل الكمال ودخل في " شهيد الحمار "، وراح حتْفَ أهوائه وقربان شهواته، ليس له عند الله شيءٌ، ولا في ميزان الحقِّ ومعياره قيمة.

وكذا الحال في باقي الطاعات والعبادات، والعطاءات والتضحيات، من صلاة وصيام وحجٍّ وزكاة، وكل تطوُّع بعد الوَاجبات، يُرهق فيه المرءُ بدَنه، أو يُنفق ماله، حتىٰ يبني المساجد والمدارس، ويشقُّ الطرق ويحفر الآبار، ويشيِّد المستشفيات ويقيم دور الرعاية، لا يوفِّر وَجهاً من وُجوه البرِّ والمعروف إلَّا صنعه، ولا باباً من أبواب الخير والإحسان إلَّا طرَقَه، ولا سبيلاً من سُبُل المكارم إلَّا سلَكه... لا قيمة لهٰذه كلِّها، ولا شأن لشيء منها إن جُرِّدت عن الوِلاية، أو نأت عن نيَّة القربة إلىٰ الله تعالىٰ.

فلا ينبغي للمظاهر أن تغرَّنا، ولا للصوَر أن تخدعنا، ولا للأضواء أن تبهرنا، فهٰذا الذي يظهر في أعين الناس عظيماً، ويتحدَّثون عنه بمزيد إجلال وإكبار، وتتناوله الأخبار بإعجاب، يشيرون إلىٰ الأيتام الذين تكفَّلهم، فآوَاهم وطبَّبهم وأطعمهم وعلَّمَهم، ويمجِّدون المشاريع التي بناها والمدارس التي أسَّسها... ليس له في عالم الحقيقة كرامةٌ، ولا لشيء من أعماله وإنجازاته قيمة! وما زال العمل يتضاءل ويتصاغر حتىٰ يظهر ما يحسبه الناس طوْداً شامخاً، مجرَّد حصاةٍ مُلقاة، لا يكترث بها ذوو البصائر ولا يبالي أُولو الألباب! ولعلَّ هٰذه "الإنجازات" كانت مزيد علَّة في حطِّ قدْر الفاعل وهوَانه في ذلك العالم، ثمَّ حسرته وعذابه في معاده.

كان «هب» في عَرْضه الفكرة ومعالجته المفهوم، يريد بيان أيِّ العِلل تعمل وتفعل في الماوَرائيات، أيُّ شيء يمكن أن يكون باعثاً ومحركاً وسبباً في تلك العوالم؟... والجليُّ الوَاضح أنه كان يقصد «نجيباً» في خطابه، حتىٰ كاشفه بما حدَّثته نفسه في تساؤلها عن سرِّ ٱجتبائه وسبب ٱنتخابه وٱصطحابهم له في رحلتهم هٰذه، ولمَ أدركته السعادة دون غيره؟

بل إنه تكلَّم عن آلام «نجيب» وأسرار حالته ومعاناته، وخفايا ما يختلج في صدره ويحدِّث به نفسه، مما لم يخرج منه حتىٰ إلىٰ صديق، اللهم إلَّا أشجارٍ يلقاها في الطريق، وأمواج يستقبلها علىٰ الشاطئ، لتأخذ معها ما في صدره من حرَج وأشجان وضيق! يبثُّها لَوْعته وشكوَاه، ويسلِّمها رسالة حبِّه وعريضة نجواه، تحملها وتذهب بها بعيداً إلىٰ لُجَّة البحر وعُرْضه، علَّها تلتقي في ظلمات ذلك الخضَمِّ، وترتطم في مستور قاموسه بسواحل «جزيرة» يقطنها الحبيب... ولعمري كأنها فعلت!:

نعم، ذلك لما أُوذيت فيهم!
أتظن يا هٰذا أنَّ الأمر من الكثرة والتداخل ما يبلغ الفوضىٰ، ويغلب المتابعة، ويودي بالدقَّة، ويضيِّع الحساب؟ لا والله، حتىٰ العُودَة تنكَثُ بها الأرض عبثاً ستجد حقَّها وتُلقَّىٰ جزاءها غير منقوص! لا شيء يضيع في الدنيا التي رفضْتَها وٱعتزلتَ أهلها.
نأيتَ ترفُّعاً عن الإسفاف الذي يحكمها، وٱنزويتَ تنزُّهاً عن الإذلال الذي يلزمها، غلبتكَ العزَّة والكرامة، فلم تمتهن نفسك، إذ لا يرتفع و "يصِل " إلَّا مَن يتملَّق ويتزلَّف، ولا يبلغ " المجد " إلَّا مَن يتلوَّن ويتقلَّب، ويبيع قِيَمه ومبادئه في هٰذا السبيل، ولا يُبقي شيئاً من كرامته في الطريق!

تركتهم وما في أيديهم، هرباً أن تتيه في دهاليز ودروب ملتوِيةٍ لن تفضي إلىٰ نهاية مشرِّفة، مراقبات تحكم موَاقع الحكم، وحيثيات تملي علىٰ صُنَّاع القرار، لا تعرف فيها القائد من المقود، والتابع من المتبوع! ما ركَّب وَاقعاً لا تستطيع أن تتجاهله، وعقَّد وَضعاً لا يمكنك أن تتخطَّاه، وهو ـ بطبيعة حاله ـ لا يُطيق أن يلتفت إليك ولا يسَعُه أن يتعرَّف عليك فيلتقطك من بين جموع منحرفة تحارب الحقَّ، وأُخرىٰ منافقة متزلِّفة، وثالثة ساعية مكافحة لَاهِثة، تتهالك علىٰ الوُصول وتستميت في البلوغ، تحفر بأظافرها وتتسلَّق، فإن لم تجد ما يعينها، أمسكَتْ بمَن يتقدَّمها وٱتَّكأت عليه ليرفعها، ثم تلقي ذاك المتفوِّق وتسقطه، فلا يسبقها إلىٰ حطام في القمة!

أخليتَها وتركتها لـ" طَموح "، " وُصوليٍّ " لا يبالي في أيِّ درب سعىٰ وحثَّ الخطىٰ، ولا يكترث أية قنطرة ٱجتاز وعلا، ولا يعبأ أيَّ مستنقع خاض، فتلطَّخ بآجن وَحْلِه وتلوَّث بآسن روَاكد قاعه... حتىٰ يبلغ خوَاتيم قذرةً وينال قضمةً من جيفة نتِنة!

أتظنُّ يا «نجيب» أنك تحتاج إلىٰ وَسائل ووَسائط تنقل لـ «أهل البيت» وتبلِّغهم ما فعَلت في سبيلهم وقدَّمت لشيعتهم؟ أم تراك تحسبه هيِّناً لا خطب له عندهم؟ حين لم تلمس آثاره في مسيرة الناس وتأثيره علىٰ حياتهم؟ أو حسبته قليلاً إزاء الباطل وحجم آلته وعديد أتباعه؟... تزدريه الأعين الدنيوية، أسيرة الحسِّ والشهود، وتستخفُّه الغافلة عن آفاق السماء ومعاييرها.

إنَّ «أهل البيت» يثمِّنون العطاء، ويقدِّرون الفداء، ويعظِّمون التضحية، ويُجِلُّون حُسْن البلاء. ومعايير تقييمهم للرجال وتقديرهم الأعمال، تختلف عن السائد في فهم الناس والحاكم علىٰ موَاقفهم. والاْختلاف ليس تفاوُتاً يسيراً وتفوُّقاً ضئيلاً، بل بوْناً شاسعاً كما بين الأرض والسماء، والثرىٰ والثُّريا.

هناك خيط دقيق، أرفع من شعرة، وأرهف من حدٍّ صقيل، وألطف من نسيم عليل، وأخفىٰ من خلَجات النفس، يحكي وينطلق من حقيقة: ﴿بَلِ ٱلْإِنسَـٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ﴾.

يدوس بالأقدام تأويلات وفذلكات المعاذير، تبرِّر الفرار من الزحف وتعلِّلُ إيثار القعود، بشكوىٰ عجزٍ ودعوىٰ مرض، وٱفتقاد دابة، و " بيوتنا عورة " ... وتُعرِّي كيف غرَّهم متاع الحياة فٱثَّاقلوا، ولو كان عرَضاً قريباً وسفراً قاصداً يحفَظ تافه منزلتهم، ويُبقي علىٰ حقير مكانتهم، ويحمي ضئيلَ مكاسبهم وبخس مغانمهم، لأٓلتحقوا به، لٰكن بعُدَت عليهم الشُّقَّة، وٱرتابوا، فهُم في ريبهم يتردَّدون... ولو أضرَّت الصلاة بدُنياهم لتركوها!

ولعمري، فإنَّ بعضهم في وُقوفه علىٰ التل، ورفضِه الأنخراطَ في جبهة الدفاع عن حمىٰ «أهل البيت»، تعذَّر بـ" مكانته " ! فارِضاً لنفسه مقام حفْظِ الطائفة، والإبقاء علىٰ سقفٍ يحتمي به بعض أبنائها، وملجَأ يأويهم عند ٱنعتاقهم من رِبقة «المعمم الضليل»، محتجّاً بموقف أحَد مراجع التقليد العظام، وزاعماً الأقتداء بطريقته والتأسِّي بفعلته!... والمدَّعي من خلُوِّ الوِفاض، ما يجعله بلا جناح، فهو عاجزٌ عن ضمِّ عياله، ناهيك بأتباع مأتمرين ومريدين لائذين!

فمَن علَّه ينقذ غيرَ نفسه؟ ومَن عساه يأوي ويرعىٰ غير مصالحه؟ وليتها كانت ذات شأنٍ وخطب وقيمة تستحقُّ التفريط بهٰذا العزيز الخطير... ولا شيء يستحق!

والحقيقة الأكثر عمقاً والأعظم هَوْلاً، ولو علموا وشعروا لقُلت: الأكثر فجعةً وألماً، أنَّ "الحمىٰ" كَرِه ٱنبعاثهم للدفاع عنه، وأبىٰ لهم شرف النصرة، فثبَّطهم وأقصاهم، ونحَّاهم ونفاهم...

وٱرتضاك، فربط علىٰ قلبك وأيَّدك بجنود لم ترَها، وعزيمةٍ ما زلتَ في حيرة تتساءل: من أين أتتك وكيف غلبتك فملَكتك؟

أليس كذلك يا «نجيب»!

لقد نهضت بالدفاع عن سادتك ومواليك، ٱندفعت بلا تحفُّظ، وقحمت الميدان دون تردُّد، جاهرت بكلمة الحقِّ حيث وَجبَت، وصدحت بالحقيقة حيث خفِيَت وٱستبهمت، وأزحت الرِيَبَ حيث التبَسَت، لم تكتم الشهادة، ولم تطمس وتجحَد ما تعلم، ولم تخاتل وتخادع وتتأوَّل، وتلتمس الأعذار وتفرَّ من القتال...

كلُّ ذلك، أو جلُّه، غَيْرةً وحميَّة على سادتك، ووَفاءً وعصبيَّة لأئمتك، ثم إحقاقاً للحقِّ، وإنقاذاً لأيتام «آل محمد».

وبالمناسبة، فقد مُحي ما خالَط نيَّتك حيناً، من غضبة غلَبت روحك، وعنادٍ خامَر طبعك، وكُتب لك العمل كلُّه من جنس أفضله وعلى رتبة أحسنه، الذي جاء في أعلاه، أداءً في الإتقان وخلوصاً في النية! لقد فعلت فعلتك يا «نجيب» وأنت من المؤمنين الصالحين، وقد دفعت الثمن غالياً...

لذا أوْلوك هذه الكرامة، وخصُّوك بهذه الفضيلة والمنقبة... فتوجَّهَت إليك الدعوة لتقوم بهذه الرحلة.

كنتَ صارماً في براءتك من المبطلين الضالين، شديداً في مقاطعة المنحرفين، حاداً في التموضع ضدَّهم، مُغالياً في اتخاذ المواقف وتشكيل الجبهات وتصنيف الاصطفافات، مُصِرّاً على الفصل والقطيعة... حتى تلقَّفتك الألسُن وتناولتك المكائد، وتقصَّدك الرماة واستهدفتك السهام، وتلاحقَت عليك الطعنات وأثخنتك الجراحات!

لقد أضررت بمصالحك، وفرَّطت بموقعك، وأضعت الفرَص علىٰ نفسك، وبدَّدت مكاسبك، وأتلفت دُنياك... دون آخرتك.

أتذكُر يا «نجيب» كيف أعرضتَ عن أحَد أنصار الضلال، فخرجت من محفلٍ دخَلَه؟ رفضت أن يجمعكما مجلس، وأبيتَ البِشْر في وَجهه، ناهيك بتحيَّته ومصافحته؟ هتكته وأخزيته في الملأ، فطالته معرَّةٌ وعلقت به مذمَّة ولصقت مثلبة، ما وَجد إلىٰ دفعها حيلة!... لقد أطرا هٰذا الموقف شُهَّدُه وأكبره حُضَّاره، من خدم «الناحية»، ما نشَر فضلك هناك، ورفع شأنك وعرج بك وٱرتقىٰ في سُلَّم المجد ومراتبه درجات!

ولا سيما حين ردَدْت علىٰ مَن ٱنتقد موقفك هٰذا وٱعترضك، فوَافاك لدىٰ الباب، وأنت في طريقك إلىٰ الخروج، رماك بالتعصُّب والحدَّة، ووَسمك بالغلظة والشدَّة، فعارضتَه بأن ليست كلُّ شدَّة قبيحةً، وتلَوْت قوله تعالىٰ: ﴿وَلِيَجِدُواْ فِيكُمۡ غِلۡظَةً﴾، ولا كلُّ تعصُّب مذموماً، وأوردتَ قول «أميرالمؤمنين»: " تعصَّبوا لخِلال الحمْد " .

فلمَّا حاجَّك بأنَّ الأمر في معاشرتهم هيِّن يسير، واستخفَّ بخطر مُراوَدتهم ومجاملتهم، طبَّقت قول «الصادق» عليه السلام: "لولا أنَّ بني أُميَّة وَجدوا من يكتب لهم ويجبي لهم الفيء ويقاتل عنهم ويشهد جماعتهم لما سلَبونا حقَّنا، ولو تركهم الناس وما في أيديهم ما وَجدوا شيئاً". ثم حذَّرته أن يداري جُبنه ويبرِّر تفريطه بدعوىٰ الحرص علىٰ الأُخوَّة الإيمانية وحفظ الجبهة الداخلية، وهدَّدته أن يجلِّل تخاذله بغطاء الاعتدال، وأنذرته أن يلبِس فِراره لَبوس الوَسطيَّة، ودعَوته أن يعلن عجْزه بدل أن يقبِّح عمَل غيره.

إنَّ هذه الحوادث والمساجلات تُضبَط بحِرص، وتنقل بدقَّة، لتُقيَّم ثم تصنَّف وتدرَج في موقعها ومحلِّها من الرفض أو القبول، ذلك بعد أن تخضع لتحقيقٍ مُفصَّل معمَّق، وتُدرَس بعناية لا يمكنكم ـ معشر البشر ـ تصوُّر حجمها ومداها!... تحسبون الأمر متروكاً مهمَلاً، والعنان مُرخىً، والحبل مُلقىٰ؟ لا والله، بل إرصادٌ ومثابرة واهتمام، لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلَّا أحصاها.

أتذكُر ٱحتجاجك ودفاعك الذي نشرته عن «مولاتنا الزهراء» عليها السلام، ردَدْتَ فيه علىٰ «الضَّالِّ المضِلِّ»، دحَضتَ مقولته في التشكيك بمصابها، وفنَّدت حُجَّته في نفي فضائلها، وأفحمتَه وأبكمته، وقرَّعتَه وعرَّيته، كلُّ ذلك دون أن تُواري وتكنِّي، وترمز وتُشير من بعيد، بل أعلنتَ وصرَّحت، وعيَّنتَ وسمَّيت، وشخَّصتَ بلا ريب، فقطعتَ الطريق علىٰ اللَّبْس والٱحتيال، والسبيل عن الٱستضعاف والٱستغفال... فطاردتك كلابهم بالنُّباح، وتناوشتك ذئابهم بالعضِّ، وضباعهم بالنهش، وٱحتوَشك رعاعهم وطغامهم ـ وكلُّهم طغامٌ رعاع ـ وتلقَّفوك بالسبِّ والقذف والطعن؟...

لقد لفَت ذلك المنشور الأنظار إليك هناك، في «الجزيرة الخضراء»، جمع لك الأصوات، وألهج الألسن ورفع الأكفَّ بالدَّعَوات، وأكرمك وبيَّض وَجهك وأجلىٰ صحيفتك، فكفَّر عن كلِّ خطاياك وذنوبك، حتىٰ مُحيَت مساوِئك وطُمِست عيوبك، وما عاد الناظر فيها يرىٰ إلَّا أنواراً تتلألأ!

بل حتىٰ لـو أراد ملَكٌ أو عبـدٌ صـالح من " الأعـوان " ، غلَبه العجَب والإعجـاب من مـرتبتك، وخلـوِّ صحيفتك من كلِّ منقصة ومثلَبـة، فطلب النظـر في مـاضيك وسـعىٰ ليتحـرَّىٰ عن سوابقك، ما كان سيرىٰ شيئاً، فقد قُلبت سيئاتك وصارت كلُّها حسنات!

إنَّ الـرقيب العتيـد الـذي يـسجِّل مـا تفعل، والقرين الـذي يلازمك لحفظك وتسديدك، وجمعاً من الكـرام الكاتبين والملائكة المتابعين، وصـالحين مـن الجنِّ، وخلْقـاً مـوالين مـن شتَّىٰ الأجناس ومختلف العوالم... كانـوا يلاحقونك حيثما تـوجَّهت، يتابعـون حِـراكك ليشهـدوا مــوَاقعك، ويحـضروا معــاركك، ويلتــذُّوا بتصـدِّيك للقوم، وكـانـوا يبـاهـون بصوْلاتك وجوْلاتك، ويفاخرون ببطولاتك!...

وكـان ممـا شهـدوه، نهش تلك الأفـاعي ولكع الحيَّـات، ولـدْغ العقـارب ولَسْعهـا، وتحمُّلك الـسموم، ومقـاومتك الأوْجاع، لم يغـادروا شيئاً ممـا تلقَّيت وعـانيت، بل شـاركـوا في تلقِّيه، ولـو وَسعهـم وأُذِن لهـم لـدفعـوه... شهـدوا ذلك وعرفوه، فرفعوه ونقَلَوه.

والمؤمن ينزل منزلته، علىٰ قدْر عِلمه ومعرفته ثم عمَله، يحكم كلَّ ذلك إخلاصه ثم تقواه ووَرعه. ومن بين الأعمال، بل تاجها وعلىٰ رأسها: التضحية والعطاء...

والكريم لا يطيق أن يُسدىٰ إليه معروفٌ فلا يردُّه، ويُصنع له جميلٌ فلا يكافئه، وتبقىٰ لأحَدٍ عنده يدٌ وتطوِّقه قلادة إحسان وفضْل، فلا يجازيها بمثلها ويخلع علىٰ فاعلها خيراً منها. فكيف بـ «أهل البيت»، سادة النوال والكرم، وقمَم العزَّة والمروءة؟ اللهم إلَّا أضعافاً مضاعفة، من أجزل الهبات وأسنىٰ الصِّلات وأسبَغ الآلاء، ما يغمر المعروف حتىٰ يغدو قطرةً في بحر جودهم وسخائهم، ويُتحِف فاعله وينيلُه ما يرجعه مملوكاً لإحسانهم ويرتهِنه أسيراً لفضلهم!

كان «نجيب» يستمع إلىٰ حديث «هب» وقد بعث فيه البهجة والجذل، حتىٰ بلج صدره وثلِج، وٱنفسح وٱنشرح، ووَجد في نفسه رَوْحاً وغبطة، وبرْد كبدٍ وقـرَّة عينٍ لم يعرفها في حياته ولا هجس بها في خياله... حتىٰ ٱغروْرقت عيناه، فشرقت بالدموع ونهَلَت، وفاض بعضها وتقاطر، وهو يداريها خجلاً وحياءً، لٰكنَّ الموقف غلَبه، فكأنه ٱستسلم، وما عاد يطيق كبت شيءٍ من مشاعره، فراحت تذرف، ثم همَت وسحَّت...

هٰكذا وَضع «هب» النقاط وأنزلها على الحروف والكلمات، ليفصِح عن المبهَم في مسيرة صاحبه، ويزيل الغموض في حركة نفسه وجولة روحه، ووَضع يده على مواطن الجراح، من سحَجات لاسِعة حارِقة، إلى رضوض مؤلمة، وقروح ممضَّة، وكلوم مشخِنة، وكسور موهنة، وجراحات ما برحت تنزف حتى أشرفت به على الهلاك... تحسَّسها «هب» بعد أن شخَّصها، فمسَح عليها وضمَّدها بحديثه، وداوَاها وطبَّبها بإخباراته.

أسند الكهل المضنى ظهره إلى الجدار وٱحتبى، نصَبَ ساقيه ودعَمَهما بيديه، وشخَص ببصره وهطَع، وجعل لا يطرف، كأنه يحدُّ النظر إلى شيء فَجَأَهُ، ومضى في فجأته وٱستمرَّ، فأطال، ثم غيَّر جلسته، وأراح رجليه متربِّعاً، وعندها، خشَع وغضَّ، ورمى ببصره إلى حِجْرِه، ثم أرجع رأسه وأسندها ـ بعد ظهره ـ إلى الجدار... أسبل جفنيه، ليسرح في ٱستحضار صوَر، طالما أغمض عنها وحاول مسحها من ذاكرته، كما يفعل بالمشاهد المؤلمة في حياته، هٰكذا يداوي جراحه ويسكِّن آلامه، وهو الذي ٱختار العزلة، فلا أحَد يطيق بثَّه أوْجاعه، وإن طاقَ أحَدُهم وٱستطاع، غلَبه منه الحياء، فلِمَ يجشِّم غيره، ولماذا يتحمَّل الآخرون عناءه؟ لا ٱمرأةٌ تفهمه، ولا صديقٌ يفوقه طاقة وقوَّة، ولا خليلٌ خليٌّ، فكلٌّ مشغول بنفسه، لاهٍ بهمومه، فكيف بهموم وآلام غيره! لقد أكدى الطلب وأعيت الحيلة، نعم، هناك عشيقة يهوَاها، من صنع خياله، يبثُّها غزله، ويسهر معها ليله، كلَّما طاب له الهوى، ولذَّ السمَر، وهي تسكن قلبه، وتستوطن جوانحه، فكيف له أن يؤلم قلبه ويوجع كبده؟ فكأنه ينكأ جرحه ويُرجع الألم إلى نفسه ويعاوده على روحه، فينشد مع «السيد محمد سعيد الحبوبي»:

غنِّني بٱسم الـذي لـذَّ ٱسمه
حـربه حـربي وسلمي سِلْمه
جسمه روحي وروحي جسمه
أنا من أهوىٰ ومن أهوىٰ أنا * صحَّ هـٰذا في الزمان الأول

وحتىٰ إن جاز ذلك، وأجاب حبيبته إليه، بعد إلحاح منها لفرط ما تشفِق عليه، فأنَّىٰ بالخيال مُداوِياً وكيف بالأوْهام سَلوَة؟

بلىٰ، كان في ما مضىٰ يخلو بـ" شيخ " و " مرشد " ، تولَّاه بالتربية والتعليم حيناً بعد حين، قبل أن يغادره مكرهاً. وهو بحرٌ لا تكدِّره الدِّلاء، وطوْدٌ لا تقلِقه العواصف، وكما في المثل: له حِلْمٌ أثبت من «ثبير»، وحصاة أوْقر من «رضوىٰ»، وصدر أوسع من «الدهناء»، لا تعرفه الخفَّةُ والطيش، ولا سبيل للسأم والضجر إليه، ومثل هـٰذا لا ينال منه تعديد شاكٍ ولن يزعجه تأوُّه مهموم... ولـٰكنَّ «نجيباً» ٱنقطع عنه، نأت به الأسفار، ومنعته الظروف، وحالت دونه موانع وحوادث، وهو اليوم في التسعين، ثقُل سمعه، يزعجه التواصل بالهاتف ويُرهقه، فلا سبيل إليه.

لم يكن «نجيب» ساخطاً، لـٰكنَّ كلمات «هب» نقلته إلىٰ حالة روحية ورتبة أخلاقية ما عرفها من قبل، وأخذته لتبلغ به " الرضا " ، حتىٰ ندم وتاب نصوحاً، وعزم علىٰ عدم العود إلىٰ أي توجُّع وشكوىٰ لما يأتيه من القوم ويحلُّ به جرَّاء صراعه معهم، وإن في سِّره... ولسان حاله: مرحباً بما لفَت أنظار الحبيب نحوِي ووَجَّهها صوبي، أهلاً بآلامٍ تبعث المرء مقاماً محموداً يُغبَط عليه؟ حيَّا الله معاناةً تورث كلَّ هـٰذا النعيم، والفخر والعزَّ، وتبلغ بصاحبها رحاب التشرُّف بأعظم لقاء!

كانت قطعةً أُخرىٰ من ثوب اللوث يخلعها، ومرقاة تالية في سُلَّم السموِّ يرقاها، يطوي بها مسيرةً تأبىٰ التقدَّم في منازلها إلَّا لسالك يغسل أدرانه، يجلي نفسه وينقِّي روحه، يقوم بـ" التخلية " طلباً لـ" التحلية " .

و " الرِّضا " سواء أكان: سرور القلب بمُرِّ القضاء، أو تلقِّي المهالك بوَجه ضاحك، أو ترك الاختيار علىٰ الله فيما دبَّر وأمضىٰ، أو شرح الصدر ورفع الإنكار لما يرِدُ من الوَاحد القهَّار، أو طيب النفس بما يصيبه ويفوته، أو سكون القلب تحت مجاري الأحكام... فقد أدرك صاحبنا بعض رتبه، ونال أولىٰ درجاته، بفيض إلهيٍّ وهبة ربانية، وما زالت المنَحُ تترىٰ عليه، والهدايا تُغدَق، والخلَع تكسوه وتجلِّله، مذ التقىٰ هـٰذا الصحبَ الكريم!

وهو (أي الرِّضا في رتبته التامَّة ودرجته القصوىٰ) أفضل مقامات الدين، وأشرف منازل المقرَّبين، وهو باب الله الأعظم، ومَن دخَله دخَل الجنة، كما قرَّر «النراقي» في ‹جامع السعادات›.

فعن «النبي» ﷺ: " أنه سأل طائفة من أصحابه: ما أنتم؟ فقالوا: مؤمنون. فقال: ما علامة إيمانكم؟ فقالوا: نصبر علىٰ البلاء، ونشكُر عند الرخاء، ونرضىٰ بمواقع القضاء. فقال: مؤمنون وربِّ الكعبة! "، وفي خبر آخر، قال: " حكماء علماء كادُوا من فقههم أن يكونوا أنبياء " . وقال ﷺ: " إذا أحبَّ الله عبداً ٱبتلاه، فإن صبر ٱجتباه، وإن رضي ٱصطفاه " . وقال «الصادق» عليه السلام: " إن الله بعدْله وحكمته وعلمه، جعل الرَّوْح والفرح في اليقين والرِّضا عن الله تعالىٰ، وجعل الهمَّ والحزن في الشكِّ والسخط " . ورُوِي: " أنَّ «موسىٰ» عليه السلام قال: يا ربِّ! دُلَّني علىٰ أمر فيه رضاك؟ فقال تعالىٰ: إن رضاي في رضاك بقضائي " .

ورُوِي عن «الصادق» عليه السلام: " أنَّ «بني إسرائيل» قالوا لـ «موسىٰ»: سَلْ لنا ربك أمراً إذا نحن فعلناه يرضىٰ عنَّا؟ فقال «موسىٰ»: إلهي! قد سمعت ما قالوا. فقال: يا «موسىٰ»! قُل لهم يرضون عنِّي حتىٰ أرضىٰ عنهم " .

وقال «سيِّد الساجدين» عليه السلام: " الصبر والرِّضا رأس طاعة الله، ومَن صبر ورضي عن الله في ما قضىٰ عليه، في ما أحبَّ أو كرِه، لم يقضِ الله عزَّ وجلَّ له فيما أحبَّ أو كرِه إلَّا ما هو خير له " . وقال عليه السلام: " الزُّهد عشرة أجزاء، أعلىٰ درجة الزهد أدنىٰ درجة الوَرع، وأعلىٰ درجة الوَرع أدنىٰ درجة اليقين، وأعلىٰ درجة اليقين أدنىٰ درجة الرِّضا " . وقال عليه السلام: " قال الله عزَّ وجل: عبدي المؤمن، لا أصرفه في شيء إلَّا جعلته خيراً له، فلْيرضَ بقضائي، ولْيصْبر علىٰ بلائي، ولْيَشكر نعمائي، أكتُبه يا «محمَّد» من الصديقين عندي " . وقال عليه السلام: " عجبتُ للمرء المسلم لا يقضي الله عزَّ وجلَّ له قضاءً إلَّا كان خيراً له، إن قُرِّض بالمقاريض كان خيراً له، وإن ملك مشارقَ الأرض ومغاربها كان خيراً له " . وقال عليه السلام: " إنَّ في ما أوْحىٰ الله عزَّ وجلَّ إلىٰ «موسىٰ بن عمران» عليه السلام: يا «موسىٰ بن عمران»! ما خلقتُ خلقاً أحبَّ إليَّ من عبدي المؤمن، وإني إنما أبتليه لما هو خيرٌ له، وأُعافيه لما هو خيرٌ له، وأزوي عنه لما هو خيرٌ له، وأنا أعلم بما يصلح عليه عبدي، فلْيصبر علىٰ بلائي، ولْيشكر نعمائي، ولْيرضَ بقضائي، أكتبه في الصدِّيقين عندي، إذا عمل برضاي وأطاع أمري " . وقيل له عليه السلام: بأيِّ شيء يعلم المؤمن أنه مؤمن؟ قال: " بالتسليم لله، والرِّضا فيما وَرد عليه من سرور أو سخط " .

وقال «موسىٰ بن جعفر الكاظم» عليه السلام: " ينبغي لمن عقل عن الله، ألَّا يستبطئه في رزقه، ولا يتِّهمه في قضائه " .

يقول «النراقي» قُدس سرُّه:

قد يظهر من بعض الأخبار: أنَّ رِضا الله سبحانه وتعالىٰ عن العبد، يتوقَّف علىٰ رِضا العبد عن ربه. فمن فوَائد رِضا العبد بقضاء الله وثمراته، رِضا الله سبحانه وتعالىٰ عنه. وهو أعظم السعادات في الدارين، وليس في الجنة نعيمٌ فوقه، كما قال سبحانه: ﴿وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾.

وفي الحديث الشريف: "إنَّ الله يتجلىٰ للمؤمنين في الجنة، فيقول لهم: سلوني، فيقولون: رِضاك يا ربنا!". فسؤالهم الرِّضا بعد أن حظوا بتجلِّي الله تعالىٰ لهم، يدلُّ علىٰ أنه أفضلُ كلِّ شيء.

ووَرد في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾، أنه يؤتىٰ لأهل الجنة في وَقت المزيد ثلاث تحفٍ من عند رب العالمين ليس في الجنان مثلها:

إحداها: هدية الله، ليس عندهم في الجنان مثلها، وذلك قوله تعالىٰ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾.

والثانية: السلام عليهم من ربهم، فيزيد ذلك علىٰ الهدية، وهو قوله تعالىٰ: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾.

والثالثة: يقول تعالىٰ: "إني عنكم راضٍ"، وهو أفضل من الهدية ومن التسليم، وذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾.

ومعنىٰ رضا الله سبحانه عن العبد، قريبٌ من معنىٰ حُبِّه له، إلَّا أنه في الآخرة سببٌ لِدَوام النظَر والتجلِّي في غاية ما يُتصوَّر من اللقاء والمشاهَدة. ولهذا ليست رتبة في الجنة فوقَه، ويراه أهل الجنة أقصىٰ الأمانيِّ، وغايةَ الغايات.

وهناك مَن أنكر إمكان تحقيق الرِّضا في أنواع البلاء وفي العمل بما يخالِف الهوىٰ، وقال: الممكن فيهما هو الصبر دون الرِّضا، وقد وَقع في ذلك لإنكاره المحبَّة، إذ بعد ثبوت إمكان الحبِّ لله وٱستغراق الهمِّ به، لا يخفىٰ أنه يورِث الرِّضا بأفعال المحبوب. وذلك يكون من وَجهين:

أحدهما: أن الاستغراقُ في الحبِّ يوجب إبطالَ الإحساس بالألم، حتىٰ يقع عليه وينزل به المؤلم ولا يحسُّ به، وتصيبه جراحة ولا يدرك ألَـمها. ولا تستبعدنَّ ذلك، فإنَّ المحارب عند خوضه الحرب، وعند شدَّة غضَبه أو خوفه، قد تصيبه جراحة فلا يحس بها إلَّا حين يرىٰ الدم أو بعد أن يفرغ من الـمعركة، بل الذي يعدو في شُغل مهمٍّ قد تصيبه شوكةٌ في قدمه، ولا يحسُّ بألَـمها لشغْل قلبه. والسرُّ: أنَّ القلب إذا صار منشغلاً مستغرقاً في أمرٍ من الأُمور، لم يدرك ما عداه، فالعاشق مستغرقُ الهمِّ بمشاهَدة معشوقه أو بحُبِّه، قد يصيبه ما كان يتألم به أو يغتمُّ، لولا عشقُه، وهو لا يدرك ألَمَه وغمَّه لاستيلاء الحبِّ علىٰ قلبه، وهذا إذا أصابه من غير حبيبه، فكيف إذا جاءت الإصابه من حبيبه؟ ولا ريبَ أنَّ حبَّ الله تعالىٰ هو أشدُّ أنواع الحبِّ، وشغْل القلب به أعظم الشوَاغل، إذ جمال الحضرة الربوبية وجلالُها لا يقاس به جمال، فمَن ينكشف له شيء منها، فإنه سيبهِره بحيث يدهَش ويغشىٰ عليه، ولا يحسُّ بما يجري عليه.

والثاني: يبلغ فيها الاستغراق في الحبِّ درجة يدرِك فيها الألم ويحسُّ معها به، ولكنه يكون راضياً به، بل راغباً فيه، مريداً له بعقله، وإن كان كارهاً له بطبعه، كالذي يلتمس من الفصاد الفصد والحجامة، فإنه يدرِك ألَـمه، إلَّا أنه راضٍ به راغبٌ فيه.

فالمحبُّ الخالص لله، إذا أصابته بلِيَّة من الله، وكان علىٰ يقين بأنَّ ثوابها الذي ٱدُّخِر له فوق ما فاته، رضيَ بها ورغب فيها وأحبَّها وشكَر الله عليها. هٰذا إن كان نظره إلىٰ الثواب والأجر الذي يجازىٰ به على ٱبتلائه بالمصائب والبلايا، وربما غلب الحبُّ بحيث يكون حظُّ المحبِّ ولذَّته وٱبتهاجه في مراد حبيبه ورضاه، لا لمعنىً آخر، فيكون مُراد حبيبه ورضاه محبوباً عنده ومطلوباً، وكل ذلك مُشاهَدٌ محسوس في حبِّ الخلق، فضلاً عن حبِّ الخالق، والجمال الأزليُّ الأبدي الذي لا منتهىٰ لكماله، المدرَك بعين البصيرة التي لا يعتريها الغلَط والخطأ، فإنَّ القلوب إذا وَقفت بين جماله وجلاله، فإذا لاحَظوا جلاله هابوا، وإذا لاحَظوا جماله تاهوا.

ويشهد بذلك حكايات المحبِّين، علىٰ ما هو مسطورٌ ومنقول. فإن للحبِّ عجائب، مَن لم يذُقْ طعمها لا يعرفها. وقد رُوِي أن أهل مصر مكثوا أربعة أشهر لم يكن لهم غذاء إلَّا النظر إلىٰ وَجه «يوسف الصديق»، كانوا إذا جاعوا نظروا إلىٰ وَجهه، فشغلهم جماله عن الإحساس بألم الجوع! بل في القرآن ما هو أبلغ من ذلك، وهو قطع النسوة أيديهن لشغفهنَّ وٱستهتارهنَّ بملاحظة جماله، حتىٰ ما أحسَسْن بذلك.

وروِيَ أنَّ «عيسىٰ» مرَّ برجل أعمىٰ وأبرص، مُقعَدٍ مفلوج، وقد تناثر لحمه من الجذام، وهو يقول: الحمد لله الذي عافاني مما ٱبتلىٰ به كثيراً من الناس! فقال «عيسىٰ»: يا هٰذا! أيُّ شيء من البلاء تراه مصروفاً عنك؟ فقال: يا روح الله! أنا خيرٌ ممن لم يجعل الله في قلبه ما جعل في قلبي من معرفته. فقال: صدقت! هاتِ يدك، فناوله يده، فإذا هو أحسن الناس وَجهاً، وأفضلهم هيئة، قد أذهب الله عنه ما كان به، وصحب «عيسىٰ» وتعبَّد به.

وهل يلزم من الرِّضا والتسليم، ترك الدعاء ونحوه من حبِّ الخير للنفس والغير؟ فالحقُّ أنَّ الدعاء غيرُ مناقضٍ للرِّضا، ولا لكراهية المعاصي، ومقْت أهلها، وحسم أسبابها، والسعي في إزالتها بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولا يناقض وُجوب الهجرة عن بلد ظهرت فيه المعاصي وغلبت. وقد زعمت طائفة من أهل البطالة والغرور: أنَّ جميع ذلك يخالف الرِّضا، إذ كل ما يُقصد ردُّه بالدعاء وأنواع المعاصي والفجور والكفر، هو من قضاء الله وقدَره، فيجب للمؤمن أن يرضىٰ به! حتىٰ رأوا السكوت علىٰ المنكرات مقاماً من مقامات الرِّضا، وسَمَّوه حُسن الخلق! وهٰذا جهل بالتأويل، وغفلة عن أسرار الشريعة ودقائقها.

أما الدعاء، فلا ريب في أنه من أعظم مصاديق التعبُّد، وقد كثرت أدعية الأنبياء والأئمة، وهم في أعلىٰ مقامات الرِّضا، وتظاهرت الآيات وتوَاترت الأخبار في الأمر بالدعاء وفوائده وعظَمته، وأثنىٰ الله سبحانه علىٰ عباده الداعين، حيث قال: ﴿وَيَدۡعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۝٩٠﴾ (الأنبياء). وقال ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡ ۝٦٠﴾ (غافر). وقال ﴿أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۝١٨٦﴾ (البقرة). وهو يوجب صفاء الباطن، وخشوع القلب، ويورث رقَّة النظر، وتنوُّر النفس وتجليها. وقد جعله الله تعالىٰ مفتاحاً للكشف، وسبباً لتوَاتر مزايا اللطف والإحسان. وهو أقوىٰ الأسباب لإفاضة الخيرات والبركات من المبادئ العالية.

والقول بأنَّ ما يردُ علىٰ العبد من المكاره والبلايا يكون بقضاء الله وقدره، والآيات والأخبار ناطقةٌ بالرِّضا بقضاء الله مطلقاً، فالتشمُّر لردِّه والسعي لِدفعه بالدعاء، يناقض الرِّضا... باطلٌ مدفوع.

فإنَّ الله سبحانه بعظيم حكمته، أوجَد الأشياء علىٰ التسبيب والترتيب بينهما، فربط المسبَّبات بالأسباب، ورتَّب بعضها علىٰ بعض، وجعل بعضها سبباً ووَاسطة لبعض آخر، وهو من بعدُ مسبِّب الأسباب.

والقدَر عبارة عن حصول الموجودات في الخارج من أسبابها المعيَّنة بحسب أوقاتها، مُطابَقَةً لما في القضاء، والقضاء عبارة عن ثبوت صوَر جميع الأشياء في العالم العقليِّ علىٰ الوَجه الكُليِّ، مطابقةً لما في العناية الإلهية المسماة بالعناية الأُولىٰ، والعناية عبارةٌ عن إحاطة علم الله تعالىٰ بالكلِّ علىٰ ما هو عليه إحاطةً تامة، فنسبة القضاء إلىٰ العناية كنسبة القدَر إلىٰ القضاء. ثم، من جملة الأسباب لبعض الأُمور الدعاء والتصدُّق وأمثالهما، فكما أنَّ شرب الماء سببٌ رتَّبهُ مسبِّب الأسباب لإزالة العطَش، ولو لم يشربه لكان عطشه باقياً حتىٰ يؤدِّي إلىٰ هلاكه، وتناول الدواء سببٌ لدفع الأمراض، ولو لم يتناوله المريض لبقي علىٰ حاله، وهٰكذا في سائر الأسباب... كذلك الدعاء سببٌ رتَّبهُ الله تعالىٰ لدفع البلايا ورفعها، ولو لم يدعُ الإنسان لنزل به البلاء ولم يندفع.

فلو قيل: لو كان في علم الله تعالىٰ وفي قضائه السابق، أنَّ زيداً ـ مثلاً ـ يدعو الله، أو يتصدَّق، عند ٱبتلائه ببلية ما، وأن البليَّة ستندفع عنه، لدَعَا الله أو تصدَّق، ودفَع بذلك بليَّته. ولو كان في علم الله وقضائه أنه لن يدعوَ ولن يتصدَّق، وأنه سيبتلىٰ بتلك البليَّة، لما دعىٰ ولا تصدَّق، ولما ٱندفعت عنه البليَّة. والحاصل: أنَّ كلَّ ما تعلَّقت به العناية الكُليَّة والقضاء الأزليُّ يحصل مقتضاه في الخارج وفي عالم التقدير، إن خيراً فخيرٌ، وإن شراً فشرٌّ... فأية فائدة في سعي العبد وٱجتهاده؟

قلنا: هٰذه من جملة شبهات الجبرية الذين ذهبوا إلىٰ أنَّ العبد مجبورٌ في فعله، ونفَوا الاْختيار عنه... ولا مَدخليَّة لهٰذه الشبهة بمسألة كون الدعاء مناقضاً أو غير مناقض للرِّضا، وكونه من جملة الأسباب المرتَّبة منه تعالىٰ لحصول مسبِّباتها، كالتزويج لتحصيل الوَلد، والأكل والشرب لدفع الجوع والعطش، ولبس الثياب لدفع الحرِّ والبرد، وغير ذلك.

والجواب التامُّ علىٰ الشبهة المذكورة وأمثالها مذكورٌ في موضعه من كتب العقيدة والكلام.

وأما إنكار المعاصي وكراهتها، والفرار من أهلها ومن البلد الذي شاعت فيه، فقد تعبَّد الله به عباده، وذمَّهم علىٰ الرِّضا بها، فقال: ﴿وَرَضُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّواْ بِهَا ۝٧﴾ (يونس)، وقال: ﴿رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ۝٨٧﴾ (التوبة).

وفي بعض الأخبار: "مَن شهد منكراً ورضيَ به فكأنه قد فعله". وفي آخر: "لو أنَّ عبداً قُتِل بالمشرق ورضيَ بقتله آخر بالمغرب، كان شريكاً في قتله". وفي ثالث: "إنَّ العبد ليغيبُ عن المنكر ويكون عليه مثل وُزْر صاحبه. قيل وكيف ذلك؟ قال: يبلُغه فيرضىٰ به ".

وأما بغض الكفار والفجّار والفسّاق، ومَقتهم والإنكار عليهم، فما وَرد فيه من شوَاهد الكتاب والسنة أكثر من أن يحصىٰ. قال الله: ﴿لا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ ۝٢٨﴾ (آل عمران)، وقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۝٥١﴾ (المائدة). وفي الخبر: "إنَّ الله أخذ الميثاق علىٰ كلِّ مؤمن أن يبغض كلَّ منافق". وقال ﷺ: "أوْثق عُرىٰ الإيمان الحبُّ في الله والبُغض في الله".

فإن قيل: إنَّ المعاصي إن لم تكن بقضاء الله وقدَره، فهو محال وقادح في عقيدة التوحيد، وإن كانت بقضاء الله، فكراهتها ومقْتها كراهة لقضاء الله! والآيات والأخبار مصرِّحةٌ بوجوب الرِّضا بقضاء الله، وذلك تناقض، فكيف السبيل إلىٰ الجمع بين الرِّضا والكراهة في شيء وَاحد؟

قلنا: المقرَّر عند بعض الحكماء: أنَّ الشرور الوَاقعة في العالم، من المعاصي وغيرها، راجعة إلىٰ الأعْدَام دون الموجودات، فلا تكون مُرادةً له تعالىٰ، ولا داخلةً في قضائه، وعند بعضهم أنها داخلةٌ في قضائه بالعرَض لا بالذات، ولا ضير في كراهة ما ليس في قضاء الله تعالىٰ بالذات. وعند بعضهم: أنها شرورٌ قليلة باعثة لخيرات كثيرة. وعلىٰ هذا، لا يقع الإشكال، فهي إما أن لا تكون ـ بتلك الحيثية ـ من قضاء الله والرِّضا به، أو هي ليست مكروهة من حيث ذاتها بل بالعرَض، وكذا علىٰ فرض كَوْنها باعثة لخيرات كثيرة. والتحقيق: إنَّ الأوصاف الثلاثة ثابتة للشرور الوَاقعة في العالم، أي أنها راجعة إلىٰ الأعدام وهي داخلة في قضائه تعالىٰ بالعرَض، ثم هي شرور قليلة باعثة لخيرات كثيرة، وهو الأظهَر... ولـ «أبي حامد الغزالي» هنا وَجه جمع آخر، لا يروي الغليل ولا يشفي العليل.

فإن قيل إنَّ بُغض أهل المعاصي ومقْتهم موقوفٌ علىٰ ثبوت الٱختيار لهم وقدرتهم علىٰ تركها، وإثبات ذلك مُشكِل. قلنا: لا إشكال فيه، إذ البديهة قاضية بثبوت نوع ٱختيارٍ للعباد في أفعالهم، ولا سيَّما في ما يتعلَّق به التكليف. والخوض في هذه المسألة مما لا ينبغي، فالأوْلىٰ فيها السكوت، والتأدُّب بآداب الشرع، والرجوع إلىٰ ما وَرَد من العترة الطاهرة.(١)

---

(١) نقلت عن (جامع السعادات) بتصرف، وللبحث هناك تتمة حريَّة بالمتابعة هناك.

طاب «نجيب» نفساً وسكَن روحاً، وكأنه فاز في معركة وٱنتصر في حرب عُلِّقت نتائجها، هزم خصومه وأرغم أعداءه، فقد ٱنقلبت ضرباتهم نقاطاً لصالحه، وٱنعكست موَاقع قهرهم وغلَبتهم، لمال وسلطان وعديد وإعلام يتفوَّقون فيه، نصراً ونجاحاً له. ولولا محاذير، لتمنَّىٰ أنهم ألحقوا به من العذابات مزيداً، وأغرقوا في عدائه أكثر مما فعلوا! تماماً كما تأتي علىٰ المؤمن يوم القيامة ساعةٌ، يتمنَّىٰ فيها أنَّ الله لم يستجب دعاءه ولو في تمرة، حين يرىٰ ٱنقلاب الدعاء أجراً وثواباً، وتحوُّله رجحاناً في الميزان ومقاماً في الجنان.

الآن أدرك وفهم كيف يكون الرِّضا أعلىٰ من مقام الصبر وأسمىٰ، بل لا يعود للصبر معنىً! ذلك حين لا يكره السالك شيئاً ليصبر عليه، ولا في الوجود ما يؤذي المرتاض ويغالب في تحمُّله ويتجشَّم ويعاني بسببه، فيرجو زواله، ناهيك بأن يضجر ويسخط، فما حوادث الأيام وبلاءات الحياة ومصائب الدهر، إلَّا خيرٌ وبركة قادها التدبير الإلهيُّ وساقتها المقادير إليه، إن لم يكن في نفسها، ففي نتائجها ولوَاحقها ومآلها.

ولو أسعف الحال وسمح المقام لهتف: وَافرحتاه! يا لنعيم الرِّضا!

من هنا تأتي السكينة قلوبَ العارفين، ولهٰذا يجلِّل الوقارُ سمْتهم ويحكم هدْيهم، إنهم لا يفكِّرون في حظوظ الحياة، ولا يكترثون بخُطوبها ومنغِّصاتها... لذا لا تتكاثف عليهم ظلُمات الهموم، ولا ترِد فتتلاحَق نوَازع اليأس والقنوط، ويندفع ما يجلب القلق وينصرف ما يورث الٱضطراب، مهما ٱزدحمت المصائب وتلاحَقت البلايا، فهم يعرفون مقاصدها العالية، ويتفهَّمون نتائجها السامية. سواءٌ عليهم أ أعطىٰ الله أم منَع، خفَض أم رفَع، ضرَّ أم نفَع، وَصَل أم قطَع... كلُّها بعينه ومن لُطفه!

تبسَّم «نجيب» وهو يستحضر إحدىٰ الرُّباعيَّات الشهيرة للشاعر الفارسي العارف «بابا طاهر العريان»، وهو ناسك العرفاء:

يـكـي درد ويـكـي درمـــان پسنــدد
يكـي وَصْل ويكـي هجـران پسنـدد
مـن از درمـــان ودرد ووَصْل وهجـــران
پسنــددم آنچه را جـــانـــان پسنــدد

وترجمتها:

هـٰذا يحبُّ الـداء وذاك يـريـد الـدواء
هـٰذا يهـوىٰ الفـراق وذاك يـرجـو اللقـاء
أنـا من الـوصل والهجر، والمرض والشفاء
عـشقت مـا راق للحبيب فهـو الـرجـاء

ثم راح يكرِّر:

إن كـان سَركُمُ ما قـال حاسدُنا
فما لجُـرح إذا أرضـاكُمُ أَلَـمُ

وتذكَّر حديثاً فيه أنه قيل لـ «الحسن بن علي» عليه السلام: إنَّ «أبا ذر» يقول: الفقر أحبُّ إليَّ من الغنىٰ، والسقم أحبُّ إليَّ من الصحة. فقال عليه السلام: رحم الله «أبا ذر»، أما أنا فأقول: من ٱتكَل علىٰ حُسن ٱختيار الله له، لم يتمنَّ أنه في غير الحالة التي ٱختار الله تعالىٰ له، وهـٰذا حدُّ الوقوف علىٰ الرِّضا بما تصرَّف به القضاء.

قضىٰ بين هـٰذا وذاك حتىٰ مضت ساعة، يجول بين صوَر يستحضرها ويأنس بآفاق صار فيها... إذ ٱستوقفه خاطرٌ، وناداه هاتف!

وكأنه ما لبث أن نزَع إلىٰ أُفق جديد... لم يكتف بما نال وظَفَر!

لعمري إنه درب تتلاحق في أُفقه الوَمَضات، وتترىٰ في سمائه البوَارق والنفحَات، فتحدث الجذبات، فما زال مَن يسير فيه ويكدح ليقطعه ويجدُّ ليبلغ نهايته، يلاحق الوَاحدة تلْو الأُخرىٰ، ويتابع... لا كمَن يتبع سراباً بقيعة، حتىٰ إذا جاءه لم يجده شيئاً، بل كنَهم حسُن عملُه وزكىٰ قصده، يبلغ هدفه وينال مراده، ثم يغلبه "عشق الكمال" فيتطلَّع إلىٰ مزيدٍ يلوح له في التالي، فتهفو نفسه وتنجذب.

فبعد أن خلع تلك الكسوة وصار في الرِّضا، بلَغَه نداء، وطرَق سمعه هاتفٌ ينهاه أن يركن إلىٰ الرِّضا وأن لا يخلي له ليغلبه! يحذِّره أن يكون محجوباً بلِذَّته عن حقيقة أعظم تنتظره، وأُنس أكبر يرتقبه. فإن مساكنة الأحوال والركون إليها والوقوف عندها ٱستلذاذاً ومحبة، حجابٌ خفيٌّ، يحول دون نيل السالك باقي حظِّه، ويُحرَم أداء حقِّ محبوبه ومعبوده. وهي عقبة لا يجوزها إلَّا أُولو العزائم وذوُو الحظوظ والسعادات... كان الصوت يقرع سمعه بـ: "إياك أن تستحلي الرِّضا وتقف عنده، فإنه سُمٌّ قاتل"! وينهىٰ أن يجعل أية طاعة يحظىٰ بها غايةً، وأيَّ مقام يدركه ويناله محطّاً ونهاية، إنه شرَكٌ لا ينبغي لكيِّسٍ فطِن أن يقع في حِبالته.

ولا سيَّما أنَّ هذا المقام جاءه من حسٍّ ووَصله لشهود، لم يبلغه برياضة ولا ٱكتسبه بمجاهدة! أُخبر بالجائزة، وكُشِف له عن الآثار وعرف توالي ما نزل به من بلاء، ونتائجَ ما قدَّمه من عطاء، فأنِس والتذَّ، وزالت حسرته من فوْت ما فاته بسبب موَاقفه، وذهبت لوْعته من تقصُّده وتناوشه، فبلغ الرِّضا... فأي فخر في هذا وأيَّة فضيلة ومنقَبة؟

والأخطر من هٰذا، أنَّ «نجيباً» وَقف في نفسه علىٰ حقيقة جديدة! أو قُل، ٱنزاحت الغشاوة عن وَاقع كان يتلقَّاه معكوساً، وفي أدنىٰ الفروض وأقلِّها: كان مبالِغاً فيه، أو مضخِّماً ومهوِّلاً! فالحقيقة أنه لم يلقَ من حرب القوم أذىً بليغاً، فلا أتاه من حصارهم ولا ناله من تقصُّدهم وإرصادهم ألمٌ مبرِّح، ولا لحقه من عداوتهم معاناة شديدة، وما ٱنزواؤه عن الساحة وٱعتزاله الناس إلَّا لِطَبع فيه وميْل، وتوَجُّهات روحيَّة، أو حالة نفسيَّة، فقد ٱنقطع حتىٰ عن أصدقائه وأرحامه، وتجنَّب مريديه وأنصاره! فما شأن هٰذا وذاك بمعركته وصراعه؟ وما هو ٱرتباطه بتموضعه وخصومة أعدائه؟ الحقيقة أنهم ليسوا مَن أقصاه وحاصَره، ولا هو كابد وقاسىٰ منهم، فلا أضنته حربهم، فمنعوه عن الحراك وألزموه داره، بل هو خيارٌ كان سينتهي إليه إن عاجلاً أم آجلاً... فممَّ الشكوىٰ وعلامَ المناحة ولماذا النُّدبة؟ وكأنَّ كارثةً وَقعَت، ومصيبة حلَّت، وطامَّة نزلت؟!

نعم، تعرَّض الرجل لمضايقات ولاقىٰ ما لاقىٰ من دناءة القوم وخسَّتهم، إتهموه وٱنتقصوه وٱفتروا عليه، وحيث طالت أيديهم وبلغت سلطتهم، لفَّقوا له التهم وٱعتقلوه، ولٰكنَّ ذلك لم يغلبه ويصرعه، ولا كسَرَه وبهضَه، فجعله ـ كما تُصوِّر الشكوىٰ ـ يرسُف رسْف المقيَّد، فيتطرَّح ويترنَّح، ويتساقط من إعياء، ويتهالك من لُغوب!

وقد أخذه هٰذا التنبُّه ونقلته اليقظة إلىٰ التفكُّر في حجم كرم سادته وأولياء نعمته، «الأئمة الأطهار» من «آل محمد» عليهم السلام، وعظَمة نفوسهم ونُبل معاملتهم، الذي يجازي أقل القليل، بهٰذا الوَافر الجزيل، ويقابل حقير العطاء وضئيل "الإحسان"، بسابغ الإنعام وعظيم الٱمتنان!

ومع هٰذه الٱلتفاتة، أشرقت نفسُه وسمَت روحه وٱرتقت، فغمرتها نفحة ربانيَّة وجاءتها نظرة ربوبيَّة، فقد أصبح يرىٰ للضُلَّال وأتباعهم الذين كان بالأمس يتمنَّىٰ هلاكهم، إن لم ينتهوا عن باطلهم ويتوبوا من زيغهم ويتراجعوا عن فتنتهم، ويرىٰ الحق أن ينكَّل بهم فيقتَّلوا ويصلَّبوا، أو يُنفوا من الأرض حتىٰ يفنوا ويبيدوا! فالإفساد في الأرض لا يقف عند قطع الطريق وترويع الآمنين، بل يطال سرَّاق العقيدة والمبتدعين في الدين، وكان يعجب لصبر الله وأناته فيهم... صار الآن يرىٰ لهم حقاً في الحياة، ومَوقعاً في النظام الأتم للوجود، ومحلًّا في دورة الٱبتلاء وتدافع العِلل والأسباب، حتىٰ مال عن كُرهه وبغضه لهم، وتغيَّرت نفرته منهم، وٱنقلبت شفقةً ورثاءً لحالهم، اللهم إلَّا أئمتهم من قادة الضَّلال وكبراء التيَّار.

وقد كان لهٰذا الٱنكشاف، وما تلاه من نظرة جديدة، أثرُه في صفاء نفس «نجيب»، سواء علىٰ صعيد نفي الٱغترار بعمَله ومنع المنَّة والشعور بالإفضال علىٰ أسياده، أو دوْره في تنزيه وَاحِدة من أعظم الطاعات والقربات، أي البراءة من أعداء الله، تنزيهها عن الشخصانيَّة، وما أوْرثته من غلٍّ تجاه مَن خاض معهم الحروب ودخل المعارك، ونقلها إلىٰ الولائيَّة المحضة التي تحلِّق في سماء الخلوص، وتجعل الغضبة والثورة، والحرب والعداء، والتبري والتولِّي لله وفي الله. كما أعانه ذلك علىٰ تهذيب نفسه وتزكيتها من الزهو والتعالي علىٰ إخوانه الموالين، ممن يرميهم بالتقاعس والخذلان والقعود، وترك مُوَاجهة الضَّالين، ويقذفهم بممالأة العدوِّ ومسايرته علىٰ حساب الحقِّ والدين، مقابل نهوضه هو وقيامه، وتضحياته، وها قد تبيَّن أنها مبالَغات ودعايات تفوق وَاقعها وحجمَها بأضعاف!

هٰكذا كان يُلقي الأحمال من سفينته المثقلة، ويعدُّها للملاحة والإبحار في خضمٍّ لُجِّي، لِهَمٍّ هِقَمٍّ، لا يأمن فيه من جيْشٍ وطوفان، ولا لَجَبٍ والتِطام، أو دُرْدور وموج كالجبال، ورياح تمزِّق قلاع الفلك وأشرعته، وتسقط دَوْقله وتطيح بصاريته... يجمَح ويجنَح، ليتحطَّم على صخور الشطآن، ويغرق قبل الرسُوِّ في المرافئ، والآستقرار على سواحل الأمان.

إنه في منطاد كبير، فارَق وأقلع، لٰكنَّ أكياس الرمل والأوزان المعلَّقة حول مقصورته، تتدلَّىٰ من الحاجز المحيط بها، تثقله وتجتذبه إلىٰ الأرض، وتحُول دون آرتفاعه... أو هي طائرة تتسارع علىٰ مدرج المطار، حتىٰ إذا وَصلت ذروة سرعتها وبلغت أوْج قوَّتها، أقلعت وطارت، ثم آستمدت من الرياح ما يحملها، وآستعانت بها في التحليق حيثما شاءت من الأجواء.

وكانت كلُّ الأمثلة والصوَر التي تتعاقب علىٰ خياله، تقوده إلىٰ ضرورة التخلية، ووُجوب النزع والترك، وإلَّا فلن يبلغ " التحلية " ، ويتحقق له الإقلاع فالتحليق، لينال ما ينتظره في نهاية الطريق، ويَشْتَمَّ من حدائق الأُنس ومرابع الحقيقة، أو يرتشف شيئاً من ذيَّاك الرحيق...

كانت تنتظره " حالة " ، ترفرف فوق رأسه وتحوم حوْله، ترتقب وتتحيَّن لحظة نزولها إليه وحُلولها فيه، ساعة صِفْر يبدأ معها ـ من بعدُ ـ العدُّ لإقلاعه وآنطلاقه في رحلته الكبرىٰ. فالفيض منهَمِرٌ متدفِّق، مُحيطٌ بالغ، إلَّا أن تحجُبه الحجُب وتصُدَّه الموانع... آقترب منه «هب»، وهو يرىٰ تفصُّد جبينه العرَق، من رشَحات الفيض، وقد دنَت فتدلَّت، تحيط به وتلتفُّ، فكأن الجنْيَ آستوىٰ علىٰ سوقه وأينع، وحان قطافُه، فصار يوليه مزيدَ إجلال وإكبار، وآحترام وخفَر، ويحدِّثه بحيطة وحذر!

سأله بلُطف، وطلب إليه بأدب جمٍّ، لكنَّه لم يخلُ من بتٍّ وحزم:

لو التزمتَ، بعد أن تفرغ من أداء ما شئت
من أعمال، أو جعلت في ضمن تضاعيف
أذكارك وأوْرادك، ذكره تعالىٰ بٱسمه الغني:
" يا مغني " ؟!

لم يناقشه «نجيب» في ذلك، ولا سأله، أو ٱستفسر وطلب توضيحاً وتفصيلاً، لعلَّه ما أراد قطع الأجواء التي يعيش، وخرمها بأيِّ حديث يصرفه عن التفكُّر والتدبُّر الذي مضىٰ وٱستغرق فيه، أو أنه كان ينتظر ويرتقب شيئاً من هٰذا الذي جاء به «هب»، فالٱنطلاق في هٰذا القادم الجلَل، والدخول في تلك الرحاب والأُفق الأعلىٰ، لا يكون إلَّا بـ " مفتاح " يفكُّ المغاليق، يزيح اللِزاز ويرخي المزلاج... وها هو يتسلَّمه.

لم يسأله عن شيءٍ في هٰذا " المفتاح " ولا حوْله، من أين تلقَّاه وكيف جاء به، مَن أجاز له توظيفه وٱستعماله، ثم هل خوَّله إعطاءه غيره، وسمح له بنقله وتدَاوُله؟ أم هو من المبذول الذي يلتقطه كلُّ مَن يقع عليه، فلا تدري إذا سلك ونجح، أين يأخذك وعلىٰ أيِّ شيء يفتح؟... اللهم إلَّا العدد؟ سأله كم عليه أن يكرِّر الذكْر؟ فالعدد يرسم المِسلاط، ويحدُّ أسنان المفتاح، أو يبردها ليضبط أحجامها ومواَقعها، ما يهيِّئ ويسمح بدخولها في فراشة القفل، فإذا ٱنطبقت، أدارت البلابيط ورفعتها عن أقماعها، فيفتح.

أجابه: حتىٰ ينقطع النفَس، لا النفَس المتردِّد في الشهقة والزفرة الوَاحدة، بل في تتاليها وتلاحُقها، فينزل بالذاكر الخانق، ويغلبه ثقلٌ يحبس أنفاسه، فلا تعود تتصاعد في صدره وترجع!

دخل «نجيب» في وِرده الجديد فٱلتزمه وما زال منشغِلاً به، يكرِّره ويردِّده، علىٰ لسانه وفي باطنه، يديره في قلبه ويجول به في فكره، ويقلِّبه في روحه، ويعرضه علىٰ معتقده... حتىٰ غاب عن الوَعي وٱرتحل البدن!

خفَق وهوَّم، ثم دخل في الغمض والكرىٰ، فالوَسَن، هزمه " النوم " ، فكأنه غطَّ وهجَع. ولعمري، ما ضرب الرجل علىٰ أُذنه، فغلبه نعاسٌ وطلَبه رقاد، ولا هو نوم عشوة أو سُبات غفلة نزل به، بل " الأنوار " ضربت علىٰ عينيه، فأسبلت جفنيه، وهدَّت قوىٰ وطاقاتُ الملكوت ضعيفَ بدَنه، فٱرتفق وٱشتجر، ثم ٱسترخىٰ وٱتَّكأ، ثم ٱنسدح وٱضطجع، فبانَ وكأنه نائم، فٱنقلبت الآية، وصار الرائي يحسبهم رقوداً وهم أيقاظ، بعد أن كان الفتية، إخوان الكهف رقوداً ويُحسبون أيقاظاً! هٰكذا حتىٰ ٱختفىٰ من الكهف وغاب! كان «نجيب» ـ في الواقع ـ منصرِفاً منقطعاً، مشدوهاً عن كلِّ شيء، إلَّا التوغُّل في حريم سرِّ " الغنيِّ " والنهل من عذب هٰذا الفرات، والٱغتراف من صافي حياضه، مستغرقاً في سَبر أغواره، متمادياً إلىٰ حدود الإمحاء في شُعاع أنواره، والفناء في فيض عطائه... يعيش صراعاً لم يعِشْه ولا عرفه من قبل، بين روحه وجسَده، ولا سيما علىٰ هٰذا الحدِّ من الشدَّة والحِدَّة ، هٰذا ينزع به في مَسارٍ ووُجهة، وذاك يأخذه في أُخرىٰ ونحو قِبلة، ولم يقف الصراع وينته النزاع حين خضع الجسد وٱستسلم، فٱنقاد للروح وتبِعها، إذ ما لبث أن رآها تريد أخذه إلىٰ ما يلغيه وينهيه، يبيده ويفنيه! والمرحلة الأُولىٰ والنطاق الأوَّل أن " يطوي الأرض " وينتقل إلىٰ آفاق سيكون غريباً فيها مستوحِشاً منها، بل لا محلَّ له فيها ولا مَوْضع ولا سنخيَّة تطيق وُجوده وبقاءه هناك! ناهيك بغُربة السبيل ومشقَّة الطريق.

فكيف للجسد أن ينحلَّ، وتتخلخل ذرَّاته حتىٰ يتحوَّل إلىٰ أثير؟ حُزَم أو هالات طاقة، أو يتفكَّك إلىٰ موجات وذبذبات، وينقلب جزيئات متناهية في الصغَر، تطير وتنتقل، ثم تعود لتتكثَّف وتتشكَّل في مكان آخر، في هيكل وجسم ثان يعيد الصورة الأُولىٰ، ولربما في نطاق لا يطيق هـٰذا العنصر الدنيوي! أو هو البدن نفسه، يخترق حاجز الصوت، وقد يتجاوز سرعة الضوء!... إنَّ "طيَّ الأرض" والٱنتقال الخارق أمر هيِّن علىٰ اللسان، سهلٌ علىٰ القول والبيان، وقد يكون في حقيقته كذلك، ميسوراً قريب المنال، من الأَوَّليات وَفق قوانين العوالم السامية، كما هو السير في عالمنا، سواء للإنسان أو لغيره من الحيوان، كلٌّ بحسَبه وشأنه، فالحركة والتنقُّل من أوَّليات وبديهيات العيش والحياة، دبيب في الحشرات، وزحف في الحيَّات، ومشي علىٰ أربع في الثديات، أو طفْر وقفز في بعضها، وخفق جناح وطيران في الطيور، وسبح وغوص في الأسماك والحيتان... إنه من أسهل الأُمور وأيسرها، اللهم إلَّا لعاجز أو كسيح، وذي عاهة مُقعَد.

لـٰكنَّ "طيَّ الأرض" ـ في وَاقعه ـ أمر صاعق مُذهِل، مهول محيِّر، لو التفت المتأمِّل إلىٰ حقيقته وكيفية تحقُّقه! ولا سيما إذا عنىٰ ٱضمحلال الزمن وٱنكماش المكان أو تلاشي الٱعتبار، فتعيش النفس الحقيقة، فلا شيء في الوُجود سواها، ينعدم الزمان والمكان، فيصبح الشيء هنا وهناك في نفس الآن، إذا لا هنا ولا هناك، ولا آنٌ بعد آن! كيف لهـٰذا الكائن المركَّب، والغليظ في جزئه العنصري وجنبته الماهوية والهيولانية، أن يطيق هـٰذا النزوع والٱرتقاء إلىٰ البساطة ونفي التركُّب؟ والدنوِّ والٱقتراب والفناء في الوَاحد الأحَد، بعد كلِّ هـٰذا الأُنس بالكثرة والٱستغراق في الكثرات؟

فالإنسان الذي هو نُسخة نظام الكلّ، وفذْلكَة طبقات العوَالم، يتكوَّن من سِنخين بحسَب العالميْن: سِنْخ بحسَب عالم الطبيعة، وهو هيكله الجسداني أو بدنه الهيولاني، وسِنْخ بحسَب عالم القُدس، وهو جوْهره العاقل، الذي هو نفسه الناطقة المجرَّدة.

وله من جنبتي النُسْخَتين وَلادة في العالميْن، وبحسَب الوِلادتين رِضاعٌ وٱرتضاع على سبيلَين مختلفَيْن، حسِّي وعقلي، وثديا ٱرتضاعه العقليِّ في وِلادته الحقيقية قوَّتاه النظرية والعمَليَّة، اللتان هما: العاقلة للجنبة الحقَّة، التي هي المبدأ القيوم الديُّوم، والعاملة للجنبة التي هي جنبة الهيكل الداثر الهالك، ولبَن ثدي القوَّتين هو نور العلم وبهجة الحكمة.

وكما أنَّ التغذية البدنية والرِّضاع الجسدانيَّ يُنبِت لحماً ويُنشئ عظماً في النسَب الجسماني، ومثمرٌ لحُكم الوِلادة الهيولانية، كذلك الرِّضاع الروحاني، له لحمة النسب العقلاني، وهو في مَن بلغ حدَّ الشبع والتَّمام ونشر الحرمة، يورث الٱتصالَ بالأنوار العقلية القدسية، والٱلتحاقَ بركْب ذوي القدرة والوِلاية.

وقد أقبلت روح «نجيب» بظمأٍ وٱندفعت بشوق ولهفة على هذا الطعام واللبن المرتَضع، فهو وَليدٌ لـمَّا يفطَم، وقد ذاق للتوِّ متعة اللهْس، وعرف لذَّة الملكِّ والمصِّ، ونشوة تلقُّفِ ثدي العقل وضرْع الحقِّ، وٱكتشف أثر الشرب من لبن نور العلم وبهجة الحكمة. وعلى حدِّ تعبير «الميرداماد»، فإن الإنسان لا يُعدُّ من الحكماء ما لم تحصل له مَلَكة خلع البدن الظلمانيِّ، والعروج إلى العالم النورانيِّ، حتى يصير البدن بالنسبة إليه كقميصٍ، يلبسه تارةً ويخلعه أُخرى!

وما زال الرجل يحطُّ ويطير، يعثر ويسير، يجدُّ ويبطئ، يحزن ويسعد، يقرب ويبعد... حتىٰ وَقع علىٰ المستهَلِّ، وأدرك المَطلَع، وأصاب الجادة، وأمسك بالزمام وٱستلم الخطام، فمضىٰ يسير وَقوراً متَّئداً حيناً، ويجدُّ السير ويسرع الخطىٰ أُخرىٰ، ٱنطلق تدفعه لهفة الخارج من التِّيه، العائد من الغربة، ويسوقه شوقٌ مُتيَّمٍ أضناه الفراق وأرهقته اللوْعة، يطوي الآفاق بنَهَمِ فضولٍ شغِف، ويقطع المسافات بسرعة عجِل دَنِف، يخترق الحجب ويزيح الأستار، وَاحدة بعد وَاحدة... حتىٰ دنا وحاذىٰ، وأكثب وأزف، بل أطلَّ وأشرف، وحلَّ وحان.

عندها بدرَت إليه خاطفة من القُدس ٱجتذبته، وأدركته وَمضةٌ من الملكوت ٱختلسته، أخذته لتُخرجه من وكْر جسده، وذهبت به لتفلَّ حَلَقَ شباك الحسِّ من حوله، وتحلَّ عُقَد حِبالة الطبيعة في نفسه، وكلَّ ما يصاحبها ويخالطها من لوَازمها... إلىٰ تجرُّد ونورانيَّة!

خلَع بدنه ورفَض عدَنه ومقا خلَده، ونضىٰ ثوبه، حتىٰ طوىٰ أقاليم الزمان وصار إلىٰ عالم الدهر!

وأول ما رأىٰ حين بلغ الحال، وصار في ذلك العالم، أنه في مِصْر الوُجود، وإذا بجماجم أُمم النظام الجمَّلي من الإبداعيَّات والتكوينيات والإلهيَّات والطبيعيَّات، والقدسيَّات والهيولانيَّات، والدهريَّات والزمانيَّات، وأقوام الكفر والإيمان، وأرهاط الجاهليَّة والإسلام، من الدارجين والدارجات، والغابرين والغابرات، والسابقين والسابقات، والعاقبين والعاقبات، في الآزال والآباد، وبالجملة آحاد مجامع الكون وذرَّات عوالم الإمكان، بقضِّها وقضيضها، صغيرها وكبيرها، ثابتاتها وبائداتها، حالياتها وآتياتها...

وإذاً الجميع زُفَّة زُفَّة، وزُمرة زمرة، بحشدهم قاطبة معاً، موَلُّون وُجوه ماهيَّاتهم شَطر باب كبريائه سبحانه، شاخِصون بأبصار إنيَّاتهم تلقاء جنابه جلَّ سلطانُه، من حيث هم لا يعلمون! وهم جميعاً بألسِنَة فقرهم وفاقتهم، في ضجيج الضراعة وصراخ الٱبتهال ذاكِروه وداعوه، ومستصرخوه ـ من حيث لا يشعرون ـ ومناداوه: "يا غنيُّ يا مُغني"!...[1] وطفِق في تيْنك الضجَّة العقليَّة والصرخة الغيبيَّة، وخَرَّ مغشيَّاً عليه، وكاد من شدَّة الوَلَه والدَّهْش، أن ينسىٰ جوْهر ذاته العاقلة، ويغيبَ عن بصَرِ نفسه المجرَّدة، فيهجر ساهرة أرض الكوْن، ويخرج عن صقع قُطْر الوُجود رأساً! غلَبه المشهد، فخرَّ صعقاً، وما زالت الخَلَسَة تقلبه شيِّقاً حنوناً إليها، والخطْفة تجعله تائقاً لهوفاً عليها، لكنَّ "قدَراً" رجع به، فأفاق من سِنَته فٱجتاز المقام سريعاً وتخطَّاه مبتدراً... ومضىٰ في سبيله، وراح في طريقه حتىٰ حطَّ به الرَّحل في مقام وحضرة بين بين، ليست من الفناء في ذات الحقِّ والٱضمحلال في العقل المحض، والٱنقطاع عن كلِّ حسٍّ وغلظة عنصر وكثرة، ولا هي من الجنان الموعودة بأحكامها ولوَازمها، ولكنَّها أيضاً ليست من أرض التبار وكورة البَوار، وبقعة الزُّور وقرية الغرور.

فلما أفاق...

وَجد نفسه علىٰ شاطئ بحْرٍ ساكن هادئ، كأن لم ترتفع أمواجه يوماً وتتلاطم، ولا أغدف مرَّة وٱعتكر... وقف تغمره مشاعر السكينة، وتحوطه الطمئنينة، ما كأنه كان ـ منذ ساعة ـ في طفرة خارقة، يخوض مغامرة خطيرة، ويجتاز نطاقات عجيبة، ويقحم عوالم مذهلة!

---

(١) ٱقتباس من صاحب «القبسات».

رمالٌ بيضاء، بل فضيَّة، نقيَّة، كذُرٍّ منثور، أو مكدَّس متراكم، فرشوا به الشاطئ ومهدوا امتداد هٰذا الساحل، لا يخالطها حصىً أو مدَر، ولا قذفَ بحرُها الهادئ شيئاً من الأعشاب والطحالب، ولا الصدَف والقواقع، تنغرس فيها القدَم فتعرف اللين والرخاء، دون أن تثقل الخُطىٰ وتنهك المسير، كأنها سجادة فاخرة حيكت، بتقارب عقَد مغارزها وتكاثف نسيجها، من خالص الحرير...

علىٰ هٰذا الشاطئ الجميل، أفاق «نجيب»،

ليجد نفسه في "الجزيرة الخضراء" !

◆ ◆ ◆

(٤)

هذه الجنة لا جنة عاد

ٱنتبه الركب من نومته، وأفاق المسافرون من هجعتهم...

لم يهبُّوا وينهضوا، بل ٱنبعثوا رائبين، كُسالىٰ، خاثري أبدان. ومع أنهم شبعوا، بل أُتخموا نوماً، إلَّا أنهم منهَكون، خارت قواهم وتضعضعت أجسامهم، كأن عبئاً يثقلهم وقيوداً تكبِّلهم...

ٱستيقظوا علىٰ صوت ونداء، أو هو شدْوٌ وغناء، فجاء من أهله، ووَقع في محلِّه... سَقْسَقة عصافير قريبة منهم، مع صفير كوَاسر بعيدة عنهم، سجْع قُمْري وهديل حمام شاهد، مع فتْل بلابل تتلاعب، وتغريد عنادِل تتراقص، يصحبها تنهيد بُوم يرقب ويلحظ، ولغط يمامٍ أو قَطَاً هجَر البراري وٱستوطن الجوار، فعرف لمرَّة في حياته، وفي مكان من هـٰذا العالم الأمان والاستقرار، فصار يغفو هنا وينام! مع دويِّ نحْل يتنقَّل، كأنه يشير إلىٰ كثافة الرياحين وينوِّه بتنوُّع الأزهار، ليلفت إليها الأنظار، فيعجب هـٰذا الوفد الزائر... ولا تدري، لعلَّها طريقتها في الترحيب والاستقبال.

كانت كلُّها مجتمعة، ترتِّل بتنسيق وٱنتظام كـ " كُورال " يؤدي بإبداع، يضُمُّ جوقة منشدين محترفين، و " أوركسترا " أتقن قائدها " المايسترو " توزيع ألحانها ومواقع أداء أعضائها، وأدوار عازفيها ومنشديها، يُسكِت هٰذا ويُطلق ذاك، ويخفض الصوت هنا، ويرفعه هناك. وقد وَاكبها حفيف سرْو باسقات، ودوِيُّ ريح تثير سُعوف النخيل، تصفق، كغَجَرية حلَّت ضفائرها ونشرت شعرها، أرسلته تلعب به الريح، أو راحت تضربه بمنفاخ وتُعمِل فيه آلة التجفيف.

صدىً وترجيعٌ صنعته هٰذه العجماوات، يحكي كلَّ خصائص الصوت الموسيقيِّ الكامل التام، من إيقاع وميزان، ولحن وأوزان، وجِرْس ونغمة، وعذوبة وطبَقة. وقد ٱنبعث في زجل وجاء في هزج حتىٰ أنشأ ألفاظاً وصاغ كلمات! أصواتُ بُكْم خُرس، ورفيف أجنحة، وطنين نحْل، بدَت وكأنها تنطق بلسان عربي مبين، هكٰذا ٱصطفَّت في الآذان، بعد اللحن كلمات، ومع الألحان شدوٌ وغناء!... بل هكٰذا كانت في الحقيقة، لا في ما توهَّمته المسامع وحسبته من فرط ما شنَّفتها عذوبته وأسعَدها إطرابه.

وكان الإنشاد كوراليًا، تدريجيًا تصاعديًا، يلحظ درجة إفاقة القوم من النوم وٱنتباههم، فلم يهجم بعالي نبرة تقضُّ وتزعج، بل ٱنساب بشاعرية، عن حسٍّ متفوِّقٍ وذوقٍ راقٍ، لا تجده إلَّا في روائع الموسيقىٰ العالمية التي كان «نجيب» يراها في القمَّة، وطالما وَاظب علىٰ سماعها وثابر علىٰ ٱقتناء تسجيلاتها!... فكأن ما يُعزف يناهز " الدانوب الأزرق " لـ «اشتراوس»، و " بحيرة البجع " لـ «تشايكوفسكي»، والسمفونية الأربعين لـ «موزارت»، والتاسعة لـ «بيتهوفن» المعروفة بـ " أُنشودة الفرحة " ...

وقد تداعىٰ لـ «نجيب» وخطَر له شغفه بالألحان الكنَسية، وما ٱنشغل به حيناً من المقارنة بين الغربيَّة منها والشرقيَّة، ثم بين إنشاد كنائس الأقباط في «مصر»، ونظيراتها في «لبنان»، وموقع "الصنج" في التراتيل والترانيم، ما يورث أو يوحي بزهادة اللحن وبدائيَّته، أو سوقيَّته وعامِّيَّته هناك، مقابل رُقيِّه وتمدُّنه، وشاعريته وتحضُّره هنا.

ما قاده إلىٰ البحث عن سرِّ بعض الآلات، فتعرَّف علىٰ "الكاسات"، و"الجلاجل" و"المراوح"، و"الملاعق النحاسية"، وكلِّ أدوات الصليل، التي تستعمل في الكنائس القبطية، ولاحَقَ "الصنج" بما يقرب من دراسة، وكيف تجده وتجد نظائره في وَصلات الرقص الشرقي... تحمل الراقصة وَاحداً نحاسياً صغيراً، تربط قطعتيه بإبهامها والوسطىٰ، تُداخِل به وتصاحب المعازف الأُخرىٰ، كما تفعل راقصة "الفلامنكو" الأسباني الأندلسي، أو الموريسكي وَفق اللغة "القشتالية"، ولكن بصنج خشَبي (مغربي، يُسمَّىٰ: كريكو)، يعقده خيطٌ بإبهام الراقص، ليستقرَّ في راحة يديه، فتضرب باقي أصابعه وتطرق جنبته الثانية لتُحدِث إيقاعاً أشبه بالتصفيق، يصاحب دبكة قدميه، وخبط أو قرع حذائه ذي الكعب العالي الأرض أو خشبة المسرح، ويوَازن مدَّ ذراعيه ورفعهما عالياً، كما يفعل "الماتادور" بسيفَيْه، عندما يتخلَّىٰ عن خرقته الحمراء بعد أن ينهك ضحيَّته بالتلويح بها، ٱستعداداً لغرسهما في ظهر الثور بطعنة ترديه وتعلن ٱنتصاره! وكذا ميل قامته وتقوُّسه تقعُّراً، ليحكي الشموخ والأنفة، أو يرجوهما ويدَّعيهما لنفسه وقومه، من فرط ما يلقىٰ «الغجر» من تمييز وٱضطهاد، يغالبه الرقص ويداوي جراحه، أو يسكِّن آلامه ويخدِّر أوْجاعه!

ثم يسري الأمر ـ نفسه ـ لتجده في حلقات الذكر والإنشاد الصوفي، يحملون صنجاً، بحجم كبير، يلزم ضابط الإيقاع كلَّ قطعة بيَد، ويضرب بتناسق وفن، فيحكم حركة الذاكرين وتمايلهم، ويقودهم إلىٰ " الوَجد " و " النشوة " التي يبحثون ويطلبون، معيناً الدفَّ والرِّق (المزهر) علىٰ وَزن ما يتلُون من أهازيج وأشعار أو أوْراد وأذكار.

ولـكنَّ «نجيباً» كان معجباً بألحان ورقصات وأداء المتصوِّفة في «تركيا»، ودوْر " النـاي " و " القيثـارة " في حلقات الـدراويـش هنـاك، أكثر منهـا في «مصر» و«السودان» وبلاد المغرب العـربي، حيث تغلب أدوات القـرع والإيقاع، تتفوَّق علىٰ المزامير والنفخيات والوتريات...

كما كـان يتلقَّىٰ ويسمع ترنيمة " يا مريم أُمي " في كنائس الأرثوذكس في «لبنان» بمزيد إعجاب، ويتلمَّس فيها رقَّة ورُقيّاً لا يجده في غيرها، ولا سيما إذا صاحبتها عذوبة صوت في المغنية وإتقان أداء:

يا مـريم البكر فُقْتِ الـشمس والقمرا
وكلَّ نـجـم بـــأفلاك الـــسماء سرىٰ
يـا نجمـة الصبح شُعِّي في معـابـدنـا
ونـــوِّري عقلنـــا والـسَّمعَ والبـصرا
يـــا أُم يـــســوع يـــا أمـي ويـــا أملي
لا تـهمليني متـىٰ عنِّي الخطـا صـدَرا

والأُخرىٰ " وا حبيبي "، التي كان يرتقبها في الجمعة العظيمة، ويندمج في سماعها، ويصاحبها بتأثر وٱنفعال، فهي الأقرب في مضامينها ومناسبة إنشادها إلىٰ " المرثية "، وما يتلوه خطباء الشيعة ومنشدوهم:

وا حبيبي وا حبيبي...... أيُّ حال أنت فيه
مَن شجاك مَن سقاك...... كأسَ خَلٍّ ترتضيه
يا حبيبي أيَّ ذنب...... قد صنعت أو كرِيه
أنت مجهودٌ جريحٌ...... ليس فيك من شفاء
بنت صهيون ٱنظريني...... غارقاً في ذي اللجج
قد تُركتُ وخُذلت...... والبلا كبدي وَلَج
لا صديقٌ لا ولا من...... أنسبائي مَن خرج
كي يذود العار عني...... ويُسَلِّي المُبتلى

وكان «نجيب» ينتقل في ما يعقده من مقارنة بين تراتيل الكنيسة وأذكار الصوفية، إلىٰ ألحان العزاء وأطوار الإنشاد في الشعائر الحسينية، ثم إلىٰ أطوار تلاوة القرآن الكريم، فمقامات الغناء العربي السبع: " الرَّست " و " النهاوند " و " البيات " و " الحجاز " و " الصبا " و " السيكا " و " العجم " ... وكثيراً ما كان يقف عند اللحن والنغم العراقي، ولا سيما الغناء الريفي الحزين، ويتساءل في نفسه ويتداول مع رفاقه: هل سرىٰ الحزن منه إلىٰ الطقوس والشعائر؟ أم أن العزاء الحسيني وأحزان «كربلاء» هي التي غلبت «العراق»، حاضرة الشيعة وعاصمة التشيُّع، فطبعت كلَّ شيء هناك، حتىٰ الغناء، سرَت فيه وصبغته بهذا اللون؟!

وكان يرىٰ إلىٰ جانب تلك الٱلتقاءات، ولربما ـ في بعض الأحيان ـ التطابقات، ويسجِّل فروقاً وٱختلافات، تُشعِر وتفضي إلىٰ تميُّز في الكُنه والجوهر، عجَزَ عن العثور علىٰ تصنيف علميٍّ له، أو حتىٰ ضابطة تحكمه، فهو ـ في الوَاقع ـ أجنبيٌّ عن الحقل، بعيدٌ عن التخصّص والفن.

ولـكنه كـان يتسـاءل عن الحسْن والقُبح في غير الظلم والعـدل من الأحكام الشرعيَّة، هل يلازِم جوْهَرها أم هو عارضٌ عليها، هل هو من ذاتها أم من صفاتها؟ ليأتي دور الظرف من كمٍّ وكيف وباعث وعلَّة، ومعطَيات وحيثية، قد تقلب قُبح الكذب ـ مثلاً ـ إلىٰ حُسْن يورث إصلاح ذات البين، أو قُبح الغيبة إلىٰ مَشورة تحول دون ٱبتلاء فتاة مؤمنة بالزواج من غير كُفئها. هـٰكذا في شرب الخمر، الذي يعدُّه الشرع من الكبائر الموجبة للحدِّ والحكم بالفسق، ترىٰ القرآن الكريم يعِد به ويمنِّي المؤمنين في قوله تعالىٰ: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَـٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَـٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَـٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّـٰرِبِينَ وَأَنْهَـٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ﴿١٥﴾﴾ (محمد)؟!... قرَنه بالماء العذب الزلال، واللبن الطيِّب، والعسَل المصفَّىٰ، وأدرَجه في النعيم الموعود في جنة الخلد؟

حتـىٰ إذا نضىٰ الإنسان هـٰذا الهيكل الدنيوي والبدن المحدود، وخلع بالموت ثوب الحياة الضيِّق الكَدِر، وترك جسم النشأة المادية الوَضيعة، كبرت فيه الطاقات وعظمت القدرات، فتوسَّعت المدركات... أصبح بصره حديداً يخرق الحجُب وينفذ في ما كان يقصر عنه في حياته الدنيا، وصارت الشامَّة فيه تلتقط الروائح من مسيرة ألف عام من أعوام الدنيا، وأضحىٰ يقوم علىٰ عشرة آلاف خادم مع كلِّ خادم صحفة من ذهب فيها طعام ليس في الأُخرىٰ فيأكلها كلَّها! وغدت المباشرة والجماع بقوة مئة شاب، وعناقه الحورية يدوم سبعين سنة... وما إلىٰ ذلك مما تصف الأخبار في ضروب نعيم البدن وجزائه الموعود. ورضوان من الله أكبر، ينال الخواص ويحظىٰ به الخلَّص، في هياكل تطيقه وقوالب تمكِّنهم من إدراكه والتنعُّم به.

مع كلِّ هـٰذا التطوُّر والاْرتقاء... تبقىٰ النفس البشرية تطلب ضرباً من اللذات يورثها نشوة وخدَراً وغياباً، وتتطلَّع إلىٰ لحظات يغادرها فيها العقل ويزول الوَعي، فيفقد توازنه وينزل به السُّكْر!

وإلَّا فماذا يصنع المؤمن بأنهار الخمر في الجنان؟!

وفي الأقلِّ الأدنىٰ دعْنا نقرُّ بذلك لضعاف النفوس وصغار الهمم، من السعداء الناجين الفائزين الذين زُحزِحُوا عن النار وأُدخِلوا الجنة. غاية ما هناك أن ليس في الجنة ما يوجب وُقوع المرء في لوَازم السُّكْر، ويبليه بتبعات ولوَاحق " ذهاب العقل " وتواليه الفاسدة، من الهذي والعربدة والتعدِّي علىٰ الآخرين وهتك الحقوق وتجاوز الحدود... كونها سالبة باْنتفاء الموضوع، فلا " آخرون " هناك، ولا " حقوق " ولا " حدود "، فالمنعَّم يرفل في محيطٍ كلُّ ما فيه هو في طول مُلكه وتحت سلطانه.

هـٰذا وإن ذهب بعض العلماء ـ في تفسيره ـ ليسلَخ عن الخمر جوْهره ويسلب عنه محل تميُّزه عن سائر الأشربة المباحة، فنزَّه متعلَّق الوَعد الإلهي في الآية الكريمة عن المسكِر، لقوله تعالىٰ: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾﴾، قال: " الغَوْل الإضرار والإفساد، قال «الراغب»: الغَوْل إهلاك الشيء من حيث لا يُحَسُّ به. فنفي الغَوْل عن الخمر نفيٌ لمضارِّها، والإنزاف فُسِّر بالسُّكر المذهِب للعقل، وأصله إذهاب الشيء تدريجاً. ومحصَّل المعنىٰ: أن ليس في ذلك الشراب مضارُّ الخمر التي في الدنيا ولا إسكارها بإذهاب العقل "!... وهـٰذا تفسير ـ كما ترىٰ ـ يسلب الخمر الحقيقة المتبادرة من إطلاقه، ويغيِّر كُنهه وجوْهره، ويجعله شراباً آخر.

وهو باب إذا فُتح، أباح وأفسح للتأويل "الٱستحساني"، فلا يعود ثمَّة إلزام يحكمنا لإرجاع الضمير ـ مثلاً ـ في "يحييها" من قوله تعالىٰ: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ۝٧٨ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ۝٧٩﴾ (ياسين)، إلىٰ عظام الدنيا، والنشأة التي يتوجَّه فيها ظاهر القرآن ومتبادَر لَفظه إلىٰ مخاطَبيه، ما يتهدَّد القول بالمعاد الجسماني، وينال من ثوابت العقيدة وضرورات الدين.

ومن هنا يرد السؤال عن الموسيقىٰ والغناء والسماع...

ويُتلقَّىٰ الطرب وتُفهم النشوة والخِفَّة التي تعتري المرء من سماع مدائح «النبي» ﷺ و«أهل بيته» الأطهار عليهم السلام، حين يكون الأداء بصوت عذب ولحن جميل بديع، وأطوار تُشنِّف الأسماع، وكذا ما يعتري سامع رثائهم الشجيِّ، من البكاء والنياحة التي قد تبلغ الصرخة والفجعة، والإقدام علىٰ ما يخرجه عن الوقار والٱتزان، ويدخله في الذهول والجزع، حتىٰ إذا رآه الغريب ظنَّ به الجنون وذهاب العقل!

ما يقود إلىٰ فهم والتقاط ٱختلاف جوهريٍّ بين "الألحان" الإلهية وبين الموسيقىٰ الشيطانية، وإن تطابقت في الجِرْس والوزن والنغمة، وٱشتركت في السلَّم والمفتاح، والأداء والمقام، لكنَّ هذه ترقىٰ بأهلها إلىٰ السماء، وتلك تأخذهم في حضيض الخدَر والنشوة والسكر الآثم... والتمييز بينهما ملَكَةٌ عصيَّة علىٰ كثيرين، وستبقىٰ خفيَّةً، لن يدركها ويُحكِمها ويتمتَّع بها إلَّا خاصَّة الخوَاص، فيفرِّط بها المتحجِّرون الأغبياء، ويُفرِط الإباحيُّون المتهتكون، أو المتهوِّرون السفهاء، وهي ـ في وَاقعها ـ تمضي في حركة منظورة مَرعيَّة، وتتقدَّم بما يخدم الدين ويرفد المسيرة بما تحتاج.

كان «نجيب» معنيّاً بهذا الحقل، مُلاحِقاً ومُتابعاً له، بل باحثاً ودارساً، وحريصاً على نتائج البحث فيه، حرصُه على نتاجات و إصدارات أربابه، نقدهم وتوجيه مَن يرجع إليه منهم، يستأنس برأيه ويسترشد بنُصحِه... ومما خلص إليه في بحثه، أنَّ من النغم واللحن ما يعين الشيطان وينشيه، مما تجده في مجالس اللهو والطرب ونطاقات الفسق والفجور، تخدمه وتخلق له الميدان الذي ينطلق فيه وتفسح له ليلعب بالأرواح ويعبث بالأنفس! ومنها ما يخدم ألَق الروح وسموِّها، تحلِّق بسامعها في سماء القيَم وتعينه في آفاقها، مما يكون في عذب تلاوة القرآن وجميل الذكر بمدح «أهل البيت» عليهم السلام وحَسَن التغنِّي بكمالاتهم، ثم في شجيِّ تعديد مصائبهم و إنشاد مراثيهم.[١]

---

(١) للعلامة «الشعراني» تعليقة لطيفة على ما ذكره «الفيض الكاشاني» قدِّس سرُّه في ‹الوافي› حول الحديث المروي في ‹من لا يحضره الفقيه›:

سأل رجل «علي بن الحسين» عليه السلام عن شراء جارية لها صوت، فقال: ما عليك لو ٱشتريتها فذكَّرَتك الجنة. يعني بقراءة القرآن والزهد والفضائل التي ليست بغناء، فأما الغناء فمحظور... إلى آخر بيانه قدِّس سرُّه.

وعلى هذا البيان وما تلاه حاشية لـ «الشعراني» جاء فيها:

وقوله (أي «الفيض») " الرخصة في ما لا يتكلم بالأباطيل " مذهب «الشيخ» (الطوسي) في ‹الٱستبصار›، وهو الذي ٱختاره المصنف («الفيض») مما ٱستحسنه بعض المتأخرين وٱستبعده آخرون، وكلام مَن ٱستبعد، مبنيٌّ على كوْن الغناء مطلقاً حرام، وإن كلَّ صوت محلَّل فهو خارج عن الغناء موضوعاً.

والذي يظهر لنا من تتبع كلام العرب وأشعارهم، وعبارات الفقهاء وأهل الأدب وغيرهم، أن الغناء ٱسمُ مطلَق الصوت، أو لكلِّ صوت يرتفع ويرجَّع فيه، وإن لم يمِلْ إليه الطبع (وتلتذ به الأُذن)، فهو نظير القوْل والسماع، فالقوْل يطلق على كلِّ كلام يُتكلَّم به، وقد يختصُّ في بعض العبارات بالغناء المطرِب. ويُطلَق " القوَّال " على المغنِّي، وروي أنَّ الأنصار قومٌ يعجبهم " القوْل " أي الغناء. وكذلك " السماع "، هو ٱسم لٱستماع كلِّ كلام وصوت، وقد يخَصُّ في ٱصطلاحهم بالغناء وسماعه، كما قيل: " رُبَّ سُماع حسَن سمعته من حسَن ".

←

←

فكما أن القوْل والسماع لغة أعمُّ من المحرَّم، كذلك الغناء ومدُّ الصوت أعمُّ منه، وليس مطلق الغناء أي مطلق مدُّ الصوت حراماً، ونظيره الشراب، فإنه في اللغة كل ما يُشرب، وليس حراماً، وقد خُصَّ في بعض الأصطلاحات بالمسكِر، وهو حرام. فكما يجب تقسيم الشراب إلىٰ محرَّم ومحلَّل، كذلك الغناء، أي مدُّ الصوت، فيقال الغناء والسماع والقول قسمان، قسم محرَّم وقسم محلَّل، إلَّا أنه غلَب اللفظ علىٰ القسم المحرَّم. نظير البدعة، فإنها ٱسمٌ للشيء الحادث، وغلبت علىٰ المذموم منه. قال الشاعر في حمامة:

إذا هي غنَّت أبهت الناس حسنها * وأطرَق إجلالاً لها كلُّ حاذق

ولا ريب في صحَّة إطلاق التغنِّي علىٰ صوت الحمام، مع عدم حرمته والألتذاذ بصوته، وصوت سائر الطيور، ولا ريب أيضاً في صدق الغناء علىٰ النوح والمراثي. وتأثير الصوت ليس خاصاً بالشهوة قطعاً. قال «إبراهيم الموصلي»: إذا تغنَّيت بالمديح ففخِّم، أو بالنسيب (الغزل) فأخضع، أو بالمراثي فأحزن، أو بالهجاء فشدِّد.

قيل أطيب الغناء ما أشجاك وأبكاك، وأطرَبك وألهاك، وليس مخصوصاً بالبكاء في العشق واللهو، بل في المراثي أيضاً. وقد حُكي عن العارفين بهذا الشأن أحوالٌ غريبة وأعمال عجيبة منها، أن «يعقوب بن إسحاق الكندي» لعب بالعود عند مريض مُشرف علىٰ الموت، فتهيجت فيه الحرارة الغريزية، وقعد وأوصىٰ بما أراد، ثم لما زال أثر الغناء سقط ومات. وروي أن بعضهم كان عنده لحنٌ منوِّم، وبعضهم كان يغني بلحن يثير الحماسة ويحمي الغيرة في الحرب، وبعضهم يوجِد الخوف في العدو فيهرب. وبالجملة لتركيب أنواع النغم علىٰ أنحاء مختلفة تأثير في النفوس، ولا يمكن أن يقال أنَّ كلَّ صوت له تأثيرٌ حرام، ولا أن كلَّ صوت حسن بتركيب نغماته يميل إليه الطبع حرام، لما قد سبق (في كتاب الصلاة) من قراءة سيدنا «السجاد» عليه السلام وٱجتماع الناس لصوته.

وقال «النبي» صلى الله عليه وآله لبعض الناس: "أُعطيت من مزامير «آل داود»"، لما سمع قراءته القرآن بصوت حسَن. وقال: "مَن لم يتغنَّ بالقرآن ليس منَّا"، وقد سبق أن «الباقر» عليه السلام أوْصىٰ بمالٍ للنائحة تنوح عليه أيام «منىٰ»، والنوح لا يخلو من صوت بلحن شجيٍّ. والحِداء للإبل معروف، ولم يمنع منه أحَد، مع أنه مركَّب من أصوات ونغمات علىٰ نحوٍ يؤثر في الجملة، مع صدق التغني والغناء علىٰ جميع ذلك. فلا بدَّ (لـ «الفيض») أن يذهب مذهب «الشيخ» في ‹الأستبصار› ويحمل المنع من الغناء علىٰ مصاحِباته، لا علىٰ نفس الصوت من حيث هو صوت، أو تخصُّ الحرمة بنوع خاصٍّ من الألحان، وهي ما ترغِّب في الحرام وتبعث عليه، كتهييج الشهوة، والرغبة في شرب المسكر، واللهو والفساد، أو يثير الغيرة والحمية لقتل نفس محرمة، وإثارة فتنة نائمة، فتكون حراماً لأنها سبب الحرام، وهو المنصرف إليه من إطلاق الأحاديث المانعة، وعبارة الفقهاء الأقدمين.

←

وأما الألحان التي توجب الرغبة إلىٰ الله والعبادة، وترك النظر إلىٰ الزخارف الفانية، والحزن علىٰ المظلومين من «آل محمد» صلوات الله عليهم أجمعين، أو بيان مناقبهم، بلَحن يوجب تأثيرها في القلوب، فليس من المحرَّم في شيء، فهي نظير الصوت الحسن في القرآن. وحكىٰ «الراغب» في كتاب (المحاضرات) أن «ماسرجويه» (وهو طبيب وفيلسوف عراقي يهودي، عاش في القرن السابع الميلادي. نشأ في «البصرة»، وطبَّب «عمر بن عبد العزيز». وقد نقل «ماسرجويه» بعض مؤلَّفات الفيلسوف السكندري «إهرن القس» من السريانية إلىٰ العربية) بكىٰ من قراءة «أبي» رضي الله عنه (القرآن)، فقيل له كيف تبكي لكتاب لا تصدِّق به؟ فقال أبكاني الشَّجَا. وقال «إسحاق الموصلي»: " أمْرُ الصوت عجيبٌ، منه ما يُسرُّ سروراً يُرقِص، ومنه ما يُبكي، ومنه ما يُكمِد، ومنه ما يزيل العقل حتىٰ يغشىٰ علىٰ صاحبه، وليس يعتري ذلك من قبل المعاني، لأنهم في كثير من الأحوال لا يفهمون " !

أقول : ما يُسرُّ سروراً يُرقِص هو الذي ينصرف إليه (التحريم) المطلَق، فإنه الذي كان مكسَباً (مهنة وصنعة) لجماعة يأخذون عليه أُجرةً ويسمون بالمغنِّي والمغنِّية، وإما ما يُبكي، فإن كان نظير بكاء العشَّاق وأهل اللهو في السُّكر، فهو أيضاً حرام، وإن كان في النوح والمراثي والمواعظ وذكر الجنة والنار، فهو محلَّل، ولا ينصرف إليه المنع عن الغناء في الأحاديث، وإن أطلق عليه لفظ الغناء في اللغة.

ثم إن فُرِض ـ نادراً ـ أنَّ بعض الألحان قد تُستَعمل في مجالس أهل الفسوق، وقد تُستَعمل في المواعظ والمراثي، فلا نضايق عن الحكم بالحرمة في الأول وعدمها في الثاني، وإن فُرِض أن لحناً لا يناسب القرآن والدعاء والمواعظ أصلاً، بحيث لا يمكن أن يغني به أحَد إلَّا ويقصد به اللهو والفسوق، وإن زعم أنه لم يُرِد اللهو، لم يقبل منه، فحرام في العبادات، وإن لم نقل بحرمة الغناء من حيث هو صوت، فإنه ٱستخفافٌ وتوهين للقرآن والموعظة. وقد وَرد في الحديث الأمر بقراءة القرآن بألحان العرب لا بألحان أهل الفسق.

وقد تبيَّن بما ذكرنا أنه يبعد كل البعد أن يتحقق الغناء المحرَّم في مجالس القرآن ومراثي «أبي عبدالله الحسين» عليه السلام وفي مجالس الذكر والوعظ، لأن الألحان المستعملة فيها ليست لتهييج الشهوة، ولا تناسب الفسوق، ولا يقصد بها الفساد، بل توجب الحزن علىٰ مصائب «آل محمد» صلى الله عليه وآله، وهو أمرٌ مندوب إليه، وإن فُرِض أن راثياً ٱختار لحناً من ألحان أهل الفسق، سُخِر منه وضحِك قطعاً، لعدم المناسبة وٱستهزاء الناس به، حتىٰ الفسَّاق، وتقوَّض عليه مجلسه، وبارت صنعته، نعم إن ٱختار أهل الفسق في مجالسهم آية من آيات القرآن أو شعراً من المراثي، وغنُّوا به لهواً بلحن يناسب الرقص والعزف كان حراماً البتة، فهو لهوٌ بألفاظ القرآن لا قرآن بألحان اللهو. ■

ها هو «نجيب» الساعة يسمع وَاحداً من هٰذه الألحان السماوية، بل الملكوتية العرشية... أخذه إلىٰ التهليل والتكبير، وقذفه في التمجيد والتقديس، وألزمه الحمد والتسبيح.

لحن جميل بديع، محفوف بمَهابة تردع الطرب، وتثني السامع عن النشوة والخدَر، وإن أخذته إلىٰ الأُنس واللذة، والبهجة والغبطة، لٰكنها تقف به هناك، فلا تتقدَّم... ولا سيما أنه صار يسمع من بين الأنغام أصواتاً، ويلتقط من أنحاء اللحن كلمات! فهٰذه الأطيار، بل هٰذه الفرقة الموسيقية لا تعزف فقط، وكورال "العجماوات" الكبير المصاحب لها لا يشدو فحسب، بل هنا كلمات تُنطَق وأُنشودة تُغنَّىٰ.

هٰذا ترتيلٌ جماعيٌّ يملأ الفضاء، صوت يتردَّد مع نبض وأنفاس الكائنات، فتخال كلَّ شيء يهتف ويجيب ويردِّد معها بهدوء، كأنه يناغي نفسه: «علي»، «علي»...

«علي»، «علي»، «علي»...

«يا»...!

وقد تميَّز الهاتف عن محض الذكر والوِرد، في نغمته ولحنه، وأنه يلقىٰ عن نشوة، أو كأنه يفعلها ويورثها في الأشياء، فتتمايل معه الأغصان، ويدفُّ اليمام، وتصفُّ العقبان! بإيقاع ووَتيرة ونسَق، سبق لـ «نجيب» أن سمعه، لٰكنه عجز عن التذكُّر متىٰ، والتحديد أين؟!

فـ «علي» الأُولىٰ والثانية تفصلهما ثانيتان أو ثلاث، لتعقبهما «علي» ثلاث مرات متتاليات دون فصل، ثم «يا»... علىٰ نغمة غريبة تعجز عن تصنيفها، فهي أقرب إلىٰ "مارش" عسكري، يخامره فخرٌ ونَسيب!

كلمة وَاحدة... لا بيت ولا قصيدة، لا مخشوبٌ مُرتجل ولا حَوْليٌّ منقَّح، ليست من "زهديَّات «أبي العتاهية»" ولا "حماسيَّات «عنترة»"، لا من "اعتذارات «النابغة»" ولا "خمريات «أبي نواس»"، لا من "لطائف «كُشاجِم»" ولا حتىٰ من "هاشميَّات «الكميت»".

كلمة طوَّعت كلَّ شيء، حتىٰ أخضعت الأجواء هنا واسترقَّتها، فما ملكت الأشياء إلَّا أن تردِّدها طيِّعةً، وتتغنَّى بها ممتثلة، وقد جاءت كفصل تالٍ للضباب الذي كان يلفُّ الفضاء، فانقشع إلىٰ صَحْوٍ، بعد أن أوْرث المكان ما يحتاج من نداوة... والحقُّ أنَّ الضباب لم ينقشع ولا تبدَّد، بل انزاح وأفرج، مالَ وابتعد، تراجع وانحسر إلىٰ الأُفق الأبعد، هناك، إلىٰ أطراف الجزيرة ومحيطها المتاخم للبحر، ليصنع سُوراً ويرفع حائطاً، يبني سدّاً ويرسي جداراً، يطوِّق الجزيرة ويحوطها، يغشي أبصار المبحِرين، ويضلِّل الربابنة والملَّاحين، ويدفع المتطفِّلين والمغامرين، ويصرع المعتدين المتجاوزين. وهو حاجزٌ يستطيل في عرض الأُفق وعلىٰ مداه، فإذا بلغ حداً من العلو والارتفاع، فقَدَ شكله الكثيف، وتلاشىٰ لونه وزالت غلظته، ولم يعُد يظهر ضباباً ويتشكَّل كسديم، وصار شفَّافاً لا يحجب الأُفق والمدىٰ الأعلىٰ... ولكنَّ "خطَّ الحماية" أو "النطاق الدفاعي" و"الساتر الرادع"، يرتفع ـ في الواقع ـ ويعلو إلىٰ عنان السماء. وقد لاحَ من تكاثف الضباب وتراكُمه وظهرت في غماره، كما بان في السماء الصافية التي تعلوه، وَمَضاتٌ خاطفة، ولمعت بروقٌ، كأنَّ ضرباً من "الطاقة" يكتنف هذا النطاق، وقوَّة ما تكمن وتُختَزن فيه، تذود عن الجزيرة وتحميها، تصعق المتوغِّلين والمتسلِّلين، وتردع الغزاة المهاجمين، وتطرد وتنفي المندسِّين.

إنه " حقل ألغام فضائي " ، لا على نحو الحقول الأرضية العسكرية، التي يزرعون أو يبذرون فيها الألغام، تكمن للمتوغِّلين وتخاتل المتسلِّلين، فإذا وَطأت إحداها قدَم أحَدهم، ٱنفجر به اللغم وصرعه، وإن أسعفه حظُّه ٱجتاز الحقل وبلغ برَّ الأمان... بل هو نطاق مُصمَت لا فرصة لٱختراقه ولا سبيل لتخطِّيه، لا بالإصرار والقوَّة ولا بالحظِّ والصدفة، وما يفسح للتجربة والمحاولة! كتلة سديميَّةٌ تتراءىٰ وَسط البحر، بل في غماره وعبابه، فتملأ ـ بمحض ظهورها ـ قلوب الناظرين رعباً، وتدفع السفن للٱبتعاد والهروب، حتىٰ إذا جازف أحدهم وغامر، تلقَّاه الطوفان والدردور، وٱبتلعته الأمواج وضربته الأعاصير، فلا يُعلَم له مصير!

ٱنقشع الضباب وٱنجلىٰ السديم، لينساب " الهاتف الملكوتي " مع النسيم، محمولاً علىٰ بساط نضيد وفراش وَثير، متَّكِئاً علىٰ وَسائد ومحاسِب، أو مستوياً علىٰ طَنافس ونمارق. فخامةٌ ملَكية، بل عظَمةٌ ملائكية، ٱحتفاءٌ يليق بالحال والمقام، وتمجيد ينزِل الذكر منزله، وأداءٌ يُدرِك الخطر ويقدِّر الأمر ويثمِّنه: «علي»، «علي»...

«علي»، «علي»، «علي»... «يا»...!

إنه لحن الصباح، وأُنشودة ٱستقبال يوم جديد، بل " كلمة السر " التي تصنع الأشياء! طِلَّسْم ومفتاح، عوذة ورُقية، تتلىٰ، فتخمد سُرُج الليل، ويشرق النهار وتشعُّ الأنوار... وبها تنساب العيون، وتجري الأنهار، ومنها ترتوي الأشجار، وتينَع الثمار. تسري فتبث في الكائنات الشوق إلىٰ الكمال وتجدُّد الآمال، وتخلق اللهفة إلىٰ اللقاء، وترسِّخ اليقين بالحقيقة العظمىٰ المنتظَرة، وحتمية " الظهور " المرتقب، وتحقُّق الوَعد الإلهي في المآل.

هنا تأخذ الحقيقة مداها، ينفذ سلطانها وتبسط يدُها، فكلمة الحكمة هٰذه، العليا منها والدنيا، تلزم كلَّ شيء وتضعه في موْضعه، تسبِّب الأسباب، وتهب الأُمور طبائعها، وتأخذها لتُؤدِّي دوْرها وما سُخِّرت له وخُلقت لأجله... فتتسلَّمها فرِحَةً جذِلة، وتردِّدها مسرورةً مرحِّبة.

إنها الكلمة العليا، وٱسم الله الأعظم، سرُّه المكنون بين الكاف والنون، الذي صدر عن قدرته وظهر من جلاله وتجلَّى من عظمته، أُلقي في صبح الأزل، وحلَّ في صقع ووَقع في محل، فتفجَّرت الممكنات وتدفَّقت الكائنات على ذكره، ونشأت وأُلبست حُلل الوُجود ببركته ويُمنه...

ها هو الساعة يُردَّد ذِكراً، ويُغنَّى أُنشودةً ولحناً.

لوَهلة، مع ٱنقشاع الضباب وٱنكشاف المنظر، حسبها «نجيب» جزيرةً ٱستوائية، لرِقَّة شاطئها وصفاء مياه ساحلها، ولأشجار جوز الهند، ونخيل البامبو... ولٰكن لَفتَه وُجود التنوب (الشوح) وخليط من الصنوبريات، كالأرْز والعرعر الفينيقي، التي لا تكون إلَّا في المرتفعات والغابات الجبلية في أُوروبا أو إقليم البحر المتوسط. كيف ٱجتمع هٰذا وذاك في بيئة وَاحدة؟ كما لَفته الطقس المعتدل، بنسماته العليلة، مع مَيْل إلى البرد المنعش، البعيد من رطوبة البلاد الٱستوائية وحرِّها.

ومع اليقظة التامة، والٱنتباه الكامل من النوم، وٱستجماع شتات النفس والقوى، تنبَّه «نجيب» وسجَّل نشازاً في المشهد! بين هٰذا المنظر الخلَّاب، واللحن المناسب، والمكان الساحر، والأجواء المفعمة بالجمال والفخامة... وبين حالهم، وما ٱعتراهم من آثار السفر والإنهاك، وظهر على أبدانهم وطبَع وُجوههم من وَعثاء الطريق.

فقد شعثت اللحىٰ وشوَّعت، حتىٰ كأن شوكاً نبَت في أسفل الذقون يمتدُّ إلىٰ الأعناق، وطالت الشوارب حتىٰ غطَّت الشفاه، ونبتت حصيصة الأُذن وخرج صملاخها (قشورها وشمعها)، وتلبَّد شعر الرأس وجعد، من ترك الٱمتشاط والتسريح، ونمَت الأظافر حتىٰ طالت عن الأنامل وتقوَّست... ومنها عرف «نجيب» أو قدَّر كم لبثوا في الكهف؟ وكم ٱستغرقت رحلتهم إلىٰ هـٰذه الأرض؟ فهو يحلق شعره فلا يتَسبَّد قبل شهرين، ويقلِّم أظافره فلا تطول وتبلغ أوَان التقليم إلَّا بعد أُسبوعين، وهي تبدو الآن لم يطلها إصلاح، ولربما ٱمتد إهمالها أشهراً ثلاثة! ولـٰكن الغريب أن لا درَن من وَعثاءٍ ولا وَضَر، ولا نتَن من تعرِّق ولا سهَك؟ ولا شيء مما يصاحب الجهد والعناء، ويلازم مشاق الطريق ويلحق السفر الطويل، وما ينبغي أو يفترض أن تورثه وتخلِّفه أشهُرٌ قضاها أحدُهم بلا تنظُّف وٱغتسال، ومن غير تبديل لباس وتجديد ثياب!

كانوا ما يزالون وُقوفاً في المكان الذي وَجدوا أنفسهم قد حلُّوا فيه من هـٰذه الجزيرة حين ٱستيقظوا وأفاقوا، لا يدرون ماذا يفعلون وكيف يصنعون، وما هي الخطوة التالية في رحلتهم؟ ولم يكن «رع» أحسن حالاً من باقي رفاقه، علىٰ الرغم من خبرته وسابقته، فقد كان هو الآخر مبهوتاً وَاجماً، لا يملك حَوْلاً ولا يحار فعلاً...

وبينا هم في هـٰذا، إذ ظهر لهم رجل...

شابٌ حَبَا للأربعين، قصْدٌ بين السمن والهزال، رشيق القدِّ، معتدل القامة، سمح الوَجه، طلِق المحيَّا، حسنُ الهيئة، لك أن تقول عنه: كامل الخلقة، تام الصفة، حتىٰ أنه فاق «هب» وَسامةً ومَلاحة!

متأنِّق في ملبسه، بثياب تبدو فاخرة... لكن دون بذخ وترف،
تورث مرتديها هيبة وتكسيه خفراً... لكن بلا زهْوٍ أو كِبر،
متهلِّلٌ مشرق... ولكن المتوسِّم الحصيف، يقف في داخله على مسحة حزن ويقرأ في عمقه المضمَر كآبةً، وكأن هذا البِشْر والطلاقة هي من فروض الاستقبال ووَاجبات الضيافة، ولوَازم الاحتفاء والترحيب، ونفي الوَحشة عن الغريب.

والملفت أن «نجيباً» لم يضطرب لمرأى الرجل ولا وَجَل، كما فعل حين التقى الرهط في «فالوغا»! لم يزل عنه الروع ولم يسكُن ويطمئن إلَّا بعد أن عرَّفوا أنفسهم وبيَّنوا قصدهم وكشفوا أمرهم، ولا ذهبت وَحشته منهم، فألِفهم إلَّا بعد ساعات من التحاور والتفاهم... فهل "انتقال" الأجسام والسفر الذي تمَّ للتوِّ، صنع "نقلةً" في الأرواح وتوسُّعاً في القوى النفسية والطاقات؟ أم لأن القادم إنسيٌ، في حقيقته ووَاقعه، لا شكله ومظهره فحسْب، فلم يورث مَرآه خوفاً ووَجلاً، ولا سبَّب هلَعاً وفرَقاً؟

وقد جاء في حشد ولُـمَّة... ولكن لم يظهر منهم أحَد! والالتفات إلى وُجود مصاحبين له، لم يكن محض شعور ومجرَّد إحساس، ولا هو مشاهدةٌ ورؤيةٌ بالعين! بل حالة بين الحالتين، كأن الجمع المحيط به، أو الفوج المنتظم خلفه، ظهر للحظةٍ ثم توارى واختفى فما عاد يُرى!

بادَرهم بالسلام، ووَقف على مسافة منهم، وقد ارتسمت على شفتيه بسمةُ ترحيب، ثم تقدَّم تجاه «نجيب» ومدَّ يده مصافحاً، حتى إذا صارت يمينه في راحته، قبض عليها وضمَّها بكفَّيه، وأخذ يضغط عليها، يدلكها ويفركها، يظهر لمصافِحه المودَّة، ويوليه مزيد احترام وفائق محبة.

وكان " شيءٌ ما " يرشح من يد الرجل، يتخلَّل بشرة «نجيب» ويسري في بدنه، مادةٌ غير محسوسة، لكنها لا تنتقل وتسري إلَّا باللمس والٱحتكاك، لا عبر الأثير أو تطايرٍ في الهواء.

وهنا ظهر من سكَّان " الجزيرة " أو الجمع (الخفي) المنتظم خلف الأول، ثلاثةٌ آخرون، قدموا نحوَهم، توَجَّه كلٌّ منهم إلىٰ وَاحدٍ من أصحابه: الجني «عيص»، والآخران السماوِيَّان «هب» و«رع»... ومن عجَب أنهم صافحوهم وعانقوهم! وكان «نجيب» يحسب أن ذلك لا يكون، لفكرة قرأها أو سمعها عن ٱستحالة التلامس مع الجن، وأنه إذا وَقع فسيُورث ضرراً فادحاً يبلغ الٱحتراق والهلاك في بعض الأحيان، وهو ـ في أدنىٰ درجاته ـ الباب أو الطريق إلىٰ الوقوع في " المسِّ " ، وقد لاحظ ـ من بداية لقائهم به في هٰذه الرحلة ـ أنهم يتجنَّبون الملامسة، كما يستغنون عن الطعام والشراب! ما رسَّخ الفكرة في نفسه.

ظلَّ الرجل ـ الذي عرَّف نفسه بـ «عبدالحميد» ـ ممسكاً بيد «نجيب»، وراح يماشيه، وأخذ يلاطِفه ويتجاذب معه أطراف الحديث، يسأله عن أحواله، ويذكر له بعض أصحابه وأقربائه، وقد عدَّدهم بأسمائهم وعيَّنهم بأشخاصهم!... تقدَّم به خطوَات، فٱلتفت «نجيب» إلىٰ رفاق سفره وقد بدا أنه ٱنفصل أو سينفصل عنهم، فقال له الرجل:

دعهم، إن لهم من يتولىٰ أمرهم، وسأكون أنا مَن يرعاك هنا ويقوم بخدمتك، سيأخذونهم إلىٰ أماكن أُخرىٰ تخصُّهم، سيتفرقون هم أيضاً، ويؤخذ كلٌّ إلىٰ وُجهة مختلفة.

: ألن نلتقي «الإمام» عليه السلام؟!
: " إنهم " ينظرون في الأمر، لم يُبلغوني شيئاً بعد! دعه يأخذ طريقه ويطوي مقدماته، وخُذ أنت بأسبابه، فإذا آنَ وحان، كنت على أُهبةٍ، ولم يعِقك عائقٌ، وعلى أية حال فإنَّ هذا الأمر، لا يكون إلّا فجأة وبَغتة، وقلَّة مثل «علي بن مهزيار»، يُضرب لهم ميعاد!
: مَن " هم " ، الذين ينظرون في الأمر؟
: سترى وتعرف. فهذا مما كُلِّفتُ أن أكشف لك عن جانب منه، وأُطلعك على طرف من أطرافه. ستعرف كيف تُدار الأُمور ويُتَّخذ القرار و " تُصنع الأقدار " ...
حيَّاك الله يا «نجيب» وبيَّاك، وعافاك وحماك، لقد طال ٱنتظارنا وشوقنا إليك... لم أبطأت عنَّا كلَّ هذا؟
: وهل كان لي أن أُسرع أو أُبطئ؟
: كنتَ قد رفعتَ بعض العرائض والرسائل وكتبت " رِقاعاً " ، أوْدَعت وَاحدة ضريح «المعصومة» في «قم»، وأُخرى ضريح «أميرالمؤمنين» في «النجف»، وألقيت ثالثة في بحيرة «هامون» في «سيستان»...

ذكرت فيها حاجات، وشكَوت أحوالاً، لك ولبعض ذويك ومتعلقيك، ومَن يهمُّك أمره، ولـٰكنك لم تطلب مرَّةً التشرُّف باللقاء!

: صـدقت، إي والله، " شغلتنـا أمـوالنـا وأهلُونا " ، كالأعراب!

: حاشاك، كرَّمك الله عن كلِّ دنيَّةٍ وعار... بل غلب القحطُ والجدَب، فألِفتم الغثَّ والكدَر، وطال الصدىٰ واْشتد الظمأ، فصار يرويكم الأُجاج، وضاقت الأرض ومنعت السماء، فاْنقطع الرجاء. لقد غلبكم اليأس، شغلتكم " البدائل " وألهتكُم، فسهَوتم وغفلتم! ولـٰكن رعاية «المولىٰ» عليه السلام لا تنقطع، وكرمه وجُوده سابق، وعطفه ولُطفه غالب...

ها قد بلغت المنىٰ وصرت في الحمىٰ.

ألست تلتزم تحصين نفسك كُلَّ صباح؟

: بلىٰ والله، لا أترك " أصبحت اللهمَّ معتصماً بـذِمـامك المنيع الـذي لا يـطـاوَل ولا يحاوَل... " في تعقيبات الفجر.

: نعم، نِعم ما تفعل. ما زلت في الحصن الحصين، حتىٰ صرت في العرين...

: الحمد لله ربِّ العالمين.

: ألم تنهض بالدفاع عن حقِّهم، وخُضت المعارك للذود عن مذهبهم؟... قاسَيت من أعداء فضائلهم وجاحِدي مقاماتهم، وعانيت من مُناوئي شعائر عزائهم ومحاربي أسباب تعظيمهم؟

: إن شاء الله أكون ممن فعل.

: إن مقولة " نصرتَنا فنصرنَاك " قائمةٌ دائمةٌ مستمرَّةٌ لا تتخلَّف، مَن ينصرنا ننصره، ونحميه وندفع عنه، ونجازيه! وهذا السفر من مقتضيات الحماية والنصرة، والربط على القلب، ثم الإتحاف والإكرام والجزاء.

لم تكن إلَّا خطوات طُوِيت في لحظات، حتىٰ ظهر لهما صرْحٌ وبان بناء، لم يكن قصراً منيفاً أو بناءً شامخاً، لكن آثار العظمة والفخامة كانت تجلِّله وتكلِّله، يفترش الأرض أمامه وحوله نجيلٌ نضِر، فاقع في خُضرته، لم يكن بستاناً أو حديقةً مزروعة، بل نبتاً بريّاً جميلاً، يغطي الأرض هنا علىٰ ٱمتداد النظر، ومنها الربوة التي قام البناء وٱرتفع الصرح عليها. أمامه بهْوٌ فروَاق، يقف علىٰ بابه غُلامان، كأنهما لؤلؤٌ مكنون، في لباس وهيئة الخدَّام، ألقَيا علىٰ «نجيب» التحية ورحَّبا به بحفاوة، وأدخلاه الدار...

وإذا بغيدٍ فاتنات، خُود حسناوات، باقةٍ نضِرة متلألئة، لا يعدين أن يكنَّ " حُورٌ مقصورات في الخيام "، خمسة لم يمسسهن إنس ولا جان!... أشار «عبدالحميد» إليهن، ووَجَّه خطابه إلىٰ «نجيب»:

لقد وَهبتك وملَّكتك هذه الجاريات، هنَّ
مُلك يمينك، سيتوَلين أمرك، ويصلِحن من
شأنك، يهيِّئنك ويُعدِدْنك لما ينتظرك، فإذا
أتممن عمَلهن وفرغن منك، سأُوافيك
وأمضي معك!... سأكون في الجوار، في
الصحن أو المنتدىٰ، لن أبتعد عنك.

قال ذلك وهو يربت علىٰ ظهره، ثم شيَّعه بٱبتسامة، وتركه معهن وخرج، وتبعه الولَدان الخادمان، وأخلوا المكان... فٱلتفَّت به الجواري وأخذنه إلىٰ حجرة كبيرة أو قاعة وَاسعة شاسعة فيها أحواضٌ متلاصقة، دائرية متوسطة الحجم، بقُطر يقارب أمتاراً خمسة، تملؤها مياهٌ مختلفة الألوان، يتصاعد من بعضها بخار، وبعضها الآخر صافٍ زلال.

نزعن عنه ثيابه برِفق وتأدُّب، وطلبن إليه الدخول في الحوض الأول، وكانت مياهه زهريَّة وَرديَّة، وتبعنه إليه، وقد سبقته وَاحدة وقادته، أمسكت بيده وهو يخطو علىٰ أدراج الحوض، ينزل مِرقاةً فمِرقاة، فلما ٱستقر فيه، ٱستوىٰ علىٰ مقعد أو هي أريكة ركزت وٱنتصبت في وَسطه، غطَّت جاريةٌ أُخرىٰ رأسه بملاءة صغيرة، أو خمار، لفَّت به وَجهه، وراحت تفركه بلين وتدعكه إلىٰ حين، ثم أخذت تسحج رأسه وذقنه وتمشطه، والهبيرة من وَسخ الرأس وزائد الشعر يتساقطُ ويتحاتُّ، دون حفٍّ وحصٍّ ونتف، وبلا مِقَصٍّ أو مَوَاسٍ وشفرات! والغريب أنَّ الماء كان يبتلعها ويذيبها، فلا ترىٰ لها أثراً، ولا في كدر الحوض وتلويثه فعلاً!... وفي دقائق لم تمتدَّ وتطُل، صار مُصلَحاً مسرَّحاً مزيَّناً كأحسن ما يكون.

ثم تقدَّمت أُخرتان وأخذتا تقلِّمان أظافره، فتدرِّمانها برداً بعد القصِّ، وتنحتانها فلا يشوِّكه الناتئ من أطراف أنامله، وقد عنيت كلُّ وَاحدة بيَد، بينما تولَّت صاحبتهن الأُولىٰ مسح جسمه بقطعة قماش أُخرىٰ، كانت تفعل فعل " النورة " وأخلاط الأملاح المزيلة...

والرجل مأخوذ بين الدهشة والحياء، مغلوب بهٰذه العجائب والغرائب، أذهله النعيم وغلَبه الرخاء، وعقد لسانه التقلُّب في الرغد والرفاه. وقد أخذت " صاحبته " تحدِّثه باسمةً، وتلاطفه متحنِّنةً متقرِّبة:

سيعينك الحوض القادم علىٰ الاْسترخاء، ويزيل ما تعاني من رهق وعناء... كلُّ حوض من هٰذه التي ترىٰ، يعالج شيئاً مما نال بدَنك، لا جرَّاء هٰذا السفر والشوط الأخير الذي قطعته للتوِّ فحَسب، بل مما فعلَت سنون عمرك كلُّها! سيزيل من بدنك العيوب، ويجبر النقائص في جسمك، ثمَّ سيتولىٰ شرابٌ تتناوله في الختام علاجَ ومداوَاة ما تشكو من عِلل وأسقام.

ولك أن تخلو بمَن شئت من جوَاريك، لتفرغ من نفسك غلَبة الشهوة، وتخلِّص جسدك من لَوْث أكدار طبيعية فيها، أو لتنال ما يهنئك ويرضيك... فإن لم تشأ أو لم ترغب، أبقيت في أنفسنا حسرةً وخلَّفت غُصَّة!

إنني أُدعىٰ «الهيفاء»، إن بدا لك أن تبدأ بي... وٱعلم أنني ما زلت ـ مُذ رأتك عيني ـ أدعو ربي أن يقع خيارك عليَّ، ويجعلك من حصَّتي ونصيبي، وأغدوَ محظيَّتك. فأهنأ بخدمتك وأنعم بوَصلك. فقد أُشرب قلبي محبَّتك، وصغَت مودَّتي نحوك، وتعلَّق هواي بمَرآك وفُتِنت بجمال مُحيَّاك!

: كلُّ هٰذا من نظرة؟!

: إي وربِّي، وَقع حبُّك في قلبي! أ تحسبني أكذب؟! لا سبيل للكذب هنا يا هٰذا. أم تراني مبالِغةً وتظنُّني مُغرِقة؟ أحسَبُ أننا تعارفنا في غير هٰذا العالم، وتبادلنا هناك كؤوس الهوىٰ وٱنتشينا ما شئنا من الغرام، فكانت النظرة تجديد عهد وٱسترجاع ذكرىٰ وبعثَ مودَّةٍ كامنة، وإحياءَ عشقٍ قديم!

: يا للهول! هل أنا في الجنة؟ هل أنتُنَّ من الحور العين؟!

: بل ما زلنا في عالم الأسباب، ونحن من نساء الدنيا، وأنت فيها معنا... الجنة هناك، في الناحية المقدَّسة، ينالها مَن يحظىٰ بالشرف الأسمىٰ، ويفوز باللقاء!

إنما نحن في الحمىٰ الذي لا يعصىٰ الله فيه طرْفة عين، وتقام الفرائض والسنن، وتجري الطاعات والعبادات كما أمر سبحانه وأراد. إنها بقعة سكنىٰ «المولىٰ» ودار أهله وعياله، ومقرُّ أصحابه وخلّانه، تزول بهم عنه الوَحشة ويسكن الألم، وَحشة غربة الحقِّ وأحكامه، وألم غلَبة الباطل وطغيانه.

قد ينكشف لأبصارنا أحياناً، وينفتح لأسماعنا أُخرىٰ، فيبلغها تسبيح العجماوات، وتهليل الأشجار والأحجار، وسائر الجمادات والكائنات، تَرفع علىٰ «محمد وآله» الصلوات وترسِل التحيَّات، وتذكُر بلسان عربيٍّ مبين، تهلِّل وتكبِّر، وتحمد وتستغفر... فنعلم أن «المولىٰ» صلوات ربي عليه قد مرَّ بها واجتازها من لحظات، فغلبها الكمال من وَطءِ قدميه وجرِّ خُطاه، وعمَّها النوال من يُمْن قربه وبركة الدخول في نطاقه!

: أوَ مثلك يُنال منها في فراش؟! إن عليَّ أن أجثو لطلب العلم بين يديك، وألتمس بعض الكمال من فضلك، وما يفيض من معارفك، وقد نمَّ عنها جميل حديثك وبديع قولك.

خـرج من الأحـواض السبعـة، وكـان آخـرهـا زلالاً، سبَقه الحـوض الأخضر الذي بعث في «نجيب» طاقةً وقوَّة وبأساً، ونشاطاً ما عرفه منذ ثلاثين عاماً، فكأنه عاد إلىٰ عنفوان الشباب وريعان الصِّبا... خرج تمسِكُ «الهيفاء» بيده، لا متوكِّئاً عليها أو مستعيناً بها علىٰ توَازنه (كحاله حين دخوله)، بل مجرَّد مُرافَقة تكريم وتشريف، ومُصاحبة شوق ومحبَّة! فتلقَّته أُخرىٰ بدثار ضمَّته به ولفَّته، حتىٰ أزالت البلل عنه وجفَّفته، ثم أخذته إلىٰ أريكة، سرير وَثير في حِجلة، وتولَّت إلباسه جديد الثياب، ثم عادت «الهيفاء» فعطَّرته من قارورة طيب حملتها، وهي تقول:

هـٰذا من وَرد لا ينبت إلَّا في «قمصر كاشان»،
كرامة لوليٍّ من أولياء «المولىٰ»، مدفون
هناك، في ناحية من تلك البلاد!

ثم أجلسَته علىٰ مائدة، أو جاؤوا بها إليه وحملوا إلىٰ مجلسه ومتَّكئه الخوَان، ولعلَّه لم يُجلب إليه، إنما كانت المنضدة تخلق الأواني والجفان! ولم يكن فيه إلَّا طعام وَاحد، وإبريقٌ فيه شراب بصُفرة الزعفران، سُكب له في قدح أو كأس من صافي البِلَّوْر، فكأنَّ الشراب ٱستقر في الهواء بلا وِعاء وإناء!

: إن لم تمل نفسك وتشتهي الطعام، فلُقمَة
تفي بالمطلوب، ولا سبيل إلىٰ ترك الشراب،
حتىٰ لو ٱرتشفت جرعةً وَاحدة!

ففعل ما أُمر... ثم ٱعتذر لـ «الهيفاء» مستأذناً للخروج أو الذهاب إلىٰ حيث صاحبه «عبدالحميد»، فتلقَّته بٱنشراح وٱبتسامة أعفته من الحرَج، وأذهبَت عنه الخجل، ثم همست في أُذنه بغنج ودَلال:

سيـدي! أنت الآمـر المطـاع، ونحن رهن
إشـارتك وطـوْع رغبتك... فهل من ميعاد؟
سأنتظرك في الدار التي ستبيت فيهـا، عسىٰ
ألقاك هـٰذا المساء هناك.

: إن شاء الله.

أعرض عن «الهيفاء» وصويحباتها، دون أن يقضي منهن وَطَره!

وهـٰذا من غريب ما ٱنتاب الرجل وكان منه أو صار فيه، فهو في بُنيته وتكوينه الجسمي، وفي طبعه ومزاجه النفسي، زيرٌ خِلْبُ نساء، ذو غُلْمة وشَبَق، وشهوانيَّة ووَلَع، نُكَحَة مِزواج، كثير طروقة ورَفَث... فما بال نفسه لم تتُق ولم تمِل وتجنح؟ كيف غلَب رغبته وهزم شهوته وكبَح جماحها بيُسر؟ حتىٰ ٱجتاز الأمر دون مكابَدة وكثير مجاهَدة! علىٰ الرغم من فتنة المورِد وتمام حُسنه وجماله، ولا سيما صاحبته التي رجَت أن تكون محظيَّته: «الهيفاء»، وهو ٱسم علىٰ مُسمًّى، خميصة مهفهفة هضماء، علىٰ الرغم من لَفَفِ فخذيها وتدانيهما، مما لا يكون عادة إلَّا في السمينات، وكذا ضخامة ردفيها ووَركيها، ثم ٱمتلاء ذراعيها، ونهود ثدييها في ٱرتفاع وٱنتصاب، وقد لحق كُلَّ ذلك أو سبقه وَجْهٌ قمَريٌّ، ريَّانُ الخدِّ، أنجَل العين، في حوَر الظباء ودَعَج يسلب الألباب، وأهدابٌ وَطْفاء أثقلَت وأمرضَت الأجفان، تخالها سُرِّحت فتفرَّقت وٱنفرد كلُّ رِمْش، وشفتان مكتنزتان نَكِعَتان، غلبتهما حمرة الدم، ثم شَعرٌ فاحِم طويل منبسط، بِقُصَّة ما زالت تقع علىٰ مقدَّم وَجهها، فتزيحها بغنج ودلال كان ـ في المفترض والعادة ـ يأتي علىٰ بقيَّة عقلٍ في «نجيب» وفضلة ٱتِّزان، فلم يفعل!

يبدو أن الحال هنا والمقام، والفضاء والأجواء، تنزع بالأنفُس وتأخذها نحو هجْر الزينات البدنيَّة ونفي الشهوات الجسميَّة والمتَع الحسيَّة، وتأخذها في كسب الكمالات، ونيْل الملذَّات الروحيَّة وتحصيل المسرَّات المعنويَّة، وما زالت ترقىٰ بها، حتىٰ يسمو العقل ويكمُل، وتتهيّأ الروح فتبلغ الأهليَّة اللازمة، وتتوفَّر فيها القابليَّة، وتحصِّل ما يسمح لها بلقاء، ولربما مصافحة، تجسُّم "عقل الكُلِّ"، ومَظهر "الصادر الأول"، في النور الخاتم المتشعشع منه، والمترشِّح عنه، والمندكِّ فيه، بما يحكي وُجوده الأتمَّ ومقامه الأسنىٰ وتجلِّيه الأعظم وجوْهره الأرفع...

تضمحلُّ كلُّ إنيَّة وتُنزَع كلُّ شهوة وتتلاشىٰ كلُّ رغبة، تحطُّ من الكمال وتصرِف عن السموِّ... يغدو للجمال معنىً آخر، وللذَّة أُفقاً جديداً.

تتغيَّر الذائقة، وتتبدَّل مَلَكة الإحساس، وتأخذ القوَّة المدرِكة ٱتجاهاً مختلفاً وتنحىٰ هدْياً جديداً، يغيِّر ضوابط التلقِّي ويبدِّل نوابضه أو مجسَّاته، فتتبدَّل دواعي الٱلتفات وأسباب الإعجاب وعلل الٱنبهار بالأشياء، وهٰكذا معطيات ذلك ونتائجه، فقد يصبح المستقبَح في نظر المرء جميلاً، والممجوج مستمرَءاً، والبغيض محبوباً، والمزهود فيه مطلوباً... وهٰذا ممكنٌ في الأصل، ووَاقعٌ في حياتنا العاديَّة وسيرتنا الجارية من قبل، ترىٰ تعدُّد الأذواق وٱختلاف الأمزجة وتبايُن الآراء، تبعاً أو نتيجةً لتبايُن الٱهتمامات وتفاوت تقدير الأخطار في الأنظار، حتىٰ يخرج أحدهم عارياً يصرخ: "وَجدتها، وَجدتها" من فرط حبِّه وغرامه والتِذاذه بالبحث والتحقيق! ويهتف العارف بقيمة العلم، المستشعر نشوَة الكشف وإدراك الحقائق وبلوغها: "أين الملوك وأبناء الملوك عن هٰذه اللذة"؟!

ويقف آخر على تمام الأمر ونهايته، وأقصاه وغايته، فيكتشف أُنس القرب إلى الله، ويتذوَّق الخلوَة به، ويستطعِم لذَّة مناجاته، فيتلو قول «السجَّاد» عليه السلام ويرتِّل: " ومتِّعنا بلذيذ مناجاتك، وأوْرِدنا حياض حبِّك، وأذِقنا حلَاوَة وُدِّك وقُربك " ... مترنِّماً متغنِّياً شادياً!

كما تجد سُقم الأمزجة وتردِّي الأذواق في بعض مواطن التعلُّق وحالات الإعجاب، فيروق لبعضهم أن يرتدي ثياباً بألوان صارخةٍ متنافرة، فيخيط ثوبه من قماش يجمع البنيَّ بالزيتيِّ بالبنفسجيِّ بالرمادي! وتهوى أُذنٌ سماع أصوات قبيحة وتطرب لألحان نشاز، ويطلب آخر كريه الطعام، الذي تشمئز منه كلُّ نفس، تراه يروق له ويطيب!

الأجواء هنا تأخذك إلى فهم جديد لعِلم الجمال " الإستطيقا " (Aesthesis، والكلمة تعني الإدراك أو الإحساس)، وهو من فروع الفلسفة التي تندرج تحت " نظرية المعرفة " . فإذا كان علم المنطق (Logic) يبحث في قانون وآليَّة تلقِّي المعلومات وفهمها، وعصمة الذهن عن الخطأ في ذلك، فإن " الإستطيقا " علمٌ يبحث في وُقوع الشيء في نظر الناظر ورؤية المتأمِّل مَوقع الجمال والجلال، أو القبح والحقارة، ويجعله ممتعاً لذيذاً أو تافهاً سخيفاً، مرِحاً باعثاً على السرور، أو مُمِلًّا يورِث الحزن والكدَر.

إنه علمٌ يتحرَّى مبادئ عامةً للفنِّ والجمال، ويدرس كيفية معرفة الأشياء عن طريق الحوَاس. وكانت الدراسات التي تعنى بهذا الموضوع قبل ظهور مصطلح " الإستطيقا " تُعرف بمسمَّيات أُخرى مثل: " مقاييس الذوْق " أو " الأحكام الخاصة بالذَّوْق " ، فيحكم على الأشياء بالحسن والقبح وَفقاً وتبعاً للحسِّ، لا العقل (الذي ينظِّم " المنطق " آليَّة عمَله).

وهـذا يثير سؤالاً مُتقدِّماً حول أصل وُجـود قيَم ثـابتـة وسبْـق ٱعتماد معايير كُليَّة يمكن من خلالها تقييم الأشياء وتصنيفها على هـذا الصعيد، أم لا؟ هل هناك طبيعة خاصة للقيَم الجمالية والأحكام المتعلِّقة بها؟ هل للفنِّ فلسفة ومبادئ محدَّدة يمكن من خلالها تـأويل العمل الفني وتقييمه؟ هل هناك ضوَابط معيَّنةٌ تحدِّد الحكـم على الأشياء والأحداث والمناظر بالقبح أو الجمـال؟ هل هي قيَمٌ مجرَّدة وأُسس ثابتة مطَّرِدة، أو أنها آليَّـة مرِنة متغيِّرة، للثقافة دورٌ في بنائها، كما للعوامل الٱقتصادية والسياسية ٱرتباط؟ بـمعنى: هل الحكم الجمالي هـو أمرٌ مـوضـوعيٌّ أم ذاتي؟ أو هي حـالة ثـالثة بينهما، فليس هناك حكمٌ جماليٌّ موضوعيٌّ صِرف، ولا ذاتيٌّ صِرف.

إنَّ الٱتجاه الموضـوعي، ورائده الفيلسوف الألماني «غـوتيه»، يرى أن للإبداع الفني قوانينه الخارجيَّة، وأنَّ الجمال أمرٌ قائم بذاته، موجود بقوَّته في الأشياء الجميلة، لا يتأثر بالأهواء الشخصيَّة أو الذاتيَّة، أو بالأمزجة والأذواق، فالجمال موجود بغضِّ النظر عن التقدير الشخصيِّ له.

أما أنصار الإتجاه الذاتي، أمثال «كـانط» و«هيجل» فيرَوْن أن مصدر الشعور بالجمال يقع داخل النفس، وأن الجمال لا علاقة له بطبيعة الأشياء، بل هـو أمرٌ يتعلَّق بتذوُّق النفس وإدراكها، وهو ٱنعكاسٌ للصورة الذهنية التي يحملها المرء. وبالتالي فهـو يتغيَّر من شخص إلى آخر، وَفق ما يتصوَّره عن الشيء، وحسب ما يُقدِّره، وأين يُنزله؟ أي أن الجمال ظاهرة نفسيَّة سيكولوجيَّة ذاتيَّة، فنحن لا نحسُّ بجمال العالم وكائناته إلَّا بمقدار ما في أنفسنا من جمال. ولعلَّ مقولة الشاعر «إيليا أبي ماضي»: "كُن جميلاً ترَ الوجود جميلاً" توضِّح هـذه الفكرة وتختصر هـذا المعنى.

وكانت الدراسات الإنسانية قد نحَت ٱتجاهات مختلفةً وٱنفتحت علىٰ آفاق كثيرة علىٰ هـٰذا الصعيد، فجارَت بعضها "الفلسفة الفيثاغورثيَّة"، ذات الصبغة الصوفيَّة، التي تعتَبر ممارسة الموسيقىٰ والاشتغال بالعلوم الرياضيَّة (الهندسة والحساب)، من أسمىٰ طُرُق تطهير النفس البشرية. وقد ٱعتبرت "النظرية الفيثاغورثية" الموسيقىٰ (التي تطهِّر ممارستها النفس)، وَسيلةً من وَسائل العلاج النفسي. ويمثِّل مفهوم "الهارموني" (Harmony) [(١)] أو التوافق - الأئتلاف - الأنسجام لدىٰ «الفيثاغوريين» الفكرة الأساسية لفلسفتهم ومنطلقهم لمعرفة الجمال وتحديد الجميل.

---

(١) الهارموني صوت نغمة أو نغمات تدعم اللحن. وتعتبر الموسيقىٰ الغربية ٱستثنائية بين كلِّ الحضارات او المدارس الموسيقية في العالم في تأكيدها علىٰ "الهارموني". ودائماً - أو غالباً - ما يكون الهارموني المصاحب أقل نبرة وٱرتفاعاً من نغمات اللحن نفسه. في البيانو مثلاً، اليد اليمنىٰ تعزف اللحن، واليسرىٰ تعزف الهارموني. علىٰ الرغم من أن اللحن يمكنه الوقوف والنهوض بالصوت والمعزوفة وَحْدَه، لـٰكن الهارموني المصاحب يضيف عليه ثراءً.

يوجد معنيان للهارموني: الأول: "منطق عام يعني إمكانية تكيُّف الأصوات معاً". والثاني يدل بشكل خاص علىٰ المصاحبة الموسيقية حيث "يتغيَّر الهارموني بتآلف آخر". والتآلفات هي كتل بناء الهارموني. التآلف ببساطة مجموعة من نغمتين أو أكثر تُسمَع في نفس الوقت. التآلف الأساسي في الموسيقىٰ الغربية هو التآلف الثلاثي، تعزف هـٰكذا لأنها تبنىٰ بٱستخدام ثلاث نغمات مرتَّبة بطريقة محدَّدة. فإذا بدأت بنغمة في سُلَّم «دو» الكبير، تبدأ بنغمة «دو» في القرار، لتكوِّن تآلفاً ثلاثياً يأخذ نغمة ويترك أُخرىٰ، وهـٰكذا، أي يختار نغمات: «دو» «مي» «صول»، فيترك: «ري» و«فا»، وتخرج الثلاثة وتُسمَع معاً.

يمكن تكوين تآلف ثلاثي بنفس الطريقة في كلِّ نغمة من السُلَّم الموسيقي. لأنه مع عدم ٱنتظام السُلَّم يتفاوت بُعد الخطوَات عن بعضها. بعض التآلفات الثلاثية كبيرة وبعضها صغيرة، فالتآلف الكبير به نغمة وُسطىٰ تقرب بنصف نغمة من النغمة العليا عن السفلىٰ، وبالعكس التآلف الصغير به نغمة وُسطىٰ تقرب بنصف نغمة من النغمة السفلىٰ عن العليا. وفي حين قد يبدو هـٰذا معقَّداً، فإن الفرق بين التآلف الثلاثي الكبير والصغير يكون ظاهراً في الحال. وسترىٰ أنَّ التآلفات الكبيرة تبدو مفرِحة مبهجة، والصغيرة تبدو حزينة كئيبة.

وقد قام «فيثاغورث» بتحليل بعض القطع الموسيقيَّة وتوصَّل إلىٰ أسباب جماليَّتها من خلال تفسير عدَديٍّ لأنغامها، وفسَّر التوافق (الهارموني) الموسيقي بأنه يرجع إلىٰ وُجود وَسطٍ رياضي بين نوعين من النغم.

وركزت " الفيثاغورثيَّة " علىٰ الأضداد (الخير والشر ـ الوَاحد والكثرة ـ المحدود واللامحدود ـ الذكر والأنثىٰ ـ النور والظلمة...) وقالت بأنه في النهاية تحدث وِحدةٌ أو ٱئتلاف أو ٱنسجام (هارموني)، يرجع إلىٰ وُجود وَسط رياضي بين الكثرات، أي البحث عن الوِحدة المفسِّرة للكثرة.

وقد أخذت فكرة " الهارموني " هـٰذه مأخذها في " الفيثاغورثيَّة " التي ذهبت إلىٰ أنَّ تقدُّم الإنسان قائمٌ علىٰ ٱجتياز مراحل متناقضة من الهمجيَّة والمدنيَّة، فٱعتبرت الرقيَّ والتقدُّم صورةً ومضموناً لفكرة ٱندماج أو توافق (هارموني) بين الأضداد! وأنَّ التوازن الهندسي والٱعتدال والتناسب، أُمورٌ تمثِّل القواعد الأساسيَّة للأعمال الفنيَّة الأبرز في عصره، السائدة في «أثينا» مثل «معبد البارثينون»، وكذا التوافق بين الطُرُز المعمارية للمعابد المختلفة في المبنىٰ الواحد (البسيطة، والمعقدة، والمسرفة في الزخرفة).

خرج «نجيب» من " الدار " ، بعد أن فرغ من إصلاح هيئته وتهذيب منظره، وقد تمَّ إعداده لما سيلقاه وينتظره، ما يعني أنَّ إصلاحاً " ما " طال روحه أيضاً بعد بدنه، لَحِقه من " الإكسير " المداف في الشربة أو اللُّقيمات التي تناولها قُبيل خروجه... فمَع خطواته الأُولىٰ في الجزيرة بصحبة «عبدالحميد» الذي كان ينتظره، شعر أنَّ تغيُّراً وتبدُّلاً قد طرأ عليه في داخله ونفسه، فكأنه ٱنقلب شخصاً آخر وإنساناً جديداً، ولا يدري هل جاءه ذلك من تطوُّرٍ في جوَارحه، أم قفزة في معارفه؟

صار يتلقَّى الجمال فيضاً، ويعيشه حالاً، ويلازمه فلا يخرج منه لحظة، وقد قطع أشواط الفنِّ والجمال، وٱجتاز أُسسها وعلومها، وتخطَّى الخلاف فيها والتفاوُت في ٱعتبارها، إلىٰ نتائجها وعطاءاتها، بلَغ ذلك بسهولة ويُسر، بلا مؤونة وعناء، كمَن يرتشف جرعة ويأتي علىٰ صُبابة، أو يتناول قضمةً من حلوىٰ أو فطيرة سرعان ما تذوب في فمه بلا مضغ ولا إجالة، كأنه يزدرِدها لفرط نُضجها ونجوعها، وإن كانت عند غيره - بل في وَاقعها - صعبةً علىٰ التناول لدَسَم يزهَمها، عسيرةً علىٰ الهضم من سَمْن يُثقلها.

عاش " الهارموني "، أو التآلف والتوازن الذي كان يرسل في مُدرِكه أعلىٰ صوَر الجمال، ويرسم لناظِره أبهىٰ مواقع اللطف والجلال، ويبعث في متلقِّيه ومُحاكيه " السُّكْر " والنشوة، حتىٰ يدغدغ كلَّ ذرَّة في جسمه، ويحملها علىٰ راحتي لذَّةٍ ونعيم لم يُسبَقان! شيءٌ يغمر خلجات وحنايا قلبه، وينفذ في صفحات وخفايا نفسه، ويحطُّ في أكناف وأطراف روحه حتىٰ يحيط بها ويستحوذ عليها... فإذا فعل، وكان ذلك، أحاط الرجلُ بكلِّ ما يدور حوله، وطالت إحاطته نطاقات جولة فكْره، فإذا وَقعَت عينه علىٰ شجرة، عرف كلَّ شيء عنها، وإذا فكَّر في أمر، توَاردت عليه المعلومات عنه، وتتابعت حتىٰ ٱمتلأ منه وٱكتفىٰ! كأنه يحمل في يده مصباحاً، إذا سلَّطه علىٰ بقعة أضاءت وتبدَّد الظلام، فٱنقشعت عنها المجهولات والمبهمات، وأشرقت فيها حقيقتها، وكذا صارت نفسُه تنطوي علىٰ سراج وَهَّاج، ما إن يعتريها شكٌّ في شيء، ويعرض لها خاطِرٌ عن أمر، ولا تبادر لها خفيٌّ إلَّا ٱنجلىٰ وأسفر، كأنَّ شمساً تشرق عليه، وتزيح عنه الريب... وفي هذا لذَّة ونشوة غريبة، أن يبلغ المرء " الإحاطة " ويشعر بـ " المقدرة " و " الهيمنة " !

كان يرفل في هـٰذا النعيم ويتقلَّب، بل يطير بجناحين، يتنقَّل في هـٰذه الجنة ويحلُّ منها حيث يشاء. ما زال " الهارموني " هنا يعلو ويشمخ، ويذهب إلىٰ الأقاصي والغايات، وهو يؤدِّي موَاكبته، ويمارس مصاحبته للسمفونية العظيمة التي تعزف بلا ٱنقطاع، دون ضجَر من التكرار ولا سأم من الٱستمرار!... " تآلفٌ " يستولي علىٰ الروح، ولو كان ينبعث عن غير الحقِّ ويأتي من غير جهته، لفقدَ مُتحسِّسه ومُعايشُه عقلَه، وهامَ علىٰ وَجهه!

كان «سقراط» يرىٰ أنَّ الجمال هو تحقيق الغاية وبلوغ الهدف، فالجميل هو النافع المفيد والأقرب إلىٰ الغاية الأخلاقية العُليا، فإذا حقَّق شيءٌ الغرض من وُجوده وبلغ الهدف من صناعته والعلَّة من خلْقه، صار جميلاً. لذا كانت العين الجاحظة عنده أجمل من النجلاء والنرجسية والحوراء! لأنَّ الجحوظ (وهو خروج المقلة وبروزها) يتيح للعين ٱتساعاً في نطاق رؤيتها، ويسمح لها بأداء وَظيفتها بشكل أفضل! وأنَّ الفطَس في الأنف " أجمل " من القَنَا (نتوء وَسط القصَبة) ومن الشَّمَم (ٱرتفاع قصَبة الأنف)! لأنَّ هـٰذا قد يعوق الرؤية ويحول دون بلوغها أقصىٰ زاوية، أما الأنف الأفطس فإنه يفسح للنظر أن يأخذ مَداه وتنفرج زاويته فيتَّسِع نطاقه!

وقد نبذ «سقراط» مبدأ " اللذة " الجمالية التي فصلت بين الجمال وقيَم الحقِّ والخير، فلم تكن اللذة عنده إلا نوعاً من أنواع التدهور الفنيِّ والٱنحلال الخُلُقي. وكان يرىٰ أنَّ الحرَفيين والصناعيين الذين يفضي عملهم إلىٰ نفع وفائدة، أفضل من الفنانين الذين لا يوجِّهون الناس من خلال فنِّهم إلىٰ قيَم الخير والحكمة والفضيلة. الفنُّ عند «سقراط» يجب أن يُكرَّس لخدمة الإنسان، ولا بدَّ للجمال أن يؤدي إلىٰ الخير لا إلىٰ اللذة الحسيَّة.

هـٰكذا خلَط أو قُل جمع بين " الإسـتطيقا " (Aesthesis) والمنطق (Logic)، ووَفَّق بين الحسِّ والإدراك وبين العقل والفكر، فأنزل الجمال منزلة الكمال، ورأىٰ لكلِّ كمالٍ جمالاً يـأتيه من دوْره ووَظيفته، ويلحقه مما خُلِق لأجله، فكمالُ الحجَر صلابته، والحديد بأسه، والماء سيولته، والزرع نظارته وثمره، والماس نقاؤه وبريقه، والمرأة أُنوثتها وخصوبتها، والرجل فحولته وقيموميته، وجمال كلِّ هـٰذا في كماله... ولو أضاف إلىٰ العقل والمنطق، والحسِّ والإدراك، وألحَقَ بهـٰذين العاملَين " الحقَّ " بما يخلعه علىٰ الأشياء ويضفيه عليها، لٱستقرَّت نظريَّته وقامت علىٰ أُثفِيَّة ثالثة وركيزة وَازنة، فٱستقامت.

الفضاء هنا، بروافد ينهمر منها الجمال ويتدفَّق ليغمر كُلَّ شيء، ينظِّم ذرَّات الأجسام، يُعيد ترتيبها في نسَق يرجعها إلىٰ موْضعها من " فطرة الله "، كأنه المغناطيس وما يفعل بِبُرادة الحديد، يصفُّها في أقواس ونطاقات... مما يسمو بالروح ما شاءت ويأخذها في الكمال ما أرادت وتطلَّعت.

لا قُبْحَ هنا ولا قبيح! لا ظلمَ ولا ٱعتداء، لا أحَد يتوثَّب ليسطو ويسلب، ولا شيء يتجاوَز حدَّه ويدخل في حقِّ غيره، وإن قام وُجوده وتوقَّفت حياته عليه! فمَشهد ٱفتراس الذئب الحمَل، فيه من القسوَة ما يسلخ عنه كلَّ جمال ويدخله ـ بلا ريب ـ في القُبح والبشاعة، والحال أنه فطرة غرَسها الخالق في هـٰذا الحيوان، وطريقة (وَحيدة) لغذائه وحياته، فماذا عساه يفعل حتىٰ يكون " جميلاً " ؟!... وهنا يظهر أنَّ وَعده تعالىٰ ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَـٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَـٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾ يتحقَّق في الحيوان بعد الإنسان، بل يعمُّ الخيرات نفسها، كالماء، فيُشرَب منه دون أن ينقص، يأتي من مَصدرٍ وخزينة لا تنفذ، تمدُّ العين وتملؤ البئر وتُجرِي النهر!

ويُعلَم أنَّ في خزائن الله من أنواع الفيض وأصناف الجود والرحمة، ومن مقسوم الرزق والحظِّ ما يكفي مخلوقاته كلَّها، دون أن يبخس بعضُها بعضاً، في نظام يتجاوَز التراتب والتكامل الذي يخلُق حالةً لا تستقيم مع الجمال، حين يفترس نمرٌ خِشْفاً، يمزِّقه إرباً أمام أُمِّه الغزالة! وإن لم يجُرَّ ذلك ـ وَفق قانون العيش وطبيعة الحياة ـ حيفاً على شيء أو يُنزِل ظلماً بأحَد، حين يفرض موْقعه من الخلق ودوْره في النظام الأتمِّ أن يكون فريسةً!... هنا لا يفترس السَّبُعُ الحمَلَ، بل يُشبِعه الله من طعام ولحم يأتيه خلْق الساعة، حتى ترى السِّباع تخالط الأغنام، تسرح معها دون خوْف من هذه وفزع، ولا طمَع من تلك وجشَع، والأعجب أن ترى الغنَم ترعى دون أن تنال من زرْع "يشعر" بدَوْره و "يدرك"، وينتظر اكتمال نموِّه، ليُحسِن تسبيح ربه ويتألَّق في عبادة خالقه... بل يأتيها الكلأ من غيب يكفيها المرعى!

كان «نجيب» يشعر ببهجة عظيمة وغبطة تامَّة، وينتابه سرورٌ وجذَل، وهو يساير «عبدالحميد» ويماشيه في طريق تشقُّ بساتين ومروجاً نضرة، وكان طلِق المحيَّا متهلِّل الوَجه، قد استخفَّه الطرَب وغلَبه البِشر والفرَح، لم لا، وقد أضحى قرير العين، آمن السرب، هانئ البال؟...

ولكن، مع هذا كلِّه، كان في النفس شيءٌ ينغِّص عليها ساعتها!

فمع كلِّ السرور والبلَج، والأُنس والانشراح، هناك نطاقُ حُزن يلتفُّ حوله، وغيمة كآبة تحوم فوقه، مسحَةٌ تخالط هذا الفضاء، ترفرف لتحطَّ كلَّما بلَغ الأُنس أوْجَه، وقرُب من غايته ونهايته!... غمٌّ واكتئاب، وكمَدٌ والتِياع، شيءٌ يقبض النفس ويضيِّق الصَّدر، يخلِّف المرء ساهماً كاسِفاً ويتركه مطرِقاً، وهو لا يعرف لذلك عِلَّة ولا يدرك له سبباً؟!

ما جعله يتساءل في نفسه، ثم يخلص ـ في ما خلص إليه ـ أنها ليست "الجنَّة" كما ظنَّ، وكما بدا له وظهر، فلو كانت، لما شعر بضيق، ولأذهَب الله عن أهلها الحزَن! ﴿وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾، ومع أنَّ الراحة غالبةٌ هنا والرفاه حاكِمٌ، فلا يعاني أحدٌ من تعب أو رهَق، لكن لا شيء يورث اللغوب ويسبب النصَب كما يفعل الحزن والكمَد! وهو يأتي كمَوْجات ويتعاقب كهبَّات خفيفة، تتلاحَق على دفعات متفاوِتة في مكْثِها وٱمتدادها، تورث ٱنقباضاً في القلب وكدَراً في النفس ومرارةً في الذائقة... نعم، هي لا تلبث كثيراً حتى تزول، لتعود النشوة ثانية ويرجع السرور ويغلب الهنأ من جديد.

وهو سرور غاية في التميُّز والتفرُّد، والخصوصيَّة وٱنتفاء المدى والحدود، وٱنقطاع الشبيه والنظير، شيء يتوغَّل إلى نهايات القلب وأعماق الروح، يبلغ ويلمس مواقع بِكْر على أيِّ شُعور! فتهيج النفس وتخفُّ، وترجع بصاحبها إلى جذوره الأُولى، تعود به ليتذكَّر نشأته، لا في صباه أو طفولته، بل بدايات خلْقه وٱنبعاثه إلى الوجود، خروجه من ظلمة العدم!... شعورٌ خرافي أُسطوريٌّ لم يمُرَّ به خاطرٌ وَصَفه، ولا سجَّله قلَم عرَفه، ولا نفذت إليه قريحة شاعر فنظَمه! سُكرٌ ونشوَة، كأنه يحلِّق في غيمة ويغوص في مسبح بحجم البحر والمحيط! يغمره جمال يقرُّ العين، وعطرٌ ينفذ فيثلج الصدر، وبِشر يبرد الكبد. حُبورٌ بلا حدود، وبلَجٌ بلا نهاية، مرَحٌ بلا لهو، وطرَب بلا غناء وسماع... نشَغ الرجل من الغبطة حتى كاد يخرج من جلده، وٱستطار من السرور حتى كأنه يطفر ويرقص، لا يخطو ويسير!

ولعلَّ في توشيح المبدع «الشيخ عبدالحسين صادق» بعض بيان:

عندليب البِشر غنَّى طرباً * صادحاً يشدو بلحنٍ مؤنسِ
وحميَّا اللَّهو شعَّت حبَباً * مُذ سعىٰ ساقي الهنا بالأكؤسِ
نشَر الأفراح في الدهر لِوَاء * بالهَنا تخفِق منه العذَبات
ولطيب الأنس عبَّاق الشذا * طبقت نفحته السِّتَّ الجهات
ومحيَّا الكوْن وَضَّاحُ السَّنا * قبسَت منه الدراري جَذَوات
بالسَّما قد لقَّبوها شُهُباً * وهي منه قبَس المقتبس
لو خلَت من نوره ما ثقبا * نيِّرٌ منها بوَجه الغلَس

وكان «نجيب» قديمَ عهد بالسرور، تضاءل الأُنس في روحه وٱنحسَر، حتىٰ صار في أُفقٍ "ٱفتراضيٍّ" يرسمه، يعيشه عالماً كوَّنه لنفسه، يجد فيه السلوَة والعزاء من جَوْر الزمان وجفوة الخلَّان. لذا كان لتوالي هٰذه النِّعَم وظهورها أمامه، وتلمُّسها بإدراكه، وَقْعه الخطير وأثره الكبير في حدود النشوة ودرجات السرور... فالفرح والٱبتهاج شيءٌ ٱفتقده منذ أمَد بعيد، يبلغ زمن الطفولة والصِّبا، قبل أن يعرف التركُّب والتعقيد، في العلاقات وفي الفكر، فعاش بعضَ درجاته المتوَاضعة، وهي التي ٱجتذبته إلىٰ «فالوغا» وقادته من بعدُ إلىٰ هٰذه المغامرة، التي صار يرجو أن تكون "متاهةً" لا عودة منها! يبقىٰ فيها ما ٱستطاع، ويلبث ما شاء الله.

ينشد مع «السيد حيدر الحلِّي»:

لزوْرقِ الفكرِ سَبْحٌ في جداوله * وطائرِ البِشر صدْحٌ في خمائِله
قد شفَّ عن دُرِّه صافي مناهِله * وخضرةُ الروضِ حفَّت في سوَاحله
فرَوْضُهُ رَوْضَةَ الفردوسِ أَنسَانا

وبينا هما في دربهما إذ ٱعترضهما جدوَل، أو هو جعفرٌ عريض تنساب فيه المياه برِفق، وقد أُقيمت فوقه قنطرة حجَرية جميلة من تلك التي لم تعد تُرىٰ إلَّا في قرىٰ وأرياف أُوروبا المحافظة، الحريصة علىٰ معالمها وآثارها... ما إن ٱنحدرا عن رأس الجسر نحو الضفة الأُخرىٰ للنهر، حتىٰ ظهرت ـ في الآن ـ هضبةٌ عظيمة ممتدَّة! ٱرتفعت، علىٰ بُعد نحو ميل منهما كسَدٍّ، وٱنتصبت كسُور رفيع وجِدار عالٍ! تنهض ثم تنبسط لتطوِّق جبلاً، بل سلسلة جبال شامخة، وأطوَاد شاهقة باذخة، تنتصب هناك، في وَسَطها، وتمتدُّ عرْضاً أميالاً عدَّة، أو هي تلتفُّ علىٰ نفسها، لتصنع تكتُّلاً جبليّاً هائلاً.

وقد نتأت الهضبة نتوءاً، لم تتصاعد وتتدرَّج في الٱرتفاع، بل برزت عن محيطها المنبسط في سهْل يسبقها، وعلَت عن حذائها المستوي في نجْد يحتضنها، يوازي سطح البحر، إلىٰ ٱرتفاع يبلغ نحو مئتي متر، في نهوض حادٍّ، يكاد يكون عمودياً، وإن مال فبزاوِية دون عشرين درجة! ما خلق شكلاً غريباً ومنظراً مخيفاً، ولا سيما أنَّ هذا النتوء أو الجرف الضخم، فدفَدٌ وَعر غليظ، تغلب عليه حجارة بركانية سوداء، وحمراء صمَّاء، يبدو من بريق ووَميض يتخلَّل سطحها، أنها عروق ذهب وعِقيان فلِزٍّ وقُذاذ نحاس، وتنطوي علىٰ كنوز من نفائس النُفوض والرِّكاز!

وهي تصنع ـ في نهوضها وٱرتفاعها ـ نطاقاً أجرَد يحيط بسلسلة الجبال التي تتوسَّطه، لا عقَبَة فيه ولا ثنِيَّة، ولا شِعْباً يمكن أن يَسلكه متوغِّل ولا عُرقوب يخرج عبره متسلِّل، أخاله يعصىٰ حتىٰ علىٰ المتسلِّقين الزاحفين، وإن ٱستعانوا بالفؤوس والحبال، وٱستخدموا الخطاطيف الحديدية، والمقابض والأحذية الشوكية أو المسمارية...

بل لعلَّه يعصىٰ حتىٰ علىٰ الدوابِّ من حمير وبغال... اللهم إلَّا جِداء ومَعْز بأظلاف خُلِقت لهـٰذه الأظاليف، كانت تطفر في الأنحاء، وكوَاسر تحوم في سمائه كأنها ترقب وترصد الأجواء!

كان حقيقاً لهـٰذا التركيب الجبلي الغريب، ومنظر الحيْد الصخريِّ النافر كسُور قلعة عصيَّة، الناتئ كجدار بشموخ حِصن منيع، أن يظهر للعيان ويتراءىٰ للناظر من مسافة بعيدة، وأن يقع ـ لحجمه وٱرتفاعه ـ في مدىٰ رؤية ونطاق نظرٍ يبلغ أميالاً، ولا سيما في طقس صافٍ وسماء خالية من النقع والغبار، وأجواء نقيَّة من الأبخرة والأدخنة، وٱنبعاثات التلوُّث، مما لا تجده في غير هـٰذه الجزيرة... لـٰكنَّ «نجيباً» لم يره إلَّا الساعة (دون صاحبه، الذي كان مَسبوقاً بوُجود الموقع، بل كان متوجِّهاً إليه وقاصده). نعم، هـٰذا ضبابٌ بدأ يلفُّ المكان الآن، ولـٰكن المنظر كان متوارِياً والمشهد مخفِيَّاً قبل تكاثفه وٱنتشاره:

كيف لم يظهر لنا هـٰذا الجبل العظيم في مَدِّ البصر؟ أين كان عنَّا أو كُنَّا عنه؟ أترانا لـهَوْنا بالحديث وٱستغرقنا حتىٰ غفلنا؟

: بل هو خفيٌّ مستور، محجوب بطِلَّسْم، فلا يظهر لأحَد ولا يقع في إبصار كائن، إلَّا بفكِّ "شيفرة" التحصين وحلِّها! ولولا ذلك، لما رأيته ولا بانَ لك، بل كنت ستُردَع وتُذاد عنه، دون أن تعرف لٱنصرافك عن دخول هـٰذه البقعة وعجزك عن بلوغها سبباً!...

قد يراها ناظرٌ فراغاً ويحسبها فضاءً خالياً، وتظهر لآخَر بشكل آخر، ومنهم من يراها غولاً يهمُّ أن ينقضَّ عليه، وشبحاً أو مارداً يتحفَّز ليفتك به! هٰذا ما ينال عامة الناس وسائر الخلق، ويلقاه الذين تقودهم الصُّدَف، أو يوصِلهم سعيُهم ـ المخلِص أو المريب ـ إلىٰ مثل هٰذه المواقع والحدود، دون إذنٍ صادر ورخصة ممنوحة...

أما الأعداء المتقصِّدين، والمتتبعين المتحرِّين، الذين يريدون سُوءاً وينوون شرّاً، فلن يبلغوا هٰذا الحمىٰ حتىٰ يُصرَعوا، سواء جاؤوا بمركباتهم، سفُناً كانت أم طائرات، أو سعَوا نحو "الناحية" عبر الحسابات والمعادلات والعلوم الغريبة التي تحدِّد المكان وتعيِّن الموقع، وتهيِّئ لدخوله... هٰؤلاء ـ إذا قربوا ـ صُعِقوا وهلكوا، أو أصابهم ما يحيِّر الناس فيهم، فينزل بهم الخبل والجنون، ولربما سُلِّط علىٰ أحدهم كلبٌ ينهشه أو سَبُع يفترسه، أو "سيفٌ" يقصم ظهره، فتراه يبتلىٰ بنفسه، بعاهة في جسده، أو معضلة في أهله ومصيبة في عياله، ما يفلُّ عزْمه ويشغله عن نيَّته...

دون أن يُعرَف لشيءٍ من ذلك سبباً. ويلتبس حال بعضهم حتىٰ يُعَدُّوا في الموتىٰ أو المفقودين، يصيبهم ذلك وهُم في أوْطانهم وبين أهليهم، لم يشدُّوا الرحال إلىٰ هٰذه " الناحية " ، ولم يغامروا ليصلوا إلينا!

: ماذا عسىٰ هٰذه البقعة أن تكون، وماذا يُدَّخر فيها حتىٰ تحظىٰ بهٰذا الشرف والخطَر؟ أتراها بيت «المولىٰ» عليه السلام والدار التي يقطنها صلوات الله عليه مع أهله وعياله؟ أم هي مخازن أسلحة نوعيَّة سيقابل بها «الإمام» أعداءه عند ظهوره وقيامه؟!

: بل هنا مقرُّ قيادته وموقع إدارته. هنا غرف العمليات الرئيسة، ومراكز التحكُّم والسيطرة الأعظم، هنا " العرش الأرضيُّ " ، كما الكعبة القبلة الأرضية وبإزائها " البيت المعمور " في السماء! من هنا تُدار العوالم بسماواتها ومجرَّاتها وكواكبها وأفلاكها وما فيها من سكَّان! هٰذا هو مركز الوجود ومقرُّ التحكُّم في الموجود، هنا يرتكز قُطب رحىٰ عالم الإمكان، ويقوم المحوَر الذي تدور حوله الكائنات، وتنتظم المقادير كما يريد الله العزيز القدير.

هنا تُدار معركة التحدِّي الأعظم بين الحقِّ والباطل، ويُنَظَّم الصراع الأكبر بين الهدىٰ والضلال، والعقل والهوىٰ، وتُوَجَّه وتُقاد الحرب الممتدَّة بين الرحمن والشيطان.

هناك حربٌ ضروس لم ولن تضعَ أوزارها يوماً، جيوشٌ جرَّارة وجند مجنَّدة، جحافلُ تزحف وفيالق تقصف، كتائبُ تغير وسرايا تلتحم، فرسان تقاتل وبيادق تصارع...

منذ خلق الله الخلق، حين أبىٰ «إبليس» السجود ﴿إِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ قَالَ ءَأَسۡجُدُ لِمَنۡ خَلَقۡتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَءَيۡتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمۡتَ عَلَىَّ لَئِنۡ أَخَّرۡتَنِ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَأَحۡتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱذۡهَبۡ فَمَن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمۡ جَزَآءً مَّوۡفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسۡتَفۡزِزۡ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتَ مِنۡهُم بِصَوۡتِكَ وَأَجۡلِبۡ عَلَيۡهِم بِخَيۡلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكۡهُمۡ فِى ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِ وَعِدۡهُمۡ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾﴾... بدأ الصراع وقامت الحرب.

وما زالت، تدور رحاها، وتحتدم فصولها، وتلتهب جبهاتها، لم تسكن يوماً ولا هدأت ساعة، ولم تقِرَّ حتىٰ تعود لتجيش وتثور...

وهي حربٌ خفيَّة، أشبه بـ"الباردة"، الجاسوسية المخابراتية، والاقتصادية السياسية، فلا خيل هنا تعدو، ولا سيوف تُشهَر، ولا أسنَّة تصطكُّ، ولا دماء تسيل، ولا أنفُس تزهق!... كلُّ شيء في "مكانه" ومَوضعه، وعجلة الحياة تدور، والعيش يهنأ لبعضهم ويتيسَّر ويضيق لآخرين ويتعسَّر، يرغد يوماً ويخصب، ويصعُب آخر ويملُق، حسب صروف الدهر وحركة المقادير.

لا يشعر الغافلون الغارقون في الدنيا بهذه الحرب، ولا يراها الجهلة النائمون، ولا الحمقىٰ المستغفَلون، ويكادون يصِفُون مَن يدَّعي وُجودها بالخبل والجنون، ويرمونه بغلَبة الوَهم وسطوة الخيال! وبالانفصال عن الوقائع، والانفصام في العوالم، كأنه يعيش في غير دنيانا، ويقفز علىٰ موازينها وقوانينها ومعطياتها، فيرىٰ ما لا يرىٰ غيره، ويتألَّم من غير جرح ناله، أو يفرح دون خير طاله!

الحرب قائمة، والشيطان يقود معاركها ويدير جبهاتها، يعِدُّ وينظِّم، يرصد ويخطِّط، يعبِّئ ويحشد، يحفِّز ويستفزِ...

والجهلة ينكرون الحرب ولا يشعرون بها!

إنها حقيقة... قد يجحدها الماديُّ الحسِّيُّ، وينكرها غيرُ المؤمن، أو يشكِّك فيها ضعيف الإيمان، فلا تعجَب، ولا تأخذنَّك الحيرة في المنكرين والجاحدين... إنها سُنَّة جرت في جميع الأُمم، والقوم على سيرة الماضين حذو القِذة بالقِذة، وإمامُهم " ضبٌّ " لا يكتفون بٱتباعه ودخول الجحْر وَراءه، بل يمضون على " بيعةٍ " له عقدها من قبلُ آباؤهم!

فإذا سُقتَ الشواهد والقرائن، وقدَّمتَ الأدلَّة وأقمت البراهين، تراهم يغالطون ويكابرون، يتحجَّجون ويتذرَّعون، يعودون إلى مقولة أسلافهم ويجسِّدون قول الله فيهم: ﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ

بَيۡتٞ مِّن زُخۡرُفٍ أَوۡ تَرۡقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن
نُّؤۡمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيۡنَا كِتَٰبٗا نَّقۡرَؤُهُۥۗ
قُلۡ سُبۡحَانَ رَبِّي هَلۡ كُنتُ إِلَّا بَشَرٗا
رَّسُولٗا ﴿٩٣﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤۡمِنُوٓاْ إِذۡ
جَآءَهُمُ ٱلۡهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرٗا
رَّسُولٗا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوۡ كَانَ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَلَٰٓئِكَةٞ
يَمۡشُونَ مُطۡمَئِنِّينَ لَنَزَّلۡنَا عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ
مَلَكٗا رَّسُولٗا ﴿٩٥﴾﴾... هذا هو "منطقهم"،
وهذه هي احتجاجاتهم التي يتوارىٰ خلفها «إبليس»، يُملي لهم ويلقِّنهم، يفسِد عقولهم ويعبث بأرواحهم، فيغلِّب أهواءهم، ليستحوذ عليهم ويغدون جنوداً له، يخوض بهم الحروب ويوزِّعهم علىٰ الجبهات ويسُدُّ بهم ثغوره، ويحقِّق بهم معركة النصر في تحدِّيه الأول ساعة استكبر وأبىٰ السجود...

وفي الوَاقع، فإنَّ أولياء «إبليس» اليوم يعيشون العصيان والكبر نفسه، ويتمرَّدون علىٰ "الولاية" التي هي كُنه أمر السجود وجوهره، يأبون ولا يطيقون النور الذي تجلَّى في «آدم»، واستوجب ذلك الأمر والتكليف... ويأبىٰ الله تعالىٰ أن يُطاع إلَّا من حيث أمَر.

هٰذا ما نأىٰ بـ «المولىٰ» عليه السلام وأقصاه عن رعيَّته، وحجبه عن الناس في مُغيَّبه، وهو ما جرىٰ ـ من قبلُ ـ علىٰ آبائه وأجداده فزوَاهم عن حقِّهم، ومكَّن أعداءهم وسلَّطهم عليهم، حتىٰ شُرِّدوا وٱستشهدوا، فما منهم إلَّا مسمومٌ أو مقتول.

كان الإذن قد صدر، والرخصة قد مُنِحت، فدخل «نجيب» الصرح برفقة «عبدالحميد»... وَقَفا بإزاء محراب نُحِت في أسفل الجرف ـ الجدار، تحوطه أنواع الأشجار، تغطِّيه وتداريه، فإذا بمِصعَد يرتفع بهم شيئاً قليلاً، نحواً من قامتين، ليستقرَّ أمام باب، فُتِحَت وخرج منها رجل يحمل لوْحاً، نظر فيه ونادىٰ علىٰ «نجيب» بٱسمه الكامل، فلما ردَّ عليه بالإيجاب، أشار إليه بالدخول ورحَّب به، لٰكن بإيجاز وٱقتضاب، دون حفاوَة ومبالَغة، من تلك التي لَقيها وٱستُقبل بها أوَّل وُصوله.

وقد ٱكتفىٰ الرجل عند التفاته إلىٰ «عبدالحميد» بنظرة أوْلاه بها، كأنه كان مسبوقاً بأنَّ هناك مَن سيأتي مع «نجيب»، لٰكنه لم يكن يعرف مَن سيكون المرافق؟... ثم أغضىٰ وطأطأ برأسه إلىٰ الأرض، دون أن يسأله عن ٱسمه أو يتفحَّص هويَّته، فقد شخَّصه وميَّزه، وكان يعرفه حقَّ المعرفة، ظهر ذلك من مزيد تبجيل وكثير ٱحترام وتقدير تلقَّاه به، فٱنحنىٰ مُرحِّباً، وهو يضع يده اليمنىٰ علىٰ صدره، وتراجع القهقرىٰ خطوتين أوثلاث، مُفسِحاً له أن يسبقه ويتقدَّم عليه في الدخول، وكان يخاطبه بـ" سيدنا " ، ويكيل له عبارات التفخيم والتعظيم... ثم ٱستقام ومضىٰ قائلاً:

ٱتبعني يا أخ «نجيب»، تفضَّل من هنا. أرجو أن تبقىٰ ملتزماً بإرشاداتي، فهنا، لا يسعك الخطأ، ولا مندوحةَ للزلَّات والعثرات.

شعر «عبدالحميد» ببعض ضيق أو ٱمتعاض نال صاحبه «نجيباً»، أو بتراجع النشوة والطمأنينة التي كان فيها، وٱنكشف له أنها من بأس هـٰذا الحارس وجهامته وبعض شدَّته، أو هي من تمييزه في التعامل بينه وبين مرافقه، ما أوْرثه وأشعَره بتفوُّق «عبدالحميد» وتقدُّمه عليه... حزَّ ذلك في نفسه، فالمفترض أنه الضيف هنا، وهو مَن ينبغي أن تتوجَّه إليه العناية ويحظىٰ بالتوقير وينال الكرامة!؟

لعمري، ما زالت " الأنا " حاضرةً ماضية، حتىٰ في هـٰذه الرحاب؟! وفي مَن بلغ هـٰذه الرتبة والمقام؟! هـٰذه بقاياها، ثمالة في كأس النفس هاجت ورغَت لتنسكب وتراق، وتنذر بتلويث المشهد وتهدِّد بتبدُّله وزواله، فالفضاء هنا لا يطيق هـٰذه الدونيَّة، والمحفل لا يمكنه أن يُدنَّس بهـٰكذا ٱنحطاط! وقد عرَض هـٰذا وجاء، علىٰ الرغم من الشربة ـ " الإكسير " التي تناوَلها «نجيب» قبل قليل، والتي ينبغي أن تتكفَّل كلَّ الأمراض وتزيل بقايا الآفات، ولـٰكن يبدو أنها لم تتمَّ عملها وتفعل كلَّ فعلها...

لذا أسرع «عبدالحميد» وبادَر بالتدخل:

إنهم حرَسٌ أشدَّاء، رقباء في منتهىٰ الحيطة والحذر، الحِدَّة طبعٌ فيهم، والشدَّة مقتضىٰ وَظيفتهم، والجهامة شأنُ مهمَّتهم ونتيجةُ تلازِم عمَلهم.

ثم هنا ـ أي أخاه ـ يسري قانون العدالة والإقساط والإنصاف، يغلب المجاملة والمسايرة واللباقة، بعد ٱنتفاء المحاباة والتملُّق والمداهنة والنفاق. يُنزِلون كلًّا في منزلته، بالدرجة التي يستحقها من التكريم والتبجيل، لا يخلطون ويضيِّعون المعايير، كما تفعلون في دنياكم.

: ولٰكنَّك أكرمتني ورفعتني فوق نفسك؟ أ تراك تجاوزتَ ما تزعم من قانون حاكم هنا، تلتمس فيه العذر لهٰذا الحارس؟!

: إنَّ نظرتي إلىٰ نفسي وتكليفي تجاه الآخرين يختلف عن تكليفهم تجاهي ونظرتهم لي. فالأدب والكمال أن يرىٰ المرء جميع المؤمنين فوقه، ويحسب نفسه دونهم، أمَّا رؤيته للآخرين وكيفية تعامله معهم، فتحكمها ضوابط أُخرىٰ، عمادها العدالة والإنصاف ونفي الحيف والإجحاف، فلا يبخس الناس أشياءهم، ولا يهتك الأُسس في تقييمهم، ويضيِّع المعايير في تصنيفهم، فيحترم الجاهل بنفس قدر ٱحترامه العالم، ويجِلُّ العامل المخلص كما يقدِّر المسوِّف والمرائي.

بلغت الموعظة وأثمر النُّصح، حتىٰ ٱنقلب الحسدُ غبطةً، وتحوَّل الكبر توَاضعاً، والأنفة تذلُّلاً... قرَّت النفس وسكَنت، وٱطمأنت الروح وثابت إلىٰ الحق، فصار الٱمتعاض قبولاً وتسليماً، بل عاد رضىً وسروراً.

كان الطود الأشم الذي ظهر أمامهم أو الجبل الرفيع الذي ٱنكشف لهم فجاة، يشبه «رَضوىٰ»... الذي ينتصب شامخاً في شمال «الحجاز» بٱرتفاع يناهز ٢٢٠٠م، يراه القادم إلىٰ «ينبع»، يلوح ـ قُبيل الطلوع ـ شعاعُ الشمس علىٰ قُننه، التي تبدو كرِماح مغروسةٍ (كما عبَّر عنها «الزركلي»)، إذا ٱنجابَ عنها ومرَّ ما تعانق أو يعانقها من سحاب، وإلَّا فقِمَمه محجوبة في تراكم المزن وتكاثف الغمام. ويبدو أنه، بعد المظهر، يماثله في كثرة الغابات والأحراج ووَفرة العيون والمياه، وفي ٱنقطاع المسالك والدروب، فكأنه محميَّة طبيعية للحيوانات البرية، وبيوت النحل، ومَنابت البُنِّ، والعرعر (من الصنوبريات)، والعُتُم (الزيتون البرِّي)، والبَشَام (مما يُستاك به)، والخزام (شجر تصنع من لحائه الحِبال)، والشَوْحَط (شجر جبالٍ تُتخَذ منه القِسيُّ، وله ثمرةٌ مثل العنَبة الطويلة)، والحماط (التين الجبلي).

تداعت صورة «رَضوىٰ» في خاطر «نجيب»، ومعها ملحقاتها ومتعلّقاتها، وما رسخ في ذهنه من قراءات ومطالعات أخذته إليها عبارة " دعاء الندبة " الذي يتعاهد تلاوته: " أ برَضوىٰ أم ذي طوىٰ " ؟!...

وكان قد رأىٰ في أحاديث خروج «المهدي» عجَّل الله فرَجه أنه سيجتمع بـ «النبي» صلى الله عليه وآله و«علي» عليه السلام في جبل «رَضوىٰ»... وفي إحداها: " ثم يأتي إلىٰ جبل «رَضوىٰ»، فيأتي «محمد» و«علي» فيكتبان له عهداً منشوراً يقرؤه علىٰ الناس، ثم يخرج إلىٰ «مكَّة» والناس يجتمعون بها " .

وعن «عبدالأعلىٰ مولىٰ آل سام» قال: " خرجت مع «أبي عبدالله» عليه السلام فلما نزلنا «الروحاء» (١) نظَر إلىٰ جبلها مطلًّا عليها، فقال لي: ترىٰ هـٰذا الجبل؟ هـٰذا جبل يدعىٰ «رَضوىٰ» من جبال «فارس»، أحبَّنـا فنقله الله إلينـا، أمـا إنَّ فيه كل شجـرة مطعم ونعم أمـان للخـائف مـرتين، أمـا إن لصاحب هـٰذا الأمر فيه غيبتين: وَاحدة قصيرة والأُخرىٰ طويلة " .

(١) الرَّوحاء: تقع علىٰ بعد ٨٠ كيلومتر من «المدينة المنورة»، وهي محطة للقوافل، وكان «رسول الله» صلى الله عليه وآله يـنزل بها إذا أراد الحج أو العمرة، أو عند رجوعه من بعض الغزوات. وقد ٱرتبطت تـاريخياً بكثير من الأحـداث، ووَردت في كثير من الأحـاديث، وذكـرت في كتب السيَر. ومما وَقع فيها كما جاء في (كنز العمال) لـ «المتقي الهندي» ج١٢ ص٤٠١ ـ ٤٠٤:

عن «أسامة بن زيد» قال: خرجنا مع «رسول الله» صلى الله عليه وآله في حجته التي حجَّها، فلما هبطنا بطن «الرَّوحاء» عـارضَت «رسول الله» صلى الله عليه وآله ٱمرأةٌ معها صبيٌّ لها، فسلَّمت عليه، فوقف لها، فقـالت: يا «رسول الله»! هـٰذا ٱبني فلان، والـذي بعثك بـالحق، مـا زال في خنق وَاحد، أو كلمة تشبهها، منذ وَلدْتُه إلىٰ الساعة، فٱكتنع إليها (أي دنا منها) «رسول الله» صلى الله عليه وآله ، فبسط يده فجعله (أي الصبي) بينه وبين الـرَّحْل، ثم تفَلَ في فيه، ثم قال: ٱخرج عدوَّ الله! فإني «رسول الله». ثم ناوَلها إياه فقال: خُذيه فلن ترين منه شيئاً يريبك بعد اليوم إن شاء الله.

فقضينا حجَّنا ثم ٱنصرفنا، فلما نزلنا بـ «الرَّوحاء» (في طريق العودة) فإذا تلك المرأة ـ أُم الصبي ـ جاءت ومعها شاة مصليَّة (مشويَّة، صلَى اللحم: شوَاه) فقالت: يا «رسول الله»! أنا أُم الصبي الـذي أتيتك به. قالت: والـذي بعثك بـالحق، ما رأيت منه شيئاً يريبني إلىٰ هـٰذه الساعة. فقال لي «رسول الله» صلى الله عليه وآله : يا «أسيم» (قال «الزهري»: هـٰكذا كان يدعىٰ «أسامة»)، ناوِلني ذراعها، فٱمتلختُ الذراع فناوَلتها إياه، فأكلَها. ثم قال: يا «أسيم»! نـاوِلني ذراعها، فٱمتلختُ الذراع فنـاوَلتها إياه، فأكلها. ثم قال: يا «أسيم»! ناوِلني الـذراع. فقلت: يا «رسول الله»... إنما للشاة ذراعان! فقال «رسول الله» صلى الله عليه وآله له: أما إنك لـو أهـوَيت إليها ما زلتَ تجد فيها ذراعاً ما قلتُ لك!

ثم قال: يا «أسيم»! قُم فٱخرج فٱنظر، هل ترىٰ مكاناً يواري «رسول الله» صلى الله عليه وآله ؟

فخرجت فمشيت حتىٰ حسرت، فما قطعت الناس، وما رأيت شيئاً أرىٰ أنه يوَاري أحداً، وقد ملأ الناس ما بين السدين (الجبلين).

قال «رسول الله» صلى الله عليه وآله : فهل رأيت شجراً أو رجماً؟

قلت: بلىٰ! قد رأيت نخلات صغاراً إلىٰ جانبهن رجَم من حجارة.

←

وفي كتاب ‹القـائم› لـ «الفضل بن شـاذان» عن «الإمـام الصادق» عليه السلام قال: " إنَّ أرواح المؤمنين ترىٰ «آل محمد» عليهم السلام في جبال «رَضوىٰ»، فتأكل من طعـامهم، وتـشرب من شرابهم، وتتحـدَّث معهم في مجالسهـم، حتىٰ يقـوم «قائمنا» «أهل البيت». فإذا قـام «قائمنـا»، بعثهم الله تعـالىٰ، وأقبلوا معه يلبُّـون زُمَراً زُمَراً. فعند ذلك يرتاب المبطلون، ويضمحل المنتحِلون، وينجو المقرَّبون " .

لم يكـن «رَضوىٰ» جبلاً كسائر الجبال، ولا هـو الآن مثلها، مجرَّد موقع جغرافي، ومعلَـم تضاريسي، وشكل جيولوجي... بل كـان ومـا زال مركـزاً لٱلتقاء كُمَّل الأرواح، ومحلًّا لنزول الفيض الذي يتيح لها رؤية سادتها «الأئمة الأطهار»، ويفسح لها لتأنس وتلتذ وتنعم بلقائهم، فتنهل من جودهم، وتغترف من فضلهم، وتتزوَّد من معينهم.

←

فقال: يا «أسيم»! ٱذهـب إلىٰ النخلات فقل لهن: يأمـركن «رسول الله» صلى الله عليه وآله أن يلتحق بعضكن ببعض حتىٰ تكنَّ سترة لـ «رسول الله» صلى الله عليه وآله، وقل ذلك للرَّجَم.

فأتيت النخلات فقلت لهن الذي أمرني به «رسول الله» صلى الله عليه وآله، فوالـذي بعثه بـالحقِّ نبياً، لكأني أنظر إلىٰ تعاقرهن بعروقهن وترابهن، حتىٰ لصق بعضهن ببعض، فكُنَّ كأنهن نخلة وَاحدة. وقلت ذلك للحجارة، فوالذي بعثه بالحق، لكأني أنظر إلىٰ تعاقرهـن حجَراً حجَراً، حتىٰ علا بعضهن بعضاً، فكُنَّ كأنهن جدار. فأتيته فأخبرته فقال: خذ الإداوة. فأخذتها ثم ٱنطلقنا نمشي، فلما دنونا منهن سبقتُه فوَضعت الإداوة ثـم ٱنصرفت إليه. فٱنطلق فقضىٰ حاجته ثم أقبل وهو يحمل الإداوة فأخذتها، ثم رجعنا. فلما دخل الخباء قال لي: يا «أسيم»! ٱنطلق إلىٰ النخلات فقل لهن يأمركن «رسول الله» صلى الله عليه وآله أن ترجع كل نخلة منكن إلىٰ مكانها، وقل ذلك للحجارة. فأتيت النخلات فقلت لهن الذي قال «رسول الله» صلى الله عليه وآله، فوَالذي بعثه بالحق، لكأني أنظر إلىٰ تعاقرهن بعروقهن وترابهن حتىٰ عادت كلُّ نخلة منهن إلىٰ مكانها. وقلت ذلك للحجارة، فوَالذي بعثه بالحق، لكأني أنظر إلىٰ تعاقرهن حجَراً حجَراً حتىٰ عاد كلُّ حجَر إلىٰ مكانه، فأتيته فأخبرته بذلك صلى الله عليه وآله . ■

وقد كان من قبل بقعة أحبَّها سادة الوجود، فنقلوه من وَطنه ومغرسه الأوَّل، إلىٰ جوَار وَطنهم ومدينتهم، فٱمتثل فسُيِّر الجبل من مكانه بالقرآن الناطق، وقطعت به الأرض، وٱستنطق ميِّت جماده وكلَّمه... كل ذلك حقيقة لا سراباً يتراءىٰ، وقبل أن تقوم ـ بطبيعة الحال ـ القيامة الكبرىٰ.

لم يكن المشهد الذي ظهر أمام «نجيب» مجرَّد هضبة كبيرة تحيط بسلسلة جبال فتطوِّقها! كانت في حقيقتها شيئاً آخر...

إنه بناء ضخم عظيم في جوف الجرف الصخريِّ وقلب الجبل العالي، صرحٌ علىٰ هيئة هضبة تتوسَّطها جبال، أو هي هضاب وجبال نُحِتت ونقِرت مغارات وحجرات، بل حصوناً وقصوراً، وأنفاقاً وشعاباً وألجافاً، فغدت عمارةً وصرحاً يفوق المدن العظيمة حجماً وسَعة، ويتخطَّاها تقدُّماً وتطوُّراً... أدوار متعدِّدة بمساحات شاسعة، علىٰ أحدث هندسة العمارة وأغرب طُرز البناء، قاعاتٌ فسيحة ودُورٌ كبيرة، غرفٌ وأركان وأبهاء، تربطها طرُقٌ وممرَّات، وبينها أروِقة ودهاليز، ومصاعد وأدراج وبُسُط متحركة، كلُّها، أو جلُّها ممردة ملساء، برَّاقة لامعة، وَضَّاءة مشرقة، كأنها من قوارير وزجاج يشفُّ، حتىٰ تخال بعض الجدران الفاصلة بين الغرف ألواحاً من ماء زلال، ٱستقرَّت في موَاقعها وقامت منتصبة دون قوالب وأوْعية.

لا كهرباء هنا ولا طاقة، لا وقود ولا كيماويات، لا نفط أو غاز يحترق ليولِّد كهرباء، ولا مفاعلات نوويَّة تشطر أو تجمع الذرات فتخلق طاقة حرارية مهولة تضيء وتدير الأجهزة وتزوِّدها بما تحتاج، بل ولا حتىٰ طاقة خضراء، شمسية أو من تلك التي تعتمد علىٰ طواحن الهواء، أو البديلة التي تلجأ إلىٰ التدوير وٱستغلال النفايات، فلا نفايات هنا!...

كلُّ حُجرة وقاعة تُفرش بحاجة العاملين فيها، تتكيَّف مع رغباتهم وتتوَافق ومتطلَّباتهم، ولربما تعدَّد العاملون في المكان الوَاحد، فيتلقَّى كلٌّ منهم ما يريد من إضاءة (دون مصابيح)، وتتعادل حوله حرارة الجو لتخلق الطقس الأمثل الذي يوَافقه ويطيب له (دون أجهزة تكييف)، ولربما كان أقلَّ برودة أو أكثر رطوبة مما يريد جاره، حتىٰ ليكون عكس ما يرغب به زميله المحاذي له! فيحظىٰ كلٌّ بما يشاء، وينعم بما يطيب له من إضاءة وأجواء... فلا تزاحم هنا ولا حرَج، فذرَّات الهواء هي طوع رغبة هٰؤلاء، كما الحيتان في البحار والأطيار في السماء! أما الأجهزة أو العقول الألكترونية التي تتولىٰ العمل هنا، فكأنها تستمد الطاقة من الهواء! أو من هي ليست بحاجة إلىٰ الطاقة أصلاً!

شيءٌ يأخذ الألباب ويطير العقول، ويتركك في حيرة وذهول... فبعد تلك الطبيعة الخلَّابة والمسحة الجنَّاتية، في الشلَّالات والأنهار، والبساتين والأشجار، والثمار والأزهار، والحيوانات والأطيار، هٰذا صرحٌ تتداعىٰ معه وتتمثل صورة ما شيَّد البنَّاؤون والغوَّاصون، وما كان يفعل الشياطين ومردة الجنِّ لـ «سليمان»، لٰكنه تمَّ دون أن يُقرَن أحَدٌ ويكَبَّل في الأصفاد، قام الصرح وأُنجز البناء، وما زال العمل يمضي علىٰ أيدي صالحي الجنِّ وأتقيائهم وأخيار الإنس ونجبائهم، وقد ٱنقطع الجميع هنا إلىٰ خدمة هي تمام عبادتهم وذروة سعادتهم، حتىٰ لَيفضِّل أحدهم الموت علىٰ أن يعفىٰ من عمله أو يصرَف عن دوْره، فيُستعاض عنه بغيره! إنهم في حالة ملائكية تأخذ في بعض السماوات شكل التسبيح والتهليل، هٰكذا ٱنصرف هٰؤلاء إلىٰ البناء، وٱنقطعوا إلىٰ ما أُنيط بهم من مهامَّ ووكِّل إليهم من أعمال.

أُدخل «نجيب» غرفة وَاسعة كبيرة، قاعة رحبة فسيحة، يعمل فيها رجال خمسة، يباشرون مراصد أُسطورية، وينظرون في كواشف خرافية، تظهر صوَراً ومَشاهد، وتراقب حالات وأشخاصاً وحوادث، يستعرضها العاملون ويتابعونها عبر "حواسيب" غريبة في شكلها وصُنعها، فعنصرها أو مادتها، سواء في الشاشات والأسطح المرئية التي تُظهِر نتائج بحثها وتحليلها، أو في القلوب والرؤوس التي تستقبل المعلومات وتخزِّنها ثم تبثُّها وتعرضها... أثيريَّة متموِّجة ما زالت تتكثَّف، فتخرج عن هيئة الهواء النقيِّ الخالص، إلىٰ شبه الماء أو الهلام الشفاف، أو البلور والزجاج، ولٰكن دون أن تصنع جرماً غليظاً وجسماً محسوساً، فتشغل حيِّزاً، فإذا مدَدْتَ يدك نفذت فيها، أو أرسلتَ جسماً وقذفتَ شيئاً نحوَها ٱخترقها!

وكانت "المادة" تُحاذي أو تلتصق بجدار الغرفة، ولربما ٱمتدَّت لتكسو السقف، أو ٱنحسرت عن لوْحة معلَّقة نُقِش عليها: "يا علي"، رُسمت الياء فيها معكوفةً، ترجع تحت اللام والعين، ثم تعود "المادة" لتعتنق اللوحة وتضمَّها، وتترك "شاشاتها" في متناول مَن يريد... تتقلَّب علىٰ صفحاتها أخبارٌ وتقارير وتحليلات، تتتابع وَفق رغبة العاملين عليها، بمجرَّد سؤال يوجِّهه أحدهم، وفي بعض الأحيان، بمحض إرادته وٱنصراف نيَّته...

إنهم يراقبون ما يجري في موَاقعَ معيَّنة، ولربما تدخَّلوا فغيَّروا بعض المسارات... وقد تبيَّن أنَّ هٰذه الغرفة تعنىٰ بنطاق وفئات بعينها، وهناك غرف أُخرىٰ تتولىٰ أماكن ونطاقات وأشخاصاً آخرين. ناهيك عن أقسام رئيسة موَازية ترتبط بمراقبة سكَّان العوالم الأُخرىٰ، والسماوات والنجوم، وهي التي أخذوا «هب» و«رع» و«عيص» ـ كما أُخبر لاحقاً ـ إليها.

وهنا سيلٌ جارف من المعلومات يتدفَّق في كُلِّ آن، بلا توقفٍ ولا إبطاء، صوَرٌ تتلاحق، ومشاهد تتمثَّل، ومسارات تُرسَم، تتابع الأفراد وتلاحقهم في كلِّ صغيرة وكبيرة، وأية شاردة ووَاردة. ولكلِّ فرد نطاقات رصْدٍ ومتابعة عِدَّة، في سلوكه وأدائه الفردي على جميع أفعاله وتروكه، من عباداته وعلاقته بربه، أو تجاه الناس مما يعود إلى ذاك، وكذا في نشاطه العام وموقعه الجماعي، في ٱنتمائه وتحزُّبه، وما يفضي إلى ٱصطفافه وتموضعه، ودخوله في مَحاور وجبهات و " تكثير سوَاد " ، سواء عن وَعي وعمد، أو جهل وغفلة.

يُعرَض كلُّ ذلك في صفحات ويُشاهَد على لَوْحات مُنظَّمة بشكل متعاقب متتابع، متراصَّة ككتاب، متتالية في مصحف وديوان، حتى إذا أراد أحَدهم الٱطلاع على أمر يتعلَّق بشخص، أو متابعة حدَث، ورؤية مشهد سابق، تقدَّم على باقي اللوحات والصفحات وظهر أمامه، متموِّجاً نابضاً بالحياة، في بثٍّ مصَوَّر، لا ثلاثيِّ الأبعاد فحسب، بل مجسَّمٍ وحاكٍ للمشهَد كما هو، وكما تلقَّاه الحاضر الناظر، وعاشه الشاهد الفاعل... لا مجرَّد عرض معلوماتيٍّ جافٍّ، أو نقلٍ مجتزئٍ أبتر، تقوم به أحرفٌ ألكترونية، وتصوِّره شراراتٌ كهربية، تُتَرجَم صوَراً وتظهر كمَشاهد.

وهٰذه المراقبات والمتابعات تُفضي في مجموعها وتخلُص في محصِّلة نهائية، تُدمَج وتضغط في إشارات ووَمَضات (وكذا يُفعَل بالأخبار الخطيرة أو الأحداث الطارئة والعاجلة)، وتغلَّف بمغاليق وتُقفَل بـ" شيفرات " ، لتُنقل إلى مَوقع يقال إنَّ «المولى» عليه السلام يستوي فيه هناك على عرش مُهيمنٍ، ويتربَّع على كرسيٍّ رفيع يشرف على جميع " غرف العمليات " في " الجزيرة " ... فيذهل الناقل حين يرى أنه عليه السلام كان مسبوقاً بها، مطَّلعاً من قبل عليها!

عندما نظر «نجيب» إلىٰ الغرفة وما يدور فيها، ولا سيَّما هـٰذه الآلة و " الحاسوب " العظيم، والقدرات الخارقة التي يتمتَّع بها، دون ٱرتباط منه بشبكة معلومات، أو مصوِّرين ومراسلين في موَاقع الحدث، ولا ٱتصال بأقمار صناعية أو بـ " كابلات " أرضية، ألكترونية أو ضوئية، ولا حتىٰ ثمة قابس يوصَل بمصدر طاقة!... عندها ٱستحضر الأحاديث الشريفة التي تصف أشكال الملائكة وهيئاتها، سوَاء في عوالمها، أو حين تتجسَّد وتتمثَّل في عالمنا، فيُقدِّمها «المعصوم» عليه السلام لإنسان خالي الذهن، بصورة مقرِّبة، تستلهم من محسوساته وتحاكي مُدرَكاته وتساير معلوماته، كما في حديثٍ وَصَف «صرصائيل» الملَك:

" عن «أميرالمؤمنين» عليه السلام قال: بينا «رسول الله» صلى الله عليه وآله في بيت «أُم سلمة»، إذ هبط عليه ملَكٌ له عشرون رأساً، في كلِّ رأس ألفُ لِسان يسبِّح الله ويقدِّسه، كلُّ لِسان بلُغة لا تشبه الأُخرىٰ، راحته أوسع من سبع سماوات وسبع أرضين. فحَسِب «النبيُّ» صلى الله عليه وآله أنه «جبرائيل» فقال: يا «جبرائيل» لم تأتني في مثل هـٰذه الصورة قطُّ؟ فقال الملَك: ما أنا «جبرائيل»، أنا «صرصائيل»، بعثني الله إليك لتزوِّج النور من النور. فقال «النبيُّ» صلى الله عليه وآله : مَن بمَن؟ قال: ٱبنتك «فاطمة» من «علي بن أبي طالب» عليه السلام، قال: فزوَّج «النبيُّ» صلى الله عليه وآله «فاطمة» عليها السلام من «علي» عليه السلام، بشهادة «جبرائيل» و«ميكائيل» و«إسرافيل» و«صرصائيل» عليهم السلام. قال: فنظر «النبيُّ» صلى الله عليه وآله فإذا بين كتفي «صرصائيل» مكتوبٌ: لا إله إلا الله، «محمدٌ» رسول الله نبيُّ الرحمة، «علي بن أبي طالب» مقيمُ الحجَّة. فقال «النبيُّ» صلى الله عليه وآله : يا «صرصائيل» منذ كم كُتِب هـٰذا بين كتفيك؟ قال: من قبل أن يخلق الله «آدم» بإثني عشر ألف سنة " .

ٱستحضر الرواية وطائفةً من نظيراتها، وتذكَّر منكِريها، الذين لا يكتفون بجحدها، حتىٰ يُقحِموا أنفسهم في الأخسِّ الأرذل، ويكونون من المستخفِّين المستهزئين بها... كم هم لُكْعٌ حُقراء، وأين يمكن أن تبلغ بالإنسان التفاهة والدناءة، ثم التعاسة والشقاء؟ وقد زادت نفرته وأناف ٱشمئزازه من "العصريين" و "الحداثويين"، الأدعياء المتطفِّلين علىٰ الدين، زمرة من المتسلِّقين الوصوليين، لا تعرف لهم أصلاً ولا تقف علىٰ فرع، لُقطاء عالم الفكر والمعرفة، ونغول دنيا الثقافة، أبناء سِفاح لا يُعلَم الباذِر فيه والملقِّح، ونتاج بِغاء لا تعرف فيه الرحم المسقِط أو المولِّد. يقطِّعون الحقائق ويجتزئون المعارف ويجعلون ﴿ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ﴾...

لم يستطع «نجيب» أن يَتبيَّن: أ آلةٌ مصنوعة وحاسوب هٰذا، أم هو مَلَك كريم ظهر بهٰذا الشكل الغريب؟ أم تراه هو شكله الأصلي وهيئته الحقيقية، كما قرَّبته الرواية بذاك الوَصف والبيان، ومثَّلته لعقول المخاطبين الحاضرين وصوَّرته بما يمكنهم تصوُّره وفهمه؟... إن ثمَّة نفحةً من حياةٍ في هٰذا الجهاز، والأمر يتجاوَز العقل الألكترونيَّ أو الحاسوب الذكي، إلىٰ ما يحاكي المشتغل معه، وينفعل مع المعلومة التي يسجِّل ويحمل وينقل، إنه يحسُّ ويشعر، لا يحلِّل ويستنتج من معطيات ما لُقِّن وغذِّي به من معلومات فحسْب! فإن صدُق أنه كائن حيٌّ ومَلَك كريم، فقد ظهر هنا بعشرين رأساً ووَجهاً، توزَّعت في أرجاء القاعة، وهو يحمل ألف لسان، وله أكفٌّ وراحات تحوي ما لا يحصىٰ من صفحات، فإذا بُسِطت شعَّ ما سُطر فيها، وإذا شاء العامل وأمر المراقب، ٱنتقل المدوَّن المسطور هناك وٱستُنسِخ لينطبع في ذهنه، ويستقرَّ في قلبه، ويحضر في نفسه!

تقدَّم أحد العاملين في القاعة ودنا من «عبدالحميد» فقال:

سيدنا الجليل، أدرِكْ صاحبك، فقد أخذه الدهش والذهول، وبُهت وبلْدَم، إنه صامت مطبِق مُذ ألقىٰ التحيَّة وسلَّم، ولم ينبس بعدها ببنت شفة... وإن لم تُسعفه بشرحٍ يجلي ما يرىٰ، وتشغله عن توالي الجديد ببيان يستبق ما يأتيه، فسيفقد الرجل صوابه ويُجنُّ جنونه... أدرِكْه يا مولانا قبل أن يختبل!

التفت «عبدالحميد» إليه، لكنَّه أخذ يتكلَّم بلحن مَن يحدِّث نفسه، فلم يستقبله بوَجهه وينصرف تلقاءه، بل كان ينظر أمامه:

من هنا يُدار العالم، هذه إحدىٰ غُرف العمليات ومقرَّات القيادة التي تتابع الأحداث وتراقب الأشخاص وتقود المعارك وتدير الصراعات في العالم. في هذا الصرح، ومن مِثل هذه الغرفة، صدرت الأوامر، وفُعِّلت الطاقات، وتوجَّهت قذائف الحق، لتقلب الموازين وتدير المقادير، بما صرف عنكم دائرة السَّوْء التي كانت تُخَطُّ وتُرسم، وتُدار حولكم... تتربَّص بكم من «ماليزيا» إلىٰ «المغرب»، حتىٰ «أُوروبا» و«أمريكا»، تصرف مليارات وتُخصِّص أُخرىٰ، ميزانيات

خُرافية تبتاع الذمم، وتشتري عشرات آلاف المقاتلين، ومئات آلاف الأنصار، وملايين تصنع بيئات حاضنة. ولا تبالي أن تنهار أسعار النفط وتبلغ الحضيض، بل لا تكترث أن تنضب آباره، إن هي حقَّقت هدفها الأعظم: محقكُم وإفناؤكم، وإبادتكم وٱستئصالكم! فبهٰذا تتأخَّر فرصة تحقيق الوَعد الإلهي، وتتعثَّر هزيمة الشيطان!

كانت تعِدُّ خلاياها بهدوء، وتحضِّر مجاميعها في خفاء، وتدبِّر مكائدها بلَيْل، حتىٰ تكتمل عدَّتها، ويبلغ عديدها النصاب، فتشرع المواجهة ويبدأ التنفيذ وتشنُّ الغزوات...

ترمي بالكفر وتقذف بالشرك، لتغرس الكُره وتزرع الغلَّ، وتدرِّب علىٰ الغيلة والغدر، وتوطِّئ للقتل والفتك، وترسم لخطَّة عظمىٰ وتعِدُّ لمؤامرة كبرىٰ، تبدأ بحصار أبناء الطائفة والتضييق عليهم في معاشهم، فيُقصَوْن من الوَظائف، ويُمنَعون عن الأعمال، ويُقاطَعون في الأسواق والتجارات وموارد الكسب وأسباب الرزق. ثم يحارَبون في عقائدهم، ويلاحَقون في شعائرهم.

لتنتقل المواجهة في مرحلتها التالية إلىٰ تصفية العلماء والكفاءات المؤمنة، لتبلغ في النهاية تفجيرات ٱنتحارية تطال تجمُّعات الناس في المساجد والحسينيات، بل كافَّة المحافل، لا توفِّر الأسواق والمدارس، ولا تميِّز بين رجال ونساء، أو أطفال وشيوخ وشباب، لا في هوياتهم التفصيلية ولا أفكارهم ومتبنياتهم، التي قد يلتقي بعضها بمشروع القوم!...

إعدادٌ أمنيٌّ متطوِّر، وتجييش مُتقَن، تحت مسمىٰ جمعيات ثقافية، ومظلَّة مبرَّات خيرية، حوَّلت ملاجئ أيتام ومستوصفات طبيَّة ومدارس دينية، إلىٰ معسكرات تدريب ومستودعات أسلحة، وثكنات عسكرية ومقرَّات أمنيَّة ومراكز حزبيَّة.

وأنتم في غفلة ورقاد، ونوم وسُبات!...

ومنكم مَن أعانهم وأفسح لهم وهو يوَجِّه العداء إلىٰ غيرهم، ويخلق محوَراً آخر للصراع يأخذ الأُمة إليه ويدفعها فيه. ما أتاح للعدوِّ الأخطر، مزيدَ تجهيز وإعداد، وأعفاه من تبعات المطاردة وتضييقات الملاحقة، وسمح له ومكَّنه من مزيد عمليات الإرهاب!...

كان بعضكم ـ في البداية ـ يُغطِّي تفجيراتهم ويلتمس لهم البراءة، ويُسعفهم بٱتهام غيرهم! ما صرف عنهم الأنظار وأخرجهم من دائرة الاتهام، وأبقاهم طليقين يتحركون بحُريَّة وسَعة، ويعملون في أمان وراحة... بغطاء وَفَّره وقدَّمه السفهاء منكم، الذين قبلتموهم أولياء وكرَّستموهم قادة!

من هنا يا «نجيب»، نفَر جندُ الله، فٱنطلقوا يكيدون لقادة «النواصب» ويستدرجونهم من حيث لا يعلمون، بعد إمهالٍ متَّعهم حيناً بالمال والسلطة، والعديد والعدَّة، والبأس والقوة... فراحت يد الغيب تملي لهم من كيد الله المتين، ما أوْهمَهم المكنة والقدرة، ومنَّاهم الحصانة والمنعة، وأشعَرهم الأمن والأمان، فركنوا إلىٰ أهوائهم وٱغترُّوا بأمانيِّهم، وسوَّلت لهم أنفسهم.

هٰكذا ٱستُدرِجوا من حيث لا يعلمون، حتىٰ سقطوا في التمادي وأسرفوا في الطغيان، فصاروا يمضون من تلقائهم إلىٰ حتفهم، ويسعون بأقدامهم إلىٰ الحفرة التي ٱحتفروها لكم، والوقوف علىٰ جرف الهاوية التي أرادوا

أن يلقوكم بها، وشفير النار التي أضرموها ليقذفوكم فيها... ما وَطَّأ لنزول النقمة، ومهَّد لإحداق البلايا بهم، فغدوا في معرض الهلاك وأصبحوا في شرُف الفناء. وسترىٰ إن أحببت صوَر نهايتهم! فهنا يمكنك أن تُشاهد الآتي من الحوادث والقادم من الوقائع وما سيكون من أُمور، كما يمكنك أن ترىٰ الماضي السابق، وستنعم وتسعد بمَشاهد القضاء عليهم ويشفىٰ صدرك برؤية هزيمتهم وٱستئصال شأفتهم!

كانوا مُنعَّمين في الظاهر، مُستدرَجين في الحقيقة، سواء في أنفسهم وما يتوهمون، أو في الوَاقع الخارجي، وما ينالهم ويطالهم...

يحسبون "ٱنتصاراتهم" وإنجازاتهم جزاءً من الله وكرامة، وعلامةً علىٰ صحَّة العمل ووُقوعه في القبول والرضا، يقولون: لو كنَّا علىٰ باطل لما نصَرَنا الله تعالىٰ، ولا أعزَّنا ومكَّننا! وما زالت نعَمه تُبسَط لنا، وأياديه تتجدَّد علينا كلَّما تمادينا، ومضينا في إراقة الدماء والقتل والتفجير؟!

إنه فرَحُ بطَرٍ، كفرَح «قارون»...

وسرُّ الاستدراج وقوامه أن لا يعلم به مَن يقع عليه ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾! فلا يعلم شيئاً عن الهلاك الذي ينتظره، ثم لا يشعر بالكيد من توالي النِّعم، والمكر في تجدُّد الفضل، يحسبون ﴿أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾، وقد قال تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾، وأنَّ أَخْذَ الجبار المنتقم حين يأخذهم، أليمٌ شديد ﴿إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾.

هٰكذا تحركت " يد الغيب " ، تحيك مقدمات، وتصوِّر معطَيات، وتختلق أمارات، وتنصب شواهد، وتقيم قرائن، وتُغري بمرجِّحات، تُوهِم أدلَّة وتزيِّن براهين، أوْجدَت في أذهان قادة «القاعدة» وصُنَّاع القرار فيها أفكاراً، وزرعت فيهم قناعات، طُمِس في نهايتها ونتيجتها علىٰ أعينهم، وغُمَّ من فعلِها علىٰ قلوبهم، فعمدوا إلىٰ " غزوة نيويورك " ووَقعوا في فخِّ " الحادي عشر من سبتمبر " !

ثم عاد جند الله ووَجَّهوا قذائفهم الناعمة، ورموا سهامهم المردية القاتلة، الخفيَّة الخرساء، الكتوم إلَّا عن نئيمٍ عند الإنباض، إلىٰ عقول قادة الغرب ورؤساء القوة الأعظم في العالم، فأردوها، حتىٰ أُسِرَت وٱرتُهِنت، فساقوهم ليحاربوا حكومة النواصب في «أفغانستان» وهم صنائعهم، وقادوهم إلىٰ طاغية في «العراق» وهو عميلهم وأجيرهم، وما زالوا حتىٰ قضوا علىٰ أعزِّ ربائبهم، وأجهزوا علىٰ أفضل عملائهم وخدَّامهم... هٰكذا خلَّصوكم من أعدىٰ أعدائكم، أزالوا مُلكهم، وخرَّبوا بيوتهم بأيديهم، بعد أن أفنوا أعمارهم وصرفوا أموالهم في بنائها للنيل منكم والقضاء عليكم!

ولولا جهلُ زمرة وطيشُ جماعة منكم، وشيطنة رهط وفرقة، وضلال حزب وفئة، قادوكم إلىٰ المهالك وجرُّوكم إلىٰ الحروب، لٱستتبَّ الأمر لكم، ومضىٰ هنيئاً مريئاً، ولتلقَّيتم جزاء سابق صبركم وحُسن بلائكم، نعيماً تاماً وأماناً كاملاً، من كمال جود «المولىٰ» وتمام كرمه!

ولـكـنَّكم أبيتم إلَّا رعونةً وهوَجاً، وتهوُّراً ونزقاً، وما رضيتم حتىٰ حكَّمتم مدَّعياً ملوَّثاً جهولاً، قحم بكم أهوالاً ما كُتِبت عليكم، وأدخلكم في بلاءاتٍ عافاكم الله منها، وساق إليكم محناً كانت مصروفة عنكم.

وقد قال «النبي» ﷺ: " ما وَلَّت أُمَّةٌ قطُّ أمرها رجلاً وفيهم أعلم منه، إلَّا لم يزل أمرهم يذهب سفالاً حتىٰ يرجعوا إلىٰ ما تركوا " .

وقال ﷺ: " مَن أمَّ قوماً وفيهم أعلَم منه أو أفقَه منه، لم يزل أمرهم في سَفال إلىٰ يوم القيامة " . وقال «الباقر» عليه السلام: " أربعٌ من قوَاصم الظهر، منها إمامٌ يعصي الله ويطاع أمره " ... وقد عصىٰ صاحبكم ربَّه أيَّ عصيان! حين ٱدَّعىٰ ما ليس له، وٱنبرىٰ لما لم يجمع شرائطه، وتصدَّىٰ لما لم يستوفِ حقَّه.

ألم يبلغكم قول «أبي جعفر» عليه السلام: " قال الله تبارك وتعالىٰ: لأُعذبنَّ كلَّ رعيَّة في الإسلام أطاعت إماماً جائراً ليس من الله، وإن كانت الرعية في أعمالها بَرَّة تقيَّة، ولأعفوَنَّ عن كلِّ رعيَّة في الإسلام أطاعت إماماً هادياً من الله، وإن كانت الرعيَّة في أعمالها ظالمةً مسيئة " ؟!

فماذا كـان في صـاحبهم ومنه إلهيّـاً حتـىٰ أطاعوه؟ وماذا رأوا فيه حتىٰ عظَّموه؟ وفيمَ كان هدْيه ورشْده حتىٰ اتَّخذوه وَليّاً؟ وفيكم الأعلم منه والأتقىٰ، وأكمل عقيدةً وأزكىٰ، ومَن يفوقه أضعافاً مضاعفة!

كلُّ ما يدور في هـٰذا العالم ويحدث في هـٰذه الدنيا، مرصودٌ مُتابَع، مُتعقَّبٌ مُلاحَق، لا شيء سادِرٌ مهجور، ولا أحَد مُهمَلٌ متروك، لا صغيرة ولا كبيرة إلَّا تحصىٰ. وهنا مقرُّ الرصد والمتابعة، ومركز العدِّ والإحصاء، ومن بعدُ الفرز والتحليل، فالتصنيف والتبويب، ثم رفعٌ إلىٰ السماء...

مَلفَّاتٌ وإضبارات ضخمة متجدِّدة، تخضع لتحديث آنيٍّ متوَاصل، ورفد معلوماتيٍّ لا ينقطع. ولها في يومي الإثنين والخميس شأنٌ آخر، ففيهما تُعرَض الأعمال وتُرفع التقارير النهائية إلىٰ «وَلي الأمر» عليه السلام لينظر فيها، فيسوؤه ما يسوؤه، ويستحسن منها ما يستحسن، فتصدر الأوامر وتترتَّب وَفقها المدارج وتُوَزَّع المنازل، ويحظىٰ كلٌّ بالرتبة والمقام الذي يستحقه، قرباً منه عليه السلام أو بُعداً عنه... والعياذ بالله من سخطه.

تقدَّم أحد العاملين في القاعة نحو «نجيب» وراح يحدِّثه، ويعرض عليه أن يُريه ما يحبُّ ويودُّ من محفوظات مخزَّنة ووَقائع موثَّقة هنا، تُستعاد فتُشهد من جديد، مما أُعدَّ ليَشهد علىٰ صاحبه الفاعل عند الجحْد والإنكار، فيُقدَّم ـ بالصوت والصورة ـ كدليل وحُجة، وأُخرىٰ لأحداث تجري الآن، ويعيشها العالم الساعة، يمكنه أن يشاهدها حيَّة من موقعها، فيُطِل عليها ويشرف، كما يفعلون!...

ثم التفت إلىٰ «عبدالحميد» وسأله عن مدىٰ قوَّة «نجيب» وحدود طاقته ودرجة تحمُّلة؟... فنصحه بالتَّمهل والرفق، وأن يكتفي ـ أوَّل الأمر ـ بإطلاعه علىٰ صوَرٍ ثابتة، لا مَشاهد متحركة ونقل أو إحضارٍ حيٍّ للوقائع، فإذا وَجد منه بأساً وقوَّة، مضىٰ معه وٱرتقىٰ به.

أشار الرجل في الهواء بإزاء «نجيب»، فٱرتسمت لوحةٌ زجاجية أو هلامية شفافة كبيرة الحجم، ملأت ناظري «نجيب» فكأنه في المشهد! وأمره أن يلزم بُنصر يده اليسرىٰ حتىٰ يُتاحَ له سماع الصوت، بعد أن تهيِّئ اللوحة وتتيح له رؤية الصورة...

: هـٰذا «عبدالرحمن بن أبي ليلىٰ» يروي عن الصحابي الجليل«أبي ذر الغفاري»...

ظهرت في " الشاشة " صورة رجل، راح ينطق ويتكلَّم، فقال:

قال «أبوذر»: رأيت «رسول الله» ﷺ وقد ضرب كتف «علي بن أبي طالب» عليه السلام بيده وقال: يا «علي» مَن أحبَّنا فهو العربي، ومن أبغضنا فهو العِلج. شيعتنا أهل البيوتات والمعادن والشرف، ومَن كان مولده صحيحاً. وما علىٰ ملَّة «إبراهيم» عليه السلام إلَّا نحن وشيعتنا، وسائر الناس منها براء. وإنَّ لله ملائكةً يهدمون سيئات شيعتنا كما يهدم القوم البنيان.

ثم ٱختفت الصورة وٱنقطع الصوت!...

أشار العامل بيده في الهواء، فكأنه ٱستدعىٰ لوْحة ثانية تَعرض وَاقعة أُخرىٰ ضُبطت من وَقائع التاريخ، وكلُّ الوَقائع مضبوطة، وكلُّ الأحداث مسجَّلة مستودَعة، في ملفَّات وخزائن، فيأنس «نجيب» بالٱطِّلاع عليها ويلتذُّ وينتعش بمشاهدتها.

وهي تُجلب مرَّة وتُحضر لتُعرض من خلال أضابير أصحابها الذين ٱرتحلوا إلىٰ ربِّهم وصاروا في عالم البرزخ، وأُخرىٰ من خلال ملفٍّ آخر مخصَّصٍ للحدَث نفسه.

وبعد إضبارة الحدَث والأُخرىٰ المختصَّة بأشخاصه وأبطاله، هناك تصنيفان رئيسان آخران يحكمان الحفظ والتخزين، ثم الفرز والتقسيم: فرديٌّ شخصي، وجماعيٌّ عام... فيُصنَّف الفرد من حيث الجماعة التي ينتسب إليها، ويلحق بـ"الإمام" الذي يقتدي به، و"الراية" التي ينصرها وينضوي تحتها، أو يكثِّر السواد حولها. وهو تصنيف خطير جليل!

طلب «نجيب» أن يشهد وَقائع أحاديث وروايات كان قد قرأها في ‹الكافي›، وناظرَ فيها وحاجج بعض أصحابه، منها حديثٌ ٱستشهد به وٱستدلَّ علىٰ كون "الولاء" جوهراً وحقيقة، وسرّاً وملَكة، لا تلبث أن تغدو صِبغةً تطبع صاحبها وصفة تلازمه وتندكُّ في وُجوده... شيءٌ كالإكسير، لو ٱحتوىٰ عليه قلب ٱمرئٍ ٱعتمَر، ولو ٱنطوَت عليه نفسٌ زكَت، ولو خامَر روحاً سمَت، فلا ضرَّه عمَل، اللهم إلَّا أن يتمادىٰ في ٱقتراف المعاصي وٱجتراح الآثام، وترك الواجبات والٱستخفاف بالأحكام، ما يُفضي إلىٰ الجحد، فٱنطفاء ذلك النور وخموده في قلبه...

فرموه بالغلو، وٱتَّهموه بالتعصُّب، وقذفوه بالإغراق والإسراف...

أراد أن يسمعه مباشرةً من راوِيه، «معاوية بن وَهب»، وهو من أجِلَّة الأصحاب، والفقهاء الأعلام، الذين أخذ الشيعة عنهم الأحكام.

ٱرتسم المشهد في اللوح، وٱنعكست أو حضرت الصورة في " الشاشة " ، فظهر الشيخ الجليل يحكي الحديث، و«نجيب» يصغي وينصت، وما زال مُصغياً له، مندمجاً معه، منفعلاً به، والدموع تترقرق من عينيه، حتىٰ أجهش وٱنتحب، وصار في الفُحوم والشُّهاق، وهو يكبِّر الله، ويلهج بالصلوات علىٰ «محمد وآل محمد»، في مزيج دهشة وشوق، وغلبه فرَح وجذَل، مما يرىٰ ويحضر... قال «معاوية بن وَهب»:

خرجنا إلىٰ «مكة» ومعنا شيخ متعبِّد متألِّه لا يعرف هٰذا الأمر، يتمُّ الصلاة في الطريق، ومعه ٱبن أخ له مسلمٌ، فمرض الشيخ، فقلت لٱبن أخيه: لو عرضت هٰذا الأمر علىٰ عمِّك لعلَّ الله تعالىٰ أن يخلِّصه. فقال كلُّهم: دعوا الشيخ حتىٰ يموت علىٰ حاله، فإنه حسن الهيئة.

فلم يصبر ٱبن أخيه حتىٰ قال له: يا عم! إنَّ الناس ٱرتدُّوا بعد «رسول الله» إلَّا نفراً يسيراً، وكان لـ «علي بن أبي طالب» من الطاعة ما كانت لـ «رسول الله»، وكان بعد «رسول الله» الحقُّ والطاعةُ له. فتنفَّس الشيخ وشهق وقال: أنا علىٰ هٰذا. وخرجت نفسه!

فدخلنا على «أبي عبدالله» عليه السلام، فعرض «ٱبن السري» هٰذا الكلام على «أبي عبدالله» عليه السلام، فقال: هو رجلٌ من أهل الجنة.
فقال له «علي ٱبن السري» إنه لم يعرف شيئاً من ذلك غير ساعته تلك!؟ قال: فتريدون منه ماذا؟ قد دخل والله الجنة!

وقد تبين أنَّ هناك مستويات للعرض والتعاطي مع المحفوظات هنا، فبعد الشكل الإملائيِّ الأخباري الذي ظهر الآن، هناك مستوىً يُعرض فيه الحدث متحركاً (كـ" فيلم ")، وتظهر تفاصيله وكأن " كاميرا سينمائية " التقطته، وفي مستوىً ثالث يمكن أن يظهر في المشهد شخص «الإمام» عليه السلام! ورابع يتيح للمُشاهد الحضور داخل الحدث والٱنتقال إليه في الحقبة الزمنية التي وَقع فيها! وخامس يسمح أن يعايشه، فيحدِّث أبطاله ويحاورهم، يسألهم ويستفهم منهم، أو يعاتبهم ويحاججهم ويحاسبهم!

كما علِم «نجيب» أنَّ هناك مستوياتٍ وأصعدةً أُخرىٰ يُدرَج الناس ويُصنَّفون فيها، ويُراقَبون من خلالها، لا يمكنه الإحاطة بها أو ٱستيعاب معطياتها وحيثياتها ومداليلها، ولٰكنه وَقَف علىٰ بعضها، وزال عنه الوَهم في فهم إحداها، وخرج من الحيرة البدوية التي نزلت به حين رآها... التقسيم والتصنيف في هٰذا الصعيد لا يقسِّم الناس حكَّاماً ومحكومين، أو دوَلاً ومُعارَضات، أو شمالاً وجنوباً، أغنياءَ وفقراء، أقوياءَ وضعفاء، ولا حتىٰ وَفق الأنساب والأعراق، أو القبائل والعوائل، كما هو الحال في تصنيفات أُخرىٰ وأصعدة سابقة... هنا كلُّ فرد " أُمةٌ " ، قائم بنفسه.

والمراقبون فيه لا يكترثون ولا يعتنون، ولا يرقَبون إلَّا شيئاً بعينه دون سواه: القلب والروح... لُطفَها أو غلظتها، ثقلَها وكدورتها، أوخفَّتها ونقاءَها! إنهم يتحرَّون القلب السليم من السقيم. فإذا ٱستوفىٰ أحدُهم الشروط ٱختاروه وٱستخلصوه، وإن كان منخرطاً في تصنيف مقيت ٱنتشلوه، فيُلتقَط من مقام الجوْر، ويُنتَزع من منصب الظلم، ويُرَحَّل عن وَطن الكفر وبلاد الحرب، أو عشيرة النُصب وحزب الضلال. ولربما ضاق لذلك صدره وحزن وٱكتأب، ورآها مصيبة حلَّت ورزية نزلت، وهي ـ في وَاقعها ـ مقدمة فلاح ينتظره، سينقله إلىٰ سجلِّ الأولياء وعداد الصُّلَحاء، ويغدو من المرشحين للِّحاق بالأنصار والأعوان في ركب «إمام الزمان».

هناك أعمال كبيرة كماً وكيفاً، بعضها يقلب الموازين في دُنيانا ويغيِّر الأوضاع في عالمنا... ليست لها هنا أيَّة قيمة! ولا تشكِّل خطباً، ولعلَّها تظهر في "الحواسيب" و"المَراقيب"، كفقاعة من رغوة، وأحياناً كبالون تطاله إبرة، ولكن ـ علىٰ خلاف الفقاعة ـ يحدِث صوتاً ويصنع فرقعة حين يتلاشىٰ، تلفت الأطفال (والشياطين) وتدفعهم إلىٰ الصياح والتصفيق!

هناك نماذج ممن تتمُّ مراقبتهم ومتابعتهم، ولربما توجيههم وإدارتهم، يجري ٱستبعادهم وإقصاؤهم، عبر "رفع اليد" وقطع المدد، يُتركون ويُهمَلون، بعد أن كانوا في دائرة العناية ونطاق الرعاية... غارقون في الدنيا ولا يشعرون، نهِمون لا يشبعون، يُلاحِقون سراباً، يلهثون فلا يصلون، علماء وتجار وسياسيون، يفرغون من صفقة يكسبونها، فيسعون لنماء الجنْي وزيادته بصفقة أُخرىٰ، أو يخسرون فيكافحون لتعويضها وٱستدراك ما فاتهم فيها، هكذا يقضون أعمارهم حتىٰ يدركهم الموت وهم في غطاء.

وهناك مَن يُستبعَدون لرداءة الفهم، وتخلُّف الوَعي، وسُقم الرؤية، وضيق الأُفق، ليسوا رجالاً جديرين ولا أكفَّاء: هٰذا مطيعٌ، بل مطيَّة لزوجته، تابعٌ لٱمرأته، تديره وتوجِّهه، تَحكُمه وتقوم علىٰ أمره، وأمر بيته وعياله، وذاك بخيلٌ أُحضرت نفسه الشحَّ فٱلتزمه، وأخذه بعد الحرص والطمع إلىٰ الجبن والخوف، فبعُد عن المكارم، وفارقته الفضائل... ونماذج أُخرىٰ لا يطيقها الحصر ولا يتحمَّلها العدُّ.

أراد «نجيب» أن يطَّلع علىٰ حال بعض أرحامه وأصدقائه، وأين عسىٰ أن يكون محلُّهم في موازين الحقِّ والحقيقة، وكذا بعض الأعلام الذين يُشار إليهم بالبَنان، فأُفِهم بأنَّ هناك محاذيرَ وعوائقَ تمنع ذلك، فلن تهتك الأسرار هنا، ولن يفتضح مَن ستره الله وأمهَلَه. ولربما جاء المنع لمحاذيرَ أُخرىٰ... ولٰكنَّهم ٱختاروا له ملفَّات وإضبارات سيُطلعونه عليها، وٱنتخبوا له أحداثاً ووَقائع سيكشفون له حقيقتها ووَاقعها.

أعطوه خاتماً لخنصر كفِّه اليمنىٰ، قالوا إنه مفتاح الدخول إلىٰ العوالم القادمة أو الآفاق المقبلة، وأمان لِعقله أن يستطير، ولُبِّه أن يطيش، من ثقل ما سيلقىٰ، وحجم العلوم وغرابتها، والمفاجئات التي ستتلاحق عليه، والحقائق المذهلة والوَقائع المهولة التي سيحضرها.

(٥)

من المظاهر إلى الجواهر

كلما حدَّث المرء نفسه وحسبها ٱعتادت علىٰ هـٰذه الأجواء وتأقلمت مع ما يفعم به هـٰذا الفضاء، وخال أنه أدرك حجم النقلة التي عرضت له، وٱستوعب الفرْق بين عالمه وهـٰذه الرحاب... غلَبه الحال بتتابع نوَادره وتوَالي غرائبه، وأوْرثه مزيد حيرة وذهول، فلا ينقضي العجب لما يجري هنا ويقع، ثم لا تزول الدهشة مما يتوالىٰ علىٰ الخاطر ويَمثل في النفس، وهو يفوق ما يُدرَك بالحواس ويبلغ عبر الإحساس.

وقد تلقَّىٰ «نجيب» الساعة الردَّ، وأتاه الجواب، وحضر في نفسه السرُّ عن هـٰذه الأعاجيب، وكيف تلحقه أسباب التكامل، تنزع به صوب الرقيِّ والسُّمو: لو صُقِلت المرآة وجُلِيَت، وأُخليت النفس وصُفِّيَت، وزال الكدر من لوْحتها، ومُحِيت النقاط السوداء من صفحتها، وتنكَّرت للخطايا وتخلَّصت من الأهواء، ثم حجَّت إلىٰ ربها وٱعتمرت، وتوجَّهت إليه من بابه، وٱقتدت بمَن نصَب إماماً في محرابه... لرأت عجباً عُجاباً.

ومَن ٱستقلَّ المركبة «المحمدية»، حلَّقت به وطارت، ونقلَته وٱرتحلَت، ثم هبطت حيث شاء وأراد، وحطَّت به أنَّىٰ رجا وتمنَّىٰ، ومَن ٱتخذ نبراس «آله» الأطهار مصباحاً، أضاء له علىٰ المعارف وبصَّره الحقائق، ثم كشف له الخفايا والغوامض، وأوْقفه علىٰ الكنوز وأطلَعه علىٰ الأسرار، حتىٰ تشرق في نفسه شمسُ الولاية، تُنير روحه وتسطع علىٰ العالم من حوله...

هٰكذا يجبر الله سبحانه كسر الراحل إليه بلُطفه وحنانه، ويُغني فقره بعطفه وإحسانه، ويسكِّن روْعته بأمنه، ويعزُّ ذلَّه بسلطانه، ويبلِّغه أُمنيته بفضله، ويسدُّ خَلَّته بطَوْله، ويفرِّج كُربته برحمته، ويكشف ضُرَّه برأفته، ثم يبرِّد غُلَّته بوَصله، ويطفي لَوْعته بلقائه، ويبلُّ شوقه بالنظر إلىٰ وَجهه، ويقرُّ قراره بالدُنوِّ منه، ويردُّ لهفته برَوْحه، ويزيل غمَّه بقُربه، ويبرئُ جرحه بصَفْحِه، ويزيح وَسوَاس صدره بأمره، ويجلي رَيْن قلبه بعفْوِه...

يزول الفقر، وينتفي النقص، وينجبر العجز، ويتبدَّد الغسَق وينقشع الظلام، فتحيط النفس المرتاضة حبّاً، المهذَّبة وَلاءً، بالعالم الذي تعيش، وتستحوذ علىٰ ما فيه، حتىٰ تهيمن عليه، وتغدو آمرةً مسيطرة، غالبة قاهرة، تحكي عظمة ربِّها سبحانه وتعالىٰ، وتُظهر قدرته جلَّ وعلا: تقول للشيء كُن فيكون!... وفي مقالة "لقمان الأُمة" وحكيمها:

أما والذي نفس «سلمان» بيده، لو وَلَّيتموها «علياً» لأكلتُم من فوقكم ومن تحت أقدامكم، ولو دعَوْتم الطير لأجابتكم في جوِّ السماء، ولو دعَوْتم الحيتانَ من البحار لأتتكُم، ولما عال وَلِيُّ الله، ولا طاش لكم سهمٌ من فرائض الله، ولا ٱختلف ٱثنان في حُكم الله، ولٰكن أبيتُم فوَلَّيتُموها غيره، فأبشروا بالبلايا، وٱقنطوا من الرخاء.

ثم يدركها تمام التأديب، ويفيض عليها كمال التهذيب، فلا تشاء إلَّا ما يشاء الحبيب، لا تتخطَّىٰ قدَره، ولا تتجاوَز قضاءه، ناهيك بأن تطغىٰ إثر الغنىٰ، أو تبغي وتعتو من كبرياء وٱختيال.

بدأ «نجيب» يشعر أنه يملك كلَّ شيء، أو أنه قادر علىٰ ذلك، يستطيع أن يبلغ ما يريد، ويحقِّق ما يروم... حتىٰ أنَّ صوَراً لأُمنيات قديمة عاشها، تراءت له الآن، مـرَّت علىٰ نفسه ووَردت في خاطره، بدا له أنه متمكِّن منها، ولـٰكنَّه الساعة متعالٍ عليها! كانت العلوم تتفجَّر والمعلومات تسيل كشلَّالٍ منهمِرٍ متدفِّق، تتدافع مياهُه، وتتسابق أجزاؤه للوصول إليه، حتىٰ تتوغَّل في كيانه وتستولي علىٰ وُجوده، وتغمره، فتبلغ كلَّ محلٍّ من روحه ما زال خالياً، وتصِل كلَّ مَوْضع أو فُرجة تشكو فراغاً... تُبادر لملئه وسدِّه، وقُل إن شئت: تضيء ظُلمته وتنير عتمته، ثم لا تترك القلب حتىٰ تغمسه وتغُطَّه في بحار النور، وتنفي عن روحه كلَّ سُدْفة وديجور.

ومع ما كان ينتاب الرجل ويتوالىٰ عليه، ينقله في كلِّ لحظة إلىٰ طَوْر جديد، ويصيِّره في كلِّ آنٍ في حال... بدا وكأنه خرج من نطاق الزمان، وصار يحسُّ ـ وهو في هـٰذا الموقع والحال ـ أنَّ الزمن قد تلاشىٰ وٱضمحل، وفي الأقل الأدنىٰ، لم يعد يشعر به ويحسُّ بتقادُمه. فقد كان في الحضرة الأقرب إلىٰ سلطان «المولىٰ»، والمقام الأدنىٰ من تجليات برهانه وظهور عنوانه. هـٰكذا أدرك حقيقة " طيِّ " الزمن حين يكون المرء في طريق مَزارهم، ولمَسَ كيف يُقتَطَع من العمر ولا يحسب منه!... وبعد الزمان، شهد وأدرك زوَال وٱختفاء ما سوىٰ الحقائق من هـٰذا " المحل " ، فلا شيء هنا غيرها، لا أكاذيب تبالغ، ولا أوْهام تختلق، ولا ٱعتبارات تفرض وتحكم...

هٰكذا تغلب "الحضرة"، بعد أن ينعدم الزمن، فيضمحلُّ فيها المكان، وكأن النفس تنزع صوب التجرُّد والمطلق، وتوشك أن تدخله، من فرط ما حامَت حول حمىٰ العشق حتىٰ وَقعت فيه. والمعضلة كانت في الجمع بين هٰذا الشعور والإذعان به، المستولي عليها والمتعزِّز فيها، وبين ذلك الإدراك أو التلقِّي الذي يسجِّل زماناً ومكاناً، ووُجوداً لا يُنكَر للاْعتبار، يحكم ويُقيِّد ويُلزِم، فهنا ماضٍ وحاضرٌ ومستقبل، وهي ـ بالإدراك والوجدان ـ أزمان ليست سوَاء، ما يشكِّل تحدِّياً لذلك الزوال... وتبقىٰ معضلة الفراغ من الكثرات إلىٰ الوَاحديَّة، فالأحدية والفردانية فالفناء، تلاحق الممكنات وإن كانت أسمىٰ الكائنات، وتعترض سبيلهم وتعيق تقدُّمهم، علىٰ قدر ما صغرت النفوس عن التسامي، وتوَاضعت الهمم عن التعالي.

والحقُّ أنَّ مبدأ الحقِّ فيَّاض، والخير منه منهمِرٌ متدفِّق، عامٌّ غالب، إنما نتلقىٰ منه بقدر أوْعيتنا، ويغترف المزيدَ من النفوس أوْعاها وأشرفُها، فهناك مَن يعيش البخل والشحَّ في نفسه، والضيق والضنك في روحه، والعُسر والسوء في خلُقه، لم يمارس في حياته البذل ولم يتمرَّس في العطاء، ولم يتمتَّع بالحَسَن ويأنس بالرخاء... تراه يستكثر القليل ويستعظِم اليسير، يلهو أو يضطرب إذا نزل به، ويؤخذ بما حلَّ به واْستولىٰ عليه، فينشغل عن تلقِّي المزيد واْستقبال العميم، لا يتصوَّر أنَّ وَراءه شيء، ولا بَعده تالٍ وآخَر! فلا يرجو، فيُحرَم لهٰذا "الحجاب"! بينما تمتَّع آخَر برشحة من اْسم "الكريم" وقبس من "الجواد"، فما زال يأمل ويرتقب (لا جاحداً أو مستقِلَّاً، بل راجياً مُؤمِّلاً)، غير مُستبعدٍ مزيد الفيض، والله عند حُسن ظنِّ عبده به. هٰكذا يتلقَّىٰ كلٌّ بحجم وَعيه ووِعائه، ويغترف علىٰ قدر أناته وإنائه.

وبعد، فإنَّ أكثر ما يلفت ويستوقف، ويصدم ويذهل، ويورث الرَّوْع والهلَع، هو ما ٱنكشف لـ «نجيب» عن حجم الحرب المستعرة في الخفاء، وضراوة المعركة التي تدور من خلف الستار... وكيف أنَّنا ـ في عالم الدنيا ـ لا نرىٰ إلَّا مظاهر نحسبها جاءت عفواً، وأقوالاً نظنُّها أُطلقت جُزافاً، ومواقف تظهر ٱرتجالية، وأحداثاً تبدو تلقائية، والحال أنَّ مئات العلل والأسباب تتعاضد وتتظافر، ومثلها من المصالح تلتقي وتتقاطع، وأُخرىٰ تتعارض وتتنافر، حتىٰ تصنع الحدَث وتخرجه إلىٰ الفعل وتحقِّقه في عرصة الوُجود، وما زال الصراع قائماً، والصدام متصاعداً، دفعاً وجذباً، قبضاً وبسطاً، حتىٰ ترجح كفَّةٌ وتنكفئ أُخرىٰ، وينتصر خيارٌ ويُهزَم آخَر.

وهي معركةٌ يخوضها ـ في مفردة جزئية وَاحدة ـ آلاف الشياطين من جنود «إبليس»، مع جبهة الحقِّ وجنود الرحمن، من ملائكة وأعوَان، قوَام حركتهم ومنشأ فعلهم، هو نيَّة الإنسان، وسلامة نفسه وسموُّ روحه، هٰذا هو ما يستنزل النصر ويستجلب الغوْث، ويحول دون أن يُصرَع المرء ويُهزَم، ويُستحوَذ عليه، فيلحق ـ من حيث يعلم أو لا يعلم ـ بجبهة الضلال والغيِّ والزَّيْغ والعَمَه، عن البصيرة والصوَاب والهدىٰ والرشد.

يا للهول! هناك "مؤمنون" أخيار ـ في الظاهر ـ وملتزمون صُلَحاء، يرسلون لحاهم، ويتختَّمون بأيمانهم، "يعمرون" المساجد، ويعتمر بعضهم العمائم، أعلام مشهورون، كُتَّاب ومفكِّرون، وعلماء يدَّعون أنهم مجتهدون، وسياسيون، ورجال مال وأعمال، وهناك أيضاً فقراء، ونكرات مغمورون، مُهمَلون لا يُحسَب لهم حساب... ظهر أنهم في صميم معسكر الشيطان! ومن قادة الإضلال والإغواء، وأساطين التَّعْس والشقاء.

وأكثر ما يبعث العجب، هم "ذوو الرايات" كما يُطلق عليهم هنا! طلَّاب الرئاسة وصرعىٰ الشهرة ودعاة الناس إلىٰ أنفسهم، الذين تعفُّ عن خِسَّتهم "ذوَات الرايات"، وتفوق قذارة أعمالهم الدعارة والبغاء.

إنَّ أعداد الشياطين، ولا سيما الظاهرين بعنوان "الإسلاميين"، مهولة مرعبة، وكذا ٱنتشارهم وتفشيهم بين الناس، حتىٰ غلب نشاطهم وتفوَّق سعيهم وظهر أمرهم علىٰ أهل الحقِّ، فصار يُشار إليهم كأعلام المذهب ورموز الطائفة وأعيان المؤمنين! وأدهىٰ من ذلك وأمَرُّ، أنَّ الإعلام الذي يُرجىٰ أن يُكافَح باطِلُهم من خلاله، ويأمل المؤمنون المخلصون أن يكشفوا زيف القوم عبره وبوَاسطته، بعد أن مهَّد وأعان وصنَع هٰذه الصورة عنهم، وأوْجَد وخلَق السطوة لهم... هو في مُعظم موَاقعه وأغلب محطَّاته، يلحق بمنظومة الشيطان وينتظم في مصافِّ عسكره وعديد جنده. إنه أمرٌ يُورِث البهت ويعقد اللسان...

سرايا وكتائب تضمُّ ما لا يُحصىٰ من بشَر، من مختلف الأشكال وسائر الأنتماءات وشتىٰ الطبقات، طالما حملت راية الدين ونهضت بٱسم الإسلام وتغنَّت بالأنتصار له والعمل في سبيله والسعي لخدمته، سطر أربابها الكتب والمؤلَّفات، ونشروا الصحف والمجلات، وٱعتلوا الأعوَاد وٱنتصبوا خلف المنصَّات، يوجِّهون ويعظون ويخطبون، يفسِّرون "الدين" ويبيِّنون للناس ـ في المفترض ـ قيَمه ومفاهيمه، ويشرحون لهم أحكامه وحقائقه... كانت وما زالت تتلقَّىٰ أوَامرها من الشياطين مباشرة! أو تنقاد لإملاءات "زعيم" وتوجيهات "قائد" ٱستحوذ عليه الرجيم ولَبسه، وٱستوطن حتىٰ ٱنطبع فيه وٱندكَّ، فلا إثنينية بينهما ولا ٱنفصال!

وبعد، فإنَّ من غريب ما ظهَر هنا وبان، أنَّ مَدار الفعل وبناء العمل في التقييم والتصنيف، وما يتبعه من أحكام إسقاط الأفراد أو الاْرتقاء بهم إلىٰ مدارج أرفع ومراتب أعلىٰ، وما يصنع المنطلق والأساس في الجزاء، بعد القصد والنيَّة، ليس حجم العمل ولا كَمَّه ومقداره، وإن كان ذلك مما يُلحظ في بعض الحالات... إنما هو النوع والكيف، فهو الملاك في تشكيل الثمرة وحساب النتاج وتقدير العطاء.

إنهم لا يكترثون بأحداث وأعمال كبيرة قائمة في عالمنا، لها وَقعها وتأثيرها الخطير وحضورها الكبير، ولا يبالون بمشاريع ومحطات عظيمة في حجمها، شُيِّدت لتجتذب، تهوي إليها الأفئدة وتأسر القلوب، ظهر هنا أن لا قيمة لها، ولا حظَّ من التقدير يُذكر، اللهم إلَّا يسيرٌ ضئيل، لا يُمثِّل عُشر معشار حجمها وموْقعها المشهود في عالمنا! ولا يقف ذلك عند أبنية الدنيا ولا يقتصر علىٰ صروح المال وعروش السلطة فحسب، بل يشمل أعمال الخير ويطال موَاقع " الدين " أيضاً، من مساجد ومعاهد ومنظَّمات ومؤسسات ومحطَّات برٍّ وإنفاق، وحتىٰ جبهات حرب وجهاد!...

معارك سجِّلت عندنا في المآثر والمفاخر، رصَّعَت أنواط الشجاعة صدور أبطالها، وكلَّلت تيجان النصر قادتها وأُمراءها... ظهرت هنا عبثاً لا طائل منه، تدخَّلت الناحية المقدسة لإنقاذ المؤمنين من شرورها، كما يسعف أبٌ شفيق طالما نصح اْبنه من خطر ركوب الدراجة النارية وحذَّره من الرعونة في قيادتها، فلم يمتثل حتىٰ سقط مثخناً بجراحه، فتدخَّل ليُسعفه وينقذه من الهلاك، ويدفع عنه خطر الدهس من باقي المركبات المسرعة علىٰ تلك الطريق ـ المتاهة التي لا تفضي إلىٰ نتيجة ولا تنتهي إلىٰ غاية.

مواسم حجٍّ تضمُّ ملايين البشر، يرتفع تكبيرهم وتهليلهم وتدوي تلبيتهم... وإذا بحجمها هنا لا يتجاوَز نقطة صغيرة ينضوي فيها آحاد أو عشرات! ومساجدُ جامعةٌ ينتظم في صفوفها آلاف مؤلَّفة للصلاة، تجدها كلَّها هباءً وتراهم كلَّهم غثاء! لم تؤسَّس علىٰ التقوىٰ من أوَّل يوم، فلم يحظَ رُوَّادها إلَّا بالمشقة والعناء، كصيام ليس لفاعله منه إلَّا الجوع والعطش، هٰذا إن لم يلحقهم وِزْر تكثير سواد المبطلين ونصرة المضلِّين.

وفي مقابل هٰذا وبإزائه، فإنَّ كلمةً واحدةً قد تفوق في خطرها تلك الصروح والجماعات، وقد تغيِّر مسارات وتقلب قرارات، تقوِّض حاضراً وترسم مستقبلاً، سواء في جبهة الحقِّ أو الباطل. وموقف يبدو في عالمنا صغيراً تافهاً، وحدَثاً جزئياً عابراً، لٰكنَّه يأخذ فئة فيُلحقها بالكفر والضلال، يسوق عنقاً من الناس إلىٰ غضب الله وسخطه، ثم يهوي بهم في النار... مجرَّد كلمة تنمُّ عن جحود وزندقة، ٱستهانة وٱستخفاف، سوء أدب وٱجتراء. وكذا قد تفعل "كلمة" في الجانب الآخر، جبهة الحقِّ والصواب، تراها تؤثر في الصلاح والفلاح، وتأخذ أربابها إلىٰ الفوز والنجاح.

كما "حِطَّة" لـ «بني إسرائيل»...

كان يمكن لهٰذه الكلمة، محض التلفُّظ بها وإطلاقها، ناهيك بمقتضياتها ولوَازمها وتوَابعها، وما تعنيه من جوهر الخضوع والٱمتثال، وتحمله من شعار وتتضمَّنه من عنوان... أن تحقِّق لـ «بني إسرائيل» النجاة والغفران. كان دخولهم من الباب وقولهم "حطَّة" كفيل أن يعفو ويغضي عن إساءتهم وطغيانهم، وما فعلوه بنبيِّهم كليم الله «موسىٰ بن عمران» عليه السلام. ولا سيما بعد إغداق تلك النعم عليهم، وإسداء ذلك الفضل إليهم.

لٰكنَّهم بدَّلوا قولاً غير الذي قيل لهم وطُلب منهم، في صورة أُخرىٰ لما جرىٰ مع «إبليس» حين عرض علىٰ الله سبحانه وتعالىٰ أن يعبده عبادة لم يسبقه إليها ولن يلحق بها أحَد من الأوَّلين والآخرين، إن هو أعفاه من أمر السجود لـ «آدم» عليه السلام، وعمدوا إلىٰ السخرية والاْستهزاء، فدخلوا " الباب " متهكِّمين وكأنها " مَطْنَزة "، قائلين: " حنطة " !...

فِعلٌ وموقف يستبطن حقيقة أُخرىٰ خطيرة، فقد اْستكثروا واْستعظموا أن تكون النجاة لمجرَّد خُطوة، والخلاص في كلمة، غلَبهم البخل والشحُّ المستحكم فيهم، فلم يصدِّقوا أن يكون ثمة عطاء ورحمة بهٰذه السعة، وإن كان المعطي والراحم هو الله عزَّ وجل! وهو ـ من بعدُ ـ في دخائلهم وما يكيدون، أو في أعماق نفوسهم ودفائن ضمائرهم، ورحاب اللاوَعي الملوَّث بطغيان " الأنا " ... تحايل علىٰ كِبر غلَبهم، وعناد لَزمهم، وشقاء لَبسهم، ألبَسوه الإستكثار، ووَاروه بتعظيم التوبة وعُسر قبول الاْستغفار، فأنِفُوا، وهم شعب الله المختار، أن يمتثلوا أمراً ويعمدوا إلىٰ نُسُك كأنه يستخف (في هيأته) بأمجادهم، ويُلجئُهم إلىٰ ما يمتهن كرامتهم!

وهٰكذا هي " حِطَّة " في أُمة «محمد» صلى الله عليه وآله، " كلمة " تعني اْنتساباً وإذعاناً، وشعارٌ يورث نجاة، بابٌ يدخله المؤمن مطأطئاً ساجداً، مُقرّاً بفضل سادته، مُعترفاً بإمامتهم، خاضعاً لولايتهم، تابعاً لهم... فإذا فعل السعيد، كُتب له الفلاح، وحظي بالخلاص والنجاة .

فقد روىٰ «أبوذر الغفاري» و«أبوسعيد الخُدري» و«اْبن عباس»، عن «النبيِّ» الأكرم صلى الله عليه وآله أنه قال: " إنَّما مَثَلُ أهل بيتي في أُمَّتي مَثَلُ باب حطَّة في «بني إسرائيل»: مَن دخَله نجا، ومَن لم يدخله هلك " .

وفي رواية أنَّ «أميرالمؤمنين» عليه السلام قال: "هؤلاء بنو إسرائيل نُصِب لهم بابُ حطَّة، وأنتم ـ يا معشَر أُمَّة «محمد» ـ نُصب لكم باب حطَّة: أهل بيت «محمد» عليهم السلام، وأُمرتم بٱتباع هُداهم ولُزوم طريقتهم، ليغفر لكم بذلك خطاياكم وذنوبكم، وليزداد المحسنون منكم، وباب حطَّتكم أفضل من باب حطَّتهم... ".

ورُوي عن «الإمام الباقر» عليه السلام في قوله تعالىٰ: ﴿وَقُولُواْ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَـٰيَـٰكُمْ﴾، قال: "نحن باب حطَّتكم".

"كلمة" يطلقها الرجل، يسجِّل بها موقفاً، أو يعلن فيها، ويكشف من خلالها عن عقيدة، ويذعن بحالة، تمثل تسليماً للحقِّ وخضوعاً لأهله أو للعنوان والشاخص الذي يمثِّله، وتعني خروجاً من الكِبْر والحسد وكلِّ ما يبعث علىٰ المفاضلة والمقايسة والشعور بالتفوُّق، ونزاهة عن التحفُّظ علىٰ الحقِّ وٱشتراط الشروط لألتزامه ووَضع القيود لأتباعه!

"كلمة" يتأثَّر بها الناس فيأخذونها ويعملون بها، فيكون لمن أطلَقها وأعلنها أجرهم مجتمعين، إن خيراً فخير، وإن شراً فشرٌّ!... فتحٌ يُدخِل الناس في دين الله أفواجاً، أو نكسةٌ تخرجهم من ربقة الإيمان وطاعة الرحمن، إلىٰ ٱتباع الهوىٰ وعبادة الشيطان.

"كلمة" وَاحدة كفيلة بتغيير حال وٱنقلاب وَضع وتبديل مآل. ثقلٌ ورجحٌ في الميزان، وٱنتقال إلىٰ السعادة، ونجاة من الشقاء والخسران...

و"كلمة" قد تسلب نعمة وتجلب نقمة...

و"كلمة" حقٍّ هي أفضل الجهاد عند سلطان جائر.

• • •

بدأ " العرض " ، وأخذ «نجيب» يتلقَّىٰ المشاهد ويحضر الأحداث، ما مضىٰ منها فغدىٰ تاريخاً، أو الحاضر الماثل، كلُّ ذلك من موقع كشف الحقائق والوقوف علىٰ السيَر لا الصوَر، وما يعكس الجواهر لا المظاهر... وبدأت القصص تترىٰ والصوَر تتلاحق أمامه، وصار يرىٰ الوقائع التي يختفي خلفها الناس...

• • •

«علي جاد محمد جواد»، حاكم جائر وسلطان مستبدٌّ قاهر، لـكنَّه ليس كـأقرانه من الحكَّام الظالمين، ونظرائه من الملوك والسلاطين المستكبرين، والرؤساء والقادة المستبدِّين، ممن تراهم أسرىٰ شهوَاتهم، ومُرتهَني لَهْوِهم وفسادهم، غارقين في الطرب والعربدة، مفتونين بالشذوذ، مأنوسين بالمجون والليالي الحمراء، منغمسين في اللذات والنزعات، مغرَمين بالفجور ومعاقرة الخمور، فإذا أفاقوا من سُكرهم، ٱنصرفوا إلىٰ مغامرات الصيد والقنص ورحلات " السفاري " ، وٱنشغلوا بتربية الصقور وٱقتناء الخيول.

لم يكن السلطان «علي جاد» من هـٰؤلاء...

لـكنَّه لم يخلُ من صفات الجبارين ولا عُدِم خصال الطوَاغيت البطِرين، تـراه يعيش، كما أُولئك إذا فرغ أحدهـم من شهـواته، حين يـشبع ويتخَم، ويـمَلُّ ويضجُر، يعيش هـوَس تقلُّب مزاجه وتبدُّل أهوائه، تـصبح لـذَّته في تحسُّب المحيطين وترقُّب المقرَّبين لجديد حالاته، فلا أحَد يحدس سبباً لغضبه وسخطه، أو يُمكنه أن يقف علىٰ علَّة لـرِضـاه وفرَحه! يـأخـذهـم القلق والٱضطراب للآتي من حالاته والقادم من روحيته ونفسيَّته، فتعيش الحاشية الخوف والحـذر، والترقُّب والٱنتظار، حـتىٰ تظهر حالته التاليـة وتستبين، فينظِّمون حركتهم وَفقاً لها، ويديرونها بما يدرُّ عليهم الفوائد ويعود بالعوائد، أو ينجيهم المساخط، فيدنون ويقتربون ما وَسعهم، إذا برقت أساريره ولمعت صفحته وتبيَّن البِشر في وَجهه، وينأون عنه ويتجنَّبونه ما ٱستطاعوا إن بدا ساهماً منقبضاً، لا يدرون متىٰ يصبُّ علىٰ وَاحدٍ منهم جام غضبه...

إنها لـذَّة ـ علىٰ الـرغم من غـرابتها وشـذوذها ـ تُـعَـدُّ من خفايا الأُنس في قاموس الطغاة البطِرين! أن ينتظر الآخـر حالك ويرتقب وَضعك، فيعيش القلق والاضطراب حتىٰ تحدِّد له أنت، ما يجب أن يكون عليه في سلوكه، وترسم له إطار مُصانعته لك، وتخطَّ حدود توَدُّده إليك.

كما لم يكن الرجل أُمِّيّاً متخلِّفاً، لا يُحسن فهم التقارير المعقَّدة التي تُرفَع إليه من رجال دولته في مختلف المَواضيع وشتَّىٰ المجالات. ولا ألكَناً يتلكَّأ في إلقـاء خُطَبه ويعْيَ عن محاورة زوَّاره أو الـردِّ علىٰ الصحفيين، مما يفضح أغلب الملوك والرؤساء. ولا هو غبيٌّ تلتبس عليه الأُمور ويعجز عن فهمها، ولا سـاذج تستبهم من حوله الأحداث فيربكه تلاحقها، ولا هـو ضعيف وَاهن، يديره وُزراؤه وأعوانه، ويغلبه مستشاروه، ويلقِّنه ندماؤه!...

نعم، في مقابل تلك المحامد، كان مختالاً فخوراً، يعيش غروراً شـديداً وكبراً مفرطاً، طالما صدَّه عن الحقِّ وأخـذه إلىٰ جحد الحقائق، وأوْقعه في أخطاء قاتلة، وأخذه إلىٰ جهالات لا تصدر عن أُميين، ولا تراها في عوَام لا نصيب لهم في الفهم ولا حظَّ من التعليم! ومن ذلك، إصداره قرارات خطيرة وأوَامر حرِجة، عجز عن تطبيقها، فأصرَّ وكابر وتعسَّف وغامَر، بما دمَّر شعبيته وأوْدىٰ بعرشه. وهو بعدُ شديدٌ صارمٌ، ٱستلَّ من ٱسمه «جاد» العزم والجديَّـة، ولم يترك للهوادة واللين متَّسعاً في روحه، حتىٰ ناقض ٱسم أبيه «جـواد» بحرج صـدره وقلَّة تحمُّله معارضيه، ومبادرتـه إلىٰ الفتك بأعدائه والقضاء علىٰ مناوِئيه، وإن كانوا من رفاق دربه وقدماء أصحابه.

إنه دكتاتور مستبدٌّ، لا يطيق أن يُردَّ عليه بقول، ناهيك بفعل.

وهو " حالة " قائمة بنفسه، ونموذج وِتر في صنفه.

أشِر بطِر، لكن على طريقته... يصلي لربِّه ويتضرَّع في أدعيته، ولربما بكى في خلَواته، لكنَّه يبطش بطش الجبارين، ويسير بسيرة الطاغين! وهو في غطاء، لا يشعر بما يفعل، ولا يحسُّ بما ينزل بالبلاد والعباد.

طاغية، ولكن وَفق قناعته وما تسوِّل إليه نفسه، ويلقِّنه "شيطانه"، من أنَّ ذلك لصلاح بلاده، وعباده! نعم، إنه يحسب الناس "عباده"! يمكنه أن يرفع مَن يشاء ويضَع مَن يريد. يلعن «النمرود» ويتبرَّأ منه، لكنَّه يمارس فعله: "يُحيي" و"يُميت"! يستلُّ الحثالات من الحضيض فيقرِّبهم، ويلتقط السفَلة واللئام فيرفعهم، ثم يتناوش العِلية والكرام والأعزَّة من قممهم، فيغير عليهم ويُسقطهم... وقد صُمَّ عن الحِجاج الإبراهيمي يهتف فيه: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ﴾ فلا يبهت، لأنه لا يشعر بأنه يطغى ولا يدري بأنه يكفر، والله لا يهدي القوم الكافرين.

من هنا كان الرجل يعيش ٱزدواجية قاتلة، بين قيَم الدين والٱلتزام الشرعي الذي نشأ عليه، وما يقتضيه من سلوك ويفرضه من خُلُق، وبين مجموعة عُقَد نفسيَّة ٱستحكمت وأمراض روحيَّة تأصَّلت، أخذته إلى الٱستبداد والطغيان والظلم والعدوان. وهي أُمور طالما ناضل وكافح، ودعا للتحرُّر منها، وحرَّض على الجهاد في سبيل الخلاص والٱنعتاق من نيرها! ما أوْجد فيه ضرباً من الديالكتيك وخلَق علاقة جدليَّة عجز عن حلِّها ومعالجتها، ولم يستطع الخروج منها... وما زال يغالب ويحتال، ويتعسَّف في تأويل خطابه، ويتخبَّط في التماس ما يلتفُّ على وَاضح مدلوله وبيِّن وُجهته، برجاء التخلُّص والٱنعتاق مما يناقض سلوكه وعمله، فيريح ضميره من هذا الثقل، ويرفع عن كاهله هذا الوِزْر... دون جدوى.

كان ممتلئاً بالغلِّ، يجيش صدره على إخوته ورفاق دربه بالإحَن، وهم الذين أعانوه من قبلُ في بلوغ الحكم، ومهَّدوا له الطريق إلى الملك، يحسبهم يتوثَّبون للانقضاض عليه، ويتحيَّنون فرَص إسقاطه والاستيلاء على مُلكه، وإحلال غيره مكانه، فقد بدا لهم فساد خيارهم، وظهر خطأ تقديمهم له... كأنَّ في كبده منهم جمرة لا تخمد، وفي قلبه حقدٌ لا ينحلُّ، ما زال يؤرق ليله ويقضُّ مضجعه، حتى أنه لا يتصوَّر فيهم، أو لا يريد أن يتصوَّر، إلَّا الكفر والزندقة، وبالتالي الخلود في النار، لا لتبرير قمعه لهم وتنكيله بهم، بل لبلوغ تفسير وتوجيه يعطِّل انطباق قوله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾! هكذا كان يعالج عجزه عن تصوُّر علاقته بهم وبلوغ حالة صفْوٍ معهم لا حقد فيها ولا ضغينة، وإن كانت ستجمعه بهم على سُرُر في الجنة!...

فكأنك أمام جبل في البغض والكراهية، وجمل في الحقد والانتقام!

وبعد، كان «جاد» حسوداً، تدبُّ في قلبه عقارب الغيرة، لا يطيق أن يرى على أحَد نعمة، وكيف انصرفت إلى غيره، حتى يتمنَّى زوَالها، وإن استطاع، فعَلَ ذلك بنفسه وباشره بيده، وأزالها! وسجونه تضجُّ بضحايا (التمس لحبس كُلٍّ منهم ذريعة ووَجد حيلة) لا ذنب لهم إلَّا تفوُّقهم عليه، ولا سيما في أُمور بعينها، كالعلم والشجاعة والشعبية والمحبة في قلوب الناس... حتى إذا ما التقى "عالماً" تضطرُّه الظروف إلى مجاملته، تلقَّاه من علُوٍّ وتناوله بكِبر وخيلاء، فلا يغادره حتى يسلِقْه بلسانه، أو يعرِّض به ويستخف، ويسخَر ويستهزأ، فتبرد غُلَّته شيئاً وتسكن نفسه! والآخَر مغلوب بقهر السلطان، عاجز عن الردِّ بخوف البطش والطغيان.

ومع أنه لم يكن كأقرانه ورفاقه من المنحرفين، ونظرائه من المضلِّين، ممن يهدفون تقويض الدين... مترفاً متهتِّكاً، ولا إباحياً فاسقاً يتستَّر بالتديُّن والٱلتزام، فقد نجا من هٰذه الآفات، لٰكنَّه سقط في غيرها، فكان مفتوناً بنفسه، مسكوناً، بل مصروعاً في أعماقه بالعُجب! مندفعاً في خَطِّه بعناد ومُكابرة، لا يلوي ـ من فرط غروره ـ علىٰ شيء. هٰكذا ٱقترن الرجل بالشقاء، وٱقترن به التَّعْس ولازَم حركته ومسيرته، حتىٰ لَيتطيَّر منه، كما يقال " غراب البين " وتتشاءم «البسوس»، يعقدون محضره ومدخله وناصيته بالنَّحْس والنكَد! وما زال التَّعِس يقود جماعته إلىٰ الخراب ويسوق ربعه في الرهق ويوردِ أتباعه المهالك، يخوض بهم الصراعات ويُشغلهم بالمعارك، وهم في ٱنتكاسة بعد فضيحة، وإخفاق بعد عجز، لا يكادون يفرغون من معركة حتىٰ يلقيهم في غيرها، ولا يخرجون من أتون حرب حتىٰ يورِّطهم في أُخرىٰ! والغريب أنه منذ أن تولَّىٰ السلطة وتقلَّد العرش، لم يذق طعم النصر يوماً، ولا عاش لذَّة إصابة الحقِّ مرَّة! كلُّ سهامه طائشة، صائفة أو حابِضة، وكلُّ قراراته خاطئة، وكلُّ إرشاداته تجانب الصواب، وكلُّ تحالفاته وخياراته خاسرة... حالة غريبة من الشؤم والشقاء، أرجعها الحكماء وعزاها العرفاء إلىٰ عدائه عقائد وشعائر الحقِّ، وٱنتقاصه مقامات «أهل البيت»، فهٰذا حقٌّ " ما حارَبه بيت إلَّا خُرِب، ولا كلبٌ إلَّا جُرِب " .

راهن علىٰ مشروع خيالي، علىٰ غرار النهر الصناعي العظيم في الصحراء الليبية، صرف عليه ـ لعقود متتالية ـ جُلَّ ميزانية دولته، مخلِّفاً رعيته في بؤس وفقر، فلما عجز وذهبت أحلامه أدراج الرياح، وأمواله إلىٰ تبديد وضياع، زعم الظفر وتحقيق النصر بمجرَّد بقائه وعجزهم عن إسقاطه.

كان من عامة الناس وسائرهم، أو قُل من قِطاع وطبقة بعيدة عن رئاسة الدول وملك البلاد وقيادتها، حتىٰ في تدرُّجاته الوَظيفية وتوَليه المناصب السابقة، كان الأمر فيه شكليّاً صُوريّاً، لا حظَّ له من الوَاقع، فالمناصب التي تقلَّدها كانت مجرَّد قوَالب وأُطر لزوم إكمال الهيئة وإتمام المظهر، لم يكن لها، ولا له، دوْرٌ أساسٌ مؤثِّر، وسلطة فعليَّة نافذة... لكنَّ "الأقدار" قادته بعد ذلك إلىٰ الملك الحقيقي والسلطان التام الفعلي. و "الأقدار" هنا مزيج حظٍّ، وسَعْيٌ، مع تقاطع مصالح لدول كبرىٰ وقوىً عظمىٰ، شيءٌ بدا أوَّل الأمر وظهر كأنه عفويٌّ ٱرتجالي، وَليد ساعته وٱبن لحظته، لكنَّ الأُمور ما لبثت أن ٱنكشفت، فظهرت الخيوط التي نَسَجَت هذا البساط، وبانت الأيدي التي حاكته حتىٰ ٱفترشه «جاد» ورهْطه.

لقد التقىٰ ذلك السَّعي، ومصالح القوىٰ العظمىٰ، وما يجمعه تعبير "الأقدار"، مع كيد شيطاني خفِيٍّ... إن قلنا أنهما - في الأصل - شيئان، ولم يكن ذلك السَّعْي فعلاً شيطانياً من قبل، فيغدو الأمر كلُّه وَليد منظومة وَاحدة، توزَّعت فيها الأدوار، فنهض كلٌّ بما عليه، فظهر وكأنه تنوُّعٌ وٱختلاف، وفي الحقيقة: نفثةٌ ورشحة من ذلك التحدِّي: ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾، والرهان الماضي والمستمر: ﴿قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَـٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَـٰدِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾﴾.

كيدٌ لا يسمح ولا يفسح لغير أوليائه، فلا يلج هـٰذا الميدان ويبلغ فيه شأواً، فيَلي الرئاسة والحكم والسلطان، إلَّا مَن ٱرتضىٰ الشيطان من شقيٍّ، وٱنساق في ركبه من مغترٍّ جهول يحسب نفسه مصيباً، وهو " مصيبة " ! باعوا أنفسهم وٱشتروا الدنيا، حسبوا أنَّ وَليَّهم قد وَفىٰ لهم، وحقَّق ما وَعَدهم بعد أن طمس علىٰ أعينهم، فلم يروا أنه يعدُهم ويمنِّيهم غروراً، فٱنساقوا مادةً طيِّعة يُشكِّلها، ورضوا أن يكونوا رقماً مرناً يحقِّق به ويُنجز تحدِّيه! ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَـٰمِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَـٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾﴾.

ولا يقف الدور والفعل الشيطاني عند حدود الملك والسلطان، ونطاق الهيمنة علىٰ القرار والموقع السياسي في البلدان، صناعةً وإدارة، بل هو سارٍ في مختلف مراتب الإمرة ودرجات الرئاسة، من وِزارة ووِكالة ونيابة ووَظائف قياديَّة ومناصب عُليا إشرافية، وكلِّ مَوقع نفوذ وقدرة وسُلطة وقوَّة. بل في كلِّ حقل من حقول الدنيا، وميدان يسوِّق هـٰذا " المتاع " ، ودَوْر يقع في هـٰذا النطاق، من وَسائل الإغراء وطرُق الإغواء، وما يُشبع طمع الإنسان ويملأ عينه من الحطام، فلا تقرُّ وتمتلئ، ولا هو يكتفي ويشبع!...

إنَّ الأضواء لا تُسلَّط علىٰ شخص، والإعلام لا يُسخَّر لخدمة ٱمرئ، بما يسمح بدخوله في المشاهير والتحاقه بذائعي الصيت، وتحوِّله إلىٰ " نجم " يُلاحَق في حركاته، ويُتابع في أقواله، فيُتاح له بثُّ ما يرغب من معتقدات وأفكار، وترويج ما يريد من آراء وقناعات، وتفتح له أبواب الكسب والٱستثمار علىٰ مصراعيها، ينتقي منها ما يريد ويترك ما يشاء...

لا يكون ذلك ولا يتحقَّق منه شيء... إلَّا بدفع أو إذن شيطاني، ودعم وإفساح إبليسي، وسمِّه إن شئت ٱستدراجاً وكيداً وإملاءً، فلن يثني ذلك المنخرط فيه، والمتقلِّب الثمِل في نشوته، كما لا يغيِّر شيئاً من حقيقته، التي يمضي عليها متمتِّعاً بها، مغتراً بقدرته، معتزاً بسلطانه وسطوته!

كما لا يلحق أحَدٌ بـ"القوارين"، ويدخل في عداد الرأسماليين والمتموِّلين، وكبار الأثرياء المقتدرين، الذين يملكون أزِمَّة الاقتصاد، ويحركون أسواق المال، ويهيمنون على التجارة ويتحكَّمون بالأعمال... إلَّا برخصة من إبليس الرجيم، وإجازة من النظام الشيطاني الحاكم والمتسلِّط على مفاصل الحياة الدنيا، المستحوذ على موَاقع زينتها وزبرجها، والمهيمن على ميادين فعلها في الدوَل، ونطاقات تأثيرها في الحكومات. قد يتمكَّن مؤمنٌ مُوَالٍ من الصعود في عالم الثراء والغنى، وبلوغ مرتبة ما في دنيا المال والأعمال، ولكنَّ القول والكلام في الرؤوس الكبيرة والمراكز المالية التي تشكِّل أعمدة ٱقتصاد الدول ومفاصل الحركة في البلاد، وحتى ما دون ذلك، من المراتب التي تشكِّل ثقلاً، قد يؤثر في صنع القرار السياسي ويدخل رقماً فيه... هذه أيضاً محظورة ممنوعة، إلَّا على أوليائهم ومحازبيهم والعاملين في صفوفهم، المنخرطين في جبهتهم.

هناك قبضة حديدية من حيث الهيمنة والتسلُّط والإحكام، وحريرية من حيث المكر والدهاء والخفاء، تقبض على مقاليد الأُمور في هذا العالم، وقد صنعت لذلك ووَظَّفت أُطراً وتنظيمات وآليات عمل على الصعيدين المذكورين: منظمات سرية ومحافل خفية عُرِف منها الماسونيَّة العالمية، وأُخرى الظاهرة التي أنزلت العالم على حكمها وأخضعته لإرادتها.

إنَّ البنوك الكبرىٰ والنظام المصرفي العالمي (البنوك المحليَّة مرتبطة بالعالمية، سواء في الإيداعات أو التحويلات أو أي نشاط مصرفي آخر)، و«صندوق النقد الدولي» وجميع ملحقات منظومة «بريتون وودز»، وكذا التكتُّلات الدولية السياسية والأحلاف العسكرية، السابقة الغابرة في التاريخ كـ «مجلس حكماء روما»، أو التي أدركناها ووُثق وُجودها ودورها كـ «دول المحور» و«حلف وارسو»، والحالية كـ «حلف شمال الأطلسي» (الناتو)، و«منظمة المؤتمر الإسلامي»، و«جامعة الدول العربية»، و«حركة عدم الٱنحياز»، حتىٰ منظومات «الشمال والجنوب» والتكتُّلات المعاصرة، وآخرها «مجموعة العشرين»، وما يتحرك في الإطار العام الشامل المتمثِّل في «الأُمم المتحدة»، ثم الهيئات السياسية العالمية المنبثقة والمتفرِّعة عنها في شتَّىٰ الحقول، من منظمات إنسانية ترعىٰ النجدة والإسعاف كـ «الصليب الأحمر الدولي» (وصيَغه في البلاد العربية والإسلامية: «الهلال الأحمر»)، إلىٰ التي تتولَّىٰ التعليم والثقيف وبناء الفكر مثل «اليونسكو»، و«الأونوروا» التي تعين اللاجئين، و«اليونيسيف» التي ترعىٰ الأطفال، وكذا منظمات الدفاع عن حقوق الإنسان... كلُّها شيطانية التأسيس، إبليسية النشاط والإدارة. وهٰكذا الأمر في عالم الرياضة علىٰ صعيدَيْه العمَلي في البطولات والمنافسات، سواء العالميَّة أو المحليَّة، وآليَّة إبراز النجوم وأبطال الألعاب، والألقاب التي تعلق بهٰذا ويحظىٰ بها ذاك، وما يترتب علىٰ ذلك من مداخيل مالية وٱستثمارات وتجارات، ولا سيما في الإعلانات. والآخر الإداري المتمثِّل في الٱتحادات الأُولمبية، والمختصَّة بكلِّ لعبة ورياضة، والمواقع القيادية والفنيَّة التي تنظِّم هٰذا الحقل وتديره...

وكذا عالم الفن والموسيقىٰ والغناء والسينما، من صناعة الأفلام وإبراز النجوم، وأعلام هٰذا الميدان، إلىٰ ترويج الإنتاجات وتسويقها، والأهم الأخطر: بثّ الأفكار عبر المواد العلمية والنصوص الأدبية التي تقدَّم في قصص وحوارات (سيناريوهات)، سواء للأفلام السينمائية أو المسلسلات التلفزيونية وغيرها من الأعمال الفنية.

وكذا الحال في عالم الكماليات والأزياء (ولا سيما النسائية)، ودنيا "العلامات التجارية المسجَّلة" (الماركات) العالمية، التي تلحق ببعض البضائع وتطبع خطوط الإنتاج الصناعي للملابس والأحذية والحقائب والساعات والأقلام ومختلف الكماليات، مما يحقق للسلعة طلباً ورواجاً ٱستثنائياً، ويخصُّها بسوق لا يمكن أن تتوفَّر لغيرها، وإن وَافقتها في الكفاية، ولربما تفوَّقت عليها في الجودة!

إنها عوالم مغلقة، وحقول حكر أوقفها الشيطان علىٰ أتباعه وأوليائه... كلُّها شيطانية المنشأ، إبليسية الفعل والتحكُّم! (١)

---

(١) بعد هٰذه وتلك ومعها، هناك برامج وهيئات دولية تابعة للأُمم المتحدة وأُخرىٰ "مستقلَّة"، تقبض علىٰ مفاصل الحركة في العالم بمختلف أبعادها وميادينها، بل لعلَّها لم تترك حقلاً دون أن تحكِم قبضتها عليه، بعنوان وآخر، حتىٰ يظهر الأمر وكأنه تفاعل تلقائي، وتنظيم طبيعي يقتضيه العمل ويفرضه النشاط... هناك:

الأوبك (مصدري النفط)، الٱتحاد الأوروبي والسوق الأوروبية المشتركة (يورو)، منظمة العمل الدولية (OIT)، المحكمة الدولية (في لاهاي)، منظمة الصحة العالمية (OMS)، مفوضية الأُمم المتحدة السامية لحقوق الإنسان، برنامج الأغذية العالمي، منظمة الأغذية والزراعة (FAO)، الصندوق الدولي للتنمية الزراعية، الشرطة الدولية (الإنتربول)، الوكالة الدولية للطاقة الذرية، المنظمة العالمية للأرصاد الجوية، المنظمة العالمية للملكية الفكرية (حماية التأليف والٱختراع)، الٱتحاد الدولي للٱتصالات السلكية واللاسلكية، مؤتمر الأُمم المتحدة للتجارة والتنمية، برنامج الأُمم المتحدة للبيئة، لجنة دراسة الفضاء الكوني للأغراض ←

←

السلمية، مؤتمر الأُمم المتحدة للتجارة والتنمية (يونكتاد)، الأتحاد الدولي للطيران المدني (إيكاو)، ملتقىٰ الشبيبة العالمي، مصرف الحسابات الدولية، الدولية الإشتراكية، أتحاد الفيدراليين الأوروبيين، الأتحاد الدولي للمدن المتآخية، غرفة التجارة الدولية، أتحاد الطلبة العالمي، اللجنة الأولمبية الدولية، الأتحاد التعاوني الدولي، الأتحاد البرلماني الدولي، السوق المشتركة لأمريكا الوسطىٰ، اللجنة الأقتصادية لأوروبا، رابطة دول جنوب شرق آسيا (آسيان)، مكتب تنسيق الشؤون الإنسانية، صندوق الأُمم المتحدة للسكان، معهد التدريب والبحث، معهد بحوث نزع السلاح، معهد شؤون التنمية الأجتماعية، منظمة الأُمم المتحدة للتنمية الصناعية، مركز المستوطنات البشرية، برنامج الأُمم المتحدة للتنمية، الصندوق الإنمائي للمرأة، وكالة إغاثة وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين في الشرق الأدنىٰ، معهد الأُمم المتحدة للتدريب والبحث، المعهد الإقاليمي لبحوث الجريمة والعدالة، معهد بحوث التنمية الأجتماعية، المركز الدولي للحاسب الإلكتروني... وفي هٰذا السياق تأتي الأتحادات الدولية التي تنظِّم الأنشطة الرياضية، ولا سيما كرة القدم.

بعد هٰذه الأتحادات وتلك الهيئات والبرامج، المنظمة بأشكال مُعلنة، لها قيادات معينة ومجالس إدارة معروفة وهيئات تنفيذية وجمعيات عمومية، وما إلىٰ ذلك من آليات العمل وَفق سياقه المعروف والمعهود... بعد هٰذه، هناك المنظمات والهيئات السرية، التي ترعىٰ غسيل الأموال وترويج المخدرات والعمل بالدعارة وإدارة أندية القمار، إلىٰ جانب عالم السياسة وصنع الحكّام، من قبيل الماسونية والصهيونية، وما يعرف بـ"اللوبيات"، مجاميع الضغط وأدوات صنع القرار، التي تسيطر علىٰ عوالم الإعلام والسياسة، والمال والأقتصاد، ترفع أسعار السلع وتخفضها، تتحكّم بأسعار العملات وأسهم الشركات في البورصات، تزيد الطلب علىٰ النفط أو تخفضه، تفسح لأحتكار المعادن الأساسية كالبلاتين واليورانيوم، وحتىٰ المواد الغذائية الأستراتيجية كالحبوب، ولا سيما القمح، تحتكر ثم تبكي وتضجُّ أعتراضاً علىٰ المجاعات في أفريقيا، وتمدُّ يد العون لإغاثة المنكوبين! ترفع أشخاصاً وتوصلهم إلىٰ العروش، أو مقاعد البرلمانات، أو تناولهم حقائب الوزارات، وتسقط آخرين وتنقلهم إلىٰ حكومات الظل، أو تقصيهم وتحيلهم إلىٰ النسيان، ترجّح كفَّة حزب علىٰ آخر، وتحدِّد زمان وطوْر تولي هٰذا السلطة، وأنتظار ذاك دوره!

ومع أني أطنبت وأسهبت في تعديد هٰذه المنظمات والهيئات، لكنّي لم آتِ إلَّا علىٰ جانب منها، لم يستوفِ حجم هٰذا الأخطبوط الذي يمدُّ أذرعه ويستحوذ علىٰ جميع مجالات العمل والحراك العلمي والأجتماعي والإنساني، ناهيك بالسياسي والأقتصادي والعسكري، فلا يترك موقعاً ولا تفوته بقعة. أنظر: ‹لعبة الأُمم› «مايلز كوبلاند»، و‹الهيئات الدولية› وضع هيئة تحرير مجلة العصر الحديث في سوريا، ترجمة «زياد الملا». ■

والأمر جارٍ كذلك، سارٍ في حقل التطوُّر العلمي ودنيا التقنيات الحديثة، وعالم الٱختراعات والٱكتشافات والصناعات التي غزَت حياة الإنسان وغدت تُصوِّر وترسم شكلها، وما زالت تقودها وتسوقها وتديرها، فتحدِّد نطاقات حركتها، وآفاق مستقبلها، وهي تقرِّر وتعيِّن مصير الصناعات وحدود تطوير الأجهزة والآلات، ومساراتها المتحكِّمة في شتىٰ الحقول.

فهناك موَاقع ومراكز عُليا، بعضها ظاهر مُعلَن، وأغلبها خفيٌّ مضمَر، تخضع لها مختبرات البحث المكتشِفة، وتتبعها المعامِل والشركات المصنِّعة. منظومة تهيمن علىٰ الوَضع العالمي، تنتهي إلىٰ مجموعة من الشخصيات المجهولة الخفيَّة، هم أقطاب إدارة العالم والسيطرة عليه عبر منظمات سريَّة، ما الماسونية والصهيونية إلَّا فروع لها!... هٰذه المراكز والمواقع هي التي تحدِّد متىٰ يُطرح هٰذا الجهاز للتداول ومتىٰ يحين وَقت ذاك، وهي التي تقرِّر أوَان كشف التقنية المستحدثة والٱستعاضة بها عن السائدة، بل تُقرِّر ساعة تسويق الدواء الجديد المكتشَف بدل الحالي الذي يتداوَىٰ به عامة الناس! وهٰكذا هي التي تحدِّد كيف ستكون وَسائل النقل وتقنيات الٱتصال، بل ماذا سيأكل الناس من بعدُ وماذا سيلبسون؟ وكيف سيلهون ويحتفلون؟ وبمَ سيصرفون أوقاتهم ويلعبون! حتىٰ طُرق التوَاصل وأشكال العلاقات الٱجتماعية وأنماط الٱرتباط بين الناس، في العالم والمجتمع والأُسرة... كلُّها من صنعهم، وبأوامر وتعليمات مركزية يصدرها شخص «إبليس» الرجيم، الذي يحرص علىٰ اللَّبس والٱختفاء، فلا يُعزىٰ إليه شيءٌ ولا يشير إليه بنَان، وكأنه تافه خامل، لا دوْر له ولا فعل، حتىٰ يوَاجهك الجاهل، أو يد الشيطان وبوقه: إنكم مسكونون بنظرية المؤامرة، أو تبالغون!

جيوش مجيَّشة من الشياطين والمردة، وأفواج متعاقبة من السحَرة الفجرة، تترىٰ في جموع متَّصلة، وتتلاحق في صفوف متراصَّة، مع أشتات متوَاردة وآحاد متفرِّقة، تنتشر في كلِّ مكان، ترقب لحظة الحاجة إليها، وأُخرىٰ ترصد لتسجِّل الحوادث وتقيِّم الأوْضاع والأحداث والأشخاص، وتنقل الصوَر إلىٰ مَوَاقع خلفيَّة تصدر عنها الأوامر والتعليمات. فكأن كبيرهم يقبع هناك، يدير حربه ويقود معاركه من وَكره ومكمنه.

رآهم «نجيب» وقد ٱنجلت عنهم مظاهرهم الخدَّاعة، وٱنحسرت الأشكال التي يتوَارون فيها وخلفها، وظهروا بصوَرهم الحقيقية!... فعرف بعضهم، وميَّزهم بأسمائهم وعناوينهم، ٱنكشفوا له بسرائرهم الفاسدة ونيَّاتهم الشريرة وضمائرهم الخبيثة، فبان أنَّ قسماً منهم مُسخوا وٱنقلبوا شياطين، وآخرون هُم في الأصل عفاريت ظهروا علىٰ هيئة البشر، كُلِّفوا مخالطة الناس ومباشرتهم، لينفِّذوا ما أُوكل إليهم...

لعمري هـٰذا هو "الشيخ" الذي طالما نبح
من «بيروت» ولهث (ولما يحمل عليه أحَد)
بترَّهاته، يثغو عبر قنوات التواصل بسخافاته
باكياً عوَز الفقراء، وشاكياً القباب المذهَّبة
فوق مراقد الأولياء! يدعو لإزالتها وبذل
ثمنها علىٰ المحتاجين... وهو من صِبية
مرجع دجَّال، بلغت تركته المليارات من
الأسهم والعقارات والشركات التجارية
والمطاعم والفنادق ومحطَّات الوقود!...

وهـو يـرىٰ الفقـراء، الـذين يبكي عـوَزهـم، يلـوون الأعنـاق علـىٰ أبـواب مـؤسسـات مرجعه وأميره كلَّ يوم، يتسوَّلون ويستجدون ما يسدُّ رمَـقهم، فلا يعودون بها إلَّا مشروطة برفع صُوَره والهتاف بمجده!

والآخر حليف السَّحَرة، الذي نزع في «لندن» العمامة، وخلع زياً تلبَّس به حيناً، وراح يلتقط علىٰ فقهاء الطائفة، ويترصَّد علىٰ المذهب ويتصيَّد، فيغالط بما ينطلي علىٰ العوَام.

ظهـر هنا وبـان أنَّ الأول عفـريت من أصله شيطان، والثاني مغلوب ٱستحوذ عليه إبليس فلبسه وسخَّره! بعـد أن قضىٰ الشقيُّ عمراً يسعىٰ لتسخير الجنِّ وتوظيفهم، ليحقِّقوا له أحلامه ويمكِّنوه من قدرات معجِزة وطاقات خارقة، يبلغ بها مَرامه وينال مراده.

يا للهول! ألا شاهت الوُجوه وقبُحت!...

هـٰذا مسخٌ آخَر وَظَّفه «علي جاد» وٱستخدمه، فظهـر ٱسمه ولمع نجمه في برنـامج حِوَاريٍّ علـىٰ إحـدىٰ الفضـائيـات، دافع فيه عن المذهب وٱنتصر للحق، وخاض محاججات وٱستعرض إثباتات أفحمت الخصوم...

فلما ذاع صيته، ووَجد إلىٰ قلوب المؤمنين طريقه، وشعر أنَّ وَليَّه خلَق له ما يحتاج من مكانة في النفوس، وأوْجد فيه القدرة علىٰ التأثير و " الكاريزما " كما يسميها هو... أخذ يهزأ بالحوزة ويسخر من المرجعية! هٰكذا حتىٰ ٱنقلب وصار في المخالفين المعاندين، وجاهر بٱصطفافه في جبهة أعداء الدين وهو ينسب تراث «أهل البيت» إلىٰ الإسرائيليات!

إنه هنا علىٰ حقيقته: قردٌ مهرِّج، فتح له الشيطان أبواب المجد والشهرة، فباع نفسه وٱرتهن روحه... فخسرت الصفقة.

فإذا ٱنحسر عنه شكل القرد لأتعرَّفه، بدا قَزْماً دَحداحاً، وأشدَّ قبحاً من صورته في دنيانا، وظهر دميم الخلقة، شتيم المحيَّا، كريه الطلعة، لا يقف عليه الطرف من سماجة وجهومة.

هٰذا والصدمة تعقد لسان «نجيب» من أعداد الشياطين وأوليائهم، ومدىٰ نفوذهم وهيمنتهم وسلطانهم، فكأنَّ كلَّ شيء في هٰذا العالم لهم، لم يغلبهم عليه أحدٌ، فملكوا " الدنيا " بما فيها! حتىٰ ذهل عن أصل القصَّة التي يتابع، (قصة الجائر المأخوذ بنشوة الملك وسُكر السلطة) والمشهد الذي يُعرض عليه من وَاقع الحقائق، بعد أن عاشه في عالم المظاهر، وخبره وَفق السائر من قوانين الدنيا، والحاكم من ضوابط العيش فيها...

جميع السياسيين والأثرياء والإعلاميين، وكافَّة الإسلاميين الإضلاليين، هم شياطين! إنهم أبناء مباشرون لـ «إبليس»، وَقع علىٰ أُمهاتهم بطريقة وأُخرىٰ، وشارك آباءهم في ٱنعقاد نُطَفهم. وهناك أعوَان مقرَّبون منه، نفوس ضعيفة، وأرواح خاملة مظلِمة بكدَر المادِّيات، ولا سيما الفكرية العقدية، ٱستحوَذ عليها وطوَّعَها بيُسر. تعضدهم طوائف غير متناهية من همج رعاع، غلَبهم وسخَّرهم، بعد أن تعالىٰ عن توظيفهم ككيانات ذات بال ووُجودات لها قيمة، مع أنها هي المقوِّمة لفعلهم والحاضنة لدَوْرهم!

وكذا، فإن كلَّ الصناعات الحديثة (وحتىٰ تلك السابقة التي أسَّست لهٰذه المتفشية اليوم ومهَّدت لها) من أجهزة ومعدَّات ووَسائل وآلات، إلىٰ أدوات بسيطة قحمت حياة الناس وٱندكت فيها ليصبح ٱستخدامها في صميم العيش... هي من أفكار الشياطين وتدبيرها، وٱكتشافها وتصنيعها، ثم هي في خدمتها. وجميع العلماء الذين قفزوا علىٰ الجذور الأُولىٰ للعلوم، التي ٱنطلقت من قيَم نبيلة، وغُرست لأهداف سامية، وحكَت جانباً من الكمال، أو قنطرة تقود إلىٰ معرفة أسرار الخلق، وشكَّلت سبيلاً للسموِّ الروحي، علىٰ يد أمثال «جابر بن حيان»، أو من شذرات مبثوثة وَقعوا عليها في مصنفاتنا الروائية المفقودة، ضياعاً وإهمالاً أو سرقة ونهباً، فصاروا مخترعين ومكتشفين، وفلاسفة ومفكرين، وكذا الحكَّام المحتضنين، والحقوقيين المحامين، والفرسان المدافعين، والرأسماليين المموِّلين، ورجال الدين المشجِّعين، ولا سيما منذ "عصر النهضة"، الذي وَضع أُسس الحركة الصناعية وأرسىٰ قواعد العلوم الحديثة التي ما فتأت ترفد الدنيا بالمزيد... هم في وَاقعهم وحقائقهم شياطين!

ولعلَّ بعضهم كان يهدف الخير أوَّل أمره، يحدوه الكمال، سوَاء في شرف العلم والشغف به، أو في السمو الروحي الذي يأخذه إلىٰ خدمة الإنسانية، يريد تذليل الصعوبات وتسخير الخيرات... لـٰكنه لما بلغ مراحل متقدمة في البحث وصار علىٰ شُرُف الاكتشاف وتحقيق الأهداف، رأىٰ هناك حُجباً وموانع وسدوداً، ووَجد عندها الشيطان قائماً بشخصه، مفاوِضاً ومساوِماً، يعرض إزاحة الحجُب ورفع الموانع مقابل الامتثال له والانقياد لتعاليمه، وموالاته. هـٰكذا دخلوا في حزبه وهم يخرجون من دين الله أفواجاً!

علىٰ أيدي أُولئك السياسين والقادة الطاغين، ومن تمويل القوارين الفاسدين، وتسخير المخترعين الملوَّثين، ومعهم ـ في غير المرئي والمشهود ـ أفواج السحرة وقبائل المردة... تعمَّقت النزاعات بين الناس وتهيَّجت العداوات، وتأسست الأحزاب والجماعات في الأُمم والمجتمعات، تذكي التعصُّبات العرقية والدينية الضالة، فتنشأ الحروب وتحتدم الصراعات، فيكون الاقتتال والفتك وسفك الدماء، وتقوم المجازر والإبادات.

يهلك الحرث والنسل، ويفنىٰ العباد وتخرب وتدمَّر البلاد... يقتل مئات الآلاف، بل الملايين من البشر، ولا سيما المدنيون الأبرياء، وتباد شعوب وهي تنزح أو تطرد وتهجَّر من بلادها، لتعيش لاجئة في الشتات، وفي خلال ذلك تهتك أعراضٌ وتضيع أنساب، وتتفشَّىٰ أوبئة وأمراض، وتهدر حقوق وتستباح كرامات! ثم تعقد بعد ذلك الصفقات ويوقع المتحاربون علىٰ معاهدة سلام، أو أحدهم علىٰ الاستسلام، وتطوىٰ الصفحة، ليكرَّر المشهد الدموي في مكان آخر، ولربما عاد في المكان نفسه إذا اقتضت الضرورة، وحكَمَت لوَازم الهيمنة!...

فالأموال المودَعة والأرصدة المكنوزة عادت أصفاراً، والمَحافِظ المستثمَرة أصبحت بئراً معطَّلة، والمتاجر المزدهرة غدت خاوِية علىٰ عروشها، فقد بدَّدت الحرب نصفها، وها هي عقود إعادة الإعمار تلتهم نصفها الآخر... الشركات العابرة للقارات تزداد ثراءً، لتزداد "المنظومة" سطوة وتحكُّماً وٱقتداراً، ومن قبل، فإن مخزون الأسلحة (منتهية الصلاحية) المكدَّسة في مستودعات الجيوش قد ٱستُهلِك وٱستنفذ، ما سيدير مصانع الأسلحة من جديد، ويفسح لـ"الأدمغة" أن تخترع المزيد، من الأكثر فتكاً وسفكاً، والأشد تدميراً وهدماً...

جميع هٰؤلاء شياطين، بدرجات ومَراتب متفاوِتة...

وهي "منظومة" شيطانية من رأسها إلىٰ أخمص قدميها.

ولكلِّ قاعدة شواذ، ولكلِّ أمر مطَّرِد وقانون حاكم ٱستثناءات... لٰكنَّها هنا، في هٰذا العالم المظلم الظالم، والفضاء الكالح القاتم، والدنيا الدنيَّة الفانية، المكتظَّة بأهلها، والمزدحمة بالمتكالبين علىٰ حُطامها، بدَت محدودة معدودة قليلة، ونادرة كالمعدومة... وهي "خروقات" لا تقاوِمٰ، وٱستثناءات لا تصمد ولا تستقيم، لا تبقىٰ لتدوم ولا تمكث لتطول، سرعان ما تفقد قوَّتها وتزول، ففي طبيعتها وتكوينها (المتضاد والمتنافر مع المحيط) ما لا يتحمَّل الوَضعَ القائم، ولا الوَضعُ القائم يطيقها، فتجده يعزلها ويُقصيها، لتنزوي في نطاق يسمح بتأثُّرها ولٰكنَّه يمنع تأثيرها، وما يزال بها حتىٰ ينبذها وينفيها، ويطردها تماماً ويلفظها، يخرجها لتلفظ أنفاسها، فتموت وتتلاشىٰ... هٰذا إن لم تندكَّ في الكيان الكبير، وتلحق بالمنظومة الحاكمة، وتضمحلَّ في ذلك الوُجود الشيطاني المستحوِذ.

قد يتمكَّن سياسيٌّ نزيه، علَم من أعيان البلاد ووُجهاء المجتمع، يتمتَّع بالحكمة والحصافة والرشد والنباهة، أن يتسلَّل إلىٰ السلطة ويتبوَّأ بعض مَواقعها، ولربما بلغ وحظيَ بأخطرها. ويستطيع عالم شريف، أن يتوغَّل في عالم الٱكتشافات والصناعات، ويفرض نشاطه وٱقتداره، ويسجِّل حضوره، فلا يمكنهم نفيه وإنكاره. وينجح تاجرٌ مؤمن، مخلص وَفيٌّ، ألمعي ذكيٌّ، أن يغافل " المنظومة " فيخترقها، ويشغل حيِّزاً فيها ويبلغ شأواً في دنيا المال والأعمال. كما يمكن لإعلامي ماهر ومثقَّف حاذق يعرف أسرار المهنة ويتقن فنون الصنعة، أن يخترق عالم الصحافة أو الفضائيات، ويصنع مَوْقعاً ومنبراً ومنارة، يبدِّد من خلالها الظلام الحالك، ويشعل بوَاسطتها شمعة تنقذ الناس من الوقوع في المهالك!...

ولكن هٰذا وذاك، لا يلبث أن يُكشَف أمره ويفتَضح سرُّه، فيوَاجَه بخَيارين لا ثالث لهما، إما أن يلحق بالمنظومة الحاكمة المهيمنة، ويبايع الشيطان ويدخل في جنده وحزبه، أو يُقصىٰ ويُزوىٰ ويُطرَد ويُنفىٰ!

ودعْكَ من فكرة وفرضيَّة ٱرتكاز الصراع علىٰ وُجود الشيطان، وإرجاع الأمر إلىٰ تدخُّله ودَوْره وإدارته... وتعالَ إلىٰ تعقُّل الأُمور ونهوض الأدلَّة وتلمُّس الشواهد الحسيَّة عليها، بعيداً عن تزيين الإعلام، وأسباب المجاملة والمداهنة، ومقتضيات اللباقة في التعاطي مع الآخَر، ولُطف الخطاب نزولاً علىٰ التحضُّر والتمدُّن... فإن عقيدة الإسلام وشريعته تنادي بالتزاحم والصراع، وتقوم علىٰ الإحلال والإبدال والٱنقلاب الثقافي والحضاري، مع جميع الملل والنِّحَل، ومقولة أننا حمَلة الحقِّ مقابل الباطل الذي يتمثَّل في غير المسلمين، هي بديهة عقلية ومُسلَّمة دينية لا ينكرها إلَّا جاهل أو مغالِط...

فكيف لعالَم متفوِّق علمياً وٱقتصادياً وعسكرياً وسياسياً، وبلاد متقدِّمة علىٰ المسلمين حضارياً، أن تسمح وتمكِّن نفسها من عدوٍّ ينبري لحربها عبر غزوَاته و " فتوحاته " ؟ ويجاهر بإرادة القضاء عليها، وإدخالها في الرِّقِّ والعبودية، أو في ذلِّ الٱستسلام ودفع الجزية عن يدٍ وهم صاغرون؟!... كيف له أن يسخِّر لهٰذا العدو الغازي تقنياته؟ ويبذل له ويضع في متناوله إمكانياته؟ فيمكِّنه من ٱستخدام أقماره الصناعية لإعلامه وبثِّ خطابه وترويج أفكاره وتعبئة جنده (وأحياناً، لتزويده بالمعلومات والٱستخبارات الأمنية والعسكرية!)؟ ويقدِّم له الأسلحة والمدافع والدبابات التي سيحاربه بها؟ ويوظِّف طِبَّه وأدوِيته لمعالجة مَرضاه وجرحاه الذين سيقومون من فُرُشهم ليقاتلوه من جديد؟! وهٰكذا يدعم ٱقتصاده ويبعث الٱزدهار في تجارته، ويقوِّي نظامه المالي، وهو يكيد به ويتحيَّن الفرص لحصاره وأخذ ٱقتصاده إلىٰ الٱنهيار والإفلاس؟... وما إلىٰ ذلك مما يبسط يد عدوِّه ويُعلي كعبه عليه، ويمكِّنه من عُنقه!؟

فإذا سجَّل الوَاقع المشهود ذلك، ورأيت أنه يفعل، ولاحظت خرقاً وتسلُّلاً أجبر " المنظومة " أن تُفسِح لأحدهم وتفتح له أبوابها، فٱعلم أنه ٱستدراج وتمهيد للٱنقضاض عليه، وتكتيك للٱلتفاف علىٰ قدراته وعوَامل التميُّز والتفوُّق فيه، أو أنَّ المسكين دخل في " المنظومة " وأصبح رقماً فيها، علِم بذلك فخان الأمانة وخرج من دينه وصار منهم، أو لم يعلَم، سوَاء لغبائه وحمقه، أو علىٰ طريقة الغيمة التي سيعود خراجها إلىٰ القويِّ المهيمن، ويرجع حاصل غيثها ونتاج وَابلها إلىٰ " المنظومة " ، أينما توجَّهت بها الرياح، وحسبت أنها تسوقها وتصرفها وتدفعها إلىٰ غير حقل!

وليست الفكرة رسالة تعجيز تبثُّ اليأس في النفوس، وتزرع الهزيمة في الأرواح، وتدعو للإستسلام والقنوط، وتأخذ المؤمن للأسر والارتهان... فقد تتدخَّل الناحية المقدسة على مشرِّفها آلاف التحية والسلام (وغرف العمليات هنا!)، وتطمس على أعين القوم، وترغم هيمنتهم وتقهر سلطتهم، فتخرق كيانهم وتنفذ بفرد وحالة، أو أكثر من ذلك وأوْسَع، لدفع مفسدة تعرفها، أو جلب مصلحة ترتئيها...

ولكن أنَّى لزماننا وكيف لأيامنا أن تجود بمثل «علي بن يقطين» الوَزير الموالي في حكومة «هارون العباسي»؟ وكيف لنا أن نحرِز يد «المولى» عليه السلام، فوق رأس هذا المقتحم على القوم ميدانهم، والمتوغِّل في نظامهم، والداخل في "أعوَانهم"؟ تمسح عليه لتحميه وتسدِّده، وتظلِّله لتكفيه الشياطين وتدفع عنه شرورهم، ثم تُبارِك فعله وتضفي المشروعيَّة على عمله وتحقِّقها في شخصه؟! ولا سيما أننا لا نرى من هذه النماذج ـ نوعاً ـ مَن يدفع كفَّارة إعانة الظالمين، عبر نجدة المؤمنين وإسعافهم وخدمتهم بما يمنع عنهم الحيف ويخفِّف الظلم والاستضعاف، كما في قول الإمام «الكاظم» عليه السلام: "كفارةُ عمل السلطان الإحسان إلى الإخوان"... فأنت لا ترى هؤلاء إلَّا غارقين في مصالحهم، مُكِبِّين على دنياهم، لاهثين لزيادة ثرواتهم، منصرفين لتنمية مكاسبهم، والعمل على تحكيم وتثبيت مَوَاقع سلطتهم ونفوذهم، حتى يكون في سياق ذلك ومن أدواته، تعمُّدهم الإساءة إلى إخوانهم وإجحافهم وقهرهم، دفعاً لشبهة "التعاطف"، ودرءاً لتهمة "المحاباة"!... بهذا الثمن الآثم يتقرَّب أحدُهم من "المنظومة"، ومن هذا الطريق القذر يعلو في سُلَّم مجدها مرقاةً بعد مرقاة!

إنَّ الدخول في "المنظومة" [1]، والاْلتحاق بركب الحكومات، والاْنتساب إلىٰ الأحزاب والجماعات، والاْنخراط في ما يُرفع قبل الظهور الشريف من "رايات"، يدعو أصحابُها الناسَ إلىٰ أنفسهم، ويحشدون الأُمة حولهم... هو ركونٌ إلىٰ الظلم والظالمين، وعملٌ في نظام الشيطان الرجيم!

من هنا حَكَم الاْنقطاع، ولَزِم وُجوبُ الاْنعزال والاْنزواء، والفرار إلىٰ الله من شرِّ الشيطان، واللجوء إلىٰ كهف الرشد والإيمان، والرهبنة في دَيْر الحقِّ ومأوىٰ الاْنتظار. فإن شقَّ ذلك وعزَّ، لِغلَبة ضرورات العيش ومستلزماته، وما سبق في علم الله من ضعف المؤمنين، وأنهم لا يقدرون علىٰ ذلك... كان الأمر بإعانة «الإمام» بوَرع واْجتهاد، وعفَّة وسداد.

---

(١) من أساليب الإغواء المتقدِّم، ووَسائل التلبيس المتطوِّر، التي تقطع السبيل علىٰ المجاهدين (في جبهة الجهاد الأكبر)، وتُفشِل مساعيهم في إدراك الحقيقة المصفَّاة، وبلوغ المعرفة النقيَّة، والدين الخالص، وتحول دون كشف المؤامرة الكبرىٰ وفضح الوَاقع الخطير الذي يحكم العالم ويسيطر علىٰ البشرية، ويدير الحياة تجاه الإضلال والفساد... أن يعمد الشيطان إلىٰ بدائل تعرض قراءة أُخرىٰ تصرف الأذهان عن الوَاقع المرير، ويحبك قصصاً تلتف علىٰ الحقِّ الخطير، تقطع الطريق علىٰ مَن قارب الوُصول إلىٰ النهاية الكاشفة!

بدائل تشابه الحقيقة، يداف فيها سُمُّ الصرفِ عن الحقِّ الخالص، وخيارات تماثل العقيدة الصحيحة والدين القويم تمزج بضغث من الباطل وتخلط بشمَّة من الضلال، لا يصطادها إلَّا الألمعي ولا يكتشفها إلَّا الخبير، ولا ينالها إلَّا ذو حظٍّ عظيم... وقد عمد مؤخراً إلىٰ تصوير نموذج (بآلية متطوِّرة رائعة، وتقنية تُعجِب وتُبهِر) يقدِّم فكرة "المنظومة المهيمنة" في إطار ما أُطلق عليه: "المصفوفة" The Matrix، وسياق الصراع بين الخير والشر، فتطرح حاكمية الشرِّ ضمن اْصطفافات الغرائز الفطرية والحاجات الطبيعية التي تنزع بالكائنات وتأخذها إليه بتلقائية، بعيداً عن وُجود مادي عنصري في شخص معيَّن يباشر الدعوة إلىٰ الشرِّ ويتولىٰ قيادة حركته! ليتحقق في النهاية الطمس، وينجز الإخفاء والإلهاء، وينشغل الناس بجبهات وَهمية تصرف الجهود وتهدر الطاقات في غير الجبهة الحقيقية! وقد طرح ذلك وتمَّ عرض هـٰذه المادة الخطيرة وجرىٰ تسويق الأُحبولة المحكمة في فيلم سينمائي للأخوَين «لاري» و«أندي تشاوسكي»، الذي تناوله «ميشيل حنا» في كتابه (ما هي الماتريكس؟).

من هنا أُبيح الدخول في " المنظومة " ، إذ لا بدَّ أن تمضي الحياة ويستمر العيش، فتُحفظ الثغور، وتُقام الحدود، ويُردع الباغون، ويُدفع الأشرار، ويأمن الناس في معاشهم ويستقروا في حياتهم... فأباح الشارع المقدَّس العمل في المنظومة (مثلما حكم بطهارة غير المؤمنين وأجاز نكاحهم وذبائحهم)، ورخَّص الدخول في الناس وأشراطهم، وسمح بمجاراتهم في الحياة ومجاورتهم في الأوطان والبلدان. لٰكنَّ الدخول في السلطان، وفي هٰذا الباب من منظومة الجور والطغيان، خضع لشروط أشدَّ صرامة، وأكثر غلظة وحدَّة، وهو ـ في العموم ـ بقدر محدود، وفي الخصوص بإذن وإجازة خاصة... ولٰكنَّه لم يرخِّص أبداً في الولاء، ولم يسمح بوَليجة تخترق حماه.

وقد ضبط الأمر وٱشترط لمن لم يتزلزل فيه الوَلاء، إذن الفقهاء!

ولم يكن «نجيب» يحسب أنَّ للمرجعية كلَّ هٰذا الشأن والخطر، حتىٰ رأىٰ ما لها هنا من حُظوة ومكانة، ولمس من مقام ومنزلة، سواء في حديث «عبدالحميد» وزملائه العاملين، أو في ما ٱنكشف له من صوَر ووَقائع.

كان يحسبهم مجرَّد شَيَبة مقدَّسين، رجال ٱنقطعوا إلىٰ العلم والعبادة، فإن نهض أحدهم وكان لهم دور في الحياة، خارج نطاق الحوزات العلمية والشأن التخصُّصي، فبعض أعباء الأُمور الحسبية... وإذا بهم، كما ٱنكشف له هنا وبان، جزء في صميم الحرب المستعرة بين " الناحية المقدَّسة " و " المنظومة " !... إنهم أقطابٌ وأوْتاد، وأركان في محور الحقِّ ومقاومة الفساد، ضلالاً عقائدياً كان، أو فسقاً وفجوراً، ينهضون به عبر بيان الأحكام الإلهية، خالصة عن الزيف والتحريف، مما تظافر عليه معسكر " المنظومة " ، وحرص علىٰ دسِّه وبثِّه، وٱستمات في إرسائه.

وقد رأىٰ «نجيب» أشكال الأدعياء المزوِّرين و "المراجع" المزيَّفين، وصُوَرهم القبيحة، تنمُّ عن حقائقهم الفظيعة: كلابٌ عقورة، وخنازير قذرة، وذئاب ضارية، وغيلان أو مسوخ شوهاء! كما رأىٰ حال المتخلِّفين عن المرجعيات الحقَّة، المقلِّدين لهٰذه المدَّعية المزيفة: قطعان أبقار وربائض أغنام، وفيهم طغام يطفرون وحثالات يدقون الطبول ويرقصون! وشهد أنهم (يتقدَّمهم زعماؤهم وأئمتهم) يسيرون في ركاب الشيطان، وينهضون مثنىٰ وفرادىٰ في خدمة مشروعه وتحقيق خطَّته!... وكان يعاني وهو يختزن المشاهد ويحفظها، ويعدُّ نفسه لنقلها عند عودته:

لعمري! كيف سأُقنع الناس أنَّ المرجع الذي يعشقون والزعيم الذي يوَالون، والقائد الذي يستميتون في نصرته والدفاع عنه، ويتخذونه إماماً، يلوذون برايته، ويعملون في حزبه وجماعته... هو شيطان! وأنَّ نظيره الآخَر، هو دابة ركبها الشيطان، وأُلعوبة سخَّرها؟ وأنَّ هٰذا الرمز المحبوب، ذا الشعبية الجارفة والجماهيرية الغالبة، الذي تملأ صوَره البيوت، هو أداة شيطانية تعبث بعقولهم وهي تقدِّم لهم بعض النصر الذي يحبُّون، فتصرفهم عن الحق؟!... مَن عساه يقبل قولي ويصدِّق نقلي؟ مَن يمكنه أن يغلب هوَاه ويهزم نفسه فيعدِل أو يتوقَّف؟

ربَّاه إنها بهائم سائبة وأباعر مسخَّرة، تكدُّ
وتشقىٰ، تحمل وتنقل، تحطُّ وترحل... كلُّ
ذلك في سبيل «إبليس» وخدمته! إنهم
يعبدون الشيطان ويقدِّسونه، ويحسبون أنَّهم
يحسنون صنعاً، وأنَّ في هٰذا تمام الإسلام
ورضىٰ الرحمن. إنهم يتبعون العدوَّ الذي
يلعنون، ويسيرون في ركاب مَن يقاتلون
ويحاربون... ولا يدرون! نعم، فيهم مَن يعلم،
طلائع وقادة ومسؤولون، قبضوا الأثمان
وتسلَّموا الأُجور، ذاقوا والتذوا بـ" المغانم " .

لا سبيل للحركة في حقل الألغام والدخول في مدينة الظلام، أو السباحة في بحر اللوث والنجاسة، وٱقتحام الطوفان الهائج واللجة المصطخبة، إلَّا بحبل وطوْق يعصم السابح من الغرق، ومنار يقود السفينة إلىٰ شاطئ النجاة وبرِّ الأمان، ونور يهدي الساري عن التيه والضياع.

ولا مخرج عند الضرورة وحكم الٱستثناء، لوُجوب إمرار المعاش وتأمين الحياة، وأسباب أُخرىٰ تفرض نفسها، لا بدَّ منها، لا تخلو من مباشرة ولاية وتبوُّء إمرة وقيادة، وجُلُّها يتطلَّب الدخول في " المنظومة " ، ويلزم الولوج في هٰذا النطاق... إلَّا بالعمل تحت إمرة فقاهة حقيقية، ومرجعية جامعة للشرائط، تمثِّل النيابة العامة عن «المولىٰ» عليه السلام وتحقِّق المشروعية التي ترخِّص للعمل، وتجيز الدخول والٱنخراط. ودون ذلك متاهة لا ينجو منها أحد، بأدلَّة عدَّة، منها التجربة والمشهود علىٰ هٰؤلاء بالوُجدان.

إنها دعوة يقظة ورسالة توعية تلقَّاها «نجيب»، تأخذ إلىٰ تناول كلِّ شيء من مَوضعه وإرجاعه إلىٰ أصله، فلا تختلط الأُمور، ولا تلتبس الأحداث، فتنطلي الخدع ويظهر الباطل حقاً والحقُّ باطلاً حين يؤخذ من كلٍّ ضغثٌ فيُمزجان. إنَّ إخلاص الحبِّ وإمحاضه لا ينقسم ولا يتجزَّأ، وإصفاء الوُدِّ وصدق الولاء لا يتوزَّع ولا يتفرَّق، قد يضعف ويقوىٰ، يشتدُّ ويخبو، لكن ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلۡبَيۡنِ فِي جَوۡفِهِۦ﴾. وقد يُعفىٰ عن تعلُّق القلب بالشهوات، ولربما المحرَّمات! ويُغفَر للمبتلىٰ... ولكن لا سبيل للتجاوز عن ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ﴾، فلا يشرك المؤمن في وَلائه، ولا يتَّخذ دون مَن أمرَ الله بحبِّهم وولايتهم وَليجة.

هنا حقائق محسوسة ووَقائع مشهودة، وعلم تتفجَّر أدلَّته وتفيض حتىٰ تبلغ بالمدرك اليقين، فيحضر "المعلوم" في النفس تصديقاً وجزماً، لا فُرجة للشكِّ ولا مساحة للظن، ناهيك بالجهل... كلُّ شيء وَاضحٌ بيِّن، القوم في نهاية السقوط والانحطاط، يقبعون في هاوِية سحيقة، إلىٰ جوَار الظلَمة وأعوان الظلَمة، غاصبي الحقوق، بل قاتلي الأنبياء والأولياء.

والحقيقة لا تصنعها رغبة قائد، ولا تغيِّرها إرادة دكتاتور، والعلمُ لا يبلغ نتائجه علىٰ مساعٍ تريد ترجيح كفَّةِ صديق علىٰ أُخرىٰ كَمُن فيها عدوٌّ، ولا يبلغ آراءه ويحسم مواقفه مماشاةً لثريٍّ يموِّل البحث، أو محاباة لغنيٍّ يدفع رواتب المستكشفين ويغدِق علىٰ العاملين!... مما يكون في عالم السياسة ودنيا الكيانات الاعتبارية، من أحزاب وقيادات وما إليها. إنَّ عالم الحقيقة ومُعطىٰ العلم الذي يلاحقه العقلاء ويريده الإلهيُّون، يلوح في أُفق آخر، يطلُّ علىٰ هؤلاء ساخراً ومتألِّماً، وها هو الساعةَ ماثلٌ أمام «نجيب».

إنَّ هٰذه الجزيرة النائية عن اللوث، المنزوية عن الجور، والعرْصة الخضراء بالحقِّ، والبقعة النضرة بالعلم، المونقة بالحقيقة، والكيان اليانع الباهر، والموئل الوهَّاج الزاهر، الذي يحفُّ بالناحية المقدسة، يطوِّق دار «المولىٰ» ويحتضن قاعدته، بل يلوذ به ويستمد منه ويستضيء بأنواره، فيرسل عنايته بعد رقابته، لتطال وتنال الخاصَّةُ منها الخوَاص، بعد أن تشمل العامة كافَّة الناس، بل الخلائق والكائنات... هي محيط وفضاء يسمح لهٰذه النخبة الإلهية بالعيش وَفقاً لِوَلائها، ويعفيها من السكنىٰ في دار الظالمين، والدخول في منظومتهم والآنخراط في باطلهم، ما تحكيه آية: ﴿وَإِذِ ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأۡوُۥٓاْ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ يَنشُرۡ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ وَيُهَيِّئۡ لَكُم مِّنۡ أَمۡرِكُم مِّرۡفَقٗا﴾. عُزلة تخلق وتكوِّن قاعدة لآنطلاق الخرْق النهائي الذي سيُبطل تحدِّي الشيطان ويُسقِط رهانه، ويؤدِّي إلىٰ آنهيار منظومته وتداعي كيانه، عندما يستجيب الله للمضطر دعاءه ويكشف السوء ﴿وَيَجۡعَلُكُمۡ خُلَفَآءَ ٱلۡأَرۡضِ﴾، وحين يتحقَّق الوَعد الإلهي المنتظَر والإرادة الحقَّة المرجوَّة ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنَجۡعَلَهُمۡ أَئِمَّةٗ وَنَجۡعَلَهُمُ ٱلۡوَٰرِثِينَ﴾.

حالة يمكن لكلِّ مؤمن أن يكوِّنها في نفسه ويحقِّقها في روحه، وكذا يمكنه أن يخلقها في داره ويُوجدها في محيطه، بنسبة محدودة ودرجة قليلة، وهو يعيش البراءة من الظالمين، والآنفصال عن "منظومة" الشياطين، ويوطِّن نفسه ويعزم علىٰ آعتزالهم وما يعبدون، فإن وُفِّق وآستطاع فبها، وإلَّا كان دخوله قسراً وكرهاً... يرقب الحقَّ من موقعه، ويرابط في آنتظاره، وهو حِلس داره، بإعداد نفسه ورياضتها، وبالدعاء والزيارة والصِّلة!

ٱلتفت «نجيب» نحو صاحبه، ورمقه بحسرة وندامة:

كم كان الخطاب التافه والإعلام السخيف، وما يخلق من عقلٍ جمعيٍّ أكثر منه سُخفاً، ظالماً وهو يسفِّه آراء بعض العلماء ويَسِمُهم بالتخلُّف والرجعية، لرفضهم التمادي في المدَنية، والاكتفاء بوَسائل العيش البدائية، والتمسُّك بحياة بسيطة ما ٱستطاعوا... يحضرني أنَّ أحدهم كان قد أعرض عن إصلاح عطب أوقف عمل البراد (الثلاجة) في بيته، وعالج الحاجة إلىٰ هٰذا الجهاز بإعداد كفايته من طعام يومه، ما يغنيه عن الادِّخار لآتٍ أو حفظ باقٍ بالتبريد، فأصاب أربعة أغراض بسهم وَاحد، وهو يجمع إلىٰ مبدئه وفكرته الروحانية: توفير قيمة تصليح البراد، وتقنين ٱستهلاك الكهرباء، ورعاية صحَّة البدن في تناول طازج الطعام! وكان قد التزم في تنقلاته داخل المدينة المشي، وأقنع زوجته بالاكتفاء بمفرمة اللحم والمكنسة وغيرها من الأدوات اليدوية عن الكهربائية، كما صار يتطبَّب بالأدوية الشعبية عن الحديثة المصنَّعة.

تبسَّم «عبدالحميد» وربَتَ علىٰ كتف «نجيب» وقال:

بل هناك مَن فاق صاحبك هـٰذا وغلَبه، إنَّ بينكم يا «نجيب»، وفي دنياكم هـٰذه الدنيَّة المنحطَّة، روحانياً يعيش حياة كاملة وهو منفصل عن عالمكم بجُلِّ ما فيه! إنه يقطن "جزيرته" وينكفئ في "كهفه" وهو في قلب المدينة وصميم المدنيَّة، بلا رهبنة ولا ٱنقطاع، يحضر الجماعة ويباشر الدرس والتحصيل، وينهض بمسؤوليته في الوَعظ والإرشاد، دون أن يدخل في "المنظومة"، أو ينتسب بنحو إلىٰ الظلم والضلال.

إنه يسكن داراً لم يدخل في بنائها شيء من الصناعات الحديثة، كلُّ ما في بيته صناعة يدوية وإنتاج حرفيين محليين تقليديين، يستخدمون مواد طبيعية، لم يقهروا ولم يستنزفوا فيها الطبيعة، ولم يستضعفوا بسببها إنساناً، ولم يفسحوا قيد أنملة لشيطان! وهو لا يرتدي إلَّا من نسج يديه وخياطته، يقوم بحَبْك ثيابه ورفئها وفتْلها، حتىٰ أنه لا يستخدم الأزرار المصنَّعة، ويعمد لعُقَد تعلق بعُرىٰ الثوب والقميص فتلتئم ناحيتاه...

وهو لا يأكل إلَّا من زرع وصيد وذبح يده، حتىٰ ليمتنع عن تناول السكَّر المستورد، يقول إنهم يعمدون إلىٰ صَبغِه بمسحوق عظام ميتة، تورثه البياض الناصع الذي ترىٰ.

هناك مَن ليس له ٱسم في ديوان دولة! لم يدخل عالَمهم ألبتة! حتىٰ ببطاقة تثبت هوِيَّته، وجواز سفر يتيح له عبور البلاد إلىٰ مقصده! لا سِجلَّ له ولا قيد ولا وَثيقة رسمية في أيِّ بلد، ولا يتبع أيَّة حكومة!

إذا كان صاحبك ٱمتنع عن إصلاح البراد المعطوب في بيته، فهناك مَن لا كهرباء في داره! فلا يستعمل شيئاً من المصابيح، ناهيك بالأجهزة والأدوات الكهربائية.

يرفض لأجهزة وآلات من صنع الشيطان أن تلوِّث روحه، ويمنعها أن تدخل في حياته... لا مذياع ولا تلفاز، لا سيارة ولا طائرة، لا حاسوب ولا هاتف! لم يعلق بخيوط الشبكة العنكبوتية (الإنترنت)، ولا وَظَّف أو ٱستعان بمحركات البحث، التي تخدم حتىٰ العلماء وتوفِّر وَقتهم الثمين، ولا بوَسائل التوَاصل الاْجتماعي التي ينخرط فيها الملايين!

كلُّها عنده شيطانية المنشأ والترويج والإدارة، يسخِّرها الملعون لأهدافه ويوظفها في أدواته. والربَّانيُّ الإلهيُّ لن يكثِّر سوَاده ولن يساكنه في أرضه! وبعد الأجهزة والصناعات، فإنَّ المؤسسات والكيانات الاجتماعية والسياسية، كلُّها صنائع الشيطان! الدول والحكومات، البرلمانات والبلديات، البنوك والبورصات، شركات الطيران والناقلات...

: كيف عسانا أن نعيش إذاً، وإلى أين نلجأ وبمَن نلوذ؟ ولا بد من انتساب إلى دول وبلاد، وانخراط في مجتمعات؟ كيف نسافر بلا وثائق وجوازات؟ كيف نسجِّل أبناءنا في المدارس بلا شهادات ميلاد؟ كيف ننتخب في البرلمانات، بلا جداول وقيود وجنسيات؟! إنه عالم يغمرنا ويستحوذِ علينا، لا يمكننا التخلي والانفصال عنه.

: لا بأس عليكم ولا غضاضة، لقد رُخِّص لكم الدخول، وأُجيزت المجاراة، وعفي عن هذا اللوث والقذَر... إنما البأس في الركون والإغراق، وفي الارتهان والاندكاك، الذي يحول دون التحرُّر ويمنع ساعة الانعتاق!

عليك أن لا تخضع لهـٰذا الواقع، ناهيك بأن تنصره وترسخه وتنميه... لا تنخرط فيه إلَّا كـآكل ميتة لٱضطرار، ومتجرِّع خمر دفعاً لظمأ وسدَّ رمقٍ. لا تستسلم لهـٰذا الوَاقع وتنغمس فيه حتىٰ كـأنه أصلٌ مُسلَّمٌ جارٍ، فتـنسىٰ في سلوكك وعملك " الأصل " الحقَّ، وتُضَيِّع في روحك ومعتقدك معدن الولاء، وتُفسِد إكسير السعادة، فيحدق بك البلاء ويحلَّ الشقاء.

إنَّ «المولىٰ» عليه السلام يعلم ضعفكم عن هـٰذا الحدِّ من البراءة، وعجزكم عن تلك الدرجة من الٱنفصال فالٱستقلال، وأنكم لا تقدرون علىٰ ذلك، ولـٰكن أعينوه بوَرع وٱجتهاد، يتمثل في الإخلاص له بالولاء، وعفَّة وسداد في عدم ٱتخاذ وَليجة دونه ومُطاع سِواه... أن تعيشوا بقلوبكم التنفُّر والٱشمئزاز من هـٰذه الهيمنة، والٱنقطاع والٱستيحاش من هـٰذه الدولة، وتتلمَّسوا شذوذها فتعانوا اللوعة، وتقاسوا من غلبة الفساد فتستشعروا الغُربة، لا أن تنخرطوا وتندمجوا حتىٰ تكونوا جزءاً من " المنظومة " ، ما يجعلكم يداً للشيطان، ويحيلكم رقماً في عديده وحسابه.

إنَّ «المولىٰ» عليه السلام يخرج حين يقوم، وليس لأحَد في عنقه بيعة، ولا لِشيء من هٰذا الباطل في عيشه نصيب، ولا حظَّ ولا سبيل لِذرة من "المنظومة" إلىٰ مخالطة شأن من شؤونه ، ولا ـ من بعدُ ـ لها في نهضته وقيامه. لم يخض عليه السلام في عالمهم ولا دخل دنياهم ولا ٱنتسب ـ حتىٰ في الظاهر ـ إلىٰ شيء منها... إنه لا يستعمل أدواتهم، وسوف يعطِّل ويبطل آلاتهم، ويلقف بعصاه الموسوية كلَّ ما صنعوا من كيد ساحر، ولا يفلح الساحر حيث أتىٰ. لن يحتكِم عليه السلام لوَاقعهم، ولن يعترف بدول وحكومات، ولا أُمم متحدة وسفارات، ولن يحفل بمنظمات وهيئات، ولن يقف عند حدود بلاد، أو ينزل علىٰ نُظُمٍ قائمة وقوانين وأعراف يرونها مسلَّمات...

حتىٰ ما ران علىٰ قلوبهم فحسبوه من الكتاب والسُنَّة فظلُّوا عليه عاكفين... سيحرقه وينسفه في اليمِّ نسفاً، ويأتي بغضٍّ جديد، لا يجدون فيه من قرآنهم آية! وأنَّىٰ لهم بآية؟ وقد عَمُوا وصمُّوا من فرط ما شغلهم الشيطان وعبث بهم، حتىٰ سكَنَهم ومَسَخهم.

إنه للكافرين به الموت الزؤام والطَّامة والحِمام... اْقتلاع من الجذور، ونبش للقبور، ونقمة لا تخبو حين تثور، وطوفان يطمو وسماء تمور... نسفٌ وقمع، اْستئصال واْجتثاث، حكَت ﴿وَٱلۡعَٰدِيَٰتِ ضَبۡحٗا ۝١ فَٱلۡمُورِيَٰتِ قَدۡحٗا ۝٢ فَٱلۡمُغِيرَٰتِ صُبۡحٗا ۝٣ فَأَثَرۡنَ بِهِۦ نَقۡعٗا ۝٤ فَوَسَطۡنَ بِهِۦ جَمۡعًا ۝٥﴾، جانباً من هوْله وإضاءة على المنتظَر من أدائه، يوم قام «جدُّه»، بعد أن جَبُن وفشل غيره، واْنتفخ رعباً من أهل «وَادي اليابس» صدره، فاْنهزم الأول، فلحقه صاحبه في غارة تالية، فعاد وقد طار من عدَّة القوم وجمعِهم قلبُه... عَصَيا الله في عرشه، وخالفا «رسوله» في أرضه، ولم يصدِّقاه وقد وَعدهما النصر وضمنه لهما، فاْنسحَبا وتخلَّفا!

عندها دعا «رسول الله» ﷺ «أميرالمؤمنين» وأوْصاه بما أوْصى الأوَّلَين، ووَعده وبشَّره بالنصر وأنَّ الله سيفتح عليه وعلى أصحابه. فخرج عليه السلام مؤمناً مصدِّقاً، ممتثلاً مسلِّماً، يملأ الله تعالى قلبه وسمعه ونظره، لا يرى شيئاً إلَّا رأى الله قبله وبعده، وفيه ومعه...

يقود سريَّة من فرسان المهاجرين والأنصار، أعنف بهم السير نحو مقصده، حتىٰ خافوا أن ينقطعوا من التعب وتحفىٰ دوابُّهم من شدَّة المسير. فلما بلغ مقصده وأتمَّ علىٰ عدوِّه حُجَّته، ورآهم يأبون أن ينزلوا علىٰ قوله ويعلنوا إسلامهم... نفر عليهم بسريَّته، وأغار بخيْله، ينعقد النقعُ من حوَافرها، ويقدح الشررُ من سنابكها، لا تدري أكان ضبح عدْوِها يسبقها، أم تقدَّمت عليه فلَحقها؟ فما بلغ العدوُّ صوت أنفاس الخيل، ولا رأىٰ ما أثارت من غُبرة، حتىٰ خطف الفرسانُ خطفة فصلت من القوم الرؤوس عن الأعناق... وإذا به يملك "الوَادي" ويرغم الأعادي، فأقسم الله "والعاديات".

هٰذا المشهد المرعب المهول، من ضبح الخيول وقدح حوافرها في ظلمة الليل الحالك، والإغارة إلىٰ ٱختراق وإسقاط جميع الخطوط وقهر العدو في عقر داره، وقحم قلب معسكره، وفتحه... يحكي شمَّة من فعل «المهدي» عليه السلام، وشيئاً مما سيكون عند قيامه عليه وعلىٰ آبائه آلاف التحية والسلام.

سيأتي بها ـ روحي فداه ـ نكباء زعزع تقتلع، وهوجاء مُعصِفة تكتسح، رعدٌ قاصف مدمِّر، وبرقٌ صاعقٌ حارق، طوفانٌ جارفٌ لا يغادر، وسيلٌ عُباب، زعابٌ يتدافع مرة وقحافٌ أخرسُ أُخرىٰ... خسفٌ وزلزلة، تميد الأرض من تحت أعدائه، فتبيدهم البيداء، وتبتلعهم عن آخرهم، حتىٰ ليتوَارىٰ الهارب وَراء حَجَر، فينادي ويدلُّ عليه، ليأتي الصمصام المهدوي يلتقف ما فيه عينيه... فلا يبقىٰ لـ " المنظومة " أثرٌ بعد عين!

حتىٰ ذلك الحين، عليك يا «نجيب» بكهفٍ يؤويك... ولا تتحرَّاه في الجبال وتلتمسه في القفار، فلا رهبانية في الإسلام ولا ٱنقطاع، بل قيام لله مثنىٰ وفرادىٰ، وندبٌ لـ " الجماعة " ، وحرص علىٰ التواصل والتزاور والعِشرة...

إنَّ كهف الأمان في بيوت أذِن الله أن تُرفع ويُذكر فيها ٱسمه، عِش في كنفهم، وٱعمر روحك بحبِّهم وولائهم، ولا تسمح لعرش الله المنتصب في قلبك أن يستوي عليه غير إمام زمانك... تظفرْ وتفُزْ، وتنجُ وتسعَدْ.

◆ ◆ ◆

لم يكن «علي جاد» خبيثاً في ذاته ولا مطروداً من أساسه، وإن كانت نشأته ملوَّثة من أوَّلها بالألتقاطية ودعاوىٰ العصرنة والتغريب، وما يتوهَّمه تنويراً وإصلاحاً يخدم الدين... ولٰكنَّ «إبليس» أملىٰ له وأجاد إغواءه وٱستدراجه، زيَّن له الرئاسة وحبَّبها إلىٰ قلبه حتىٰ تمكَّنت منه، ثم مهَّد له الطريق لبلوغها، فراح ـ حين رآها تلوح وقد غدت في المتناوَل لا الأماني والخيال ـ يسعىٰ إليها ويتكالب عليها، ثم يلهث لنيلها والظفر بها، وقد خطف بريقُها بصره وذهب ببصيرته، فلما بلَغها وتمكَّن منها، عضَّ عليها بالنواجذ، وأحكَم قبضته في مخنقها، وأنشب مخالبه في رمَّتها، وغرق في حطام تتقاذفه الأمواج، وتأخذ المتمسِّكين به إلىٰ قعر الهلاك.

لا يصل المؤمنون الأخيار ـ عادة ـ إلىٰ المواقع العليا في السلطة والحكومة، ناهيك بحكم البلاد والسيطرة علىٰ العباد، أقصىٰ ما يبلغون، إدارة شركة صغيرة، أو ٱمتلاك ثروة متوسطة، وسلطة في حدود قرية، وإمرة ورئاسة في نطاق منطقة أو ضيعة، لا يحكمون بلاداً كاملة، إمبراطورية مترامية الأطراف، وَفيرة الخيرات، عظيمة المكانة بين جيرانها، مُهابة الجانب، منيعة الذمار، تهدد بالتمدُّد وتُنذر بالتوسُّع.

كان قد جاءه الملكُ ووَرثه، أو جاء هو الملكَ وٱستولىٰ عليه وٱغتصبه، عن طريق الدين وبٱسم الفقه والشريعة! ٱدَّعىٰ أنَّ «الإمام الغائب» هو الذي جعله حاكماً ونصَّبه للأُمة زعيماً! وإن خلَط في الدعوىٰ وداراها بلبوس النيابة العامة التي يقول بها الفقهاء، ما ينفي التخصيص والتعيين، لٰكنَّ ما ظهر منه في السلوك والعمل، وكان من أشياعه في النصرة والأتباع، رفعه إلىٰ مقام النائب الخاص، ووَضعه في رتبة السفير والباب.

وكانت هٰذه الدعوىٰ قد خلقت ٱمتعاضاً في "الناحية"، وخلَّفت سخطاً وغضباً في "الجزيرة"، وأوْرثت العاملين هنا حنقاً شديداً... فبسببها فُتح الباب علىٰ هتك الفقاهة، وأخَذ مَن هبَّ ودبَّ في ٱدِّعاء الٱجتهاد وتبوُّءِ المرجعيَّة، وزال القبحُ عن زعمها زوراً وٱنتحالها غصباً، وأُفسح أو رُخِّص السَّعي لنيلها بوَسائل تجارية وأدوات سوقية، ووُسِّع نطاقها إلىٰ حدِّ الترهُّل والتهلهل، حتىٰ تشمل ويدخل فيها كلُّ وَارد، ما أنذر بهدم مباني الحوزة وتقويضها! والحقُّ أنَّ من أسَّس هٰذا الأساس هو غيره، رجل سبَق «جاد» إلىٰ هٰذا الجرم، لٰكنَّها ظلَّت حالة محدودة وسابقة محصورةً، ٱستطاعت الحوزة ٱحتواءها وإبطال مفاعيلها (اللهم إلَّا في نطاق حزب صغير قلَّد أتباعُه المدَّعي)، حتىٰ توفي الرجل ولم تثبت له شرعية ولا حظي بٱعتراف. لٰكن حالة «علي جاد» كانت مدعومة بسطوة الحكم وسلطان القهر، ومقترنة ببذل الأموال ونصرة الإعلام، وٱندفاعة شيطانية لا تقارَن بالأُولىٰ الهزيلة، فلحقه العار، دون أن يسقط عن ذاك الشنار...

لٰكنَّ القائمين علىٰ الرقابة والعمل هنا، لا يملكون ـ مع ٱمتعاضهم وسخطهم ـ أن يخرقوا قاعدة تحكمهم، ويتجاوَزوا أصلاً يلتزمونه: أن لا يتدخَّلوا ويسعفوا الوَضع ويغيِّروا الحال في مكان، إلَّا حين ينقلب الناس وتتغيَّر إرادتهم وتنصرف إلىٰ جديد! فإنَّ الله لا يغيِّر ما بقوْم حتىٰ يغيِّروا ما بأنفسهم... كلُّ ما فعلوه أنهم أخلوا بينه وبين شياطينه، فٱحتوَشته، حرموه العناية والفضل السابق بالرعاية، ومنعوه ما أُعِدَّ لكلِّ مؤمن من دفاع، وٱدُّخِر له من حماية، ولا سيما حين يتبوَّأ مقاماً خطيراً، ويتسنَّم دوراً رفيعاً، تُناط به مصائر آخرين، وتتعلَّق به حركة الدين...

وكانت نتيجة جُرأته وتبِعة إقدامه علىٰ تلك الدعوىٰ الخطيرة (التي لم يشعر «نجيب» ببشاعتها ولا لمس قُبحها ولا أدرك خطرها، إلَّا مما رأىٰ في المشهد هنا، وإلَّا فهو في دُنيانا أمرٌ أصبح عاديّاً، يظهر مَن يفعله بين الحين والحين، لا تستهجنه ولا تنكر عليه إلَّا نخبة)... أن يوكَل إلىٰ نفسه!

إنَّ غضب الله وعقابه، وٱنتقامه وسخطه، ليس علىٰ الدوام طوفاناً وجراداً وقملاً وضفادع ودماً يمطِر المغضوب عليهم، ولا هو زلازل تميد بهم أو براكين تقذف حممها عليهم، ولا سيلُ العرِم يجتاحهم ويدمِّر مدُنهم، ونقمة الجبَّار لا تنحصر في رجزٍ ينزله، ولا في الجفاف وحبس السماء، أو الجوع والذل، أو الطاعون والمرض... وجنده تعالىٰ ليسوا بالضرورة أن يكونوا ملائكة تقاتل وهي لا تُرىٰ، أو طيراً أبابيل ترمي بحجارة من سجيل، أو ريحاً تعصف فتقتلع، أو هدماً ومحقاً وسحقاً...

قد لا يكون شيئاً من ذلك كلِّه...

فترىٰ رئيساً وقائداً أو بلاداً تكفر بالله، وتجحد أو تجهل ولاية «وَليه» وخليفته في أرضه، تراها آمنة مطمئنة، جميلة بديعة، معتدلة الطقس والطبيعة، أنهاراً جارية ووَفرة في الزرع والماشية، وأُخرىٰ يأتيها رزقها رغداً، وتجلب لها الخيرات وتنقل من كلِّ حدَب وصوْب... والقرية تعصي الله، والبلاد تتمرَّد علىٰ جبَّار السماوات والأرض، تبيح المنكرات وتستحلُّ المحرمات وتجاهر بالمعاصي والموبقات، وكأنها تتحدَّىٰ الله عزَّ وجلَّ، والأُخرىٰ تناصب «وَلي الله» وتضمر أو تُعلِن له العداء، ولا تبالي! والخيرات ما تزال تُغدِق عليهم، والنِّعَم تغمرهم، وهم ماضون في كفرهم أو نصبهم، لا يُبالون ولا يكترثون، بل يوغلون ويتمادون!

إنَّ غضب الله وسخطه قد يكون إطلاقاً ليد المستكبرين والمفسدين، وإفساحاً وتوسيعاً في سلطان المغضوب عليهم والضالين، وتمكيناً لحكومات الجور والرؤساء الظالمين... قد يكون ثراءً يوجب لأحَدِهم مزيد طغيان وٱستكبار، وعافية تورثه إمعاناً في الغرور والاٌستعلاء، وبأساً يخلِّف ويوجب ذهاباً في البطر لا عودة منه!... إنَّ الإملاء والمدَّ أصلٌ في قانون الجزاء الإلهي، والكيد والاٌستدراج سُنَّة في ناموس الحركة وقاعدة في تقادمها، ولعلَّه من أشدِّ العقوبات وأقساها، فالمعجَّل الحالُّ بصاحبه قد يطهِّره أو يخفف عنه ما ينتظره في معاده، لٰكنَّ الكيد والإملاء، والاٌستدراج بالإغضاء، ينمُّ عن غضب أزال سبْق الرحمة، يأخذ مَن نزل به إلىٰ بلاء الآخرة، وما لا تقوم له السماوات والأرض.

إنَّ سخط الله قد يكون منعاً لِلُطف الهداية، وصرفاً لخاصَّة العناية، وحبساً لفضل التوفيق... هناك ذنوب لا يوفَّق بسببها مقترفها إلىٰ توبة، ومعاصٍ لا يهتدي مرتكبها إلىٰ إنابة وعودة، تحبس عنه الرحمة، فيتمادىٰ، يستعلي ويستكبر، وتأخذه العزَّة بالإثم، حتىٰ يتحدَّىٰ ويطلب البراز! غير مستعظم ولا مستكثر، فيمرق ويجحد ويكفر.

هٰكذا حال الضُلَّال من "المؤمنين"، المنحرفين مع تيارات "الحداثة"، المنجرفين مع أدعياء "التنوير"، الذين يجحدون مقامات «آل محمد» عليهم السلام، ويأبون التسليم لولايتهم والإقرار بفضائلهم، ويبخسونهم حقَّهم في مراتبهم التي رتَّبهم الله فيها، أو يستبعدون وُقوع مصائبهم، فينزِّهون أو يبرِّئون أعداءهم. هٰكذا يحلُّ عليهم الغضب الإلهي، بهٰذه الصوَر التي تحبس قطر الهداية، وتمنع سُبل اليقظة والتوبة والإنابة.

لعمري، هنا آليات غريبة للنفي والطرد من رحمة الله: منعٌ يظهر في عطاءٍ ورخاء، وإعجالٌ يظهر كإمهالٍ وإبطاء! إغلاقٌ لأبواب الهدىٰ، وختمٌ علىٰ القلب وصدٌّ عن البصيرة والسداد، يأخذ ضحاياه إلىٰ مزيد زيغ وجهالة، ويقودهم إلىٰ الإمعان في البغيِّ والغوَاية، ثم ينتهي بهم إلىٰ تيه وضلال، فطغيان وٱستكبار! كلُّ ذلك والمرءُ يتقلَّب في الخير ويرفل في السَّعَة، وينعم بالراحة والدَّعة، ويتمتَّع بالقوَّة والمنعة، فإذا رآه غافلٌ تمنَّىٰ حاله، أو نظر إليه جاهلٌ حسَده علىٰ مكانه!... ولو ٱنكشفت للناظر الحجُبُ المرخيَّة ورُفعت الأستار المسدَلة، ورآه في مشهد الحقائق هٰذا، كما يراه «نجيب» هنا، لهالَه حالُه، وأبكاه شقاؤه، ولشكَر الله أن عافاه مما ٱبتلىٰ به هٰذا الرئيس وذاك الثريَّ وكلَّ ذي سلطة وشهرة ومال وعنوان.

إنَّ المنحرفين في موت بطيء وهلاك "ناعم"... ما يزال البلاء مُحدِقاً بهم، والشقاء مُلتفّاً عليهم، والطامة ترفرف فوق رؤوسهم، وهم لا يشعرون فلا يأبهون! تُعرَض علىٰ أحَدِهم أدنىٰ مراتب "المعرفة" وأسهل أسباب العلم والبصيرة: كلام من نور، حديث عن معصوم فيه فضيلة أو معجزة، يقرِّر لـ «الإمام» عليه السلام رتبة ومنزلة، وهٰذا من أعظم سُبل السموِّ وأسباب الكمال، فتشمئز نفسه وتنفر روحه، فيأباه، وكأنه كريه الطعام أو مُرُّ الدواء قُدِّم لمحموم... فيرفضه، فيُحرَم! ويُفتَح له باب نصرة الدين وإعزاز الحقِّ، فيأبىٰ ويُعرِض ويرفض وينصرف. ثم لا يقع خياره في المتشابهات، ولا يسلك في الشبهات، ولا يصطفُّ في النزاعات والصراعات، إلَّا في ما يقوِّي الباطل من مَوَاقع، وينصر الشيطان من جبهات، فيخوض إلىٰ جانب الضالين المضلِّين المعارك، ويرِد معهم المهالك!

هٰكذا مضىٰ «جاد» في غطاء، بل عمىً وشقاء، يفتي ويحكم، يقضي ويفصل، يسوس ويدبِّر، يقود ويوجِّه... ولا يبالي أو يتساءل: أين يأخذ قومه ويذهب بجماعته؟ فإذا حلَّت بهم طامَّة واْصطلمتهم بليَّة، هيَّأ حشواً من أفكاره وركَّب أضغاثاً من أحلامه بما يصوِّر له النتيجة قدَراً لا محيص عنه، وخيراً ظهر في صورة شرٍّ وبلاء! يراهن علىٰ طريق، فتسلكه القافلة، فلما ينتهي بها إلىٰ غير المقصد والهدف، أو تفضي إلىٰ تيه وشتات... يقول: هٰذا ثمن الجهاد وطبيعة طريق ذات الشوكة! يخوض حروباً يقذف في لهوَاتها خيرة الشباب من فلذات الأكباد، فلما تنكشف المؤامرة ويظهر أنها لعبةٌ اْستُدرج إليها وكمين نُصِب له، دفع هٰؤلاء المساكين ثمنه، فكانوا بيادق علىٰ رقعة شطرنج، تحركها قوىً عظمىٰ تضنُّ بأبنائها، فتستعيض عنهم بأتباعه... قال: لو لم نبرز إلىٰ القتال لبرز إلينا وجاءنا في عقر دارنا! ولوَائح الأيتام والأرامل والثكلىٰ تمتلئ وتتضخَّم. والشيطان فرحٌ جذِل، يغني ويرقص، و«علي جاد» يمسح لحيته بقبضته، يلقِّن نفسه ويوحي لها، بالشكل والهيئة، صورة العلماء ومظهر الحكماء!

ثم يُنَظِّر في الدين وينسب إليه ما يشاء، يُدخل فيه ويخرج منه ما يريد، ولا يبالي. يصرف مال الله في محاربة مَن يأبىٰ فكرته ويرفض بدْعته ويردَّ قوله، فيمكِّن المنحرفين ويوظِّفهم جنوداً يدافعون عن ترَّهاته، ويروِّجون أباطيله وخرافاته... فتضيع الأموال وتهدَر، فلا يكترث! يبيح إمكانياته ويبذل طاقات مملكته لحفنة من أخسِّ الخلق، مسوخ من الشياطين، وأراذل من المتملقين المتزلِّفين، يعمدون إلىٰ أركان الدين ضرباً، وأُسس المذهب هدماً، باْسم الإصلاح والحداثة، والتنوير والعقلنة.

كان «جاد» يعيش مأساة من نوع فريد، يتقلَّب في كارثة ويمضي مُلازماً طامَّة، دون أن يدرك أو يشعر...

كان يصلِّي، ولكن إلىٰ هوَاه، وقبلةٍ تحكي ميولَه ومُناه، وكلَّ ما تختزن " الأنا " الشيطانية التي ٱستحوذت عليه وسكَنته. حتىٰ إنه كان يقوم الليل إلىٰ نافلة تسدل الرداء وترخي الستر والغطاء علىٰ بصيص نور كان يومض بين فترة وأُخرىٰ، وتخمِد وَخْز ضمير كان يستيقظ من حين لآخَر. كان يهوي إلىٰ السجود، ولكن بكِبر وٱستعلاء يأبىٰ له الخضوع لحقيقة كانت تمثل له في كلِّ لحظة وترتسم أمامه في كلِّ حين: أُكذوبة الفقاهة التي ٱدَّعاها، وهو يعجز ـ في مطالعاته ـ عن فهم أوَّليات ما سطره الفقهاء، فكيف بالإفتاء والبناء؟! وفرية المشروعية التي زيَّفها وزعم أنها تأتيه من الناحية المقدَّسة، وهو في قرارة نفسه ـ من وَاقع مدرسته ـ لا يؤمن جازماً بوجود «المهدي» عليه السلام، ويميل إلىٰ أنَّ المهدوية حالة من تطلُّع الإنسانية المعذَّبة إلىٰ الخلاص والنجاة، وٱرتقابها القيم المفتقدة والخيرات المنتهَبة، حرمت الناس الرفاه والمساواة، وٱنتظار العدل الشامل وٱنتهاء المعاناة!

وهذه، مع تلك الأُولىٰ، أي حقده علىٰ رفاق دربه، والحسد الذي يتملَّكه وينخر روحه، من كلِّ متفوِّق عليه من أقرانه، بل من سائر الناس الذين يراهم في نطاقه ويتعاطىٰ معهم في ملكه وسلطانه... كانت تورثه إحباطاً وألماً لا يتيح له لحظة أُنس وراحة، فكأنه في خسران مبين! وطيف «هاملت» (مسرحية «شكسبير» التي قرأها في بواكير ٱنفتاحه الثقافي) وتراجيديا الأمير الدنماركي وقصَّة الغدر ودوامة الخيانة التي تفضي شكّاً في الجميع، من العمِّ إلىٰ الأُم فالعشيقة والشقيق... ماثِلٌ أمامه، لا يفارقه.

ولو ٱكتفىٰ الرجل بالملك والمال والشهرة، دون أن يلتمس لنفسه المشروعية من الدين، ويزعم النيابة عن إمام العصر والزمان، ويدَّعي حقَّ الطاعة من هٰذا الباب والإمرة علىٰ الناس بهٰذا العنوان... لسهُل الخطب فيه وهان، ودخل في عِداد غيره ممن علىٰ شاكلته، آلاف الملوك والرؤساء والحكَّام، ينعمون بالسلطان ويلتذون بالأموال ويتمتعون بالشهرة، وفي عرض ذلك يتجاوزون ما طاب لهم من أحكام الله، ويهتكون ما شاء الشيطان من مقدَّسات الدين، يظلمون ويبطشون ويستبدُّون، يبيعون المبادئ ويرتهنون البلاد، ويغرقون في الفسق والفساد...

لٰكنَّ الرجل أبىٰ إلَّا الدخول من باب الدين وركوبها بدابة أمير المسلمين، وأصرَّ علىٰ موقع روحيٍّ يميِّزه، ومنصب "إلهي" يرفعه.

من هنا وَضع الرجل نفسه في مرمى جند «الإمام» وخدَمته عليه السلام، فقد تبوَّأ أخطر مقام وأهمَّ مرتبة، وتسنَّم أرفع دوْر وأسمىٰ منزلة، ما أتاح له أن ينسب ما يشتهي إلىٰ الدين، ويُدخِل ما يشاء في شريعة «سيد المرسلين»، ويضيف ما يحلو له إلىٰ مذهب «أهل بيته» الطاهرين، أو يسقط ما جاء عنهم وأمروا به من حكم وعقيدة... وهو دين ومذهب بُذل في سبيل إبلاغه ووُصوله إلىٰ مكانته، ما لا يحصىٰ من الطاقات والإمكانيات والجهود المضنية، ودفع الثمن من أعزِّ الأنفس الزكية، ٱضطهاداً وتهجيراً ومطاردة وحبساً وتنكيلاً، وهٰذا التعِس يُسقط كلَّ ذلك ويبدِّده ويهدره بكلمة!

كانت كلمة وَاحدة كفيلة بهلاكه، وها هو يهذر بسيل متدفق من سِقط الكلام، يتطرَّق فيه إلىٰ مفاهيم الدين، يغيِّر فيها ويبدِّل، ويخوض في بحر من الشبهات والمحرمات بلا مانع ولا رادع!...

لقد شيَّد «جاد» للظلم والفساد الديني بنياناً فريداً من نوعه، وأرسىٰ للضلال والاْنحراف منظومة غير مسبوقة في الفكر الإسلامي، وبنىٰ للباطل والمبطلين محافل ومنارات، ومواقع ومحطَّات، ودوراً ومؤسسات، تناصب الحقَّ وتجهد في محاربته. لم يكن لهـٰذا مثيل في التاريخ، لا من حيث الحجم والكمِّ، ولا في آليَّة العمل وطريقة المواجهة، ما نقلَها من حالة الفردية الاْنفعالية، والطفرات الطائشة، حين يظهر بين الفينة والفينة مَن يهذي ويهرف، يرفع راية ويطرح بدعة ويُذكي جمرة، لا تلبث أن تخمد، فتنتكس الراية وتذهب المقولة، كزَبدٍ يتبدَّد علىٰ رمال الشاطئ أو يتحطَّم علىٰ صخوره... اْنتقل بهـٰذا إلىٰ عمل خطير، وأداء جليل، ينمُّ عن مكر ودهاء قلَّ له نظير، قادر علىٰ نخر أساس الدين وتقويض أركان المذهب! ذلك بتأسيس منظَّمات وبناء كيانات، ووَضع خطَّة معدٍّ لها علىٰ الصعيدين الاْستراتيجي بعيد المدىٰ، والمرحلي الخاضع لتكتيكات آنيَّة.

وبينما تراه اْستبدَّ في حكم البلاد وأدارها حول شخصه، يتخطَّىٰ النظام ولا يكترث بقانون ودولة وحكومة، تراه في جبهة الصراع مع عقائد ومعالم الولاء لـ «آل محمد»، عمد إلىٰ بناء مؤسسات وصناعة رموز وخلق واجهات، أجرىٰ عليها أموالاً وأوقف لها ميزانيات! فلا يتأثر العمل بالأشخاص، يسقط واحد فيقوم آخر، تبطل مقولة وتهوي فكرة، فتنبعث أُخرىٰ وتروج ثانية، هـٰكذا دون اْنقطاع. هناك لجان عمل متفرِّغة ومتخصِّصة، لا شغل لها ولا همَّ إلَّا هـٰذا، أمَّن لها المعاش وكفل لها الحماية ووَفَّر الغطاء، أرساها ثم أطلقها في الميدان: هـٰذه تعوي لتؤذي، والأُخرىٰ تزأر لترهب، وثالثة ترصد وتتجسَّس، ورابعة تقيِّم النتائج وتضع في ضوئها القادم من البرامج.

وفي خضم هذا البحر المتلاطم من النشاط الحركي والفعل الشيطاني في دنيا الضلال والإضلال، ومن بين جميع ضحايا هذه السوق المكتظّة بالباعة الدجالين والمرتادين المستضعفين والأغبياء المغلوبين، ومن دون كلّ السلع الفاسدة المكدَّسة في هذه الحوانيت، المزدحمة بالضحايا الفقراء... ظهرت لـ «نجيب» "الكلمات" التي قصمت ظهر الرجل وأهلكته، وٱرتسمت السقطات التي صرعته وأخذته إلىٰ الهاوية!:

ٱستشاره رجل ٱدَّخر مالاً ٱقتطعه من قوت عياله ووَفَّره من كدِّ يمينه، ليقيم به مأتماً لـ «سيد الشهداء» في عشرة عاشوراء... فقال له «علي جاد»: لا تفعل! ٱصرف المال في إعانة الفقراء، فالباذلين علىٰ «الحسين» كُثر! فسأله أن يصرفه علىٰ الزائرين الماشين في "الأربعين"؟ قال له: لا تفعل! هناك آلاف غيرك ينهضون بهذا الدور فلا تكن من المسرفين!

وسأله شاب: ماذا أقرأ؟ فأرشده إلىٰ كاتب خبيث، علَمٌ من أعلام الضلال، وراية رفعها الشيطان، دلَّه عليه ووَجَّهه إليه... فما زال الشاب متعلِّقاً بكُتبه، مفتوناً بأُسلوبه، مأسوراً لأفكاره وزخرف قوله، حتىٰ سُلب المسكين دينه، وٱنخرط في سلك الٱنحراف والتحق بركب الضُلَّال، وفتح علىٰ نفسه باب الهلاك ودخل ـ وهو بعدُ علىٰ قيد الحياة ـ في النار!

سأله مستفهمٌ: هل يمكن أن ترجع الشمس بعد مغيبها لـ «الوَصي»؟ فقال: كلا، فإنَّ هذا لا يعقل! وقد غطَّىٰ جوابه وجلَّل ردَّه بمسحة علم ولغة علماء، إمعاناً في الإغواء، فقال: هذا وإن جاء في ذلك طائفة من الروايات وَردت من الفريقين. ثم عاد إلىٰ خطاب الجهالة فأردف: لكنَّ الحديث إذا خالف العقل، ٱجلد به عرض الجدار!

لا تفعل، ٱقرأ، لا يُعقل...

حلَّ سخط الله، فجاء أجَلُ الرجل، هلك ومات، توفي «علي جاد»...

كانت الجنُّ أو السَّحَرة قد أوصوه بخاتم، وأمروه أن يتَّخذه عوذة وتميمة، وتعهَّدوا أن يقيه الأخطار والهلاك! إن هو التزم ما أوجبوا عليه وٱشترطوا، أن يكون في يده كلَّ يوم، ساعة من النهار، قبيل الظهر حتىٰ الزوال... حانت الساعة، فوضعه في خنصره للحظات ثم نزعه وأخلا يده منه، ولم يدرِ أحدٌ لماذا فعل ذلك وما الذي دعاه إليه؟!

أخرج الخاتم وهو ينشد:

وإذا المنيَّة أنشبت أظفارها
ألفيت كلَّ تميمة لا تنفع

مات «جاد»، لكنَّ أتباعه ينكرون موته! يزعمون أنه حيٌّ لم يمت، ما زال يرزقهم ويكلؤهم ويمدُّهم، وما زالوا يهتفون بحياته ويدعون لبقائه! وما زالوا يلوذون به ويدورون في فلكه، يحيطون بعرشه، يسبِّحون بحمده، يرفعون رايته وينصبون صورته، يستقون منه الأفكار، ويستلهمون العقائد والآراء... وما زالوا يستفتونه ويقلِّدونه.

أكلت دابَّة الأرض مِنسَأته، فلا دُرَّة يقرِّع بها خصومه أو هراوة يتوعَّد بها معارضيه، ولا عصىً يؤدِّب بها أتباعه ويهشُّ بها علىٰ مُريديه وغنمه! حتىٰ نخرت الأرَضَة عرشه، وهدَّت الدوَيْبة قصره وقوَّضت بُنيانه، وقد خرَّ الرجل علىٰ وَجهه وهوَىٰ لأرضه، قد نخُرت عظامه وصار رِمَّة بالية... وهم ما برحوا في ولايته، يمضون في طاعته وعبادته، يعكفون علىٰ تعظيمه وتقديسه، يأبون الٱعتراف بهلاكه!

وما زالوا يكدحون في ركابه، ويسعون في مؤسساته، ويعملون في حزبه ويلتزمون جماعته، لا يشعرون أنهم يلبثون في العذاب المهين، بل تراهم فرحين ملتذِّين، مغترِّين بعوَائده، متنعِّمين بغنائمه وما ينهبون من بيت مال المسلمين، بعنوان عطاياه و " ميزانياته " و " مخصصاته " ...

تزعمون موته وتدَّعون هلاكه... ها هو يأكل
ويشرب، ويدبُّ ويمشي في الأرض مرحاً،
حتىٰ يكاد أن يخرق أديمها زهواً وتيهاً، ويبلغ
جبالها طولاً وعظمة؟!

تهتف السماء بأنه هالك، وينادي الحكماء بأنه ميِّت مفارق، ويترنَّم العرفاء بشعر «الحافظ»:

هر آن كسي كه در اين حلقه نيست زنده به عشق
بـر او نـمـرده به فتـواي من نماز كنيد

" كلُّ مَن لم يحيَ في حلقة العشق هٰذه، حقَّ بفتوانا أن تؤدَّىٰ صلاة الميت عليه " ... وكانوا ينشدون من قبل، لما بلغهم وُلوجه في هٰذا الميدان من ذلك الباب، باب ٱدِّعاء الفقاهة وٱنتحال المرجعية، ودعوىٰ السفارة والنيابة، مردِّدين موعظة ومترنمين بنصيحة، ولا سيما حين جاهر بمناصبته عقائد الحق وشعائر الولاء العداء:

حافظ مى بخور ورندى كن وخوش باش ولي
دام تـزويـر مكـن چـون دگران قـرآن را

" ٱشرب الخمر وعربد وٱمكر وٱبتهج، ولٰكن إياك أن تجعل القرآن، كما يفعل الآخرون، أُحبولة تزويرك وآلة خداعك " .

ٱقضِ من اللذات وَطرك، وٱنعم بالعيش ما شئت، وخُذ في الرغد والرفاه، والشهرة والرئاسة، وٱغتنم من المال حتىٰ الثراء والبطَر!... ولٰكن إياك أن تسخِّر الدين فتجعل تعاليمه وقيَمه السبيل إلىٰ دنياك، ثم الوَيل لك إن ٱتخذت حقَّ «آل محمد» بضاعة تتَّجر بها وتستأكل! تُسقط منه ما يتطلَّبه " مجدك " ، وتغيِّر فيه بما يرفع عند أعدائهم شأنك!

• • •

قليلاً ما كنت ألقاها...

مرَّة في الشهر أو مرتين، أو أكثر من ذلك إذا ٱستدعت حالتي العرض علىٰ الطبيب الذي تعمل في عيادته، فأعود وأُكرِّر الزيارة من جديد.

كانت تدير العيادة، تنظِّم مراجعات المرضىٰ، تُلحق نتائج الصوَر والفحوص المخبرية لكلِّ مريض بملفِّه وتودعها إضبارته، كما تقبض التعرفة، وتضرب له الموعد التالي وتوثِّقه حسب توصية الطبيب وخِطَّة العلاج. ولم أكن ألتزم بمواعيدي، كنت أُراجع العيادة متىٰ سنحت لي الفرصة ووَجدت في وَقتي متَّسعاً... أستوي علىٰ مقاعد الٱنتظار بإزائها، أو في جانب يتيح مراقبتها دون أن تشعر، حتىٰ تجد لي فرجة بين موعدين، إذا أبطأ صاحب الثاني وتأخَّر، أو حين يتخلَّف أحدهم ولا يحضر.

لم أكن أنزعج من الٱنتظار وإن ٱمتدَّ وطال، ولا سيما حين يلتزم المراجعون كلُّهم بمواعيدهم، فأتأخَّر حتىٰ آخر ساعات العمل... بل كنت أُرحِّب بذلك، ولعلِّي تمنَّيته، حتىٰ أُطيل المكث والبقاء، وتسنح لي الفرصة وتتاح أسباب اللقاء، فأتجاذب معها أطراف الحديث، وينفتح باب الحوار. أبدأ بإظهار الٱمتعاض والسخط والٱستياء، والشكوىٰ من طول الٱنتظار، وأدَّعي ٱرتباطي بٱلتزامات أُخرىٰ، أفعل ذلك كمدخل لتبادل الحديث معها، وطريق لكسر جمودها وتزمُّتها، فعلىٰ الرغم من دماثة خلُقها وحُسن تعاملها، فهي رَزانٌ حَصان، محافظة بإفراط، ولا سيما في تعاطيها مع الرجال، تتكلَّف أن تلقاهم بوَجه جَهْم، ولربما عبوس قطوب.

لم تكن تشرح أو تبيّن لي، ولا تحاول إفهامي أنها غلطتي، وأنَّ عليَّ تحمُّل نتائجها ودفع ثمنها، والكفَّ عن التذمُّر والشكوىٰ... كانت ترمقني من طرف، تبثُّ من خلال نظرتها وتنقل لي كلَّ ما تريد أن تقول، تجمع ردَّها عليَّ، وأنها تعلم كذب شكواي، وأنني مأنوسٌ بتأخُّري، فرحٌ من بقائي، بل عامد متقصِّد! أنتظر ٱنصراف الجميع، للاَنفراد بها، أصبو إلىٰ التعرُّف وألتمس سبيلاً لتبادل الحديث. ثم تضيف ـ صامتة! ـ بأنها حيلة مفتضحة وطريقة مكشوفة لن تجدي، عليَّ أن أبحث عن غيرها!

لم أقابل في حياتي شخصاً بهٰذا الذكاء والفطنة، وعلىٰ هٰذه الدرجة من حِدَّة العقل والنباهة، والدقة في فهم الأُمور والأحداث، ولا سيما في النساء. ما كان يُشعرني بالضعف ويورثني العجز أمامها، ولعلَّ إحساساً بالاَفتضاح تملَّكني كلَّما خزرتني أو حدَجتني، كأنها تتوغَّل إلىٰ سريرتي وتنفذ في نفسي، وتطَّلع علىٰ ما يدور في خلَدي.

شخصية غريبة وغامضة... دفعني الفضول وقادني التطفُّل إلىٰ التحرِّي والسؤال، حتىٰ عرفت الكثير عنها. فتاة متميزة متألِّقة متفوِّقه، بل خارقة، ليست كغيرها في شيء، لا في سلوكها وتصرفاتها، ولا في حركاتها وسكَناتها، ولا في حديثها أو صمتها، ولا سيما نظَراتها... وإن بدت لغيري من المراجعين طبيعية وظهرت عادية، كما كان يجيبني كلُّ من أسأله أو أُحدِّثه عنها، يحسبني عاشقاً لها أو مغرماً بها:

هٰذه عين الرضا والإعجاب، تبدي المحاسن
وتضخِّم الفضائل، وتكِلُّ عن العيوب
والمثالب، وتخفي المساوِئ والنقائص.

جذبتني الفتاة وأسرتني، لهٰذا الغموض، ولشيء آخر لم أتبيَّنه فيها ولم أتعرَّفه، هل هو حُسن أخلاقها ورقيُّ سلوكها؟ فأنا ألمس أنها شَمُوعٌ، مزَّاحة فكِهة بَشَّة، طيِّبة نفس وعذبة حديث، تقبلك ولٰكن لا تطاوعك علىٰ ما سوىٰ ذلك، عَرُوبة عطيف، لا كِبْر بها ولا غرور، ولا شكَس ولا شَموس، لٰكنَّها تداري ذلك كلَّه وتتصنَّع ضدَّه، حذر طمع الرجال، ولتشرُّعٍ وتفقُّهٍ، وطُهر نفس وعفَّة قلَّ نظيرها...

أم تراه حُسنها؟ ولم يكن فيه ما يلفت ويجذب. نعم، هي جميلة، ولٰكن ليس بذاك الحدِّ الذي يأسر ويفتن. فإذا أردت الثناء عليها وإطراء جمالها، ملتزماً الحياد والموضوعية، قلت إنَّ مَلاحتها تغلب جمالها، تَحسُن للناظر وتروق للسامع والمجالِس، فلا يُمَلُّ منها، خلافاً لتامَّة الجمال وكاملة الأوصاف، لٰكن بثقل وسماجة، أو بهت ومسخ، لا طعم لها ولا نكهة!

بهيجة المحيَّا، حسنة التقاطيع والقسمات، ولا سيما الأنف، وهو موضع قلَّ أن يكمُل في الحِسان، فكلُّ أجزاء الوَجه يمكن مداراة قبحه وإخفاء عيوبه، بالأصباغ والمساحيق والمعالجات التجميلية، إلَّا الأنف.

وأنت قد تجد في النساء النجلاء والحوراء والشهلاء، وتلقىٰ وَطفاء الأهداب وزجَّاء الحاجبين، وتحظىٰ بذات الخدِّ الأسيل، الريان البهي، بكثرة ووَفرة، ولٰكن قلَّ أن تجد أنفاً أقنىٰ وعرنيناً أشم! مستدِقاً رقيقاً يجمع تحدُّباً مع ٱرتفاع قصبته وٱستواء أعلاه، مما يقال أنه علامة الأرستقراطية، والٱنحدار من سلالات العِلْية، الذين يحرصون علىٰ الٱختيار لنُطَفهم، وزيجات تحسِّن نسلهم جيلاً بعد جيل، بٱستدراك عيوب الخلقة، وتجنُّب نقائص الشكل والهيئة، والتماس جمال الصورة وسلامة البُنية...

ومن فرط جمال أنف «مَي» (وكانت تحسب أن ٱسمها مخفَّف «ماهيٌّ»، من الماه، أي الماء، والنسبة إليه «ماهيٌّ»! فأخبرتها بأنَّها تعني الخمرة أو النبيذ بالفارسية، وهو الأقرب في الإطلاق)، تخاله خضع لجراحة تجميلية! لـٰكنَّه كان طبيعاً تماماً، موروثاً من الخلق والولادة.

لم أتعلَّق بشيء من حُسنها وجمالها، أو ظرفها وملاحتها...

إنما هي الروح المتألِّقة التي تسكن هـٰذه الفتاة، والنفس النفيسة التي تحلُّ فيها وتتقمَّصها، مزيجُ ألَقٍ وكمال يُكوِّن هـٰذه الشخصية الغامضة ويجلِّلها... هو ما يجتذبني إليها، ويأخذني بسِحره وفتنته. تشعر في رحابها بالخضوع إلىٰ طاقة نفسية غالبة، وسلطة روحيَّة وهيمنة، مما تراه في كبار المرتاضين والروحانيين، من العرفاء الإلهيين! كأنها طوَت منازل السير حتىٰ سمَت وٱرتقت، خلَعت نعلَي الجهل والغفلة، والهوَىٰ والهوَس، فدخلَت وَادي طوَىٰ، ثم فرغت من سعيها وبلَغت مُناها، فعادت نفساً مطمئنة، ورجعت تبثُّ الخير حيث حلَّت، وتنشر الحكمة أنَّىٰ توجَّهت!

إلىٰ مثل هـٰذه يُلتفت، لا هنا فحسب، بل حتىٰ " هناك " ...

وأنا أحسب أنَّ الناس في هـٰذه الدنيا، كما في عالم الأظلَّة والأشباح من قبلُ، بعد تحقُّق الإرادة ووُقوع " العلم " ، ثم عالم الأنفس والأرواح في الذرِّ والنشآت التالية، ومن بعدُ في البرزخ والقيامة... هم طوائف وطبقات وأصناف، هناك مَن يُعتنىٰ به منها، لشأنه ودوْره وخطَره، فيُنزَل منزلته ويحظىٰ بمكانته من الفضل والخير، أو من السوء والشر، جرَّاء ما يخلقه من إعاقات ويبنيه ويُحدثه من سدود في طريق الحقِّ، أو بما يرفد به الصواب، وبقدر ما يعين علىٰ الخير وينصر الحق...

وهناك غالبية عامَّة وسواد أعظم من الناس، أُممٌ متعاقبة وأجيال متلاحقة، قبائل وشعوب، تمضي كقطعان الماشية وربيض الغنم، بل أدنىٰ من ذلك وأحقر... نسيٌ منسيُّون، يُلهىٰ عنهم وكأنهم هباء، يتقلَّبون في ظلمة الفقْد والسلب، وتغمرهم أطباق النفي والعدم، فإذا حكم الوجود لوَهلة، وٱستلَّ الموجود لنفسه وتجلَّىٰ بوَمضة، فكأنما تمخَّض الجمل فوَلد فأراً، فلن يعدو حصاة مُلقاة علىٰ قارعة طريق مهجورة في ثنيَّات الألب أو الهيمالايا، أو حبَّة رمل في كثيب يتوسَّط صحراء الربع الخالي أو الكُبرىٰ، تصفر الريح من حوله، وما زالت تقلِّبه وتقذفه وتنقله من مَوضع إلىٰ آخر، حتىٰ تذروه غُبرة وتعجُّ به قَتاماً... بشرٌ ينحدرون ويهوون فيلحقون بأحقر الكائنات من جمادات وحشرات، ذلك لمَّا ينسلخون ـ بإرادتهم ـ عن محلِّ تكريمهم، وينصرفون ـ بٱختيارهم ـ عن أسباب تفضيلهم وتشريفهم.

لم تكن «مَي» فتاة بسيطة عادية، شأنها شأن أترابها وسائر بنات جيلها، تأخذ موقعها في المجتمع وتنتظم في مكانها وَفقاً لمؤهلاتها وإمكانياتها، أو فُرَصها وحظوظها، وتنخرط في دورة الحياة كما يفعل سائر الناس، تدرس لتتقدَّم وتترقَّىٰ، وتتعلَّم لتحظىٰ بفرص أفضل، ثم تعمل وترتزق، فتُأمِّن كفايتها أو تعين أهلها، هٰكذا حتىٰ تقترن بزوج، وتنجب أطفالاً وتأسس بيتاً، وتقوم بمسؤولياتها في أُسرتها الجديدة... لم تكن «مَي» مثل غيرها، لا في تعاطيها ومسلكها وحركتها، ولا في روحيتها وشخصيتها، كانت من طبيعة أُخرىٰ مختلفة متميِّزة، تمضي في عالم يختلف عن الذي نعيش، بأفكاره وآدابه والتزاماته، وكذا بآفاقه ونطاقاته، حتىٰ تكاد تنفصل وتنقطع، وتنزوي في عالمها الخاص، وإن عاشت بين الناس.

لم يخفَ عليَّ هٰذا، بل ظهر لي ـ في بعض المواضع ـ بيِّناً جليّاً، وكأنَّ هناك حالات لا تطيق الجحد، وتعصى على الكتمان، تفضح الفتاة وتكشف سرَّها! وما خلا تلك، وكذا الزلَّات التي تبدر بين حين وآخر، كان أداؤها وسلوكها العام، الآنسيابي المسترسل، ناجحاً في التَّخفي والتمويه، موفَّقاً في الإيحاء بنمط وحالة من الهامشيَّة، تصرف الأنظار وتقطع كلَّ إثارة ومقتضٍ للتوقُّف. ولٰكنَّ هٰذا لم ينطل عليَّ، فقد كنت مرتاباً، بل وَاثقاً من تميُّز الفتاة وٱختلافها، لم يخدعني مظهرها الطبيعي، ولا دفعني شكلها العادي وما أدرجت نفسها فيه من هيئة وصورة، لأحسبها مثل غيرها وأتوهَّمها عادية مألوفة... بل توقفت لأُسفِر، وٱنطلقت لأبحث وأُحقق وأستبين.

وهٰذا ما جعلني أتعلَّق بها إلىٰ حدِّ الهوَس، ولم يكن تعلُّقي إعجاباً، ناهيك بأن يكون، كما أسلفتُ، حُباً وغراماً... كان شغفاً ورغبة في ٱستجلاء وَاقعها وبيان حقيقتها، وتطلُّعاً لكشف أسرارها وإزاحة الغموض الذي يعتري حالها، الأمر الذي ما لبث أن تحوَّل إلىٰ تحدٍّ، يحدوه حرصٌ ونَهَم، يلاحق المستسرَّ في هٰذه المرأة الغريبة، وسعيٌ لكشف الإبهام الذي يلفُّها، والحيرة التي تلقي فيها بعض الخواص الذين يدنون منها، يحسبونها "معقَّدة" أو "ممسوسة" و"مسكونة"، كما كانوا يهمسون.

حتىٰ أنَّ خادمة العيادة أخبرَت عنها، إنها تتحكَّم في الناس المحيطين بها وتسيطر عليهم، تُسخِّرهم، فينقادون لها طوعاً ويمتثلون لأوامرها وينفِّذون ما تريد، ويحقِّقون رغباتها دون أن يجدوا في ذلك بأساً ولا غضاضة! وقد لمست هٰذا بنفسي ووَقعت فيه غير مرَّة، حتىٰ إذا عصيتُ عليها طوراً، رمقتني بنظرة من تلك، فتراني أستسلم لها وأنقاد!

وهٰذا من أعجب ما لقيت فيها ومنها، فأنا لست بهٰذا العجز والضعف حتىٰ يُستَلَب عزمي وتُشلَّ إرادتي بهٰذا الشكل، ولٰكنَّ هٰذه المرأة كانت تسخِّرني حيناً لتوَجِّهني حيث تريد، وتصرفني بغتة عن عزمي إلىٰ شأن لم أقصده ولم أزمعه، وأمر ما عقدتُّ ولا بيَّتُ النيَّة عليه!

عرفت أنها تنحدر من عائلة ثرية وأُسرة عريقة حسيبة، ما يعني أنها في غنىً عن هٰذه الوظيفة، لا حاجة لها بالعمل في العيادة... وبينما كان العارف بثرائها يحسبه مجرَّد أمرٍ تملأ به وَقتها، وتشغل به نفسها وتتسلَّىٰ عن الفراغ، كنت أراه غطاءً يداري ما كانت تخفي، وأداة تصرف الأنظار عنها، وتعينها علىٰ كتمان أمرها وإخفاء سرِّها.

وسرُّها هو في ٱنقطاعها وٱرتباطها!...

ٱنقطاعها عن الدنيا، فهٰذه المرأة الغامضة لا تنتمي إلىٰ شيء من عالمنا! لا تلحق ـ في وَاقع ٱنتسابها ـ بعشيرة وعائلة ووَطن، ولا ترتبط بزوج وبيت ووَلد، ولا تتعلَّق بمال ومهنة وعمل، ولا تهتم بجاه أو شهرة، ولا تبالي بحُسن وجمال يميِّزها! إنها منفصلة عن كلِّ معطيات الحياة، منقطعة عن لوازم العيش، تنفرد وحيدة غريبة، وإن خالطت الناس ولم تقنت وتتنسَّك في دير، وتنعزل وتتبتَّل في صومعة، لٰكن لا شيء كان يحدُّها أو يأسرها ويرتهنها، فتقف في جولتها الروحية عند حدٍّ وتلتزم بنطاق... كانت تسبح في الأُفق الذي تريد، وتجتذب أو تصنع حولها الأجواء التي ترنو وتتطلَّع، وتنفي وتنبذ ما لا يناسبها، لا تسمح لمحيطها أن يحكمها ويفرض عليها ويديرها، فإن أملىٰ عليها أمراً وٱضطرَّها إليه، حصرته في أضيق دائرة وتعاملت معه كأكل الميتة، وجرعة خمر تسدُّ الرمق من ظمأٍ قاتل.

ثم بعد الٱنقطاع ٱرتباط، فهي مرتبطة ـ ولا شكَّ ـ بجهة غامضة وطرَف خفي، "أمر" يغنيها عن كلِّ هٰذا، ويؤمِّن لها العوَض ويحقِّق السلوان، ويمكِّنها من الصمود أمام كلِّ ما يترتَّب علىٰ الٱنقطاع، من آثار وضغوط.

مضت في حالها، منصرفة إلىٰ شأنها، ملتزمة طريقتها، تعيش عالمها...

جرت الأيام، وتقادم بها الزمان، وهي علىٰ حالها...

وعلىٰ صعيد علاقتنا، كانت تتعسَّف في صدِّي، وتتفنَّن في الخفاء وكتمان أمرها عني، فٱستطاعت في النهاية أن تغلبني وتهزمني، فتثنيني عن ملاحقتها، بظاهر رسمته عن نفسها، تسترت خلفه وتوارت وَراءه، كما يفعل "أهل الله"، والكُمَّل من أوليائه. حتىٰ أتعبتني المتابعة وأضنتني الملاحقة، ثم عرَض لي ما شغلني عنها وأنساني أمرها... وآخر عهدي أنها تجاوزت الأربعين وهي بعد عزباء تمكث في بيت أهلها، ما يعني أنَّ قطار الزواج قد فاتها، ودخلت في العنوسة.

وكنت أتحسَّر عليها وأرثي لحالها، وكيف ٱنتهىٰ أمرها إلىٰ هٰذا التعطيل والفراغ، بل الفشل... لا دور لها في الحياة ولا موقع، فأنا في أعماق نفسي أحسب أن لا شيء يضفي القيمة علىٰ المرأة في هٰذه الدنيا ويمنحها الشأن والمكانة، إلَّا "الفراش" وما يعنيه، ثم ملحقاته وتبعاته، من حمل وولادة. وإنَّما يتحقَّق قوام المرأة في أن تهيِّئ للرجل "السَّكَن"، وتكون له "لعبته" التي يأنس بها ويخرج من وَحشته، ويُفرغ من خلالها شهوته، وكذا ما تقوم به من تأمين التناسل وأسباب بقاء الجنس البشري. ومن تتخلَّف منهن عن أحد هٰذه الأدوار، أو تقصِّر فيه، تكون قد أخلَّت بجوهر أُنوثتها وأزرت بحقيقة دورها في الحياة بذلك المقدار.

ثم لا مسلٍّ لها ولا أنيس... وكنت أشقىٰ وآسىٰ لما أحسب أنها تعيشه من ألَـمٍ ووَحشة، ألَـم الفشل في الحياة والعجز عن تبوُّءِ موقع وأداء دور فيها، ووَحشة الوحدة وعدم الاْقتران. ولا سيما أنني، في سياق تفكُّري في حالتها، ذهبت لأُرجع غريب سلوكها وأعزو شاذَّ تصرفاتها، إلىٰ أحد ضروب المكر والحيلة التي تلجأ إليها الفتيات سعياً للزواج، فلا أحد يمكنه أن يقف علىٰ حدود مكائد النساء ويحصر سُبُلهن في الخداع وطُرُقهن في الختل والمكر، ونصب الشباك وإعداد الفخاخ، لاْصطياد الشباب والرجال، وما يُكثر علىٰ أبوابهن طلَّاب الزواج... فاْفترضت وحسبت الفتاة هنا تراهن أنَّ هناك مَن يجتذبه هـٰذا الأداء ويغويه هـٰذا المسلك الغريب! نمط خاص ونوعية ليست كغيرها، ثم حكمتُ أنَّ «مَي» لا يملأ عينها أيُّ صيد، ولا يتحقَّق طموحها بأيٍّ كان، فتراها تطلق مَن يعثر بشباكها من فرائس، وتُرسل مَن يعلَق بفخاخها من طرائد، تردُّ الخُطَّاب وترفض المتقدِّمين، ولا تبالي... تنتظر الأفضل والأسمن!

التفت «نجيب» نحو «عبدالحميد» وقال:

ليتني أراها هنا عبر هـٰذه الآلات والأجهزة الخارقة، لأعرف أخبارها وأطمئن علىٰ حالها وأنظر إلىٰ مآلها... هل يمكن لهـٰذه الشاشات أن تُظهرها؟ كم أتوق للاِطّلاع علىٰ وَضعها واْكتشاف حقيقة أمرها؟ ماذا كانت تريد من هـٰذا السلوك الغريب، وما الذي كانت تُضمره وتُخفيه؟

ثم أقف علىٰ مصيرها، وأتبيَّن ما جرىٰ عليها من صروف الدهر ونالها من خطوبه ونوائبه، وأين ٱنتهىٰ بها المطاف والسَّعي والتجوال؟

: ماذا تريد بها؟

: مجرَّد فضول!

: صدقت أنه فضول، ولٰكنَّه مشوب ومصحوب، ليس مجرَّداً كما زعمت وحسبت! فأنا أرىٰ فيك قلقاً مع الفضول، وحرصاً مع الشغف! إنت متعلِّق بها يا هٰذا، لم تغادر روحك ولا سلَوْتها، وإن فارقتها بحضورك وكففت عن متابعتها بشخصك، فطالما بقيت ذكراها وحضر خاطرها، فأنت مقترن بها!... لم لا وهي تخصُّك! إنها شقيقة روحك وتوأم نفسك. وفي القيامة الصغرىٰ، في الرجعة وعند الظهور الشريف، ستُبعث وتعود أنت معها، مقترنين، لا كزوجين، بل شقيقين!...

: لسنا من صُلب وَاحد، ولا ولدتها أُمي؟!

: رُبَّ أخ لك لم تلده أُمك... أو أُخت. في ذلك العصر سترىٰ الرجل يموت في المشرق فلا يرثه أبناؤه من صُلبه، بل تؤول تركته دونهم لأُناس في المغرب!

كما سيُفصل ويُقضىٰ في المنازعات
والخلافات، ويُحكم في الحدود والعقوبات
بـ" حكم داوود " ، أي وفق الوقائع والحقائق،
لا الظواهر والأيمان والشهود، والسائد من
حكم الشريعة... إنها نفحة أُخروية و " قيامة
صغرىٰ " ، تتحقَّق علىٰ هٰذه البسيطة قبل
نهاية العالم، عند النفخ في الصور، وبعث
الخلائق جميعاً، ونشرهم من قبورهم ونقلهم
من برزخهم إلىٰ القيامة والعالم القادم.
لم تكن الفتاة تحتال يا «نجيب»، ولا كانت
تبحث عن زوج، بل كانت تعاني وتكافح
وتجاهد في ميدان آخر!

أشرقت الشاشة بحضور «مَي» وأضاءت بطلَّتها البهية، وزهت حين ٱرتسمت فيها صورة هٰذه المرأة العظيمة بحقيقتها السنيَّة، وبان أنها في قمة السعادة، ترفل في نعيم الرِّضا، وظهر أنها ما فتئت تطوي منزلاً وتقطع شوطاً وتجتاز مدينة، وتمضي في سيرها وسلوكها لتسمو وتتكامل ما شاءت إرادتها، وكتب الله لها وقضىٰ... وقد أشار «عبدالحميد» ليؤذن لـ «نجيب» أن يرقىٰ شيئاً ويدخل في المشهد، فيتاح له أن يحاورها، ويمكَّن من أن يراها وتراه، ويسمعها وتسمعه، ولم يرَ العاملون هنا بأساً في ذلك، ولا سجَّلوا عليه تحفُّظاً أو ٱعتراضاً، فكان ما أراد، لٰكن دون أن ينتقل «نجيب» إلىٰ المشهد ويحضر فيه، بل عبر نافذة هناك وكوَّة، ولوحة عرض هنا وشاشة.

وَافته «مَي» فرحة مبتسمة، ثم ضاحكة مستبشرة، وكأنها حظيت بجائزة وجاءتها هبة وكرامة، ولعلَّها تلقَّت الأمر سلوة تتخلل عملها، الذي غدت منقطعة له متبتلة، ٱستراحة تروِّح بها عن نفسها، تدفع السأم والملل، وتستحضر ذكريات لا تخلو من لطف الشغب، ومن لهوٍ طالما مرَّت عليه كريمةً، وتعود نشيطةً رشيقة....:

يا حيَّاك الله يا أخي، أين أنت يا «نجيب»؟
بعُد العهد وطال، كم أنا سعيدة برؤيتك هنا، مبارك هـٰذا الظفر، هنيئاً لك السعادة أيها المشاكس النزق!

: بل أين أنت يا «مَي»، وأين بلغت بك الأيام وكيف كان وَقْع حوادثها عليك؟

: كنت وَجلة منك حذرة، بل في شكٍّ وريبة! حتىٰ ٱنكشف لي وعرفت أنك أخي في الله، وشقيقي في الحبِّ والولاء، وأنني وإياك علىٰ هدىً ومشرب وَاحد ونهج سوِيٍّ كريم في العقيدة والدين... عندها، ٱنقطعتَ وما عُدْت ترتاد العيادة، ثم تركتُ أنا العمل هناك بعد فترة، وٱنصرفت لشأني في بيتي.

: علمت أنك بعدُ عزباء، وقد رفضتِ مَن تقدَّم لخطبتك، فما عاد أحد يتقدَّم حين كبرت، وتقدَّم بك العمر...

لماذا عزفتِ عن الزوَّاج وقد ندب إليه الشرع وحثَّ؟ لماذا هذا التعنُّت والتشدُّد في شروط الزوج؟ حتىٰ رددتِ كلَّ خاطب وصددتِ كلَّ طالب، وفيهم مؤمنون كرام؟

: تُرىٰ لماذا مدح الله عزَّ وجلَّ وأثنىٰ في كتابه الكريم علىٰ «يحيىٰ بن زكريا» بقوله: ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾؟

: تلك شريعة قد نُسِخت بالرسالة الخاتمة، وقد ندب «نبينا» ﷺ إلىٰ الزواج وحثَّ عليه وأكَّد، وأنت من أُمة «محمد»، لست علىٰ دين «يحيىٰ» ولا من ملَّته!

: أعرف هذا، ولكنني لم أستطع تجاوز أمر تملَّك نفسي، وحقيقة أسرت روحي، جعلتني في حالة غريبة لا يمكنني وَصفها، قطعتني عن كلِّ لذَّة، واستأصلت منِّي كلَّ شهوة ورغبة! فلم أزهد في الرجال فحسب، بل في كلِّ نِعَم العيش ولذَّات الحياة، حتىٰ الطعام والشراب، وطيب الرقاد!

حبٌّ ما برح يبرِّحني، وهيام هوَّم بي، ووَجدٌ شغَفني، وعشق غلَبني، وكلَف لم أتكلَّفه، ولوعة ولاعِج وجوىً، قذفني في لجّة الغرام وصيَّرني متيَّمة! لقد ملك حبُّ «المولىٰ» عليه السلام جوارحي، وهيمن علىٰ جوانحي، وسكن قلبي وروحي، فما عُدْتُ أطلب إلَّا رضاه، ولا ألتمس إلَّا تحقُّق: " محبوبة في أرضك وسمائك "، من زيارة " أمين الله "، فهو عليه السلام لا يخلو أن يكون فيها، فيشملني الدعاء وأكون محبوبة عنده، فأدخل في المرضيين المرحومين! كنت لا أصبو إلَّا إلىٰ رؤيته ولقياه، ولا أطلب وأرجو شيئاً سواه.

وغدوت أشدو مع «البهائي» في رائعته:

يا كراماً صبرنا عنهم محال
إنَّ حالي بعدكم في شرِّ حال
إن أتىٰ من حيِّكم ريح الشمال
صرت لا أدري يميني من شمال.
حبَّذا ريح سرىٰ من «ذي سلم»
عن رُبا «نجد» و«سلع» و«العلم»
أذهب الأحزان عنَّا والألم
والأماني أدركت والهمُّ زال.

يا أخلَّائي بـ «حزْوىٰ» و«العقيق»!
لا يطيق الهجر قلبي لا يطيق
هل لمشتاقٍ إليكم من طريق
أم سدَدْتُم عنه أبواب الوِصال؟!
لا تلوموني علىٰ فرط الضجر
ليس قلبي من حديد أو حجر
فات مطلوبي ومحبوبي هجر
والحشا في كلِّ آنٍ بٱشتعال.
مَن رأىٰ وَجدي لسكَّان «الحجون»
قال: ما هٰذا هوىٰ هٰذا جنون
أيها اللوَّام ماذا تبتغون؟
قلبي المُضنىٰ وعقلي ذو ٱعتقال.
يا نزولا بين «سلْع» و«الصفا»!
يا كرام الحي يا أهل الوَفا!
كان لي قلبٌ حمول للجفا
ضاع منِّي بين هاتيك التلال.
يا رعاك الله يا ريح الصَّبا!
إن تجز يوماً علىٰ وادي «قُبا»
سَلْ أُهيل الحيِّ في تلك الرُّبا
هجرهم هٰذا دلالٌ أم مَلال؟
جيرةٌ في هجرنا قد أسرفوا

حالنا من بعدهم لا يوصف
إن جَفَوْا أو واصلوا أو أتلفوا
حبُّهم في القلب باقٍ لا يزال.
هم كرامٌ ما عليهم من مزيد
مَن يمُت في حبهم يمضي شهيد
مثل مقتول لدىٰ المولىٰ الحميد
أحمديِّ الخلق محمود الفعال.
صاحب العصر الإمام المنتظر
مَن بما يأباه لا يجري القدر
حجَّة الله علىٰ كلِّ البشر
خير أهل الأرض في كلِّ الخصال.
من إليه الكونُ قد ألقىٰ القياد
مُجرياً أحكامه في ما أراد
إن تزُل عن طوعه السبعُ الشِداد
خرَّ منها كلُّ سامي السمْكِ عال.
شمسُ أوْج المجد مصباحُ الظلام
صفوة الرحمن من بين الأنام
الإمام بن الإمام بن الإمام
قطب أفلاك المعالي والكمال.
فاق أهل الأرض في عزٍّ وجاه
وٱرتقىٰ في المجد أعلىٰ مُرتقاه

لو ملوك الأرض حلُّوا في ذراه
كان أعلىٰ صفِّهم صفُّ النعال.
ذو ٱقتدار إن يشأ قلبَ الطِّباع
صيَّر الإظلام طبعاً للشُّعاع
وٱرتدىٰ الإمكانُ بُرْدَ الإمتناع
قدرةٌ موهوبة من ذي الجلال.

لقد شغفني حبُّ «المولىٰ» عليه السلام يا «نجيب»، وتملَّكني عشقه وأرداني غرامه، فما عدت أعبأ بشيء، ولا أكترث بالدنيا ولا حتىٰ بأدنىٰ أسباب العيش.

ما عدت أرىٰ جميلاً أو أُبصر جمالاً، ولا يقع بصري علىٰ حسن في هٰذا العالم، إلَّا حسبته إشارةً إلىٰ جماله وعلامةً علىٰ كماله، فإذا لمحت بديعاً تقرُّ به العين، أجَلتُ وسرَّحت فيه النظر، وقلَّبت طرفي وأتبعته مليّاً، رنوت إليه من خفيٍّ ناكس، ثم في تشوُّف وتطاول وتبصُّر، حتىٰ أنفذ في كُنهه وأبلغ أصله، أجول في ربوعه وأطوف حوله، أسرح في أقاصيه وأبلغ أركانه، فأتصل بالجميل حقاً، " المطلق " الذي أضفىٰ علىٰ الجميل جماله، وخلع علىٰ الحسن بهاءه...

وأصبحت لا أسمع حسّاً ولا آنس صوتاً، لا حسيساً ولا نجوىٰ، ولا يسكُّ مسامعي جِرْس رخيم ولا زمجرة وجهير، إلَّا حسبته صدىٰ حديث له، ورجع أنفاس تتصاعد من صدره الكبير، أو وَجيب قلبه الذي يهب الكائنات حياتها بخَفْقِهِ، يسَعُ الوجود بما فيه، يتضرَّع بشكوىً يبثُّها ربه، أو فجعة وندبة يبكي بها «جدَّه». حتىٰ صرت أتلقَّىٰ نداءً في كصيصٍ غلبه الفزع، وجُؤاراً يستغيث ويتضرَّع، علمت أنه من قرين يلازمني، يستحثني علىٰ المبادرة والإعجال، والجدِّ في طيِّ المراحل وٱجتياز المنازل حتىٰ نبلغ معاً عهد الوِصال.

لا والله، ولا شممت عطراً ولا لفحني عبَقٌ وسطعني نَشْرٌ، إلَّا ظننته فاح من أريجه، وذاع من طيبه، وتضوَّع وهاج من ذكيِّ عُرفه، ونشا من شذاه... قطرة عرق ٱنحدرت من جبينه، فكأنما ٱدَّهنت البلاد وتضمَّخ الفضاء وٱطلىٰ، فسرت نسائم النشوة، وأراحت الرياض، فعمَّ النشر البيد والقفار، والمحيطات والبحار، بعد المدن والديار.

ليتك تعلم يا «نجيب» ما أنا فيه، اللذة والنشوة من الانقطاع لخدمته، أن لا يكون في حياتك إلّا الله ومحبته. هذه هي ضالتي، وقد وجدتها في وليِّه، فنذرت نفسي لخدمته وأوقفت روحي وجسدي له، فلن يمسني أحدٌ ولن يشاركني فيه بشر.

إنني يا «نجيب» أدَّخر نفسي وأضنُّ بها على غيره، هو وَلي أمري حقاً ومالك قيادي، لا غيره ولا سواه، فإذا التقيته أو حان ظهوره، وَجد لي الكفء من أصحابه وشيعته، وزوَّجني مَن لا ينشغل بي ويشغلني عنه!

لقد عشقت إمام زماني، شغفني حبُّه وملكني الغرام والوَلَه، فما عدت أستمرئ شيئاً من لذّات الدنيا، ولا أستطعم نعيماً من خيراتها، لا يهنأ لي طعام ولا شراب، اللهم إلّا أن أتلو: سلام الله التام، الشامل العام، وصلواته الدائمة... فإذا بلغت: "السلام عليك حين تقوم"، صرعني الوجد وغلبني وأنا أتصوَّر حالاته، حين يقوم ويقعد، ويركع ويسجد، ويهلِّل ويكبِّر. وأندكُّ في آلامه وهو في مغيَّبه، ومعاناته من انقطاعه وغيبته...

يا للعظمة! عظمة عزباء تجاوزت الأربعين، لا زوج لها ولا خدين، لا ولَد ولا تلَد، ويا لجهالتي من إشفاقي عليها! والأَوْلىٰ أن أُشفق علىٰ نفسي، والأجدر أن أرثي لحالي، وقد سرقتني الدنيا وغرَّني هواي وغلبتي شقوتي فٱنصرفتُ أو صُرِفتُ عن العشق الذي تملَّكها، والمراتب التي بلغتها، فحُرمتُ العالم الذي تعيش، والجمال والأُنس الذي تتقلَّب فيه.

يحسبها الناس معقَّدة مهووسة، أو ممسوسة ومسحورة! وكنت " أُنصفها " فأراها تمثِّل شخصيتين وتحمل هويتين، وَاحدة منفتحة منطلقة، هي أقرب إلىٰ طبيعتها وسجيَّتها في ما أُقدِّر وأحدس، وأُخرىٰ حزينة كئيبة، صامتة مُطرِقة، حتىٰ في حركتها بين أرجاء العيادة وأركانها، أشعر أنَّ هناك ما يشغلها، وأنَّ وَراء هـٰذه الحركة وذاك التصرُّف أمراً خفيّاً. فإذا التفتت، من عميق ذكائها وشديد فطنتها، إلىٰ ما ألتقطُ وأُسجِّل عليها، رمقتني بنظرة ثاقبة تأخذني إلىٰ مزيدِ حيرة وإبهام... وكأنها تنفذ في فكري وتعرِّي خواطري وظنوني، وتقرأ الأسئلة التي تقفز وتثور حولها، فتُبلغني بنظرتها رسائل ٱعتراض علىٰ التطفُّل والتدخُّل، وعتاب علىٰ ٱقتحام خصوصيَّة الآخرين: كيف تهتك ستراً أرخاه الله؟ فقد شاء تعالىٰ أن يحفظ لعباده خفاياهم، ولو " تكاشفتم لما تدافنتم " ، من فرط القبح والسوء والٱنغماس في الشرور الذي يعيشه الناس في سرائرهم، فإذا ٱنكشف حال أحدهم للآخرين رأوه لا يستحق حتىٰ التجهيز والدفن، فيُلقىٰ جيفة تُنهش أو تتعفَّن!... ويعقب العتب نداء مؤلم ومقولة جارحة بأنَّ ما أفعل من خرق الخصوصية، هو أشدُّ قبحاً من كشف حجاب ٱمرأة محرَّمة، ومن ٱستراق النظر إلىٰ مفاتنها! فأستحي مما وقعت فيه، فأنثني وأنصرف.

ولكنني ما ٱنفككت أتساءل وأتفكَّر:

ماذا تريد هٰذه العانس الغامضة؟ أتراها
تشكو قطار الزواج الذي تجاوزها وباغتها في
غير محطة، وخلَّفها بائسة تعسة على مقاعد
الٱنتظار؟ تستقبل نظرات العطف، وتتلقَّى
رسائل المواساة والرثاء الصامتة، السمجة
والمضجرة، بل القاتلة؟

بلىٰ هي كذلك، هٰذا مؤكد، وهو واضح بيِّن، ولٰكن، يا للغرابة هناك شيء آخر ما برح يصاحب نظرتها ويغلب هيئتها، يوحي بغير شعور، ويأخذك بعد التلقِّي الأول إلىٰ الوقوف علىٰ سذاجتك، والإحساس بأنك سطحيٌّ في تلقِّيك وٱنطباعك، بل تافه تقف علىٰ حدودٍ غاية في الضحالة! فهناك شيء آخر هو ما يزعج هٰذه الأربعينية، ليس قطار الزواج الذي فاتها، ولا تعاطي هٰذا المحيط الساذج الذي يلتفُّ بها، يحسب أنه يضيِّق الخناق عليها بأجوائه، وينزلها علىٰ أعرافه وأحكامه... إنها تحلِّق في سماء أُخرىٰ وتعيش أُفقاً عالياً سامياً، يترفَّع عن كلِّ الظواهر الخادعة والمظاهر الآسرة، ما أورثني (لشعوري وٱنطباعي الخاطئ عنها) الخجل والحياء، وإن التمستُ لنفسي، من تردُّدي وعدم جزمي، بعض عزاء.

ها قد ظهرت الحقيقة هنا وٱنكشفت، في عالم الحقائق الذي يخرق المظاهر إلىٰ المخابر، والصوَر إلىٰ السيَر، وما تسجِّله هٰذه "الحواسيب"، بل هي شيء أعظم وأكثر خطراً من أية آلة في عالمنا، وتضبطه هٰذه الثلَّة الملكوتية، والعُصبة الإلهية العاملة في هٰذه البقعة العرشية...

وهـٰذا ما كشفه الساعة هـٰذا التواصل، وبـان من الٱلتقاء بها والنظر إليها عبر هـٰذا العالم.

إنها تسبر أغواراً عميقة، تسبح وتعوم، ثم تغوص وتطفو، فإذا أخذتها اللجة وأرهقتها النظرات واللفتات، ولم تُعِنها وتسعفها ذراعاها علىٰ ضرب الأمواج والغطِّ والغطس، عادت لتستلقي علىٰ الشاطئ وترقب لهو العابثين، تستلهم منهم ـ علىٰ طريقة "تُعرف الأشياء بأضدادها" ـ ما يشحنها طاقة، ويجدِّد فيها العزم والإرادة...

دعهم يحسبوا أنني أتحسَّر علىٰ هـٰذا الزوج البطين المترهل، الذي تتأبط أُنثاه ذراعه كأنها تقبض عليه، تخشىٰ فراره، أو تخشىٰ من فراغها ووحدتها دونه، بل تخشىٰ ٱنكشاف خوائها، فتحذر منِّي أن أخطفه منها وأسرقه. والأُخرىٰ تحترس وترتاع علىٰ فتاها فارع الطول مفتول العضلات، الذي ٱستهلك من حبوب البروتين وعقاقير بناء الأجسام ما شاء الشيطان، فكوَّر تقاطيع صدره وذراعيه ليلفت إليه الأنظار... دعهم يظنوا ويرتابوا في محاسباتهم، ويزلُّوا ويشطحوا في رؤاهم وأفكارهم، ماذا عساني أخسر؟ بل أنا مشفقة عليهم راثية لحالهم، ولولا حدود الله ولوَازم الأخلاق والتهذيب، لكنت شامتة!

كانت تمقت النجاسات وتشنؤها، تتقزَّز وتنفر، ولا تطيق الدنوَّ منها، ناهيك بالتلوُّث بها، وكم كانت تعاني وتتحرَّق على ٱنقضاء أيام الطمث، وتعيش الأذى وتقاسيه، لا في جسدها فحسب، بل في روحها، وكيف لها أن تُحجب عن الصلاة والصيام، وتُحظر عليها جملة من الأعمال والأذكار وتلاوة القرآن، وقطع برنامجها وخطتها في طريق السَّعي إلى الرُّقي، وما أعدَّته للمضي في سبيل الفوز والقرب والدنوِّ من اللقاء.

كانت تعرف الحدود والأحكام والتكاليف الشرعية للزواج، وتعرف حقوق الزوج، ومدى الخضوع والذلَّة التي يجب أن تتقيَّد بها المرأة وتلتزمها مع بعلها في تعاليم الإسلام، فهي صادقة في إيمانها والتزامها، ليست من منتحلي الصفة ومقتحمي "بيت الدين" بلا حقٍّ ولا ٱستئذان، من الحداثيين المزيِّفين نظرة الإسلام إلى المرأة ومكانتها، الذين يحتالون ويلتفُّون بإسقاطات عقولهم الواهية، وتنميقات أفهامهم السقيمة، وهواجس روحياتهم المريضة الموبوءة، رغبة في مماشاة "الآخر" والظهور بما يدرجهم في التقدُّمية وينفي عنهم الرجعية، ثم خجلاً من الهوية أو تنكُّراً لها وتنصُّلاً منها وكأن عقائدها عارٌ وفكرها شنار! أو من قسم آخر، من الذين يُديرُون الشريعة ويَسُوسُون الدين ما درَّت معايشهم وأنتجت مصالحهم وأثمرت دنياهم، يتكسَّبون به ويتَّجرون، ويتَّخذونه سلعة ويسرُّونه بضاعة، فإذا تطلبه السوق "عصرياً" ٱندفعوا في ما يُظهره كما يشاء، فيسلبونه جوهره ويخلونه من قوامه، ويقدمونه خاوياً أجوَف، يفتقد نداوة الروح وطراوة المعنى، وتنسلخ عنه عظمة الغيب، يحكي خواء الغرب وجفاف المادية والحسيَّة، ويهوي بهم في حضيض يجمعهم والشياطين...

كانت ترىٰ أنَّ كلَّ الرجال يطلبون الزواج، لا ليُشبعوا رغبتهم الجنسية وحاجتهم الجسدية، ويُطفئوا شهوتهم فحسب، إنما ليعيشوا هٰذه الشهوة ويرعوها ويُذكوها، وكأنها رأس المال والأصل الذي يعملون علىٰ نمائه وزيادته، ويحرصون أشدَّ الحرص أن يضعف، ويرون الإفلاس في أن يتبدَّد فينتهي يوماً ويزول، فهٰذا والموت سواء في قاموس الرجال! إنَّ الشهوة الجنسية هي محور حياة الرجال ومرتكز حركتهم... ثم يتعجَّبون من آراء «فرويد»، ويعيبون علىٰ مذهبه ويستهجنون ٱعتماد العامل الجنسي أساساً للتحليل النفسي وتفسير حركة الإنسان وفهم تصرفاته!

وكانت تعلم، وكأنها عمدت إلىٰ دراسات وٱستبيانات في هٰذا الحقل، ولم تكن قد فعلت، بل هي بصيرة طالما ميَّزتها، وحكمة تمتَّعت بها... كانت تعلم أنَّ جُلَّ الرجال لا يجد ما يزهو به ويفاخر إلَّا الفحولة، ينحدرون ويهوون لتكون حيوانيتهم هي مرتكز رجولتهم! حتىٰ المثقف المتعلِّم منهم، تراه أسير فحولته، يزهو بغرامياته ومغامراته مع النساء (وأكثرها أكاذيب من نسج خياله، هي إسقاطات عجزه ومعالجات إخفاقه).

ومما ٱستوقفها، أن لا يتخلَّىٰ حتىٰ عالم رباني عن هٰذا الجانب في وجود الرجل، فقد تجنَّب أحدهم وهو في السبعين النظر إليهن، وهي في لفيف يحضرن درساً يلقيه، فلما سألته إحداهن عن سبب إعراضه قال إنه يخشىٰ الريبة والفتنة من النظر إلىٰ المرأة، كأنه أراد أن يؤكِّد علىٰ ٱستمرار "رجولته" وبقاء فحولته، وكأنَّ زوالها وٱنتفاءها عيب ونقص!... ثم علمت بعد ذلك أنَّ لقوله بعد فعله وَجه آخر، هو تعليمه الحاضرات العفاف، وإبلاغهن ٱنحطاط الفكر وسقم أذهان الرجال فلا يثقن برجل ألبتَّة!

قلَّ أن يتعاطىٰ أحد مع الغريزة الجنسية كرغبة فطرية وحاجة طبيعية لا بدَّ من تلبيتها وإطفائها وإشباعها حتىٰ يسكن الجسم وتستقر النفس وتهدأ، وتأخذ الروح وتذهب في ما خُلقت له من التكامل والسمو، وطيِّ المراحل وقطع المنازل وٱجتياز الصعاب وتخطِّي الحواجز في هٰذي الرحاب...

الجنس عندهم، كما بقية الغرائز واللذات، لا يُكتفىٰ منه بالقدر الذي يسدُّ الفراغ ويفي بالغرض ويحقِّق الحاجة... فهم لا يتناولون الطعام والشراب، علىٰ سبيل المثال، لإشباع الجوع وردِّ السغب، وإطفاء الخرَص والغرث، والٱرتواء بعد الصدىٰ والظمأ، بل تلذُّذاً وتنطُّعاً، فيتلقَّم أحدهم أنواع الطعام ويتذوَّق أشكاله، فلا يهجع من غرَث ولا يسكن له ضرام، ينهش اللحم ويعرق العظم، يلهم ويبلع ويزرِد، فيسوغ في حلقه وينحدر إلىٰ جوفه، كأنه يعرف دربه! فإذا غصَّ بلُقمة أو شجىٰ بعظمة، ٱعتصر بجرعة ماء أو شراب، أو أسعفه جاره بضربة علىٰ ظهره حتىٰ تسوغ الغُصَّة وتجوز، فيعود إلىٰ ما كان فيه، ويمضي في "معركته" حتىٰ النهاية... وهي ليست عند الفراغ من أصل الطعام، فهناك "تعقيبات" من الحلوىٰ والفاكهة، يخترط العنقود ٱختراطاً فيخرج عُمشُوشه عارياً، يسفُّ القطايف والكنافة والسويق والفالوذ سفّاً، فإذا جاء دور المشلوَز والملوَّز، وملحقاتها من الحلويات الأجنبية، تخِم وثقلت معدته، فكفَّ من إعياء لا ٱكتفاء! فإذا أقهىٰ أحدهم مرة وأجَمَ فترة، ٱرتدت شهوته عن الطعام لمرض، عاد إذا برئ إلىٰ "الٱنتقام"، وقضىٰ ما فاته بشَرَه، يتقلَّب في النكهات ويجول علىٰ المطاعم حتىٰ يغمت وتثقل نفسه ويلتمس من الأدوية والأشربة ما يسعفه ويعينه علىٰ التجشؤ قبل أن يذرعه القيءُ ويسبقه التهوُّع!

وكذا الحال في الحاجة إلىٰ وسائل النقل من مراكب ودواب، وعربات وسيارات في زماننا، تحوَّلت من وسيلة وأداة تسهِّل حركة الإنسان وتنقُّله، وتبلغ به مقصده، فيحكم ٱقتناءها وٱختيارها القوة والسرعة والأمان، وشيءٌ من الزينة في أحسن الأحوال، وإذا بها تصير وَسيلة للتعالي والتباهي، وأداة للزهو والتفاخر، والسير في الأرض مرحاً كأنَّ صاحبها خرق الأرض أو بلغ الجبال طولاً، مصعِّراً خدَّه للناس، مختالاً فخوراً... وما زال التنافس فيها مستمراً متمادياً، شأنها شأن جميع الحاجات والشهوات والمقتنيات من مَلبس ومَسكن بعد الزينة والمأكل.

هٰكذا يتعاطىٰ جُلُّ الرجال مع الجنس، لا يطلبونه ليُطفئوا أو يُخمِدوا شهوة، ويُلبُّوا ويقضوا حاجة فطرية، ويُسايروا ويلتفُّوا علىٰ غريزة ٱستحكمت في طبيعتهم، وميول تأصَّلت في تكوينهم، فإذا نالوا قسطاً وقضوا منها وَطراً، سكنَت نفوسهم وٱرتاحت أبدانهم، فٱنصرفوا لشأنهم وما خلقهم الله تعالىٰ لأجله من السعي في العلم والعبادة، دون أن ينسوا نصيبهم من الدنيا وحظَّهم من لذَّاتها... بل هم يطلبونه لنفسه، يكبُّون عليه بلهفة لا تنقضي ونهَم لا يشبع، ويفضِّلون بل لا يريدون من النساء إلَّا التي تؤجج فيهم الغريزة وتستثيرها، لا تدعها تخمد ساعة حتىٰ توقظها من جديد، وهٰذا "عالم الإغراء" حافل بأغرب ما يكون من وَسائل وأدوات وطرق وكيفيات، وكأنَّ الجنس غاية الخلق، وهدف الحياة!

كانت تعرف نفسها جيداً، وتعرف حدود طاقاتها وإمكانياتها وما تستطيع، ومن هنا آثرت أن لا تُورِّط أحداً معها، ولا تتورَّط هي وتُقحم نفسها وتزجُّها في زواج محكوم بالفشل...

نذرت نفسها وآلت أن تنصرف إلىٰ شأن آخر... ٱنقطعت لتهذيب النفس، وٱعتزلت، بل لم تقرب أصلاً من الجنس وشهوته. وقد ٱستقر في نفسها أنها لم تُخلَق لهٰذا الدوْر، وإن خُلقت أُنثىٰ ووُلدت من هٰذا الجنس الذي كتب الله وشاء له دور المفعول والوعاء الذي يحمل ويلد ويؤمِّن ٱستمرار الحياة البشرية، كما جعل للآخر دور الفاعل والقيِّم، وكلَّفه القيادة والريادة، سواء في الدين أو شؤون الدنيا، وأفسح له ووَسَّع، ولٰكنَّه تعالىٰ كلَّف الأُنثىٰ أيضاً وشملها بخطاب العبادة وطالبها بتهذيب النفس والسعي في هٰذا الحقل، وأتاح لها أن تبلغ أقصىٰ مراتب السموِّ والكمال.

كانت تعترف أنَّ طبيعة الخلق والنظام الأتم الذي يحكم الوجود، وتجري وفقه الأُمور في سيرها وكدحها وبعد نزولها في منازلها، يقتضي هٰذا التكوين والوضع بالنسبة للمرأة، وأنَّها الجبهة التي تكدُّ فيها وتكدح، فتنال أجر المرابطين وتبلغ درجة المجاهدين الغازين... ثم تقرُّ بعجزها عن أداء الدور الذي وكِّل بالمرأة، من مجاراة الرجل وتحقيق رغباته، وتقول إنها لا تستطيع أن تقترن بمَن يريدها سلعة لِشهوته، ويستهلكها أداة لشبقه، ومتاعاً لِلذَّته، ولعبة لِلَهْوِه. كانت تنتظر مَن يلتقي معها في همومها ويشاركها تطلُّعاتها، ويعينها علىٰ نفسها، فتعينه ويرتقيان معاً. فلما يئست، ولم يتقدَّم لها كفؤٌ في هٰذه المرتبة، آثرت العزوف والٱنصراف، وقررت التنسُّك والٱنقطاع. فليس هناك مَن يستحق أن تهجر له سجَّادتها، وتترك في سبيل لذَّته تهجُّدها، وتفارق لأجل غريزته قرَّة عينها الصلاة! عزَّت عليها نافلة الليل، وأبت أن تفرِّط في معرفة يمكن أن تتلقَّاها بحضور درس، أو الٱستغراق في مطالعة، فزهدت في الرجال ورغبت عن الزواج...

إن كانت النساء خُلقن لهذا، فـ «مي» ليست منهن، وهي لا تأبىٰ أن تشير إليها الأصابع بـ" العانس " و " العزَبة " ، وأن يُرثىٰ لحالها، فتهمس النساء إذا رأينها في محفل، بأنَّ المسكينة لم تحظ بزوج... فهي التي تشفق عليهن وتأسىٰ لحالهن! وقد ٱرتهن كُلّاً منهن صعلوكٌ، أو حتىٰ مؤمن كريم، كما يقتني أحدهم متاعاً، أو دابة ومطيَّة، يعلفها ثم يركبها. وهي تمضي في اليوم الأخير من حياتها كما بدأت في يومها الأوَّل، لم تتقدَّم في المعرفة خطوة ولا ٱرتقت في الروح درجة، وإن حظيت بالأجر الجزيل علىٰ صبرها، وأُعطيت الجنة علىٰ جهادها وحُسن تبعُّلها، كما وَعد تعالى ﴿جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَـٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّـٰتِ عَدْنٍ﴾... فهي تريد وتطلب ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾!

كانت تستنكف من ضروب الزينة و إعداد المرأة نفسها لزوجها.

لا أسمح لنفسي أن أستقبل المرآة لساعات :
أُلاحق شعيرات خرجت عن زيج حاجبيَّ،
وأُتلف وَقتي لأختطَّ بالميل وأُكحِّل عينيَّ،
ولن أُهدره مستسلمة لنامصة تلتقط وتنتف،
تسرِّح وتعقص، تصبغ وتقشِّر، ثم تضمِّخ
وتدهن... فأروق لبعلي وأُعجبه!
إنني أعرف طاقتي وحدودي، وأقف علىٰ
ضعفي وعجزي وقلَّة حيلتي، فلن أتمكَّن من
مجاراة الكُمَّل من أهل الطاعة، والعلم
والعمل، الذين ٱتخذتهم قدوة لي...

ولكنِّي أستطيع أن أهجر فراشي متىٰ شئت، أنهض لأصفَّ قدَميَّ في مُصلَّاي، وأبتهل لربي وأتوجَّه إلىٰ «إمامي»، بما يمكنني من زيارة وصلاة، وما يسعني من ذكر وتلاوة، لا أخشىٰ أن أُوقظ رجلاً غطَّ في نومه وٱرتفع منه الشخير حتىٰ تحسبه ثوراً يخور من فرط ما عُلِّف، أو عانىٰ من سَفْد أبقاره في يومه، ولا أتأثَّم وأخشىٰ التقصير إن مدَّ المحروس يده وبسط كفَّه، لا مستعطياً، بل متلمِّساً وطالباً " حقَّه " ، فجاءت علىٰ خالي الفراش عوض أن تنال من لين بدني، وتتحسَّس عاري جسدي، فيقضي وَطره كما يتبوَّل، وهو نصف مستيقظ، يحذر أن يزول نُعاسه وتضيع عليه من بعدُ نومته، فيحسب، لملَكَة صار يتمتَّع بها من فرط التكرار، أو من غلبة السبات وسلطان الرقاد، أنه ٱحتلم! وكأن " أُنثاه " التي " نزا " عليها للتوِّ صورة تتراءىٰ في منام، لا حقيقة ماثلة بإحساسها الجسدي، ناهيك بالروحيِّ والمعنوي، وما يمثِّل من قيَم أوَّل معطياتها الكرامة والٱحترام، وفي الأقلِّ الأدنىٰ، النأي بها عن هٰذا الهوان والٱبتذال!

ولو كان ثمَّة حبٌّ وعشق، وعلقة روحيَّة، أو
حتىٰ معنوية، تجمعني برجل، لصحَّ منِّي
هٰذا العطاء وحقَّت تلك التضحيات، وكان
الإيثار إزاء أمر ذي خطَر وبال، فهو الحبُّ،
الذي يُشتقُّ ويعود إلىٰ أسمىٰ شيء في هٰذا
الوجود، ولٰكنَّ قلبي لم يخفق ولا علق
برجل، ولا هفا يوماً لأحَد، لأكون أسيرته
عن رضىً وخادمته بترحاب وكرامة له.

كانت فكرتها الراسخة عن الزواج أنَّ جُلَّ ما تطلبه المرأة من الزوج هو الاْستقرار والأمان، طرد الهاجس الذي يلاحق الفتاة عمرها كلَّه، أن تكون عالة علىٰ أحد في عيشها، وخاصة في مسكنها ومأواها، ولا سيما عند كبرها وفقد والديها... يتبرَّأ منها الإخوان، وتضيق بيوت الأصهار والأخوات، ولا يبقىٰ مَن يرعاها، لذا فإنَّ الحرص علىٰ الزواج يقلُّ في البلاد التي يتمتَّع مواطنوها بنظام متفوِّق للتقاعد والضمان الاْجتماعي، يؤمن للمرأة مستقبلها ويكفل لها العيش الكريم.

ولعلَّ الشعور بالطمأنينة والأمان والاْستقرار الذي تبحث عنه المرأة لا يتحقَّق بالزواج، ولا يكون مع الزوج، بل قد يتردَّىٰ وَضعها علىٰ هٰذا الصعيد ويهوي في الحضيض، من هواجس أُخرىٰ تشوب الحياة الزوجيَّة، حين يجد الرجل كفايته ويحقِّق رغباته مع أُخريات... فإذا اْنتفىٰ في زماننا التسرِّي بالإماء، فهناك خطر الزوجة الثانية وخوف التمتُّع، وعلاقات تورث قلقاً واْضطراباً، بل تقلب حياة الزوجة جحيماً لا يُطاق!

وَقعت في بدايات أمرها، وٱنخراطها في السير والسلوك علىٰ غير الطريق السوي، فأنست بحالات المرتاضين ووَلعت بمجاهدات الصوفية، وتأثرت بسيرة «رابعة العدوية»، حتىٰ كانت تنشد أشعارها، فتعيشها في الحال وتستنطقها في الوجدان دون لقلقة اللسان:

عرفتُ الهوىٰ مُذ عرفتُ هواك
وأغلقتُ قلبي علىٰ مَن عداك
وقمتُ أُناجيكَ يا مَن ترىٰ
خفايا القلوب ولسنا نراك
أحبُّك حُبَّين حُبَّ الهوىٰ
وحُباً لأنك أهلٌ لذاك
فأمَّا الذي هو حُبُّ الهوىٰ
فشُغلي بذكرك عمَّا سواك
وأما الذي أنت أهلٌ له
فكشفُك لي الحجب حتىٰ أراك
فلا الحمدُ في ذا ولا ذاك لي
ولٰكن لك الحمدُ في ذا وذاك

لم تدم في هٰذا طويلاً، ولا أخذ منها كثيراً، فسرعان ما أدركتها النجدة، وأسعفتها يد الغيب، لتخلِّصها من براثن ذاك اللبس الخفي، عناية أخذتها إلىٰ الباب لتتَّصل بالمحراب... فغدت ترقىٰ كلَّما نهضت بالخدمة في مأتم «سيد الشهداء»، وتشعر أنها في " السفينة " و " السكينة " ، ثم في " بيتها " الذي يؤمِّن لها " السكن " ، فتنطلق فيه ما شاءت، لا تحدُّها حدود.

في ربوع خدمة «سيد الشهداء»، هـٰذا الحقل الخصيب والبستان الممرع، ٱندفعت «مَي» بجِدٍّ وإخلاص، ومعرفة، ٱنعكست تواضعاً بل تذلُّلاً... وقد علِم مخدومها منها صدق النيَّة، وعرف فيها تمام الأهليَّة، ورأىٰ عليه السلام أنَّ ذلك غاية مُناها، لا تروم سواه بدلاً، ولا تبغي عنه حِوَلاً، قادها إلىٰ عشق الله تعالىٰ، فذاقت وٱستطعمت حلاوة المحبَّة. وما زالت تلهج بذكره وتناجيه بنشوة وحُبٍّ وهيام: " إلهي فٱجعلنا ممن ٱصطفيته لِقُربك وَوِلايتك، وأخلصته لِوُدِّك ومحبَّتك، وشوَّقته إلىٰ لِقائك، ورَضَّيْته بقضائك، ومنحته بالنَّظر إلىٰ وَجهك، وحبوْته برضاكَ، وأعَذته من هجرك وقلاك، وبوَّأته مقعد الصِّدق في جوارك، وَخصَصْته بمعرفتك، وأهَّلته لعبادتك، وهيَّمتَ قلبه لإرادتك، وٱجتبيته لمشاهدتك، وأخلَيْتَ وَجْهَه لك، وفرَّغت فؤاده لحبِّك... وقطَعتَ عنه كُلَّ شيء يقطعه عنك " .

أفلحت التجارة، وأثمرت الأعمال، وأنتجت المجاهدات، فقادتها بعد " المحراب " إلىٰ " الكتاب " ، لتقرأ فيه وتتلقَّىٰ " الإكسير " ، وتتعلَّم كيف تسلك وتسير، حتى خرَقت الحجُب وبلغت الغنىٰ والثراء... وقفت مستعطية مستجدية، تلوي عنق الذل والٱنكسار، فأدركها عطاء الكرام.

وكانت بعد رباعيات «البهائي»، وَلعت بتحفته الأُخرىٰ ورائعته المسماة: " وَسلية الفوز والأمان في مدح صاحب العصر والزمان " ، وقد وَافتها منها فتوحات، لم يُسمح لي أن أُحدِّث بها وأنقلها، ولكنِّي أذكر القصيدة كاملة، لعلَّ المخاطَب يتلقَّىٰ الرسالة، فيحظىٰ ويسعد، والحرُّ تكفيه الإشارة!:

سرىٰ البرقُ من نجدٍ فجدَّدَ تِذكاري ... عهوداً بحَزْوى والعذيب وذي قارِ
وهيَّجَ من أشواقنا كلَّ كامنٍ ... وأجَّجَ في أحشائنا لاهِبَ النار

ألا يا لُيَيْلاتِ الغويرِ وحاجرٍ | سُقيتِ بهامٍ من بني المُزْنِ مِدرار
ويا جيرةً بالمأزمين خيامُهم | عليكم سلامُ الله من نازح الدار
خليليَّ مالي والزمان كأنما | يُطالبني في كلِّ آنٍ بأوْتار
فأبعدَ أحبابي وأخلىٰ مَرابعي | وأبدَلَني من كلِّ صفْوٍ بأكدار
وعادَلَ بي مَن كان أقصىٰ مَرامه | من المجد أن يسمو إلىٰ عُشرِ معشاري
ألم يدرِ أني لا أذلُّ لخطْبه | وإن سامَني خسفاً وأرخَصَ أسعاري
مقامي بفرق الفرقدين فما الذي | يؤثره مسعاه في خفض مقداري
وأني ٱمرؤٌ لا يدرك الدهر غايتي | ولا تصلُ الأيدي إلىٰ سرِّ أغواري
أُخالطُ أبناء الزمان بمقتضىٰ | عقولهمُ كي لا يفوهوا بإنكاري
وأُظهِرُ أني مثلهم تستفزني | صروف الليالي بٱحتلاءٍ وإمرار
وأني ضاوِي القلبِ مستوفزُ النهىٰ | أُسَرُّ بيُسْرٍ أو أُساءُ بإعسار
ويُضجرني الخطبُ المهولُ لقاؤه | ويُطربُني الشادي بعودٍ ومزمار
وتُصْمي فؤادي ناهدُ الثدي كاعب | بأسمرَ خطَّارٍ وأحورَ سحَّار
وأني لأسخو بالدموع لوَقفةٍ | علىٰ طَلل بالٍ ودارسِ أحجار
وما علموا أني ٱمرؤٌ لا يروعني | تَوَالي الرزايا في عشِيٍّ وإبكار
إذا دُكَّ طودُ الصبر عن وقعِ حادثٍ | فطوْدُ ٱصطباري شامخٌ غيرُ مُنهار
وخطبٌ يزيلُ الروع أيسرُ وَقْعه | كؤود كوخزٍ بالأسنة شعَّار
تلقيتُه والحتفُ دون لقائه | بقلبٍ وقور في الهزاهز صبَّار
ووَجهٍ طليقٍ لا يُمَلُّ لقاؤه | وصدرٍ رحيبٍ في وُرودٍ وإصدار
ولم أُبدِهِ كي لا يُساء لوَقْعه | صديقي ويأسىٰ من تعسُّره جاري
ومعضلةٍ دهماءَ لا يُهتدىٰ لها | طريقٌ ولا يُهدىٰ إلىٰ ضوئها الساري
تشيبُ النواصي دون حلِّ رموزها | ويُحجمُ عن أغوارها كلُّ مغوار
أجَلْتُ جياد الفكر في حلَباتها | ووَجَّهتُ تلقاها صوائبَ أنظاري
أأضرعُ للبلوىٰ وأُغضي على القذىٰ | وأرضىٰ بما يرضىٰ به كلُّ مخوار

وأفـرحُ مـن دهـري بلـذَّة سـاعـة وأقـنعُ مـن عيـشي بقـرصٍ وأطـار
إذن لا وَرىٰ زَنـدي ولا عـزَّ جـانبي ولا بـزغـتْ في قِمَّـةِ المجـدِ أقـاري
ولا بُلَّ كفِّـي بـالـسـاحِ ولا سرَتْ بطيب أحـاديثي الـركـابُ وأخبـاري
ولا ٱنتشرتْ في الخـافقين فضـائلي ولا كـان في «المهديِّ» رائقُ أشعـاري
خـليفـةُ ربِّ العـالمين وظلُّـهُ علـىٰ سـاكني الغبراءِ من كلِّ ديَّـار
هـو العروةُ الـوثقىٰ الـذي مَن بـذيله تمسَّكَ لا يخشـىٰ عظـائمَ أوزار
إمـامُ هـدىً لاذَ الـزمـانُ بـظلِّه وألقىٰ إليه الـدهـرُ مقـودَ خـوَّار
ومقتـدرٌ لـو كَلَّفَ الصُّمَّ نُطْقَه بـأجـدارهـا فـاهتْ إليه بـإجـدار
علـومُ الـورىٰ في جنب أبحُـرِ علمِهِ كغَـرْفَـةِ كفٍّ أو كغمسـةِ منقـار
فلـو زار أفلاطـونُ أعتـابَ قـدسه ولم يُعْـشِهِ عـنهـا سـوَاطعُ أنـوار
رأىٰ حكمـةً قُـدسيـةً لا يشـوبهـا شـوائبُ أنظـارٍ وأدنـاسُ أفكـار
بـإشراقهـا كلُّ العـوالم أشرقـت لما لاحَ في الكونين من نورها الساري
إمامُ الورىٰ طوْدُ الـنهىٰ منبعُ الهدىٰ وصـاحـبُ سرِّ الله في هـٰذه الـدار
به العـالَـمُ السفليُّ يسمـو ويعتلي علىٰ العالم العلويِّ من دون إنكـار
ومنه العقـولُ العشر تبغي كمالهـا وليـس عليهـا في التعلُّم من عـار
همامٌ لـو السبعُ الطبـاقُ تطـابقت على نقض ما يقضيه من حُكمِه الجاري
لنكَّـسَ من أبـراجهـا كلَّ شـامخ وسكَّـنَ مـن أفلاكهـا كلَّ دوَّار
ولاَنتشرتْ منهـا الثـوابتُ خيفـةً وعـاف السُّرىٰ من سورهـا كلُّ سيَّار
أيـا حُجَّـةَ الله الـذي ليـس جـاريـاً بغير الـذي يـرضـاه سـابقُ أقـدار
ويـا مَـن مقـاليـدُ الـزمـان بكفِّه ونـاهيكَ من مجـد به خصَّه البـاري
أغث حَـوْزَةَ الإيمانِ وٱعمُـرْ ربـوعَه فلـم يبـقَ فيهـا غيرُ دارس آثـار
وأنقـذْ كتـابَ الله من يـد عُصبـة عـصـوْا وتمـادوْا في عتُـوٍّ وإصرار
وأنعشْ قلوبـاً في ٱنتظارك قُرِّحت وأضجـرهـا الأعـداء أيَّـةَ إضجـار
وخلِّص عبـادَ الله مـن كلِّ غـاشم وطهِّـر بلادَ الله مـن كلِّ كفَّـار

وعجِّلْ فـداكَ العـالمـونَ بـأسرهم وبـادرْ علىٰ ٱسمِ الله من غير إنظار
تجـدْ من جنـود الله خير كتـائب وأكــرمَ أعــوانَ وأشرفَ أنـصـــار
بهم من بني همـدان أخلص فتيـة يخـوضـون أغمار الـوغىٰ غير فكَّار
بكلِّ شـديـدِ البـأس عَبْل شَمَـرْدَل إلىٰ الحتف مقدام علىٰ الهوْل صبَّار
تُحــاذرُهُ الأبـطـــال في كلِّ مــوقف وتَـرهبُهُ الفـرســانُ في كلِّ مضمار
أيـا صفـوةَ الـرحمن دونك مـدحـةً كـــدُرٍّ عقــودٍ في تــرائب أبكـــار
يهنـىٰ ٱبنُ هـاني إن أتـىٰ بنظيرهـا ويعنـو لهـا الطائيُّ من بعد بَـشَّار
إلـيك الـبهـائـيُّ الحقيرُ يـزفُّهـا كغـانيـةٍ ميَّاسـة القـدِّ مِعْطـار
تغـارُ إذا قيستْ لطـافـة نظمهـا بنفحـةِ أزهـارٍ ونَـسْمَـةِ أسحـار
إذا رُدِّدت زادت قبـــولاً كـــأنهـــا أحـاديث نجـدٍ لا تُـمَلُّ بتَكـرار

إنَّ للخزائن أبواباً، وللكنوز مناجم ومَدافن، ولمغاليق الغيب مفاتيح، ولسدود الفيض مجاري وقنوات، ولمحابس الأرزاق غدراناً ومسارب، ولُلُجج الإفضال سُفناً ومَـراكب، ولبحور النِّعَم أعماقاً ومَغاصات، وللحدود مداخل ومنافذ، وللسماوات حرساً ومدارج، وللمعارج دروباً ووَسائل، ولكلِّ خير مقدَّر وفضل مُدَّخر طريقاً وشرعة وسبيلاً... كلُّ ما هناك أن تكتشفه وتتعرَّفه وتقع عليه، فإذا فعلت، عمَّك هـٰذا وغمرك ذاك، فصرت من أهل الحظوة، تملك الطاقات وتتمتَّع بخارق القدرات.

ولعلَّ الكنز المدَّخَر والخير المحتَبَس أشدُّ توقاً إلىٰ الفيض، وأكثر شوقاً للتدفُّق، وأشد تحفُّزاً للإنهمال، من لهفة المستقبِل وفرحة المتلقِّي! فالكمال ينزع بطبعه ومن تلقائه إلىٰ التفجُّر والتدفق، وآلاؤه تتحرَّىٰ مجلاةً ومرآة، وعميم فيضه يترقَّب قناة، والجلال والجمال يريدان تعيُّناً ويطلبان ظهوراً، لا علىٰ نحو ما يسدُّ نقصاً فيهما ويلبي الحاجة لجبر عجز يعانيان منه، بل نزوعاً إلىٰ المطلق، وطوافاً حول " البيت " ، وحوماً في أعزِّ رحاب...

إنَّ الله تعالىٰ شاء، من حيث أسمائه الحسنىٰ (لا ذاته المحجوبة بغيب الغيوب، ساكنة العماء)، أن يرىٰ أعيان أسمائه الحسنىٰ، فإنَّ صُوَر حقائق الأسماء الإلهية (جميعها، لا المنصوصة التوقيفية فحسب) في الحضرة العلمية يجوز أن تكون الأعيان الثابتة، كما يجوز أن تكون الأعيان الخارجية، بما أنَّ الأعيان الخارجية هي ظلال للأعيان الثابتة، ذلك أنَّ الخلق، أو "التجلِّي المقدَّس"[١] نتج عن حاجة الأسماء الإلهية لأن ترىٰ أثرها في الأعيان، سواء الثابتة أو الوجودية.

فالظاهر أنَّ حاجة الأسماء إلىٰ التأثير في أعيان الممكنات، أعظم من حاجة الممكنات إلىٰ ظهور الأثر فيها، بمعنىٰ أنَّ حاجة الأسماء للظهور هي أكبر من حاجة الأعيان لأن تكون مرآة ومَجلاةً. وذلك لأن الأسماء لها في ظهورها العزَّة والسلطان، بينما قد ينال الممكنات من جرَّائه الضرر، فبقاؤها في حالة السلب والنفي والعدم أحبُّ إليها لو خُيِّرت. والسبب في هذا هو أنَّ أحوال وأعراض الممكنات في حالة عدمها لا تكون محمولة فيها، بل تكون منفصلة عنها، كأنها إلىٰ جانبها، ناظرة إليها. فتكون كلُّ حالة منعزلة عن الحالة الأُخرىٰ، لا تجمع الأحوال عينٌ وَاحدة في حال الثبوت، فإنَّ الألم في حال الثبوت لا يكون في عين المتألم، بل هو في عينه هو، أي في عين الألم (لا المتألِّم). بينما تظهر الأحوال في شيئية الثبوت في عين وَاحدة، فيكون زيد ـ مثلاً ـ الصحيح في وقت، هو بعينه العليل في وقت آخر، فيحدث له التألُّم من تغيُّر حاله، لأنه تغيُّرٌ في العين الواحدة، وليس في عين وعين فيكون متفرقاً ولا يُشعَر به.

---

(١) أُشير إليه من قبل. اُنظر: ص ١٣٥.

من هنا فـ «المولىٰ» عليه السلام هـو أكثر شوقاً للقيام والنهضة، وأشدُّ حرصاً علىٰ الظهور، وأعظم رغبة في رؤية تجليات الحق، من رعيته ومنتظريه، فهو أعلم ببركات الظهور، وأوسع إدراكاً لغاية الخلق، وأشد تلمُّساً لتجليات الكمال ومعطياته ولوازمه... جمالٌ يضيق به الاستتار، وكمال يُعجِز الأُفول والاحتجاب، وكنوز تأبىٰ التواري والاحتباس، وسموٌّ لا يطيق الاختفاء، وكفٌّ لا يسعها الكفُّ، وكرم وجودٌ لا يحتمل الإمساك، وعلوم تتدفَّق ليل نهار، عين لا تجفُّ وماء لا يغور وبئر لا تنضب.

كان لإدراك «مَي» هٰذه الحقيقة أثره الكبير علىٰ روحها ثم سلوكها، أن يكون «المولىٰ» عليه السلام في موقع الدعاء بالفرج والتطلُّع إلىٰ الظهور، ما يعني أنَّ الشوق إلىٰ اللقاء متبادَل، بل متفوِّق هناك عنه هنا. فالغنيُّ عنَّا من الرفق والرحمة والعدل والإحسان ما يجعله يرجو لنا النجاة بلقائه، وإن مسَّه من ذلك الأذىٰ ونزل به الألم، وأشدُّ الآلام وأكبرها انشغاله بعالم الكثرات عن الواحد الأحد، وانصرافه وهجرته من وَطنه وأصله ومعدنه!...

خاطرٌ خلَّفها في أطوار، وتنقَّل بعلاقتها مع «المولىٰ» من حال إلىٰ حال، انتهىٰ إلىٰ ضربٍ من الحضور وشكل من الاتصال... صارت تشعر به عليه السلام ناظراً، يشهد ويشرف، يلاحظ أعمالها ويراقب سلوكها، تتلقَّىٰ الثناء إن أحسنت، والتصحيح إن أساءت أو أخطأت، والتوجيه والتسديد أبداً ومهما فعلت! حتىٰ لتسمع جواب السلام يأتيها إذا توجَّهت إليه بالزيارة، وتُوَفَّىٰ الردَّ علىٰ ما تسأل، أو ما يجول في نفسها ويختلج في صدرها، فتخرج من حيرتها، إما بتأمين علىٰ الدعاء، أو إمضاء لما تتلو، وثناءٍ علىٰ ما تفعل، وفي بعض الأحيان، استجابةً لما تطلب.

وما كانت طلباتها تتجاوز حاجاتها الخاصة وشؤونها الشخصية، أن تتفرَّغ للعبادة، وتُدفع عنها المشاغل الصارفة، والموانع التي تحول دون ٱستغراقها في نشاطها والمضي في دربها وخطَّتها، ولا سيما المنغِّصات التي تثقلها إلىٰ الأرض، وتذكِّرها ببشريَّتها وحاجاتها المادية.

حتىٰ في طلباتها وأدعيتها التي تصبُّ في الشؤون الروحيَّة والأُمور المعنوية، كانت تمتنع عن ما يتجاوز المرحلة التي بلغتها في رياضتها، أن تأتيها هِباتٌ وتغمرها إفاضات تنقلها إلىٰ طوْر جديد، علىٰ نحو ٱستثنائيٍّ يتجاوز المراحل ويقفز علىٰ التدرُّج، دون تعادل في الروح وتهذيب نفسٍ يورث توازناً في الخُطىٰ وثباتاً في المراقي التالية.

ليس في هٰذه " العانس " بصيص شقاء ولا ذرَّة بؤس وتعْس، ولا قيد أنملة من حزن وكدر! إنها تتقلَّب في الرضا وترفل بالأُنس، كتلة متوهجة من الألق والبهجة، وجبل راسخ من الطمأنينة والسكون، ما تزال في سرور وحُبور، وفرحة وبلَج، وشرح صدر وطيب نفس، قريرة العين، ساكنة الخاطر، مطمئنة الروح... لا تشكو نقصاً ولا تعاني وحدة ولا تدخلها وَحشة، لا تعرف أسىً ولا تخالطها حسرة، لا تقاسي شجواً ولا تغلبها لوعة، لا يقاسمها غمٌّ ولا ينازعها همٌّ، لا يجيش في صدرها ضيقٌ ولا يساكنها كمَد، لا يميد بها شجْوٌ ولا يفجعها خطب... كانت هي مَن تُنفِّس عن الناس كُرَبهم، وتجلو همومهم، وتُذهب بَرْحاء صدورهم، تُسلِّيهم بحديث العالم الآخر الذي تعيش، والأُفق الأسمىٰ الذي تتقلَّب فيه، وغير حديثها وبعده، كانوا يرون منها الفضائل ويشهدون الكرامات، فتكشف خواء عالمهم، وتعرِّي خديعته والأُضحوكة الكبرىٰ التي يستغرقون في اللهث خلفها!

إنها تعيش مع حُبِّها وتختلي به ساعة تشاء، وتتَّصل بـ «إمام زمانها» متىٰ طاب لها الوصل ووجدت في نفسها الإقبال، ورأت أنها مستعدَّة لنيل المُنىٰ، مهيَّأة لتلقِّي العطاء.

فإذا أضنتها العبادة وأرهقتها، توجَّهت إلىٰ المطالعة والقراءة، تنظر في سيرة «الإمام» عليه السلام وأحواله، وتسترشد بتعاليمه وتتبارك بأخباره، فتلمس من أحرف الحديث المدوَّن وصفحات السِّفر الذي تُقلِّب (وهي شديدة التعلُّق بموسوعة (بحار الأنوار)، كثيرة النهل والتزوُّد من "بيانات" «العلَّامة المجلسي» قدِّس سرُّه التي يعلِّق بها علىٰ رواياته)، وترىٰ أثيراً ينبعث وإكسيراً يتصاعد، يغمر النطاق بينها وبين الكتاب، فيمسح وَجهها، ويترشَّح ويتخلَّل ويسري في بدنها، فيخفُّ به ويستطير، وينفذ إلىٰ صدرها فينشرح، كأبخرة ٱستنشقتها أو ٱبتلعتها، أو غمامة عمَّتها وغمرتها... حتىٰ تستولي علىٰ روحها وتجلِّلها "الأنوار"، فتسمو بها، وتهبها وتخلع عليها حكمة متعالية، وتلحقها بالأنفس المتكاملة، فتشعر وترىٰ أنها غدت مبسوطة اليد، نافذة الإرادة، ترفل في آفاق الولاية، وتنعم بحصاد ما زرعت في حياتها، تقول للشيء كُن فيكون. فلا تستغلُّ طاقاتها ولا توظِّف قدراتها ولا تسخِّر سُلطانها، في أكثر من الإشارة إلىٰ كأس الماء ليدنو منها، فلا تقطع ٱنتظام أذكارها بوقوف وجلوس، وحركة وٱنتقال، فترىٰ الكأس أو القدح يرتفع من موضعه، من علىٰ المنضدة، يحلِّق ويطير، أو كأنَّ خادماً خفيّاً غير مرئيٍّ يحمله ويمضي به، ليستقرَّ في يد «مَي»، فتتناوله لشرب جرعة قبل الفجر وساعة الإمساك لصيام تتطوَّع به شهرين متتاليين، تصل رجب وشعبان بشهر رمضان من كلِّ عام.

لن أبلغ نعل «فاطمة المعصومة» عليها السلام، ولا تراب قدم السيدة «نفيسة بنت الحسن» عليها السلام، ولكني جعلتهما الحجَّة، واتخذتهما الأُسوة والقدوة... ترىٰ هل أضرتهما العنوسة؟ هل نال من كمالهن وعظمتهن عدم الزواج؟ هل حال عزوفهن عن الرجال دون بلوغهن مقاماتهن ووُصولهن غاياتهن؟

كما يمكن للمرأة أن تتَّخذ من الزوجيَّة والأُمومة سُلَّماً يأخذها إلىٰ السماء، فتبلغ قمم الكمال وتحظىٰ بالرضا الإلهي المدَّخر والمقدَّر لها، يمكن للعنوسة أن تكون بُراقاً يعرج بالمرأة إلىٰ قمم السعادة والفلاح، وتدرِك بها ذُرىٰ المجد والعظمة والقرب.

كان هذا آخر ما قالته لـ «نجيب» قبل أن تستأذن لتغادر المشهد...

فعاد وسألها: ألك حاجة أو رسالة؟

: نعم، سل مَن حولك في الديار التي أنت فيها، عن قول «البهائي»، وهو الفيلسوف المتكلِّم، والحكيم المتألِّه، والأُصولي الضليع، والفقية النحرير، والمحدِّث الخبير، والعالم بالتفسير... سَلهُم عن إنشاده في رباعياته وقوله في مدح «المولىٰ» عليه السلام:

ذو ٱقتدار إن يشأ قلبَ الطِّباع
صيَّر الإظلام طبعاً للشُّعاع
وٱرتدىٰ الإمكانُ بُرْدَ الإمتناع
قدرةٌ موهوبة من ذي الجلال.

هل هي مجازات وكنايات مصروفة عن معانيها الحقيقية، جاد بها ذوق أديب مِحِبٍّ، وساقتها مبالغات شاعر موالٍ؟ أم هي حقائق ٱنكشفت في إشراقات عارف ومكاشفات متَّصل وَاصل، ونظم لمدونات وتقريرات فقيه حاذق؟

كيف يستقيم بناء المعارف وتلقِّي العلوم، إذا كانت أُسسها قابلة للهدم والقلب؟ أين العقل من هٰذا، وكيف عسىٰ القدرة الإلهية (الممنوحة لوَليِّه) أن تتعلَّق بما يزيل عن الأشياء طبائعها؟!

تبسَّم «عبدالحميد» ضاحكاً من قولها، وشاركه العاملون هنا الأٓبتسام، لا أدري أمن أُنسهم بالسؤال ودرجة رقيِّ الحال، أم لأمر معهود تداعىٰ من سؤالها، وأثاره ٱستفهامها؟

• • •

أخذ «عبدالحميد» بيد «نجيب» إلىٰ خارج القاعة، وَقَفَا علىٰ بساط متحرِّك، ٱنتهىٰ بهما إلىٰ قُمرة زجاجية كبيرة بحجم غرفة متوسطة الحجم، دخلا فيها، فأخذت تهبط بهما وتنحدر لمسافة طويلة، تبلغ نحواً من أربعين أو خمسين طابقاً من أبنية عالمنا، وكانت القُمرة تمضي ببطء ورزانة، وتقطع طريقها بهدوء وٱتئاد، في مسار مائل بزاوية متوسطة، بين القائمة والحادَّة، كأنها تنزلق علىٰ مدرج أو تنحدر من سفح جبل. ولم يكن الهيكل الزجاجي يكشف شيئاً في الطريق، ولا يشرف علىٰ غير جدران صخرية صمَّاء ملساء، تغلب عليها ألوان قاتمة داكنة، ويتخللها بريق، يبدو أنه من خيوط الذهب أو الماس، وهو من الكثرة حتىٰ ليغلب سواد الحجر ودكنته في بعض المواضع والبُقع، فإذا تجاوزْتَهَا وتخطَّيتَها، لم تنقطع عنك وَمَضات الأحجار الكريمة بألوانها البهيجة، ولا سيما البيريل والياقوت والعقيق الأحمر، والزمرُّد والزبرجد الأخضر، والكالسيت الأصفر، وضروب أُخرىٰ في غاية الروعة والغرابة، كيف أنها ٱجتمعت في مكان وَاحد، وأحياناً في عرق وَاحد يرسم خطّاً متلألئاً في ظلمة طبقات الصخور البازلتية... من الواضح أنَّنا في منجم فريد من نوعه، يدَّخر كنوزاً متنوِّعة وغير متناهية، سواء في الكمِّ والحجم، أم في الكيف والنوع.

والأغرب من ذلك أنَّ القُمرة الزجاجية التي كانت تحمل الرجلين، لم تكن مُرَكَّبَةً في أيِّ هيكل معدني، ولا نُصِبت علىٰ قُضبان أو سكَّة حديد، كما لم تكن متَّصلة بأيِّ شريط يزوِّدها بالطاقة!

حتىٰ ٱنتهىٰ المطاف بهما وتوقَّفت القُمرة، لتفتح الباب علىٰ ردهة فسيحة، ٱستقبلهم عند مدخلها رجال بقامات كالنخيل، ووُجوه جامدة قاسية، حادَّة التقاطيع، تنبئ بأنهم مُعَدُّون للفتك ومهيَّؤون للإجهاز علىٰ أيِّ مناوِئ أو غريم، دون مقدمات، ولا حتىٰ سؤال أو ٱستجواب!

: سوف نستغني عن البساط المتحرك هنا، ونمضي نحو الموقع التالي الذي ينتظرنا، سيراً علىٰ الأقدام، عليك أن تسير وتخطو يا «نجيب»... ترفع قدماً وتضع أُخرىٰ، إنها آليَّة الإعداد للمرحلة القادمة، وكيفيَّة التهيُّؤِ للتالي الذي ستلِجه بعد قليل.

ومع كلِّ خطوة، كانت العلوم والمعلومات تتدفَّق علىٰ قلب «نجيب» وتحضر في نفسه، وما زالت تتزايد كلَّما تقدَّم، كأنَّ الخُطىٰ تغذِّي عقله وترفد فكره، وتوسِّع في نطاق معلوماته بشكل غريب، وتبلغ به حدوداً خرافية! وهو سرُّ الأمر بالسير دون قطع الطريق علىٰ البُسط والأحزمة المتحركة، كما هو الشأن في التنقُّل هنا، والطريقة المعمول بها في هذه القاعدة، فلا أحد يمشي ويتحرك من تلقائه، الجميع يمضي في آلات ومركبات، تقودهم إلىٰ وُجهاتهم، اللهم إلَّا الحرس ورجال الأمن...

وكأنَّ تدفُّق العلوم يقع ويتحقَّق حين يطأ مقابس أو مفاتيح غُرِست وثُبِّتت في الأرض، تشغِّل ما يبعث ويبثُّ إلىٰ ذهن ذي الخطوة المعلومات، ويزرقه إياها بطريقة ما!... وقد توجَّه إلىٰ «عبدالحميد» بسؤال إن كان هو الآخر يقع عليه مثل الذي ينزل به؟ أم أنَّ ذلك يختصُّ به دونه؟

ردَّ بأنه يأتيه ما يحتاجه من علوم ومعلومات، أو ما قُرِّر له من رزق، عبر تجاوز نطاقات وهالات "أثيرية" غير مرئية، يُلقَّن من خلالها ما يحتاج في يومه بمحض مروره عبرها بجسمه، دون الحاجة لأن يسير ويطأ شيئاً بقدمَيه، والبساط الذي يحمله يفي بالغرض ويحقِّقه. وهم علىٰ هٰذا صبيحة كلِّ يوم، هو وكافَّة العاملين في هٰذه الناحية، يجتازون ـ حين يفرغون من صلاة الفجر ـ نطاقاً يجلِّل باب المسجد، فتتسرَّب إليهم المعلومات ويتلقَّون الخطاب والتعليمات، وتهبط عليهم أوامر العمل الذي ينتظرهم في يومهم، كلُّها تحضر في ذهن كلٍّ منهم وتمتثل في نفسه حتىٰ يملكها ويهيمن عليها، وكأنه ينظر إلىٰ راحة يده، أو يُقلِّب فيها جوزة، بل دُرَّة وجوهرة.

هٰكذا أخذ «نجيب» يتلقَّىٰ جرعات ضخمة من العلوم، وأُسس بناء المعارف، فيتسلَّط علىٰ القواعد والكُليَّات التي ينطلق منها أهل العلم وذوي الاختصاص، وقد نزلت به من ذلك وَمضة وحلَّت فيه بارقة، فلَسَعته رعشة وانتابته قشعريرة، فهِم معها كيف يمكن للعلم أن يكون نوراً يقذفه الله في قلب مَن يشاء! ثم أخذ يتدفَّق عليه سيل من المعلومات والجزئيَّات، تنقل حوادث الأيام، تصبُّها فيه صبّاً، بل تضخُّها ضخّاً، حتىٰ إذا أبت نفسه أو أعرضت عن شيء، نفذ فيها المعلوم رغماً عنها!... وهي خطوة نقلت حجماً وكمية هائلة من المعلومات عن أشخاص من مختلف الأنماط والطبقات والانتماءات، وأُخرىٰ عظيمة غطَّت الحوادث وخلفياتها وخفاياها، مما يتعلَّق بعِللها وأسبابها وكيفيَّة وقوعها، أو ما يصاحبها ويكتنفها ويرتبط بها، أو نتائجها وآثارها، وثالثة عارمةٌ رفدته بحقائق ومعارف طالما عجز عن فهمها أو الخلوص إلىٰ نتيجةٍ تجاهها:

ٱتصال الصادر الأول بالذات الإلهية (الهو)، الوجود والزمان، التناسخ أو التقمُّص، علاقة الروح بالبدن في العوالم السابقة واللاحقة، شُبهة الآكل والمأكول في المعاد الجسماني، والأهم من ذلك كلِّه حقائق البداء وأعماقه... فقد وَقف على جانب منها، وبقيت جملة من الأسئلة عالقة في ذهنه، سواء من الخلط الذي نشأ عن تنقله بين العلوم والمدارس الدينية، من فلسفة وعرفان، إلى حديث وقرآن، أو من السطحية والنطاقات التي توقفت به مع هٰذه العلوم عند حدود الثقافة، وعدم إتمامه التحصيل فيها بنحو يسمح له بالٱستنباط والخلوص إلى نتائج حاسمة.

ها قد بلغ «نجيب» مُناه... لم يحظ بالإجابات التي يريد فحسب، بل تخطَّى آماله بمراتب وفاق رجاءه بدرجات. ومع الأماني، ذاق الٱنشراح، أن يعمر القلب بكلِّ هٰذا العلم، ولا يصاحبه ثقل وعبء، بل خفَّة ورقَّة، وعزم ودقَّة، فالكمُّ هنا لم يفارق الكيف، والقدْر لم يُزرِ بالنوعية، فهو في يقظة تامَّة، وتنبُّهٍ وفطنة، لا تفوته الهوامش والشوارد، ولا يبخس أقلَّ الأشياء حقَّها، ولا يغادر طارفاً ولا تالداً إلَّا ٱستوقفه...

حتى أخذه هٰذا النعيم إلى أن يناغي نفسه وينشدها طرباً، وصار من نشوة يُبخِّخها ويُطربها جذلاً، أن بلغت هٰذه الرتبه والمقام، وظفرت بما لا يطاله غيرها حتى في منام!

ولم يبق إلَّا أن يجاب عن السؤال الأكبر والهمِّ الأعظم:

ما الذي يشغل هٰذه الناحية ويؤرقها؟...

ماذا ينتظر «المولى» وماذا يريد؟...

ما الذي يعوقه ويؤذيه؟...

ولم تكن الإجابات الكليَّة والردود العامَّـة لتخفـىٰ علىٰ «نجيب»، ولـٰكنَّه كان يريد شيئاً وراء ذلك، ويطلب غوْراً أعمق من المبذول في صناعة الكلام، وغايةً أبعد مما يُتناول في مقام الردِّ والاحتجاج.

فمن المعلوم المقرَّر في العقيدة والسيرة أنَّ غيبة «المهدي» عليه السلام كانت أمراً ضرورياً وَاجباً، وإجراءً عمليّاً لا بدَّ منه، في ظلِّ الظروف الحاكمة آنذاك، من استحكام العداء لـ «أهل البيت»، ولا سيما من العباسيين الذين تفنَّنوا في ظلم «آل محمد»، وأبدعوا في اضطهادهم، وأغرقوا في التنكيل بهم وإرهاقهم، ولم يرعوا أية حرمة لـ «رسول الله» صلى الله عليه وآله في ذريَّته وعترته، ففُرضت الإقامة الجبرية علىٰ الإمامين «العسكريين» في «سامراء» وأحاطتهما الدولة بحصار أمنيٍّ مشدَّد، لم يوفِّر النساء بعد الرجال، تحرِّياً لولادة «المهدي المنتظر» عليه السلام، فتتبعت السلطة حريم بيت الإمامة، ولاحقت نساءهم ـ عبر القوابل ـ بالتفتيش وتقصِّي آثار الحمل فيهن، كما فعل «فرعون» بنساء «بني إسرائيل» حذر ولادة «موسىٰ» عليه السلام.

والأمر هنا ليس مثله هناك... مجرَّد رؤياً رآها «فرعون» زمانه في منامه، كأنَّ ناراً أقبلت من تجاه «بيت المقدس»، أحرقت «مصر» وجميع «القبط»، ولم تضرَّ «بني إسرائيل»! فلما استيقظ هاله ذلك، فجمع الكهنة والسحرة، وسألهم عن رؤياه، فعبَّروها له بأن سيولد غلام من «بني إسرائيل»، يكون سبباً في هلاك «مصر» وأهلها، دون خاصَّة عشيرته! فأمر الطاغي بقتل كلِّ غلام يولد لـ «بني إسرائيل»! فصار رجال «فرعون» يكبسون البيوت ومعهم القوابل، يتحرَّين الحوامل من النساء، ويرصدن ميقات وَضعهن ليحضرنهن، فإن كان المولود ذكراً قُتل، وإن كانت أُنثىٰ تركت.

أما هنا، فهي أخبار متواترة عن السماء، جاء بها نبيٌّ صادقٌ مصدَّق، بأنَّ «المهدي»، آخر وخاتم أوصيائه، هو الذي سيقوِّض عروش الظالمين، وينتقم من الجبارين، ويقيم العدل وينشر الحق ويرث الله به الأرض ومَن عليها... لذا كمَن حكَّام الجور لميلاده، وترقَّبوا ظهوره وترصَّدوه، وفرضوا الرقابة علىٰ «أبيه» و«جدِّه» وآرتهنوهما في معسكرهم بـ «سامراء»، وبعد وفاة «أبيه» «الحسن العسكري» عليه السلام كبسوا داره، وألقوا القبض علىٰ بعض نسائه، ممن يُظنُّ أو يشتبه بهن الحمل.

من هنا فإنَّ السبب الرئيس في غيبة «الإمام» عليه السلام وعدم ظهوره للناس، هو خوفه من القتل. وفي حديث «زرارة» تصريح بهذا التعليل، فقد روىٰ أنَّ «الصادق» عليه السلام قال: "إنَّ للقائم غيبة قبل ظهوره"، فبادره قائلاً: لِمَ؟ فقال عليه السلام: يخاف القتل. ويقول «شيخ الطائفة» في كتابه ‹الغيبة›: "لا علَّة تمنع من ظهور «المهدي» إلَّا خوفه علىٰ نفسه من القتل، لأنه لو كان غير ذلك لما ساغ له الإستتار".

وبعد الجانب الأمني الذي يحكم أمر الغيبة ويحتِّم ضرورتها، هناك علل أُخرىٰ ذكِرت، منها ما قضت به الإرادة الإلهية وجرت به السنَّة الكونية كأصل في الخليقة، أن تقوم الحياة علىٰ الفتنة والآبتلاء، كما في قوله تعالىٰ: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾، وقوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾، وأن يمضي سبيلُ التكامل البشري والسموُّ الروحي للإنسان، وكذا إدراج الخلق في مدارجهم التالية في العوالم القادمة التي تنتظرهم، من برزخ وقيامة وجنَّة أو نار... علىٰ الآبتلاء والتمحيص، والآختبار والآمتحان.

فقد أُثر عن «النبي» ﷺ أنه قال: " أما والله ليغيبنَّ إمامك شيئاً من دهركم، ولتُمَحَّصُن، حتىٰ يقال: مات أو هلك بأيِّ وادٍ سلك. ولتدمعنَّ عليه عيون المؤمنين، ولتكفؤنَّ كما تكفأ السفن في أمواج البحر، فلا ينجو إلَّا من أخذ الله ميثاقه، وكتب في قلبه الإيمان، وأيَّده بروح منه " .

والغيْبة من أشدِّ موارد الٱبتلاء، فلا يؤمن بها إلَّا من خلُص إيمانه وصفَت نفسه، وصدَّق وسلَّم بما جاء عن «النبي» و«الأئمة» عليهم السلام... فالأمر وإن كان له دليله في علم الكلام، وبرهانه العقلي، إلَّا أنه في تعيين الشخص والمصداق، وتفاصيل الميلاد، ومن ثمَّ في طول الغيبة وٱمتدادها كلَّ هٰذا الزمان، ما يتطلَّب رتبة عالية من التسليم بعد الإيمان، لا تكون إلَّا في خُلَّص سُعداء، ولا يحظىٰ بها إلَّا نجباء. وها نحن نرىٰ، كيف يتقهقر هٰذا وينتكس، ويتراجع ذاك ويرتكس، ويخرج الناس من دين الله وهم لا يشعرون، ويقعون في الشقاء، وهم ينادون بالتجديد والحداثة، و" حركية " الإسلام، ومتطلبات العصر والزمان، يتَّخذون ذلك ذريعة لتجاوُز «إمام العصر والزمان»!

وما زال الجاحدون والمشكِّكون يتكاثرون ويتنامون، وهم يدورون ويلتفُّون حول الحقيقة، يتقلَّبون ويتلوَّنون، ويحتالون بألف حيلة وحيلة، فيتنصَّلون من ٱرتباط مُلزم، وعقيدة تحول دون التحلُّل والتهتك الذي يمارسون! وقد عمدوا في عصرنا إلىٰ أخطر طريقة وأخبث أداء، وٱتَّخذوا أكثر السبل مكراً ودهاء، ما يقيهم المواجهات، ويكفيهم مؤونة الردود، ويجنِّبهم التبعات، كالحُكم عليهم بالضلال! ويُمكِّنهم من النفوذ والتوغُّل في أوساط المؤمنين، وممارسة دورهم الشيطاني، وبلوغ أهدافهم في الإثراء والكثرة، والصيت والشهرة، وكلِّ ما يرمون ويهدفون من " دنيا " .

إنه نهج "التغييب"، يقوم علىٰ إقرار ظاهري باللسان، وجحد فعلي في العمل والميدان! يكفُّون به عن أنفسهم العناء، ويتنصَّلُون من الأعباء، بثمن بخس لا يكلفهم أكثر من قول تلقلق به ألسِنتهم...

يعطيك من طرف اللسان حلاوةً

ويروغ منك كما يروغ الثعلب

يقرُّون بوجود «المهدي»، يزعمون ذلك بألسنتهم، ثم لا يُرتِّبون علىٰ إقرارهم أيَّ أثر، فهم ـ في وَاقعهم ـ يتعاملون مع الدين وكأن لا وَليَّ له ولا زعيم، ومع المؤمنين وكأن لا إمام لهم ولا راع، ويتعاطون مع حوادث الزمان، ويتولون إدارة البلاد والعباد، ويقومون بقيادة الساحة، ويعمدون إلىٰ رسم مصيرها وأخذها إلىٰ مآلها، والٱنتهاء بها إلىٰ حيث يريدون وحسبما يخطِّطُون، سواء بأيديهم عند ٱنتصارهم، أو بأيدي الآخرين عند هزيمتهم، فهو علىٰ أيِّ حال هدمٌ وتقويض لأُسس الإيمان، وخراب ودمار لبيوت المؤمنين... يفعلون كلَّ ذلك بتجاهل تام وإعراض كامل عن «المولىٰ» عليه السلام، وكأن لا وجود له ولا رأي، فلا دوْر ولا فعل!

ومن الأسباب التي ذكرت لٱختفاء «الإمام» عليه السلام وغيبته، أن لا تكون في عنقه بيعة لظالم. فقد جاء عن «الرضا» عليه السلام: "كأني بالشيعة عند فقدهم الثالث من وُلدي كالنِّعم يطلبون المرعىٰ فلا يجدونه. فقال (الراوي): ولمَ ذاك يا ٱبن رسول الله؟ قال: لأن إمامهم يغيب عنهم. فقال: ولمَ؟ قال: لئلَّا يكون في عنقه لأحَدٍ بيعة إذا قام بالسيف". وقد بيَّن «المنتظر» عليه السلام ذلك بقوله: "إنه لم يكن أحد من آبائي إلَّا وأوقعت في عنقه بيعة لطاغية زمانه. وإني أخرج حين أخرج، ولا بيعة لأحد من الطواغيت في عنقي".

وقد تكون "البيعة" مفهوماً وفكرة، أعمَّ من الدخول ـ الظاهري ـ في ولاية الجائر وحكومة الظالم الغاصب، فتبلغ كلَّ ولوج في أُمور الباطل، وتطال كلَّ وَليجة من دنياهم، بدءاً بالنزول علىٰ سلطان قوانينهم، وضوابط حياتهم وأخلاقهم، والاحتكام إلىٰ باطلهم، وانتهاءً بالمَدَنيَّة والتكنلوجيا والاختراعات التي تطبع دنياهم، مروراً بملايين المحطَّات التي خلقتها المنظومة الشيطانية الحاكمة. لم يعِش «المولىٰ» عليه السلام في عالمهم ألبتَّة... لم يشاركهم في مأكل ومطعم، ولا جاوَرهم في مأوىً ومسكن، لم يدخل في دُنياهم قيد أنملة، ولا وَلج عالمهم للحظة وثانية، ولا أظلَّه أو احتوته منظومتهم في موقع وبقعة...

كان «نجيب» يعرف ذلك كلَّه، ويؤمن به ويسلِّم لما وَرَد في علل الغيبة وأسبابها، ولا يكترث لما يثير السذَّج من استبعادات واستغرابات، ولا يبالي بما يردِّده الظلاميون العوام (وإن تلبَّسوا بزَيِّ الثقافة وادَّعوا التنوير)، ولا يولي ما يُوَظَّف في الردود علىٰ المنكرين ويُستعمل في الاحتجاج علىٰ المخالفين كثير اهتمام، الذين يتساءلون عن فوائد وُجود «الإمام» عليه السلام مع كونه غائباً، لا تطاله الأيدي ولا سبيل للأخذ عنه؟ ويزعمون أنَّ ذلك يتعارض مع أدلَّة وحُجج "ضرورة الإمام" التي تسطرها كُتب العقائد ويقدِّمها علم الكلام؟! كيف لغائب أن يُقيم الحجَّة ويُتمَّها؟ وأنَّىٰ له أن يهدي الخلق ويرشدهم، وهو ناءٍ في مُغيَّبه، محجوب مخفي؟...

كان يعلم أنَّ حياة "الكائنات" كلِّها متوقفة علىٰ وجوده، وأنَّ الأمر ليس مجرَّد تبليغ الأحكام وهداية الإنسان، حتىٰ نتجشَّم العناء في بيان فائدة وُجوده عليه السلام، مع غيبته... بل هو إدارة العوالم وتولِّي أمر الأكوان.

«الإمام» عليه السلام هو وَاسطة الفيض علىٰ الخلائق، وقناة نزول أرزاقها إليها من خالقها الوهاب المتعال، والسبيل المتَّصل بين الأرض والسماء، ولولاه، لساخت الموجودات (لا الأرض ومَن عليها فحسب) بأهلها، ولَمَاجت الأفلاك وهلكت الأملاك، ولَكُوِّرت السماوات وقوِّضت المجرَّات... وها قد رأىٰ «نجيب» بعينه وشهد بنفسه كيف يديرها عليه السلام ويدبِّرها، بأجرامها وسُكَّانها، وهو ناءٍ في مغيَّبه.

وكان يميل إلىٰ أنَّ الله سبحانه وتعالىٰ غيَّب «وَليَّه» وأخفاه لأسباب أُخرىٰ غير هٰذه، وأنَّ علَّةً أو عللاً سريَّة تحكم هٰذه القضيَّة... وفي الحديث عن «رسول الله» صلى الله عليه وآله: "إنما مثل «قائمنا» أهل البيت كمثل الساعة لا يجلِّيها لوقتها إلَّا هو، ثقلت في السماوات، لا تأتيكم إلَّا بغتة". ويقول «الشيخ المقداد السيوري»: "كان الٱختفاء لحكمة ٱستأثر بها الله تعالىٰ في علم الغيب عنده"... ويذهب، في نفسه ومعتقده، وكذا في حواراته، أن لا طائل من البحث والتنقيب هنا، وأنَّ ذلك من مَوارد ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُواْ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾.

ولٰكن ليس هٰذا "السرُّ" هو ما كان يؤرق «نجيباً» ويقلقه، ولا هو ما كان يبحث عنه ويطلبه، لم تكن علل الغيبة قضيَّته يوماً، ولا مادة بحثه وتحقيقه مرَّة... إنه يتحرَّىٰ ويطلب شيئاً آخر، ويبحث عن حقيقة أُخرىٰ! وما أسباب الغيبة وأسرارها إلَّا باب يقود إليها، ونافذة تُطِلُّ عليها. فطَرَق تلك وفتح هٰذه لعلَّها وعساها إذا بانت وٱنكشفت، أظهرت له السبيل ورسمت الطريق إلىٰ غايته، فظفَر بمفتاح فرجه وسعادته...

: إنـنـي أبـحـث عـن" اللقـــاء " وأتحـــرَّق لـ" الـرؤيـة " ... هـٰذه هـي ضـالَّتي، وأقـصىٰ أُمنيتي. أن ألقىٰ الحبيب وأتزوَّد بنظرة!

لقـد غـلب الشـوق وٱستوقـد التَّوْق، وفي النفس إليه لَلَوْعة وغُلَّة، وفي الروح لاعِجٌ وأوَار، وفي القلب وَجد وبرْحاء، ونيران لهفة أشعلت شغافه وأتلفت شِعابه، لا يطفئها شيء ولا يخمدها سوَاه، وفي الحنايا أضلاع مضطرمة لا تترك لي قراراً، وآلام لا يسكِّنها إلَّا لُقياه. فلا سلَوْتُ يوماً، ولا سليت لحظة، ولا طـابت عنه نفس ولا أعـرض عن ذكـره قلب، ولا عرض نسيان يمحي صورته... صورة رسمتها مخيِّلتي، كوَّنتُها من تقاطيع كَهْل، بل شيخ مهيب وَقور، التقيته في الحج منذ ثلاثة عقود مضت، أرشدني وسدَّدني، ثم دعا لي، فلما مضىٰ حسبته هو، ووَقع في نفسي أنها شمائل مولاي وسَحْنة مُرادي، ولا سيما أنه ظهر وغاب كخلق الساعة. ثم قرأت في أوصافه ما صرفني إلىٰ صورة أُخرىٰ، وأنَّ الذي رأيت هو أحد خدَّامه وأعوانه، ولربما كان سيدنا «الخضر» عليه السلام...

مُـناي من الأيام يوم أرىٰ محيَّـاه فأملأ عيني، وأنظر البدر في وَجهه الأزهر فتشرق روحي، ثم يحتـوي مَـرآه كيـاني إذ تغشـاني أنـواره وتغمرني، فأهيم لا أعرف من النشوة شمالي من يميني، وأطفق أتزوَّد من تلكم اللحظات ما أعيش به الصبابة والهوىٰ باقي أيامي.

كلُّ ما أُريـد، نظـرة تكحل نـاظري، ونسمة أستنشقـها في رحابه، لعلَّها من رجع أنفاسه وزفير آهــاته، خــالـطت ذيَّــاك الأريج وتضـمَّخت من عبق المزيج، مـزيج الـروح والوجود النوراني الملكوتي، بالجسم الهيولاني الحسِّيِّ البشري، فصار الهواء يدخل جوفه في الشهيق، يتردَّد بين جـوانحه، ليخـرج من جديد، فيضوع وينتشر، يحمل الجمال ويخلع الجلال، ويـسري حتـىٰ يهب الأشيــاء كينونيتها، يـمدُّها بالحياة ويرفدها بأسباب البقاء، ثم يأخذها عطاؤه، ويشملها جوده، فتصير من بعد النموِّ إلىٰ الألَق، ويُغرِق في منحها الروْعة والجمال، ولا إغراق! ينزع بها صوب الكمال... وما يزال يسمو بها ويرقىٰ، حتـىٰ يبلغ من رحمته، أو تبلغ من لُـطفه

وعنـايتـه، أن تنـدكَّ فيـه وتتـلاشىٰ في وُجوده
الأنوَر! تزيل كلَّ لـوْث وكـدَر من وُجودها،
وتتخلَّىٰ عن أنانيَّتها بل إنِّـيَّتها، وتعـود إلىٰ
التمحُّض في عبوديَّتها لسيِّدها... عندها،
يـأخـذهـا إلـىٰ ربِّه، ويُـرجعهـا إليه راضيـة
مرضية، يدخلها في عباده ويُسْكنها جنَّته،
ويختار لها القرار في جواره، في مقعد صدق
عند مليك مقتدر، تتقلَّب في الرضوان، وترىٰ
نعيم الجنة ضرباً من الحرمان!

رقَّ «عبدالحميد» لصاحبه وأشفق، بعد أن سمع مقولته، وتأثَّر بما نشر من معاناته ونثَر، وأكبر فيه فهمه ومعرفته، ولا سيما حين أردف شكواه ببيان السبيل وتحديد الطريق التي يريد أن يسلكها للوصول، فقال:

أعلم أن لا سبيل إلىٰ لقائه، وأن أحـظىٰ بما
في أجـوائه ورحـابه، والأُنـس والـنعـيم الـذي
أرجـو وأتطلَّع من مـوافـاته، إلَّا أن أُشـاركـه
آلامه وأتعرَّف علىٰ معاناته، فأعيشها وأُعاني
منها (وإن بنسبةٍ دُنيا توافق ضئيل قدري)...
هكـذا أتـصِلُ بقلب قُـطْب عـالم الإمكـان،
وأدنـو من روحه عليه السلام، عـسىٰ أن يـوافيني
شخصُه وتتحقَّق رؤيته! هـذه هي المعادلة
التي يمكنها أن تربطني به وتأخذني إليه.

عند القلوب المنكسرة يُطلب الله عزَّ وجلَّ،
ومتربعاً على عرشه: قلوب عُشَّاقه، تراه في
أوليائه. فإذا عرفت ما يختلج ويسكن في قلب
«المولى» عليه السلام، وبم يعتمر وممَّ يتألَّم
وينجرح، ٱتَّصلت به فحضر وٱلتقيته...

أسعفه نداء سرى بخفَّة وٱنساب بخفر، وهو من قبيل: "لبيك"، الذي يصدر من بطنان العرش إذا وَافى من العبد صدق الدعاء وخلوص المناجاة... هكذا جاء النداء الساعة، وقد جاء على الرغم من كلِّ هذا الوقار، مجلجلاً كالرعد، ومدوِّياً في صهيل وعولة كأنها صرخة صكَّت سمع الملكوت بعد أن وَقرت آذان الحضور، فٱهتزوا ونكسوا رؤوسهم، وترقرقت منهم الدموع، حتى ٱختنق كلٌّ بعبرته، وأجهش ببكائه ونحيبه:

إنها آلام «كربلاء» وأحزان «عاشوراء»، ليلٌ
مُسهَّد وحزن سرمد، وفجعة وأسىً مقيم،
ولوعة لا تنقضي مما جرى ووَقَع على جدِّه
«الحسين» عليه السلام. "فلئن أخَّرتني الدهور،
وعاقني عن نصرك المقدور، ولم أكن لمن
حاربك محارباً، ولمن نصَب لك العداوة
مُناصباً، فلأندُبنَّك صباحاً ومساءً، ولأبكينَّ
لك بدل الدموع دماً، حسرة عليك، وتأسفاً
على ما دهاك وتلهُّفاً، حتى أموت بلوعة
المصاب، وغصَّة الاكتئاب"...

بادر «عبدالحميد» وتدخَّل ليتولَّىٰ الأمر، وعاد ليُمسك بزمام الحدث، ويدير الحركة ويقودها... وتوجَّه نحو صاحبه:

وبعد هٰذا الألم الأعظم والفجعة الكبرىٰ، أو معها، هناك حالات لـ «المولىٰ» عليه السلام مع رعيته وهو في مغيبه، تبلغه عنهم، ما يصبُّ في حسرته ويزيد من حزنه علىٰ حال شيعته، فيضيق صدره من أُمور، وتغتمُّ نفسه من أُخرىٰ، ويعيش الأسىٰ والجوىٰ...!

تعال لأُريك جانباً من المَشاهد وتنظر بعض الحالات، بل هلمَّ لننتقل إليها ونشهدها الساعة حضوراً، وسيُفسح لك لتدخل في الحدث، ويُتاح لك سؤال ومحاورة مَن تشاء من أركانه وأبطاله، لكن دون أن تلمس شيئاً وتباشر ببدنك جسماً حيّاً!

• • •

♦ وأُحضرت الأنفسُ الشُّح!

طالما كان البحث عن "بوابة السماء" ضالَّة إنسانية وهاجساً بشرياً، يلاحقه الصفوة، ويستحثُّ همم العِلية والنخبة... السالكين المتكاملين، طلَّاب السموُّ ومتحرِّي الفضل، الذين أدركوا حقيقة عجز الأرض ووَقفوا علىٰ فقرها، ولمسوا بالحسِّ والوجدان ضيقها أمام سعة الروح وعظمة النفس، ما ينزع بالمتدبِّر إلىٰ نبذ كلِّ حادث إلىٰ القديم، ويأخذ المتأمِّل إلىٰ الاستغناء عن المخلوق بالخالق، فالبحث الآفاقي بعد الأنفُسي.

والكُمَّل يعرفون ارتباط الروح بالجسد، والحكماء يعلمون أنَّ انعتاقها يتطلَّب فعلاً حسِّياً وأداءً جسمياً، يحررِّها ويأخذها في مراقيها إلىٰ ما ترجو وتطمح من رِفعة... فإذا أدركوا وأرادوا العمل وعزموا علىٰ الوصول، أنهكوها بالرياضات والمجاهدات، صوماً وصلاة، حجّاً وجهاداً، هٰكذا حتىٰ يبلغوا مرحلة جديدة يرون فيها أنَّ "المكان" يضيق بهم، وأنَّ في الأفعال والمجاهدات ما يتطلَّب مَوَاقع خارج هٰذه الأرض، وبقاعاً ليست علىٰ هٰذه البسيطة، ولا هي من سنخيَّتها.

هٰكذا نشأت فكرة "بوابات السماء"... مزيج حسٍّ وتجسيم، مع تجرُّد وروحانيَّة، شأن "ديانات" الأرض وصناعات البشر، وقُل إن شئت إيحاءات الشيطان في الخلط والتيه! كانوا يحسبون أنَّ بوابة السماء، والكوَّة التي تأخذهم إلىٰ "الأعظم" الذي أوْجد الوجود وخلق الموجود، لا بدَّ أن تكون في رأس جبل وفوق أعلىٰ القمم، فما دمنا في الحسِّ ومعطيات القياس، فنكون أقرب إلىٰ "الأعلىٰ" كلَّما ارتقينا درجة ودنونا!

إلىٰ هـٰذا ذهب الصينيون، فزعموا ذلك في جبال «تيان منشان» في مقاطعة «هونان» جنوبي مدينة «تشانغ جياجيه»، حيث جادة «تونغان» (الطريق نحو السماء)، تنتهي إلىٰ درج «تيانان» (سُلَّم السماء)، يتكوَّن من ٩٩٩ مرقاة دون مصاطب للتوقف والاْستراحة، وفي النهايه فتحة أو كوَّة في رأس جبلين متلاحمين، تظهر السماء خلفها أو في مداها، رحبة ممتدَّة، كأن لم يعد بينها وبين السالك مانع أو حجاب.

وهو ما كان مستقرّاً ومرتكزاً في فكر الفراعنة، من أنَّ باب السماء يقع في أعلىٰ " صرح " ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَـٰهَـٰمَـٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَـٰبَ أَسْبَـٰبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَـٰذِبًا وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ﴾. فإذا فسدت مقولتهم بأنَّ الله وراء تلكم السماء وفي مدىٰ أُفقها وأقصىٰ مراميها، فهو جلَّ وعلا في كلِّ مكان، أقرب إلىٰ المرء من نفسه، وفي الحسِّ: من حبل الوريد، كما هو في السماء وما لا يُطال من آفاقها... فإنَّ وجود " فتحات " و " أبواب " لا يمكن النفوذ إلىٰ السماء إلَّا من خلالها، يبدو حقيقة، نزل عليها العلم الحديث، وقد قيل إنَّ السفن والمركبات الفضائية لا تُطلَق إلَّا من مواقع محدَّدة وقواعد تُحاكي مدارات معيَّنة وفرُجات تتيح النفوذ والاْختراق. حتىٰ ذهب بعضهم إلىٰ هـٰذا في فلسفة الإسراء، والحاجة إلىٰ عروج البراق من «بيت المقدس»، دون «مكَّة» مباشرة!

لم يجزم «نجيب» بهـٰذا، ولـٰكنه تحرِّىٰ مواقع تفتح علىٰ السماء وسكانها، وكانت «فالوغا» من أقربها إلىٰ النجوم، وها قد وَافاه بعض سكانها، وقادوه إلىٰ هـٰذه السعادة...

لم يجد عن الناحية المقدَّسة باباً إلىٰ السماء، بل هي باب سكَّان السماء إلىٰ «وَليها»، وسبيلها الموصل إلىٰ الأرض، حيث «سيِّدها» عليه السلام. وإن كان ثمَّة مدرج يقلع نحو السماء بمعنىٰ الفضاء، أو مهبط يستقبل أهلها، فهو ـ ولا ريب ـ هنا، ولٰكنَّ المعراج الحقيقي، والبراق الحق، هو قلب «المولىٰ» عليه السلام. وعرش الله المهيمن علىٰ السماوات والأرضين، والكون والمكان، وما فيها من خلق وكائنات، هو في نفسه وروحه التي بين جنبيه، لا في قمة جبل أو رأس شلال، ولا سفح أو نفق، ولا صرح ومِسلَّة أو هرم! هٰذا هو باب السماء، وهٰذه هي كُوَّتها ونافذتها، والطريق الحصر والحكر، التي تأخذ سالكها في السموِّ، وتنتهي به إلىٰ الله جلَّ وعلا.

مع كلِّ خطوة يخطوها في هٰذا الطريق، كانت الإجابات تحضر في نفس «نجيب» من تلقائها، والمعلومات ترتسم في ذهنه وتستقر، فينتفي الجهل ويزول الشك، وصار يُوَفَّىٰ الإجابة علىٰ سؤاله الأصلي، وما ٱعتبره الباب نحو ضالَّته والسبيل إلىٰ لقائه:

ما الذي يؤلم «المولىٰ» ويضنيه، ماذا يلوِّعه ويؤذيه؟

وقد كرَّر «عبدالحميد» الإجابة، وألقاها علىٰ مسامعه، بعد أن تلقَّاها في سريرته وٱنطبعت في نفسه! فعلم «نجيب» أن لا كرامة هنا ولا حظوة قدَّمته وآثرته علىٰ صاحبه، فما تلقَّاه وحلَّ فيه من علوم، نزل علىٰ «عبدالحميد» أيضاً... ويبدو أنَّ هٰذا سرٌ لازمٌ للرجل، ومواكبة وعناية لا تنفك، حذر سقوطه ـ ولو للحظة ـ في الزهو والغرور، وما إليها من آفات النفس، التي تُقصيه عن هٰذه الحضرة فوراً، وتنفيه قهراً، فلا مكان هنا لهٰذا اللوث، ولا طاقة ولا سعة لهٰذا الٱنحدار، فلا ظُلمة في عالم الأنوار.

: إنما تؤخذون وتهزمون من جهتين، بل هما
جبهتان يحتدم فيهما الصراع ويشتدُّ النزال:
شحٌّ يغلبكم في أنفسكم.
ورايات ضلال تتناوشكم وتستقطبكم.
وينجو الأسخياء، الذين سبق لهم من الله
الحسنىٰ بالجود، وكلمة تقدمت بالكرم، حين
يتأصَّل فيهم العطاء ويغدو ملَكة.
ويسلَم مَن ٱعتصم بالحصن الحصين وأتىٰ
البيت من بابه وٱتَّصل بـ «المولىٰ» عبر نوَّابه!
بعد أن يتمحَّض في ٱنتمائه، لا يدخل في شيء
عداه، ولا ينتسب إلىٰ سواه، تخفق فوق رأسه
رايات ثلاث: علويٌّ، حسينيٌّ، مهدوي.

في القاعة الجديدة، طُلب من «نجيب» أن يستلقي علىٰ فراش، أو هو منضدة مستوية كسرير، مثل تلك التي تستعمل لنقل المرضىٰ في المستشفيات، فلما فعل، تحرك سطحه وكأنَّ " حياة " دبَّت فيه وروحاً بُثَّت، فتقعَّر وتحدَّب ليتوافق مع تقاطيع وتثنِّيات جسم المستلقي، وراح يحتضن الرجل ويضمُّه، حذر السقوط، وهو يميل به وينتصب معه إلىٰ وَضع الوقوف، وما زال في هٰذا، حتىٰ ٱحتوشه من أطرافه وجوانبه، ولفَّ كلَّ بدنه كقالب أو رداء، بل تلبَّسه كمِعطف بياقةٍ وأردان! وما زال يضيق وينحسر، يشفُّ ويرقُّ، وهو يتخلَّل ويتسرَّب، حتىٰ تلاشىٰ تماماً وما عاد يُرىٰ، وكأنه ترشَّح في اللباس ونفذ إليه، ٱمتزج به وٱندكَّ فيه!

كانوا يُعدُّونه للآنتقال، ويُهيِّئونه للسفر...

: أحاضر مُتأهِّب أنت؟

أمُتهيِّئٌ مُعَدٌّ لما ينتظرك؟

هل تعلم ما أنت مقبلٌ عليه؟

إذا كنت مُدركاً لما يجري الآن، وما سيقع عليك الساعة، فقل:

بسم الله الرحمن الرحيم. يا «علي»!

ما إن أتمَّ تلفُّظ "الياء" من قوله «علي»، حتىٰ كان في مكان آخر، آنتقل إليه في وَمضة وآختُلس في لحظة، كلمح بالبصر، أدنىٰ من أن يرتد إليه طرفه... كان في بلده ووَطنه، وفي مكان معيَّن سرعان ما تعرَّفه وميَّزه، يرىٰ حدثاً لم يسبق أن مرَّ بمثله، وينظر مشهداً سرعان ما آنتقل به من الفجأة إلىٰ الهول، وأخذه من الصدمة إلىٰ الفزع!

طوائف من الشياطين تحوم، وعُصب من الجن تطفر، آزدحم بها المكان وآحتشد، وغصَّ فضاء "الديوان" وآكتظ، وهي أضعاف البشر الحاضرين هنا... كانت تموج في حركتها وتمور، وتميد في تنقُّلها وتخفق، قبيلٌ يطير كالخفافيش ثم يتدلَّىٰ منكوساً من السقف والمصابيح، وآخر يدُبُّ كالضباع والسباع، وعنق يزحف كالأفاعي أو يربض فاغراً فاه كالتماسيح، وآخر ينزو ويثب كالقردة أو ينطُّ كالضفادع والأرانب، بعضهم في صخب ودوِيٍّ وضجيج، وآخرون في صمت ووُجوم وإغضاء، وطائفة في هيئة البشر، تدور أعينهم في جميع الآتجاهات، وتلتفُّ رقابهم ترقب وترصد كرادارات، متحفزة أن لا يغادرها شيء ولا يفوتها قول أو فعل!

والحضور هنا لا يرونهم ولا يدرون عنهم ولا يشعرون بهم... في غفلة منشغلون، يحسبون أنهم وَحدهم، لا أحَد معهم! وهناك ملائكة فوق رؤوس بعض الحضور، في نزال وعراك، يذودون الشياطين ويدفعونها عنهم، يحاولون ويناورون، يصارعون ويغالبون، فيفلت وَاحد من خمسة أو ستَّة دهموا أحدهم دفعة، فيستوي جالساً علىٰ عنقه، أو قُل يمتطيه ويركبه، مدلدلاً رجليه علىٰ صدره، كأنه ٱتخذه دابة وجعله حماراً، يسوقه حيث أراد، وقد دفعه إلىٰ ركنٍ في الديوان، ليلتقط "الريموت كنترول" ويشير إلىٰ التلفزيون، يغيِّر في القنوات ويقلِّب، حتىٰ ٱستقرَّ علىٰ محطَّة تبث أُغنية راقصة من حفلة ماجنة، ومع أنَّ الصوت كان منخفضاً لا يبلغ أرجاء الديوان الفسيح، إلَّا أنها أورثت المكان أجواءً غريبة يلفُّها السحر والخفَّة، طرِب الحضور وشُنِّفت الأسماع، وصار بعضهم يصاحب مُغنيها ويُردِّدها معه، وسرَىٰ الطرب، فٱنتشت الشياطين وزهت، وتجدَّد نشاطها وتضاعف طفرها!... راحت تجول بين الحضور هنا وتطوف، توَسْوِس لهٰذا وتحرِّض ذاك، تهمس في أُذن صامت مُطرق تأُزُّه، وتوحي لمتحدِّث لبق تلقِّنه، تجتذب له القلوب، وتلفت إليه الأنظار، تكيل المدائح وتطلق علىٰ ألسُن أوليائها الٱستحسانات، فيفرح المتحدِّث ويُسَرُّ، ويدخله العُجب، فتتولاه طائفة ما تزال به ثناءً وإطراءً، وتهييجاً وإغراءً، حتىٰ تستولي عليه وتستحوذ، فتنظر أين عساه أن يخدمها هٰذا المغرور التيَّاه! وكيف لها أن توظِّف طاقاته أحسن توظيف، وتستغلَّه أحسن ٱستغلال؟ والرجل في غفلة وغطاء، فإذا فرغ من نُطقه ومداخلته، عجب من نفسه، من أين جاءته الأفكار وكيف تواردت عليه الكلمات وٱنقادت له العبارات؟!

و«نجيب» يستشرف المشهد، ويطلُّ على الموقع ويرقبه، دون أن يراه أحد، لا شيطان ولا بشَر!...

تفحَّص المكان وسبره، وأجال نظره وأرسل فكره، تُرىٰ لماذا جاءت نقلته إلىٰ هٰذا المكان دون سواه؟ فصار هنا في ديوان تاجر ذائع الصيت، يرتاده مختلف طبقات الناس وشرائح المجتمع، هٰذا متملِّق متزلِّف يرجو عطاءً وهبة، وذاك متطفِّل متقرِّب يطمع أن يُلحق - في أعين الناس - بصاحب الديوان ويدخل في بطانته، وثالث شغوف ومتشوِّف، يتحرَّىٰ الأخبار، ويتحيَّن التقاط ما يدور هنا، ينقله إلىٰ أصحابه ويسجله كسبق خبري علىٰ حسابه في مواقع التواصل الٱجتماعي، فالديوان ملتقىً لنُخَب سياسية وٱجتماعية وتجارية، ورابع متسكِّع يشغل فراغه، وهٰكذا...

سطعت أضواء، ٱنبعثت من قِبَله وتسلَّطت من موقعه، علىٰ شخص من الحضور بعينه، كما يكون في المسارح ومنصَّات الخطابة، عرفه «نجيب»، فتميَّز من بين الحضور بٱستقطابه وتفوَّق بظهوره له، وكأنَّ يداً تدفعه لملاحقة حاله ومتابعة شأنه... حتىٰ أُوحي إليه أنه نموذج لآلام «المولىٰ» عليه السلام التي يسأل عنها ويطلب الجواب عليها، وشاخص مبذول لمحنة "الغيبة"!

إنه أحد المؤمنين الملتزمين، يدعىٰ الحاج «عبدالناصر».

ثم تلاحقت المتابعات والٱنكشافات تجيب علىٰ تساؤلات «نجيب»: ترىٰ ما الذي جاء به هنا؟ فهو ليس من أُولٰئك ولا هٰؤلاء، إنه مجرَّد موظف مغمور، متوسط الحال، لا في العير ولا في النفير كما يقال، ملازم للمساجد والحسينيات... نعم، هو منفتح في علاقاته، نشط في تواصله مع الآخرين، ولٰكن لم يكن الأمر ليبلغ به هٰذا الحد، والدخول في مثل هٰذه المحافل.

وهناك بعض غرابة وتناقض يحكمان سلوكه وشخصيته، فهو يجمع إلىٰ نشاطه وحركيته، وكثرة خوضه وهذْره، شيئاً من التحفُّظ والاْنطوائية، فتراه ينعزل وينأىٰ بنفسه في بعض الأحيان، يتوغَّل ويتسلل بخفَّة، لا يشعر به أحَد، كمَن يراقب ويستطلع. والقدر المتيقَّن أنه كان حريصاً ـ في تلك الفترات أو الحالات ـ أن لا يُلفت الأنظار ويثير حوله الأفكار.

حتىٰ كانت بعض الأصابع تشير إليه بالتهمة، وترميه بالجاسوسيَّة والعمل مع أجهزة الأمن، وكتابة التقارير عن نشاط المساجد والحسينيات! ولٰكنَّ ذلك لم ينل من أُلفته وٱنسجامه مع المؤمنين، ولا مسَّ تقبُّل الآخرين له، ولا سيما في حدود العلاقات العابرة التي كانت تحكم أداءه، دون توثيق صداقات، وتوطيد صِلات، وكثيراً ما كان المحذِّرون منه يلقون الجواب: ليس عندي ما أخشاه، إنني هنا للصلاة وحضور المجالس، وهٰذا نشاط لا أُخفيه ورأيٌ لا أكتمه، فليكتب عني التقارير!

لم يتَّخذ «عبدالناصر» في حياته موقفاً من شيء ألبتة، لا ٱنحاز في الصراعات السياسية فٱنتسب إلىٰ حزب وجماعة، أو ٱصطفَّ مع جهة ضد أُخرىٰ، ولا دخل في الخلافات والنزاعات الاْجتماعية، ولا تموضع في الجبهات والخطوط والتيارات الدينية، ضمن صراع الآراء العقائدية والاْتجاهات الفكرية والمدارس الفقهية... ذلك علىٰ الرغم من ٱهتمامه بها، وٱنخراطه في العمل والنشاط الديني، عبر التزام يومي بصلاة الجماعة، وحضور دائم في المحافل والمنتديات الدينية، فلا يفوته حفل أو مناسبة، لٰكنَّه ممن يصلِّي في كلِّ مسجد، ويحضر كلَّ حسينية، لا يبالي بتوجُّهات إمام الجماعة ولا حتىٰ بعدالته، ولا يكترث بعقائد الخطيب ومدرسته!

وقد وَقع في خَلَد «نجيب» وعلِم، أنه حلَّ هنا، وجاء في هذا المكان، واستشرف هذا الموقع والديوان، ليلتقي «عبدالناصر» هذا، فينظر نموذجاً للآلام الخفيَّة التي توجع قلب «المولىٰ» عليه السلام، ويرىٰ مثالاً لما يعانيه ويضنيه، ويشهد جانباً من مآسي الحق ونوائب الولاية.

وقد كان من موقعه ومُطَّلعه، مكشوفاً له الحجاب، مرفوعاً عنه الغطاء، لا يحول بينه وبين ما يريد معرفته حائل، ولا يقف دون علمه بالأشياء مانع أو قاطع، بل كانت الحقائق تتبادر إليه وتتسابق نحوه قبل أن يطلبها، وتظهر عليه دون أن يريدها، وتتجلَّىٰ له دون أن يسعىٰ إليها ويأمر بحضورها. وها قد ظهر له «عبدالناصر» علىٰ حقيقته، وارتسمت أمامه سيرته وسريرته، بعد مظهره وصورته، وبان باطنه وانكشف جوهره...

يا للعجب، بل يا للهول!

إنه هنا لا لشيء إلَّا لتناول الطعام! إنه ينتظر العشاء، يريد أن يمتلئ مما لذَّ في المائدة المفتوحة وطاب، ويلتهم ما يشتهي من المأدبة بسماطها الممتد، المترع الحافل بأنواع الطعام، الزاخر بصنوف المأكل والمشرب. أخونَة وجِفان، قِصاع وصحاف، طِباق ودياسق، ملأىٰ بالمشويِّ والمَصْليِّ من لحم الضأن والطير والأسماك، حساء ومرق، مع معجون ومخبوز، وثريد وفطير، ومشطور ورُقاق، ثم الحلواء بأصنافها... فصاحب الدار من ميسوري الحال، وقد أثرىٰ مما انتهب واختلس، وغشَّ في تجارته ودلَّس، ونال من المال العام وسرق، فصار من "الوجهاء" ودخل في "الأعيان"، وإفراطه ومبالغته في مائدته، كمّاً وكيفاً، دليل ناطق ومؤشِّر فاضح علىٰ أنه من مُحدَثي النعمة، الدخلاء علىٰ الكرم، ومنتحلي الصفة في السخاء.

يرصد «عبدالناصر» الولائم والمناسبات فيلاحقها، أعراساً وحفلات زفاف كانت، أم أتراحاً ومجالس عزاء، وهو يحتفظ بـ "مفكرة" يسجِّل فيها عناوين البيوت وأسماء الحسينيات ونوع الطعام الذي تقدِّمه للتبرك بعد الفراغ من القراءة. هو ما يزال يُلحِق ويُصلح ويجدِّد فيها بٱستمرار، كما يدوِّن أسماء الأموات ومجالس الفاتحة والعزاء التي تُختَم بإطعام، ويتابع العوائل التي تقيم حفلات الزفاف، ويقدِّر الأدسم من موائدها والأكثر تنوُّعاً وغنىً من بينها، ولربما توغَّل إلىٰ الأبواب الخلفية لقاعات الأفراح، ولاحظ ٱسم الفندق أو المطعم علىٰ المركبات والشاحنة التي نقلت الطعام! وقد ٱستعاض مؤخراً عن مفكرته وٱستبدلها بهاتفه الذكي، في رصد ومتابعة همه الأوَّل والأخير: الطعام!

يدخل القاعة مُسلِّماً مُبارِكاً، فيحسبه أهل الزوجة من ضيوف أصهارهم، ويظنُّه أهل الزوج من مَدعوِّي ذوي عروستهم!...

لم يكن الرجل فقيراً معوِزاً، ولا كان عميلاً مُندسّاً، وما حركاته المريبة، وتخفِّيه وٱنزواؤه هنا، ونزقه وتتبُّعه هناك، إلَّا لٱلتقاط خبر عن وَليمة والعِلْم بدعوة يمكنه أن يتوغَّل إليها ويسعه أن يتطفَّل عليها! وما كانت تصرفاته الغريبة إلَّا لتوفير الغطاء لعدم كشف أمره وفضح سرِّه، الذي لا يتداوله إلَّا مع نظرائه، جماعة تتنافس في هٰذا الحقل وتتسابق فيه، وتتعاون في الإخبار والإعلان عن موَارده، حتىٰ لتسمع مادة التفاخر بينهم وعنوان التفوُّق عندهم: مضىٰ شهر لم أتناول في بيتي إلَّا طعام الإفطار، فيجيبه الآخر بأنه لم يتكلَّف حتىٰ هٰذا، فهو يُبقي علىٰ جوعه ويصبر علىٰ غرْثه وسغَبه، ليُحسِن اللَّهْمَ والبلع والٱزدراد في مأدبة الغداء التي ينتظرها.

إنه رجل متديِّن، مؤمن ملتزم، دمث الأخلاق، لا تفارقه البسمة، يصلِّي ويصوم ولربما تنفَّل وتطوَّع... ولكنَّه لا " يدفع " ! قلَّ أن تصدر منه معصية أو تفوته طاعة، حاضر في محافل المؤمنين، مكثِّرٌ لِسوَادهم، معدودٌ في ركابهم... لكن دون أدنى بذل أو عطاء. حريص على الحج ومحبٌّ للزيارة والسياحة، ولكن متسكعاً، يتحرَّى فرَصاً في حملات وقوافل تطوَّع بكامل أو غالب نفقتها أحد الميسورين، فيلتحق بها! ثم تراه يشهد كلَّ هذا البذل والجود والسخاء والعطاء في " زيارة الأربعين " ، فلا يضرب له عرق في الغيرة، أو ينتفض له عود أو تهتز له قصبة، فيساهم مع موكب ويشارك في مضيف، بل يوغل في طبعه، ويتألَّق في السؤال ويتفنَّن في طلب الخدمات!

نعم، هو سخيٌّ في بذل ساعاته، كريم في منح وَقته، يتألَّق في هدره ويُبدِع في صرفه، فينشط في المحافل والتجمُّعات، يتعرَّف على هذا ويصاحب ذاك، لعلَّ وعسى أن يجني شيئاً ويحظى بعطاء. مُرتكَز حركته، شقُّ الطرُق وإقامة الجسور لإنشاء العلاقات وتوطيد أواصر الصحبة، التي تنتهي إلى مغانم وتفضي إلى مكاسب! وقد لازَم أحَد الإخوة عاماً وصاحبه حولاً كاملاً، لما علم أنه يمتلك في القاهرة سكناً، وتذاكى عليه وراوغ وتحايل حتى انتزع منه مفتاح شقته، واتصالاً يخبر فيه ناطور بنايته، بأنَّه سيرِدُ للسكن فيها لأيام. ولم يكتف «عبدالناصر» بهذا حتى فاوَض آخر وساوَمَه ليؤمِّن له تذاكر السفر مقابل ما سيوفره له من مأوىً هناك ومقر! أما المأكل والمشرب والتنقلات، فسيتكفَّل بها زميله في العمل، مرؤوسه المصري، وقد مهَّد لذلك ووَطَّأ بأن أرخى له القياد ليتغيَّب ويتسيَّب، وغضَّ عنه الطرف في أخذ الرشى على إنجاز المعاملات وتسهيلها!

لم يدخل دار «عبدالناصر» ضيفٌ ألبتَّة، لم يولِم في مناسبة أو يدعو لطعام في حياته، ولا أكل على مائدته غير عياله، لا غنيٌّ يُكرَم ولا فقير يُرحَم، بل لا يعرف عنوانه ولا يهتدي إليه صديق، ولا يستدل على بيته رفيق. لم يساهم بدرهم في مسجد، ولا بذل ديناراً على حسينية، لا شارك في مبرَّة، ولا دخل في صدقة جارية، لا أسدى لأحَد معروفاً أو إحساناً، ولا أعان فقيراً أو أسعف محتاجاً، ولا أغاث ملهوفاً أو فرَّج عن مؤمن كُربة...

"المجانيَّة" شعاره ودثاره، والإمساك خُلقه وعنوانه، والبخل سجيَّته وطبعه، والشحُّ سَمْته وهَدْيه... فإذا حكَمَت ضرورة قُصوى من أُمور معاشه، وألزمته إدخال يده في جيبه، وإخراج شيء من ماله، تجهَّم وتبرَّم، وضجر وبلدم، وكأن يُحتضَر وتنتزع روحه!

ولا يقف البخل فيه أو ينتهي عند المال، فهو ليس ضنيناً به فحسب، بل يسري ويحكم كلَّ ميادين سلوكه وحركته، وحقول عيشه وسعيه، فالشحُّ غالب على كلِّ موقع عطاء ومحطَّة بذل في حياته... إنه لا يتَّخذ موقفاً منطلِقاً من مبدأ يلتزمه، ولا يلتزم قيمةً كأصل ثابت لا يتخلَّف عنه، حذر أن يفقد فرصة كسبٍ قد تُتاح، ولا يتبرأ من باطل لعلَّه يحتاج أربابه، فيغنم منهم منفعة، لعمري، هل البرغماتية (Pragmatism) أو العَمَلانيَّة نشأت من غير هذا؟ فلسفة الذرائع التي أخذت السياسيين إلى حيث يشاؤون ويهوون، فالنجاح وتحقيق المكسب وبلوغ النتيجة هو معيار الحقيقة، قائلين إنَّ النظرية يتمُّ ٱستخراجها عبر التطبيق، ولا شيء ثابت ومُسبق يحكم الحركة ويقنن للوصول إلى الهدف، بل إنَّ القيمة والحقيقة لا تتحددان إلَّا في علاقتهما بالممارسة العملية وبقدر ما تفضي إليهما.

أما ممارسة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والعمل بهذه الفريضة، فخطٌّ أحمر، بل حتىٰ مجرَّد نصح وَاهم وتوجيه مخطئ، ممنوع محظور، حذَر أن يورث في الآثم كدراً ويخلِّف في نفس الآخر ضيقاً، يفضي بدوره إلىٰ فقدان فُرص كانت متاحة، وإغلاق أو حظر نطاقات كانت مباحة! فيتجلَّىٰ أمامك حديث «الإمام الباقر» عليه السلام: " يكون في آخر الزمان قوم يتبع فيهم قوم مراؤون، يتقرَّؤون ويتنسَّكون، حُدَثاء سفهاء، لا يوجبون أمراً بمعروف ولا نهياً عن منكر، إلَّا إذا أمنوا الضرر. يطلبون لأنفسهم الرُّخَص والمعاذير، يتبعون زلَّات العلماء وفساد علمهم، يُقبِلون علىٰ الصلاة والصيام وما لا يَكْلُمهم في نفس ولا مال، ولو أضرَّت الصلاة بسائر ما يعملون بأموالهم وأبدانهم لرفضوها كما رفضوا أتمَّ الفرائض وأشرفها " .

وبعد الطفيليَّة، تجد الشحَّ غالبه في كلِّ نطاق، فهو لا يبذل لشيء ولا يصرف له مهما عزَّ عليه، وهذه ملابسه أخلقت وبليت، وثيابه كلحت وأغبرت، وغدت أسمالاً مهترئة، وما زال يرتديها ولا يستبدلها، ولا يعرف جسمه الجديد، لا في فرح ولا عيد.

وقد ظهر لـ «نجيب» الساعة وانكشف أنَّ المؤمنين في المساجد والحسينيات لا يتجنَّبون «عبدالناصر» حذراً من شُبهة العمالة وخوفاً من تهمة الجاسوسية التي علقت به، بل لأنهم يجدونه، علىٰ الرغم من دماثته، والبسمة التي لا تفارق وَجهه، والبِشْر الذي يلقىٰ به الناس، جلفاً جافياً، ويلمسون في نفسه قسوة وفي روحه غلظة، ويرونه ثقيلاً علىٰ من يجالس، سمجاً ممقوتاً مهما تندَّر وتلطَّف وهشَّ وبشَّ، وأنه لا يُطاق ولا يُحتمل، وسرعان ما يُسأم منه ويُمَلُّ.

ولوهلة، ظنها «نجيب» وحسبها نزعة شاذة وحالة غريبة ٱنفرد بها «عبدالناصر» وقلَّة قليلة معه، ولٰكن سرعان ما بان له أنها ظاهرة متفشِّية، عامَّة شاملة، تطال الغالبية وتعمُّ الأكثرية! وما زالت تصرع المؤمنين وتهلكهم (وهم أحياء!) وتأخذهم في حُجرها وكنفها وتدخلهم في نطاقها وجانبها، فجُلُّ الناس هنا لم يدخل بيوتهم ضيف، ولم يجودوا مرَّة في حياتهم بمال، ولم يسخوا يوماً بعطاء! ولٰكن لم يبلغ بهم البخل ما يأخذهم إلىٰ التطفُّل والتسكُّع، مما بلغه «عبدالناصر»، فٱفتُضح. وإلَّا فهم ـ في الأعمِّ الأغلب ـ سواء، يعانون من نفس الداء، تمكَّن الشُّح من نفوسهم، وٱستحوذ البخل عليهم، فغلبهم وأتلفهم، وصرعهم وأرداهم، حتىٰ قضىٰ عليهم وهم لا يشعرون!... لا يخرج من هٰذا المجموع ويُستثنىٰ من هٰذا الداء، بل البلاء، إلَّا نزر يسير، آحاد من بين مئات، وإلَّا فالبقية بخلاء، يتذرَّعون بالإسراف فيقترون، ويخشون البسط فيزعمون الٱقتصاد، فيقبضون ويُمسكون خشية إملاق.

إنَّ العاملين هنا (في هٰذه الجزيرة أو الموقع القيادي المتقدِّم) من جند وأعوان وملائكة وخدَّام، لا ينظرون إلىٰ هٰؤلاء الناس ولا يكلمونهم، ولا يرفعون إلىٰ «المولىٰ» ﷺ شيئاً عنهم، ولا سيما ما يزكيهم... وما دام الشحُّ متمكِّناً منهم، والخسَّة غالبة في نفوسهم، والدناءة ملازمة لهم، فهم خارج دائرة العناية والٱجتباء، لا يُلتفت إليهم ولا يُكترث بهم. وما لم يصبح العطاء ملَكة في المؤمن تقضي علىٰ شهوة الملْكِيَّة، وطبعاً يقهر نزعة الٱستحواذ، وصفة مستحكمة تهزم آفة الحرص، وتخرج ذلك كلَّه من نفسه، فلن ينظر أحد هنا إليه ولا يكلِّمه ولا يزكيه.

فالوعيد والزجر الإلهي على هذا الأمر لم يأت اعتباطاً ولا من نافلة، وهذا قوله تعالى ﴿وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ هُوَ خَيۡرٗا لَّهُم بَلۡ هُوَ شَرّٞ لَّهُمۡ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِۦ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ ينذر ويتوعَّد.

وهو داء في طبعه العدْوَى، لا يطيق المبتلى به إلَّا أن ينقله إلى غيره، لتعمَّ البلوى وتغلب فيسهل الخطب ويهون، ويتضاءل وَخز ضميره حتى ينعدم! ﴿ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾، وما يزال يتفشَّى حتى يغلب الناس كلَّهم ويهزم المجتمع ويصرع الأُمة، ويرتهنها للويلات التي حذَّرت منها الأحاديث الشريفة...

فعن «رسول الله» ﷺ: " إياكم والشحُّ، فإنما هلك مَن كان قبلكم بالشحِّ، أمرَهم بالكذب فكذبوا، وأمرَهم بالظلم فظلموا، وأمرَهم بالقطعية فقطعوا " . وعنه ﷺ: " البخيل بعيد من الله، بعيد من الناس، بعيد من الجنة، قريب من النار. وجاهلٌ سخيٌّ أحبُّ إلى الله من عابدٍ بخيل، وأدوَى الداء البخل " . وقال: " خلق البخل من مقته، وجعل رأسه راسخاً في أصل شجرة الزقوم، ودلَّى بعض أغصانها إلى الدنيا، فمن تعلق بغصن منها أدخله النار. ألا إنَّ البخل من الكفر، والكفر في النار " .

وقتل في الجهاد رجل من أصحاب «رسول الله» ﷺ فبكته باكية وقالت: واشهيداه! فقال ﷺ: " ما يدريك أنه شهيد؟ فلعلَّه كان يتكلَّم بما لا يعنيه، أو يبخل بما لا يُنقصه " . وقال ﷺ: " إنَّ الله يبغض البخيل في حياته، والسخيَّ عند موته " . وقال ﷺ: " السخيُّ الجهول أحبُّ إلى الله عزَّ وجل من العابد البخيل " . وقال: " الشحُّ والايمان لا يجتمعان في قلب وَاحد " .

وقال ﷺ: " يقول قائلكم: الشحيح أعذر من الظالم. وأيُّ ظُلم أظلم عند الله من الشحِّ؟ حلَفَ الله بعزته وعظمته وجلاله لا يدخل الجنة شحيحٌ ولا بخيل " . وروي: " أنه ﷺ كان يطوف البيت، فإذا رجل متعلِّق بأستار الكعبة وهو يقول: بحرمة هذا البيت إلَّا غفرت لي ذنبي! قال «رسول الله» ﷺ: وما ذنبك؟ صِفْه لي. قال: هو أعظم من أن أصفه لك. قال: ويحك! ذنبك أعظم أم الأرضون؟ قال: بل ذنبي يا «رسول الله». قال: ويحك! ذنبك أعظم أم الجبال؟ قال: بل ذنبي يا «رسول الله». قال: فذنبك أعظم أم البحار؟ قال: بل ذنبي يا «رسول الله». قال: فذنبك أعظم أم السماوات؟ قال: بل ذنبي يا «رسول الله». قال: ذنبك أعظم أم العرش؟ قال: بل ذنبي يا «رسول الله». قال: ذنبك أعظم أم الله؟ قال: بل الله أعظم وأعلىٰ وأجل. قال: ويحك أ تصف لي ذنبك؟ قال: يا «رسول الله»، إني رجل ذو ثروة من المال، وإنَّ السائل ليأتيني ليسألني فكأنما يستقبلني بشعلة من النار. فقال «رسول الله» ﷺ: إليك عنِّي! لا تحرقني بنارك! فوَالذي بعثني بالهداية والكرامة، لو قمتَ بين الركن والمقام، ثم صليت ألفي ألف عام، وبكيت حتىٰ تجري من دموعك الأنهار وتسقي بها الأشجار، ثم متَّ وأنت لئيم، لأكبَّك الله في النار! ويحك! أما علمت أنَّ الله يقول: ﴿وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ﴾، ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَٰئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ " .

وقال «أميرالمؤمنين» عليه السلام: " سيأتي علىٰ الناس زمان عضوض، يعضُّ المؤمن علىٰ ما في يديه، ولم يؤمر بذلك. قال الله تعالىٰ ﴿وَلَا تَنسَوُاْ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ " . وروي: " أنه ما من صباح إلَّا وقد وكَّل الله تعالىٰ ملكين يناديان: اللهم أجعل لكلِّ ممسكٍ تلفاً، ولكلِّ منفِق خلفاً " .

ويعقِّب المرحوم «النراقي» صاحب (جامع السعادات) علىٰ هٰذه الطائفة وغيرها من الأخبار قائلاً، ونعم ما قال: {والأخبار في ذمِّ البخل أكثر من أن تُحصىٰ، مع أنَّ تضمُّنه للمفاسد الدنيوية والأُخروية مما يحكم به الوجدان، ولا يحتاج إلىٰ دليل وبرهان، حتىٰ أنَّ النظر إلىٰ البخيل يُقسي القلب، ومَن كان له صفاء سريرة، يكرب قلبه ويظلم من ملاقاته، وقد قيل: " أبخل الناس بماله، أجودهم بعرضه " }.

من هنا كان قبح البخل ومقت البخلاء... والحكم بٱنحطاطهم وإفلاسهم وهوَانهم وفق معايير الحقِّ، مهما كثرت أعمالهم وزاد نشاطهم، فما دام المرء مهزوماً في جبهة البذل، وكان الشحُّ غالباً في نفسه، والعطاء مقهوراً في روحيته، مرغماً علىٰ الكرم والجود والسخاء... فلا سبيل للرقيِّ ولا طريق للتكامل، وسيبقىٰ رهن الأغلال التي كبَّل بها نفسه، والطوق الذي لزم عنقه وٱرتهنه، حتىٰ صرع روحه وأجهز عليها.

إنَّ العطاء، بالقوَّة كان أم بالفعل، ممارسة كان أم ٱستعداداً يتحيَّن الساعة ويتحرَّىٰ المورد، بعد التقوىٰ والورع، والعلم والمعرفة، هو مرتكز التقييم ومنطلق التفاضل وأساس الٱصطفاء في قوانين الناحية المقدَّسة، وهو أخطر ضوابط الٱجتباء المعمول بها في " الجزيرة الخضراء " . إنه أوَّل الكمالات والخصال التي تُلحَظ وتُرقب في مَن يُنتَخب ويُنتَجب، حتىٰ يلحق بسجلِّ " أنصار الحجَّة " ، ويحظىٰ بالدور المرتقب عند الظهور الشريف، فيُدوَّن في ذلك الديوان، ويُكتَب في مَن " يكرُّ في رجعتهم، ويُملَّك في دولتهم، ويُشرَّف في عافيتهم، ويُمكَّن في أيامهم، وتقرُّ عينه غداً برؤيتهم " ... ديوان ليس للبخلاء فيه نصيب، ولا لهم إليه سبيل.

: لعمري كم لهٰذه الأُكرومة من مقام، وللمتحلِّي بها من شأن وحظوة؟! ما كنت أحسب شيئاً من الأعمال يناهز العقائد وينافسها في الشأن والخطر، حتىٰ ٱنكشف لي فضل الكرم وخطر الجود وعظمة العطاء!

ومهما قيل في تعريف الكرم وتحديده، من أنَّه وَسط بين الإقتار والإسراف، وٱعتدال بين البسط والقبض، يقوم علىٰ تقدير البذل، والإمساك بقدر الواجب اللائق... لٰكنَّ علماء الأخلاق وأرباب السير والسلوك ذهبوا إلىٰ أنه لا يكفي في تحقُّقه أن يفعله المتلبِّس به ويقوم به بجوارحه فحسب، ويمارسه في الخارج دون الباطن والداخل، فيعطي هٰذا ويمنح ذاك، ويهب هنا ويبذل هناك، دون أن ينطوي علىٰ ذلك قلبه وتسكن إليه نفسه، تقبُّلاً ورضىً، بل أُنساً وبهجة.

لن يبلغ العامل السالك كُنه هٰذه الفضيلة، ويدرك أقصاها المؤثر، ويصل مداها الفاعل، ما لم يأتِ بها عن طيب نفس وخاطر، لا تنازعه رغبة التملُّك والاٌستحواذ، ولا تصارعه شهوة حبِّ المال والإثراء، فيعاني ويكابد ويقاسي ويجاهد. فإن بذَل في محلٍّ، ونفسُه تنازعه وتغالبه، وهو يُنازلها ويقاتلها، فهي علامة أنه ما زال في الطريق، وأمامه الكثير ليبلغ رتبة الثقة بالخلَف، واليقين بالعِوَض، والاٌطمئنان إلىٰ فضل ذلك علىٰ ما بذَل وأنفق، فإذا وَصَل إلىٰ هٰذا الطوْر وبلغ هٰذه المرحلة، ٱنتقل منها إلىٰ رتبة الأُنس والنشوة، وصار في الرضا، وإدراك عظمة أن يقع أحَدٌ في سبيل صِلة «إمامه» عليه السلام عن طريق الإحسان لرعيَّته، أو تعاهد موَارد إعزاز دينه ونُصرة مذهبه.

عندها سيعرف حقيقة العطاء، ويكتشف سرَّ مكانته هنا في مغيَّب «المولىٰ» عليه السلام، وقاعدة مراقبة وتعاهد رعيَّته، ومركز إدارة وتدبير خلائق ربه، ولماذا يحظىٰ بهٰذه الرتبة والمكانة، حتىٰ ليُقصىٰ ويُنبذ مَن لا يتحلَّىٰ بها، وكأنه ليس من المؤمنين الملتزمين، أو المنتظرين المتشوِّقين!...

ويدرك رسالة الأحاديث الشريفة وما وَرد في مدح السخاء، مما هو خارج عن حدِّ الإحصاء... فقد قال «رسول الله» صلى الله عليه وآله: " السخاء شجرة من شجر الجنة أغصانها متدلية إلىٰ الأرض، فمن أخذ منها غصناً قاده ذلك الغصن إلىٰ الجنة " . وقال صلى الله عليه وآله: " قال الله سبحانه: إنَّ هٰذا دين ٱرتضيته لنفسي، ولن يصلحه إلَّا السخاء وحسن الخلق، فأكرموه بهما ما ٱستطعتم " . وقال صلى الله عليه وآله: " ما جعل الله أولياءه إلَّا علىٰ السخاء وحسن الخلق " . وقال صلى الله عليه وآله: " إنَّ السخي قريب من الله، قريب من الناس، قريب من الجنة، بعيد من النار " . وقال صلى الله عليه وآله: " تجافوا عن ذنب السخي، فإنَّ الله آخذٌ بيده كلَّما عثر " . وقال صلى الله عليه وآله: " طعام الجواد دواء، وطعام البخيل داء " . وقال صلى الله عليه وآله: " أفضل الأعمال: الصبر والسماحة " . وقال صلى الله عليه وآله: " خلقان يحبهما الله، وهما: حسن الخلق، والسخاء " . وقال صلى الله عليه وآله: " إنَّ الله جواد يحب الجود، ويحب معالي الأخلاق، ويكره سفاسفها " . وقال صلى الله عليه وآله: " الرزق إلىٰ مُطعِم الطعام أسرع من السكين إلىٰ ذروة البعير، وإنَّ الله تعالىٰ ليباهي بمُطعِم الطعام الملائكة عليهم السلام " . وقال صلى الله عليه وآله: " إنَّ لله عباداً يخصهم بالنعم لمنافع العباد، فمن بخل بتلك المنافع عن العباد، نقلها الله عنه وحوَّلها إلىٰ غيره " . وقال صلى الله عليه وآله: " الجنة دار الأسخياء " . وقال صلى الله عليه وآله: " لَشابٌّ سخيٌّ مرهق في الذنوب، أحبُّ إلىٰ الله من شيخٍ عابد بخيل " .

وقال ﷺ: " إصنع المعروف إلىٰ من هو أهله، وإلىٰ من ليس بأهله، فإن أصبت أهله، فقد أصبت أهله، وإن لم تصب أهله، فأنت من أهله " .
وقال ﷺ: " إن بُدلاء أُمَّتي لم يدخلوا الجنة بصلاة ولا صيام، ولـٰكن دخلوها بسخاء الأنفس، وسلامة الصدور، والنصح للمسلمين " .
وقال ﷺ: " إنَّ الله عز وجل جعلَ للمعروف وُجوهاً من خلقه، حبَّب إليهم المعروف وحبَّب إليهم فعاله، ووجَّه طلَّاب المعروف إليهم، ويسَّر عليهم إعطاءه، كما يُيسِّر الغيث إلىٰ البلدة الجدبة، فيحييها ويحيي بها أهلها " . وقال ﷺ: " السخيُّ مُحبَّب في السماوات ومُحبَّب في الأرضيين، خلق من طينة عذْبة، وخُلِق ماء عينيه من ماء الكوثر، والبخيل مبغَضٌ في السماوات مبغَضٌ في الأرضين، خُلِق من طينة سبخة، وخُلِق ماء عينيه من ماء العوسج " (نبات شائك، له ثمرٌ مدوَّرٌ كأنَّه خرَز العقيق، وهو الحُضَضُ، واحدته: عَوسجة). وقال ﷺ: " إنَّ أفضل الناس إيماناً أبسطهم كفاً " . وقال ﷺ: " يؤتىٰ يوم القيامة برجل، فيقال: ٱحتج! فيقول: يا رب، خلقتني وهديتني، وأوْسعت عليَّ فلم أزل أُوسِّع علىٰ خلقك، وأنشر عليهم، لكي تنشر عليَّ هـٰذا اليوم رحمتك وتيسره. فيقول الربُّ: صدق عبدي، أدخلوه الجنة " .

وروى: " أنه أتىٰ «النبيَّ» ﷺ وفدٌ من اليمن، وفيهم رجل كان أعظمهم كلاماً وأشدَّهم ٱستقصاءً في محاجة «النبيِّ» ﷺ فغضب «النبيُّ» حتىٰ التوىٰ عرق الغضب بين عينيه، وتربَّد وَجهُه، وأطرق إلىٰ الأرض. فأتاه «جبرئيل» عليه السلام فقال: ربك يقرئك السلام ويقول لك: هـٰذا رجلٌ سخيٌّ يطعم الطعام. فسكن عن «النبيُّ» ﷺ الغضب، ورفع رأسه قال:

لـولا أن «جبرئيل» أخبرني عن الله عـزَّ وجل أنك سخيٌّ تُطعِم الطعـام، لشرَّدت بك، وجعلتك حديثاً لمن خلفك! فقال له الرجل: إنَّ ربك يحبُّ السخاء؟ فقال: نعم! فقال: إني أشهـد ألَّا إلـه إلا الله، وأنك رسول الله، والذي بعثك بالحق، لا رددت عن مالي أحداً! " .

وقال صلى الله عليه وآله : " كلُّ معروف صدقة، وكلُّ ما أنفق الرجل علىٰ نفسه وأهله كتب له صدقة، وما وقىٰ المرء به عرضه فهو له صدقة، وما أنفق الرجل من نفقة فعلىٰ الله خلفها " . وروي أنَّ الله أوحىٰ إلىٰ «موسىٰ» عليه السلام: " لا تقتل السامري، فإنه سخيٌّ " . وقال «عيسىٰ» عليه السلام: " إستكثروا من شيء لا تأكله النار. قيل: وما هو؟ قال: المعروف " . وقال «أميرالمؤمنين» عليه السلام: " ومَن يبسط يده بالمعروف إذا وَجَدَه يخلف الله له ما أنفق في دنياه، ويضاعف له في آخرته " . وقال «الباقر» عليه السلام: " إنَّ الشمس لتطلع ومعها أربعة أملاك: ملك ينادي: يا صاحب الخير أتمَّ وأبشر، وملك ينادي يا صاحب الشرِّ ٱنزع وٱقصر، وملك ينادى: أعطِ منفقاً خلَفاً وآتِ ممسِكاً تلفاً، وملكٌ ينضح الأرض بالماء، ولولا ذلك لأشتعلت الأرض " . وقال «الباقر» عليه السلام لبعض جلسائه: " ألا أخبرك بشيء تقرب به من الله وتقرب من الجنة وتباعد من النار؟ فقال: بلىٰ. قال: عليك بالسخاء " . وقال: " خياركم سمحاؤكم، وشراركم بخلاؤكم. ومن خالص الإيمان: البرُّ بالإخوان والسعي في حوائجهم، وإنَّ البارَّ بالإخوان ليحبه الرحمن، وفي ذلك مرغمة للشيطان، وتزحزح عن النيران ودخول الجنان " . وقال «الكاظم» عليه السلام: " السخيُّ الحسن الخلق في كنف الله، لا يستخلي الله منه حتىٰ يدخله الجنة. وما بعث الله نبياً ولا وصياً إلَّا سخياً، ولا كان أحد من الصالحين إلَّا سخياً " .

وإذا لم يُدرك الشيء بنفسه، فهذا من موارد معرفته بضدِّه، فإذا كان البخل هو ثمرة حبِّ الدنيا بل الاغترار بها، فإنَّ السخاء ثمرة الزهد فيها والترفُّع عنها، أو قُل إنزال الدنيا منزلتها، والتعاطي مع حقيقتها... إنَّ الكرم هو البذل لمن سأل، والجود هو المنح والإفضال من غير سؤال، والسخاء الإكثار من هذا وذاك، وعفَّة النفس عن التعلُّق بما وَهب ومنَح، وطيب الخاطر لما بذل وقدَّم. فكما أنَّ البخل ثمرة حبِّ الدنيا والتعلِّق بها، فالسخاء ثمرة الزهد والترفُّع عنها، ولا ريب في كوْن الجود والسخاء من شرائف الصفات ومعالي الأخلاق، وهو أصل من أصول النجاة، وأشهر أوصاف النبيين وأبرز أخلاق المرسلين.

إنَّ العطاء هو المدخل والباب، و«الإمام» عليه السلام هو الغاية والمحراب، وُجودٌ كلُّه سخاء، جودٌ وتفضُّلٌ بلا سؤال، من لحظة الفيض الأول من التشعشع الأزلي، ما إن تلقَّىٰ عطاء ربه فكان، حتىٰ فاض به علىٰ خلقه وخلع الوجود علىٰ كلِّ إمكان. وكرم لا يردُّ سائلاً، كائناً من كان، مسكيناً أو يتيماً أو أسيراً، يطعمهم لوجه الله لا يريد جزاءً ولا شكوراً. يستجيب ويمنح في أيِّ وَضع وعلىٰ أيِّ حال كان، في صوم وِصال، أو في ركوع، أو مجاهداً في الميدان، لا يتوانىٰ لحظة ولا يتخلَّف ساعة عن تمثيل وتجسيد وإثبات أنَّ المعطي جلَّ جلاله لا تنفذ خزائنه، ولا تزيده كثرة العطاء إلَّا جوداً وكرماً، وأنَّ عطاءه غير مجذوذ ولا محظور، ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾، وأنه ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾.

أخطر ما ٱنكشف هنا وبان لـ «نجيب»، أنَّ الملحمة الإلهيـة العظمىٰ التي يسطرها المؤمنون الموالون في العراق، في كلِّ "أربعين" مع قاصدي «سيد الشهداء» عليه السلام وزائريه، تشكِّل أوسع باب لرضىٰ «المولىٰ» وتسكين آلامه، والقرب من قلبه... فلقائه!

إنه أعظم درس في الجود والكرم، والسخاء والمروءة، وأبلغ موعظة في الترفُّع عن حطام الدنيا، وبذل غاية الوسع في سبيل أشرف طاعة وأسمىٰ عبادة وأعلىٰ قربة... وأضراب «عبدالناصر» يمرون عليها في غفلة، ويتعاطون معها بخسَّة، لا ينفكَّون عن دناءة، ولا يتداوون من علَّة، ولا يتعلَّمون ما يزيل جهلهم، ولا يسترشدون ولا يهتدون.

• • •

الهول هنا لا هناك...

والروع ما ترىٰ الساعة لا ما رأيت من قبل!

والجرح يسكنه الذي هو آلم!

المشهد هنا مَهولٌ مَخوف، والمنظر رهيب مُرعب، يورث الخرَع والخوَر، والدهشة والفرَق، بل الذعر والفزع، ثم الحسرة والأسىٰ، والألم والجزع. حقاً إنها دار غرور، ومقام عَجْز وأُفول، ومحلُّ سخط الأخيار وقهر الأحرار، وعرْصة عجز الأشراف والأتقياء، وساحة هزيمة الأبرار والنجباء...

وإذا تأملته من أُفق يستشرف، ولحظته من سماء تعلو، تخرجك من متاهات الأرض، وترفعك فوق لوَازمها الكثيفة الغليظة، وموانعها الصَّادَّة الحاجبة، وسدودها الحائلة المعيقة، سواء لتضاريس طبيعية كالتلال والجبال، والسهول والوِديان، والبحار والأنهار، أو مصنوعة مُحدثة، كالمباني والبيوت، والشوارع والمتاجر، والجسور والسدود، والبساتين والحدود... كما يفعل «نجيب» الساعة، يحلِّق في السماء، وينظر من علو، يرىٰ من أين تبدأ الطرق وأين تنتهي، مَن يكمن علىٰ جوانبها ويتحفَّز لقطعها، وأين غاب عنها حُرَّاسها، ويرىٰ ماذا يحيط بالبلدة، ومن يسكن ضفات البحيرة، وماذا يفعل السلطان ومن أين سيأتيه العدوان! بل كان باطن الأرض منكشفاً له أيضاً، يرىٰ مكامن العيون وأُصول الآبار، والمناجم والدفائن، وحقول النفط وحدود الطبقات وتجاويف الأعماق، ناهيك بمَن يدبُّ علىٰ أديمها من إنس وجانٍّ، وأرواح أشبه بأطياف، كأنها بلا أبدان!...

لَصَعِقْتَ وذهلت مما ترىٰ وعشت الرعب والهول مما يظهر لك...

ألوِية تخفق وأعلام ترفرف فوق نيران تستعِر، تعلوها من بعدُ رايات، لا من أقمشة ونسائج، بل من لظىً وألسنة لهب وشوَاظ، سوَاريها التي تنتصب لتحملها وترتكز لترفعها، قضبان من جمر متَّقِد، أو حمم ومقذوفات براكين، أو رماح من جحيم!... فإذا دنوت وتفحَّصت وأمعنت، وأرسلت النظر، وألقيت السمع وأرجعت البصر، رأيت مسوخاً، قردة وخنازير، وكلاباً وضباعاً، هـٰذا ينزو علىٰ منبر ليخطب، وذاك يعتلي منصَّة ليفتي، وثالث يستوي علىٰ كُرسيٍّ ليَعِظ ويُرشد! والفضائيات تبثُّ خَطْلَهم وهذْيهم، والأقمار الصناعية تنقل هُراءهم وتنشر تخرُّصهم. يُنظِّرون لما يستبيح حمىٰ الشريعة ويفلسف هتك أُصول الدين. خطاب أتاهم من نفوسهم المريضة وٱستنبطوه بأفهامهم السقيمة، وٱخترعوه من ذواتهم الهابطة المنحطَّة، هرْفٌ من بنات أفكارهم، مع "التقاطٌ" من إملاءات أوليائهم، يخلقون به عجيناً ويصنعون فطيراً. كما نُسب لليهود أو ٱفتُري عليهم في طقوس عيد الفصح و"فطير صهيون" الذي يعدُّونه بخلط عجينته بدم طفل مسيحيٍّ! ولـٰكن علىٰ نحو الحقيقة، المنكشفة هنا بأشنع صورة وأفضع حال! إنهم يخلطون عجينتهم المسمومة، بدم أُضحية من أصيل المذهب وصميم العقيدة الإمامية، ينحرون قرباناً من أحكام الشرع الحنيف ويذبحون أصلاً من أُصول الدين، إرضاءً لأربابهم الشياطين، يخلطون "دمه" بعجينهم، فإذا خبزوها، تناولوا فطيرتهم، وصاروا يُلقِمونها من "يعمِّدون" من أتباعهم ليدخل عالمهم وينخرط في دنياهم، ويخصُّون "نُخبةً" مستأثرة يلحقونها بأحزابهم، يُكرِّسونهم لخدمة جماعتهم، فيرِثونهم ولا تبتر طريقتهم!

إنَّ الفجعة هنا ـ في السماء، وفي المستشرف المطلِّ على المشهد ـ من أفعال "المسوخ" التي تَنسِب للمذهب الحقِّ ما تشتهي وتريد من مفاهيم، وتبتدع من نوازع شهواتها ما تشاء وتهوى، وتخترع من إملاءات أفكارها وإلحاح رغباتها أحكاماً تُلحقها بشريعة «سيِّد المرسلين» و«أهل بيته» الطاهرين. تطرح في الفقه آراءً، وتعرض للقرآن تفسيراً، وتتبنَّى للحديث فهماً وقراءة، تسوِّق للمعارف نهجاً محدَثاً، وتخلق مذهباً جديداً.

إنَّ هذه القضية أو الممارسات التي لا يكترث بها، في وَاقع الأمر وعلى صعيد العيش اليومي، إلَّا نُخَب وطلائع وفئات محدودة، وشريحة خاصة من المؤمنين، قد تتوسَّع وتكبر بنجاح الخطِّ الإيماني والنهج الولائي في موقع وبلد، وقد تتضاءل وتضمر في آخر، تبعاً لانشغال أهله بقضايا السياسة والاقتصاد والشؤون الاجتماعية والعمل، وأسباب المعاش والحياة.

إنَّ معظم الناس يمضون على هذه الفجائع ويمرُّون عليها وكأنها أمرٌ غير ذي بال، وأحداث جانبية هامشية. يحسبون أنَّ المعركة الأهم تدور في أماكن أُخرى، وأنَّ الصراع الأخطر (بين الحقِّ والباطل، أو الخير والشرِّ) يحتدم في غير هذه الجبهة... وحتى الملتزمين الرساليين من العوام، تغلبهم هموم الدعوة وجبهة الأخلاق، تراهم يعتنون بأُمور مفضولة وقضايا متأخرة على هذه الأخطر والأوْلى. غافلين أنَّ المعيار في التحسُّس والتوجُّس، والضابطة في التفاعل والتأثُّر، هي قلب «المولى» عليه السلام، ماذا يسكنه؟ وما الذي يرضيه فيفرحه، أو يؤذيه فيحزنه؟ والمشهود هنا الساعة أنَّ تلك هي ما يورث السماء غضبها وسخطها، وهي ما يجرح قلب «المولى» عليه السلام ويؤرق ليله. في حدود أعظم من أن تُدرك ويُحاط بحجمها ومداها!

حتىٰ أنَّ «نجيباً» لم يجد ـ من مُطَّلعه ـ ما يساوي أو يوَازي هٰذه الطامَّة في البلاء والخطر، إلَّا ما كان ـ وما يزال ـ من دور لبعض حُكَّام الجور وملوك الفساد والبغي، الذين يحيكون المؤامرات ويدبِّرون المكائد ويضعون الخطط لٱستهداف المؤمنين بالقتل والتفجير، من الذين أسسَّوا وصنعوا ووَظَّفوا منظمات إرهابية عالمية أوغلت في قتل وإبادة أبناء الطائفة بمنتهىٰ العنف والقسوة! ومن عَجَبٍ أنَّ هٰؤلاء الحكَّام القتلة الذين نهبوا خيرات بلادهم ليصرفوا جُلَّها في هٰذا السبيل، هم وأُولئك " المسوخ " الذين يعبثون بمفاهيم ومعارف الدين، سواء ونُظَراء في شرِّهم وسوئهم، حتىٰ أنهم في نفس المرتبة والمكانة من " المنظومة الشيطانية " العظمىٰ!

إنَّ هنا لمقتٌ وإحنة وشناءة يصعب تصوُّرها ويعسر إدراكها...

إنَّ ما فشىٰ بين المؤمنين وٱنتشر من البدع والرأي المخترع، وإن لم يقبلوه ويأخذوا به، لٰكنَّ المنجَز من المشروع والمتحقِّق من المؤامرة أدَّىٰ دوره في إزالة القبح، وجعل طرح هٰذه الترَّهات وتناول هٰذه السموم مقبولاً، ومضىٰ ليكون علامة علىٰ التحرُّر والثقافة، وعنواناً للتطوُّر والحداثة، وما إلىٰ ذلك مما يجتذب الشباب ويغرِّر بهم (ٱستطاع أن يوقع بـ «نجيب» نفسه في فترة، وعلىٰ حين غرَّة!)، وطالما سمحوا بتناوله علىٰ مائدة الحوار، غافلين أو متناسين أنه مسٌّ بعظمة الجبَّار، وتهاون وٱستخفاف بأمر جسيم جليل، يشكِّل أعظم خطر يمكن أن يطال المؤمنين ومصير الأرض والعالمين.

إنَّ ما يفعله هٰؤلاء المسوخ لداهِية فجيعة، وكارثة ورزيَّة، وكريهة ومحنة ونائبة ونكبة، وعدِّد ما شئت من مفردات الهول والجزع، فلن تبلغ حال السماء، وآلام الناحية المقدَّسة من هٰذا الهتك والٱستخفاف.

أمعن «نجيب» النظر وهو يرىٰ وَجه الفجعة ويرقب حجم الكارثة، وراح يتدبَّر ويتفكَّر في أبعاد المشهد وأعماق الحدث، ويتأمَّل في الخلفيات، ويحسب للعلل والأسباب، وكان كلَّما زادت معاناته ولوعته مما ظهر وبان، ٱنكشفت له وُجوهٌ جديدة، وحضرت في نفسه صوَر كانت خافية، لم يكن يعرفها حتىٰ للحظات خلَت، علىٰ الرغم من حجم العلوم المتدفقة عليه والحاضرة لديه، وكأنَّ الأمر متناسبٌ مع حقيقة الٱتصال بـ «الإمام» عليه السلام، فكلَّما تألَّم المرء وٱكتوىٰ، زاد فيه الجوىٰ، قرب ودنا من «المولىٰ» ...

وبينا هو في هـٰذا، إذ ظهرت له حقيقة جديدة، وتجلَّت له صورة تالية لما يرىٰ ويشهد من حال " المسوخ " ... فقد بان أنَّ جوهراً وكُنهاً شيطانيّاً وَاحداً يجمعها، تعود إليه في أُصولها، هو " الفحل " الذي ضربها فلقَّح أفكارها وهتك أرواحها وٱستباح أنفسها، وأمدَّها بالـمُكنة والقوَّة، وزوَّدها بالبأس والعزم، وأزاح من طريقها، نحو " مجدها " و " ألَقها " العوائق، وبدَّد من دربها الصعاب، لتتخطَّىٰ الموانع وتقاوِم كلَّ مَن ينبري لها ويتصدَّىٰ.

فالناس في الأرض ينظرونهم ويرونهم بشراً طبيعيين!

لا سباعاً ولا شياطين، لا يكشفون حقائقهم ولا يدركون ما وراء ظواهرهم. لا يرونهم قردة وخنازير، ولا يتمثَّلون لهم كلاباً وضباعاً، فلا لعاب يسيل من أفواههم، ولا قرون تنبت في رؤوسهم، ولا زحافاً وقباعاً يسمعون منهم، ولا نباحاً أو زمجرة يُصدِرون... بل هـٰذه عمائم تجلِّلهم، ولحىً تتدلىٰ علىٰ صدورهم، وأشكال طبيعية مألوفة تسترهم وتخفيهم. وهـٰذه الفضائيات ووَسائل الإعلام تُكبِرهم وتُعظِّمهم وتحتفي بهم، وهـٰذا الواقع السياسي والٱجتماعي يفرضهم رقماً لا يمكن تجاوزه.

بل هناك علماء ربَّانيُّون، وصُلحاء أتقياء، يستقبلون هٰؤلاء الشياطين ويزورونهم، يغْشَوْنهم ولا يردُّونهم إن أتوهم، وإن غَبّاً، بل مرَّة وِتراً، وعلىٰ مَضض! أو قُل يزورون بعض هٰؤلاء "المسوخ" ويأتونهم دون آخرين، فيقاطعون البقيَّة ويُعرضون عنهم، ويتهرَّبون ويفرُّون منهم... تقديراً للأولويات، وإدارة للجبهات، وتوزيعاً لنطاقات المعركة وخطوط التموضع والدفاع، أو لعلَّه من خفاء حقيقة هٰذا عليهم وٱنكشاف حال ذاك، فهو يعلم الضلال فيهما، ويعرف الزيف والٱبتداع، لٰكنَّه يرجعه في أحدهما إلىٰ الخبث والشيطنة، وفي الآخر إلىٰ الجهل والحماقة!...

إنَّ معادلة التدافع والتقاطع، التي تحكم الحركة والكدح في هٰذه الدنيا، مع أصل وقاعدة التكامل عبر الٱبتلاء والفتنة، تأخذ المشهد إلىٰ نطاقات غايةٍ في التعقيد والدقَّة، ونهايةٍ في اللبس والتعمية، وذروة في الٱستدراج والٱستمهال، حتىٰ لتخفىٰ علىٰ أغلب الأكياس، وتستبهم علىٰ أشدِّ المؤمنين فطنةً وحنكة، وتنطلي علىٰ أكثرهم نزاهة وإخلاصاً. فلا ينجو إلَّا مَن سبقت له من الله الحُسنىٰ! فيلتفت إلىٰ الوَجه في التقاء الصالح بالطالح، وزيارة المتَّقي الأصيل للفاسق المزيف، و "الٱحترام" و "التوقير" الذي يلقاه ذو البدعة، ويحظىٰ به الفاجر، لتقيَّةٍ أو مداراة.

وبقدر ٱستغراق المرء في الدنيا وتعلُّقه بالأهواء وسقوطه في أسر الشهوات، ناهيك عن ٱنغماسه بالمعاصي وتلوُّثه بالذنوب وإصابته بالآفات، وكذا جهالته وسذاجته، وغبائه وغفلته، فإنَّ الصوَر والخدع ستنطلي عليه، وستحتجب الحقائق وتخفىٰ السيَر، وتأخذه المظاهر، لتغويه وتغريه، فيعثر بشباكها ويسقط في حبائلها، وتنتهي به الشياطين إلىٰ أوكارها...

تراه يقفز علىٰ حقائق بحجم البحار وأدلَّة تناطح الجبال، ليتشبَّث بالرسوم والصوَر! يغمض قواعد العلم ويتجاهل أُصول التقييم وأُسس إصدار الأحكام، ليتحجَّج باللقاءات والزيارات، والأداء التمثيلي الذي يُوهم الأخلاق، ونطاق التغطية الإعلامية التي يحظىٰ بها هـٰذا " الصنم " ، والجمعيات والمؤسسات التي تتبع ذاك، وحجم الشعبية والكريزما التي يتمتع بها " الزائف " ، والكتب والأسفار التي يحملها " الحمار " !...

ومنذ أن ٱنتقل «نجيب» إلىٰ المشهد التالي (بعد الأوَّل مع البخلاء)، حتىٰ أدرك الخطب والهول الحقيقي، وأنَّ داء الآفات الروحية وبلاء المصائب الأخلاقية التي يعاني منها المؤمنون، من شُحٍّ وبُخل مستحكم، وعجزٍ عن البذل والعطاء غالب، وما إلىٰ ذلك من سقوط وتخلُّف يراوح بين القصور والتقصير... لَيهون ويحقر أمام هـٰذه الأخطار المحدقة بالأُمة، والكوارث الحالَّة، والمحن والبلايا النازلة بها.

أمسىٰ من هول ما رأىٰ مُنهَكاً وصار مهموماً مغموماً، حتىٰ عجز عن التمتُّع والاْلتذاذ بالحال والمقام الذي بلغه، والأُنس والاْنشراح بالسبح والتحليق في الفضاء وٱستشراف المشاهد والأحداث، ينظر بطاقةٍ معجزة، وقُدرة تخرق الحجُب وتكشف الوقائع، لا ينطلي عليه ظاهر، ولا تخدعه صورة، ولا يفوته كذب ولا يغلبه كاذب... لـٰكنَّه يرىٰ في الحقائق ما يملؤه بالأحزان، ويدخله من المشاهد ما يورثه الأكدار، ولا سيما حين تكتمل لوحة الكارثة وتجتمع فسيفساء الفاجعة، ويتمُّ مشهد مأساةٍ تنقض الظهر وتوهي الجلَد، فيلبث لا يتماسك من الكرب والضيق، مُرهقاً مغلوباً، قد سُلب السكينة، ومُنع القرار، لا يدري ما يصنع غير التحسُّر وٱجترار الهموم.

كان «نجيب» يشهد منظَر الرايات المشهَرة، تضطرم بالنار من بؤر متعدِّدة متفرِّقة في الأُفق الذي ينظر، كما كان يرصد موَاقع الطاعة ينبثق منها السَّنا، وترتفع أعمدة النور، تخرق الآفاق إلىٰ عنان السماء، تعلو من مساجد وتبسق من حسينيات وتتألَّق وتزهر من حلقات عِلْم في الحوزات. وإلىٰ جوارها أحياناً، وبعيد منها أُخرىٰ، كانت ترفرف أعلام نار وتخفق بيارق هلاك، وتصفق ألوِية، وبعضها يحمل أختاماً (شعارات ورسوماً) تشبه أختام القراصنة و " المافيات " ، تحكي الهول والرعب، والموت والدمار، بينما تظهر في الدنيا بشعارات التهليل والتكبير، ونقوش لفظ الجلالة وآيات القرآن! تعود لأحزاب تُعرف بالدعوة والفضيلة والوفاق والعمل وجند الإمام ومجلس إسلامي وآخر شيعي، ومؤسسات ومنظَّمات وروابط بٱسم الوِحدة وأهل البيت والتبليغ والإرشاد، وجمعيات لرعاية المرضىٰ والعجزة وكفالة الأيتام، وغيرها عشرات بل مئات، ومعها رايات الأشخاص من صرعىٰ الشهرة والمال، وطلَّاب الرئاسة وعشَّاق خفق النعال... كلُّها تلتهب وتضطرم بشُعَل جهنم والنيران! وهي تتدرَّج في فسادها وتتفاوت في شيطنتها وخطَرها، تبدأ من أدعياء المرجعية، وقادة الأحزاب والتيارات، وأصحاب الفضائيات، وتنتهي بتوافه حقراء لا يحشدون أكثر من رهط ولفيف، ولربما عجز بعضهم عن دون هذه العشرة، فعاش آماله وحقَّق " مجده " في العالم الأفتراضي، يختلق أتباعاً وَهميين يكثِّر بهم رقمه!

وقد تجتمع عناوين الشرور وتتعدَّد في الشخص وفي الراية الوَاحدة، فتراه صاحب فضائية، ومدَّعي مرجعية، وقائد حزب وجماعة، وقد يعجز مع هذه الدعاوىٰ والعناوين عن جمع أو جذب أحَد، وهكذا...

وفوق كلِّ مجموعة من هٰذه الألوِية والبيارق والأعلام، رايةٌ كبيرة، تقود الأعلام الصغيرة وتسوقها، تتزعَّمها وتترأسها و " ترشدها " وترعاها، فهي جماعات وعُصَب غير مرتبطة أو منخرطة في تنظيم وَاحد، بل قد تتنافس وتتنازع وتتصارع في بعض الأحيان والمواقع، كلُّ حزب بما لديهم فرحون، فهي ـ كعُصبة ـ تتبع ربّاً بعينه دون سائر الأرباب، كما تتبع بقية العصبات أرباباً آخرين، وإن كان كُلُّهم يُعبَدون من دون الله تعالىٰ، إلَّا أنهم أرباب متفرِّقون وآلهة مختلفون.

والرايات أو الأعلام، أو قُل موَاقد وبيوت النيران ومُسجَرات الأفران! قد تكون أحزاباً وتيارات، مدارس فكرية وتنظيمات سياسية، أو تكون أفراداً وشخصيَّات، وهم الذين ظهروا هنا كمسوخ، وتجلَّت حقائقهم وتمثَّلت في الحيوانات... هٰكذا، ويتفرَّد كلُّ " مسخ " مستقلّاً بشأنه، غير منازَع في أمره، يحظىٰ بوَضعه، ويدعو إلىٰ نفسه، يُكثِّر أمواله ويحشد عديده وأتباعه، ويذهب في الإضلال ما شاء، يبتدع المقولات ويخترع الآراء، يُلبِس ويزوِّر ويطمس ويزيِّف ما ٱستطاع، ويخوض في اللهو والتهتك والٱنحلال... بهٰذا يحاكي ويفعِّل شيطانه الأكبر وقائده، أو ربه الأعلىٰ، روحيته ونفسيَّته، ويحقِّق له طموحه وتطلُّعاته، يهيِّج شهواته، ويثير رغباته، ويُذكي أهواءه (دون أن يشبع شيئاً منها فيخمدها).

وأخطر ما يقدِّمه له الشيطان الأكبر، هو أن يملأ فراغ روحه وخواء نفسه، ويسدَّ عجزه ويجبر ضِعته وهوانه... فيدفعه لينطلق آمن السرب، يستشعر الدعم والٱحتضان، والإيواء والٱنتماء، والٱستناد إلىٰ ركن ركين، لمس بالحسِّ قوَّته، ورأىٰ بالعيان بأسه، وعاش بالوجدان قدرته ومكنته!

ولٰكنَّ الشيطان لن يفرغ إلَّا من سنخه، ولن يعطي إلَّا من طبيعته، وهو أخسُّ العبيد وأذلُّ الأرقاء، وأبعد ما يكون من الأحرار طبعاً وشيمة، فإن جاءه أثر من الكِبر والتيه، ولن يأتيه، فهو أدعىٰ لإذلال أتباعه ومرؤوسيه! من هنا لن يكون وَليُّه حُرّاً كريماً يوماً، ولا منطلقاً من قناعته الذاتية وعزَّته مرَّة! وسترىٰ " المسخ " المتفرعن، و " المفكِّر " المتهتِّك، و " المنظِّر " المنحلَّ المتحرِّر، الذي طالما طعن بالتعبُّد والخضوع للواحد القهَّار، ورمىٰ المتدينين بالتحجُّر والتخلُّف والرجعية، وهزئ بـ " التقليد " ، مسفِّهاً وضارباً مبدأ التخصُّص العلمي عرض الجدار، وسخر من الٱمتثال لتعاليم الدين، والنزول علىٰ حُكم العقل بٱتباع الرسول الأمين... تراه يخضع ـ في الواقع والعمل ـ ويمتثل، كعبدٍ قِن، لأمر قائدٍ أعلىٰ يرأسه، وشيطان أكبر يرعاه، يلتزم سقفاً رسَمه، ويتقيَّد بسطح حدَّده، ينشط في نطاقه، ويتحرَّك في أرجائه، إنه يجول حيثما أُرخي له القياد، ويصول أينما أُبيح له وأُفسح للإفساد، يغوي ويفتن ويشوِّه ويخرِّب، ويأتمر بما شاء ذاك الأكبر وأراد، فإذا بلغ الحدَّ والمدىٰ، أمسك وتوقَّف، وٱنتظر الآتي من الأوامر والتعليمات.

ما طفِق «نجيب» يجول ويرتحل، وما برح يتنقَّل بين مدن العتبات المقدسة وحواضر الحوزات العلمية، وسائر بلاد الشيعة، يحلِّق في سمائها ويلاحق أهدافه في " بيوت النيران " ومواقع الإضلال في الدين، ومكامن إفساد المؤمنين، وقد حطَّ غير مرَّة وحلَّ في النجف وكربلاء، ومشهد وقُم، وبيروت ولاهور، والكويت والبحرين، والقطيف والأحساء، فبغداد وطهران، وكابل ونجران، والبصرة والشام، حتىٰ وصلت جولته مدن أُوروبا ولا سيما بريطانيا، وشهد هناك رايات " الأنا " تخفق وتصفق.

يرصد كلَّ بقعة يظهر فيها موقدٌ وساعورٌ مُسجر، وألسنة اللهب تتصاعد منه علَماً وترفرف راية، وهٰذه مغارز الشيطان وقرونه تطلع وتنتأ، ثم تطول وتشمخ، لتناطح السُّحب، صروحاً تتحدَّىٰ أن تبلغ الأسباب، أسباب السماوات فتطَّلع إلىٰ إلٰه «موسىٰ» وربِّ «محمد» ﷺ، تظنه، وتبعث في أوليائها الظنَّ أنه ـ والعياذ بالله ـ من الكاذبين، تبثُّ ذلك بخفاء دون إعلان وتصريح، وتروِّجه بحيلة ودهاء، تتجنَّب الإثارة ما أمكنها، وتحذر المواجهة ما وسعها، فتفعل فعلتها دون أن تدفع ثمناً أو تتكبَّد خسارة! وهناك جسور تصل ضفاف الأنهار، وتعلو طرقاً تختصر المسافات وتتجاوز الزحام، يرابط علىٰ رأس كلٍّ منها ويسكُن في ذروة قنطرتها شيطان، وهٰذه منابع الفتنة والضلال تغلي كالقدور والمراجل، وأُخرىٰ كبؤتقات المعامل، لٰكنَّها كلَّها تصهر معادن الرجال، وينماث فيها الدين ويضيع اليقين.

وبعدُ، فقد كان يرقب المعركة المحتدمة بين هٰذه الشياطين وبين جنود الرحمن وعمال الناحية المقدسة، المنتشرين في هٰذه الآفاق بأعداد تقلُّ عن حشود أُولئك، لٰكن بنوعيَّات تفوقها بأساً وعزماً، وكفاية وإتقاناً، وكأنَّ الواحد منهم بمئةٍ من أُولئك، وجلُّهم من الجنِّ والملائكة، وهناك الأرواح الكريمة لصلحاء المؤمنين، من علماء وشهداء، وأولياء من النخب المنتجبة علىٰ مدىٰ العصور، والأصحاب البررة لأئمة الهدىٰ، يبدو أنهم يتنقَّلون بين عالم الدنيا والبرزخ. ولربما كان بعض البشر الأحياء هنا أيضاً، في صوَر أُخرىٰ وظهورات ثانية، غير التي هم عليها في الحياة الطبيعية... كانوا يذودون عن المؤمنين، ويكلؤون أولياء «المولىٰ» عليه السلام ورعيَّته بالعناية، يردعون الشياطين ويدفعونها عنهم.

وقد ظهر في الأُفق الأبعد نورٌ ساطع، وخطف الأبصار برقٌ لامع، وأضاء الفضاء شهابٌ ثاقب... ما إن بدا ولاح، حتىٰ طأطأت الملائكة ومعها الأشباح، وغمر الحضور الٱنشراح، وتوجَّهوا جميعاً إلىٰ منبع النور ويمَّموا نحوه بالتحية والسلام، فعلِم «نجيب» وأُلهِم أنَّ الوجود الأقدس لأحد المعصومين عليهم السلام قد مرَّ الساعة في ذلك الأُفق، أو حضر وبارك تلك البقعة. ومع أنه مرور عابر، وحضور من بُعد، إلَّا أنه أوْرث الفضاء هنا ٱنقلاباً عظيماً وبعث في الأجواء ٱضطراباً غريباً... ٱنتكست معه الأبالسة وٱختفت، ٱندسَّت في جحورها، لزمت مكامنها، مغلولة ومصفَّدة، منقبضة خانسة، وما تزال مرعوبة، كأنها تلفظ أنفاسها وتشرف علىٰ الهلاك، حتىٰ يزول العارض الممطر، وتمر السحابة المباركة، وتنتقل الأنوار الباهرة إلىٰ أُفق آخر.

" المسوخ " وَحدهم كانوا لا يكترثون ولا يبالون، ويمضون في شأنهم وكأن لا شيء يحدث ولا ٱنقلاب يقع! فهم لا يرون الأنوار ولا يلتفتون إليها، ولـٰكنَّهم يشعرون بالعجز والوهن والخوَر، ويذهبون في التخريص والهذي، فلا سائس يقودهم ولا أعوان يوجِّهونهم، فيعثرون ويشطحون، ويرتكبون أخطاءً قاتلة، لا تلبث أن تقضي عليهم، فيموت ذكرهم وتأثيرهم، وإن بقيت حياتهم وٱستمرت أعمارهم. ويبدو أنَّ هـٰذه هي آلية هلاكهم وطريق نهايتهم، وهو ما يثير العجب والحيرة في نفوس الناس، ولا سيما المراقبين، فيبعثهم علىٰ التساؤل: كيف يفعلون هـٰذا بأنفسهم؟ لماذا يرتكبون أخطاءً فاحشة تودي بهم؟ وتصدر منهم تصرفات بيِّنة الفساد ومعلومة النتائج؟ ويمارسون أعمالاً ويتَّخذون مواقف مهلكة، لا تصدر من أغرار سُذَّج، فكيف بهم وهم دهاة محنَّكون، وخبراء مجرِّبون؟!

لقد رآهم «نجيب» وشخَّصهم، بصوَرهم وهيئاتهم التي يُعرفون بها في عالمنا، كما بحقائقهم الشيطانية وذواتهم الخبيثة التي يعرفهم السماويون بها، ويميِّزهم أهل الحقائق وأرباب المعنىٰ والباطن، رجال الله وأولياؤه.

وقد ظهروا متفاوتين في السوء، متدرِّجين في الشرِّ، كما في الخطب والخطر، ولربما توقَّف هٰذا علىٰ ذاك، أو ترتَّب عليه، أو لم يفعل. فبعضهم " دُمىٰ " و " عرائس " تعبث بهم أو تسكنهم الشياطين، تحركهم وتديرهم، سواء من الأعلىٰ بخيوط تربط أعضاءهم وتنتهي بأيديها، أو من الأسفل عبر خوازيق تنفذ في أدبارهم، لا تلبث أن تورثهم أُبنة تجعلهم علىٰ وِفاق وٱنسجام مع أبناء الحرام، وكلِّ مُبغض نصب العداء لـ «آل محمد» عليهم السلام.

والقسم الأكبر من هٰؤلاء مصفَّدون بقوله تعالىٰ ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾، ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾، ﴿وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ﴾، ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾، مغلولون بأحراز «الأئمة» عليهم السلام، ولا سيما أدعية «أُم الأئمة» عليها السلام... فلا يصل مواليهم ولا ينال محبيهم منهم سوء، فلا سلطان لهم علىٰ المؤمنين، علىٰ الرغم من قوَّتهم الخارقة وبأسهم الشديد. وقد رأىٰ «نجيب» ذلك وشهده من زمجرتهم وغضبهم، وكان بعضهم يذوب وينماث حتىٰ يندك في أديم الأرض، يطؤه المؤمنون بأقدامهم ويسحقونه بأحذيتهم وحوافر دوابهم، أو عجلات سياراتهم، وأكثر ما ظهر ذلك وبان، كان في مسيرة " زيارة الأربعين " ، وفي أيام عشرة " عاشوراء " تحت أقدام المعزين.

وبعضهم الآخر مُطلقةٌ أيديهم، مُخلىً لهم السبيل، يفعلون ما يشاؤون، يصولون ويجولون، يُزيِّفون ويُزوِّرون، يتعدون ويهتكون... وهم مُستَمهَلون مُستدرَجون، مُرجأ أمرهم إلىٰ حين وأجل، يقع عبرهم الٱمتحان والٱبتلاء، وتتمُّ بهم الفتنة، وتتحقَّق علىٰ أيديهم المحنة.

: ها أنا أرىٰ مُدَّعي السفارة والوزارة، هارباً مُتوارياً، في كنف جماعة غريبة، بل غربيَّة، أمنيَّة مخابراتية، في فريق يضمُّ عسكريين إلىٰ مدنيين متخصِّصين بالتشيُّع والدين، لغتهم أجنبية، أناسي وشياطين، وهنا قباع خنازير وصياح بشر، لغتهم إنجليزية بلكنة أمريكية، وعربية بلهجة نجدية وحجازية وخليجية، ولربما فلسطينية.

وهٰذا عديله في الفتنة ونظيره في المرتبة، طرف مباهلته، ومنافسه علىٰ ساحته، مدَّعي اليمانية، تحفُّ به السحَرة، وهو منهم، ساحرٌ مثلهم، وكلُّ أتباعه مسحورون، منقادون بلا شعور، من مُستضعِفي أنفسهم ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمۡ قَالُواْ كُنَّا مُسۡتَضۡعَفِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ قَالُوٓاْ أَلَمۡ تَكُنۡ أَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٗ فَتُهَاجِرُواْ فِيهَاۚ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾.

وهـو مثل الأول، تحتضنه وتـدعـمه نفـس الجماعة، وينتسب إلىٰ نفس الفريق...

وهـٰذا الفريق (وغيره من نظرائه) الذي يجمع شياطين الإنس والجن، يعمل علىٰ الأرض، ولـٰكنَّ قيادته وغرفة عملياته في أُفق آخر، بدا وكأنه خارج المكان، وفوق جميع البلاد، بل ليس في نطاق الـزمـان، إلَّا حين ينفِّـذ مهماته، وينزل إلىٰ الأرض في تطبيقاته!

سبحان الله، هـٰذا كـاتب ظهر في العـاصمة البريطانية قبل نحو ثلاثة عقود، يجحد ميلاد «الحجَّة» عليه السلام، ويشكِّك في وُجود «المهدي». أراه معهم في نفس المجموعة، يأتمر بتعليمات قائدها ويمتثل لمقتضيات دوره في التواري والـسكـوت. يفعل ذلك بٱلتـزام كـامل وٱنضباط تام، فهو منزوٍ في ركن، متقرفص ذليل، مـريض هـزيل. ثـم ظهـر لي أنه نـادِمٌ متراجع، يتحيَّن سبيلاً للفكـاك والخروج، دون جـدوىٰ! ولكنِّي لم أتبيَّن هل تخلَّـىٰ الـرجل عن أفكـاره؟ أم ضـاق وضجـر بٱرتبـاطه؟ إنَّ النَّدم يقطِّعه، والحسرة تفتك به، قد وَرد النار في دنياه قبل أُخراه!

ولم ينقضِ عجبي إلَّا حين ظهر لي لفيف من "الأعلام"، كلُّهم أعضاء فاعلون في الفريق، بينهم متطفِّل على العلم، توغَّل في الحوزة غازياً لا طالباً، ثم خلع زيَّه، وعاد إلى حاله حين كان في بلاده... ما زال ينادي بقيَم الولاية، والمضيَّع من حقوقها، حتى أخذ يحثُّ الناس على ترك أداء الخمس!

وهذا آخر أُحيل إلى تقاعُدٍ مُبْكر، على الرغم من صغره وشبابه، فقد خالف التعليمات، انفعل وطاش، فكسر العَلَم الذي كُلِّف بحمله أو استبدله بآخر! ذلك حين صرَّح وجاهر بخروجه من المذهب. ويبدو أنَّ هذا من تداخل الفِرَق وتنازع المجاميع الشيطانية. فلحق سريعاً بـ «البرقعي» و«موسى الموسوي».

وممن ظهر لي وانكشف من هذا الفريق، متغطرس أخرق، طاووس يتيه غروراً ويختال كبراً، يحسب أنَّ العِلْم كلَّه حضر في نفسه، والبصيرة بتمامها حلَّت في عقله، دون الصلحاء الأتقياء، بل دون المراجع العظام، ونواب «صاحب الزمان»!

فصار الفتىٰ يرسم للأُمة مسارها، ويخطُّ طريقها ويحدِّد تكليفها، لم لا، فهو منارها! وقد ٱرتضىٰ وٱختار لها المواجهة العقائدية والصدام المذهبي! هٰكذا قرَّر من وَحي زهوِه، وٱرتأىٰ من حضيض غطرسته.

يعيش بعيداً، آمن السرب، في بلاد القانون والمدَنيَّة، في صون وكفالة، وجُنَّة وحصانة، ملتزماً ـ بدوره ـ قانونها، نازلاً علىٰ شروطها، ثم يُحرِّض ـ من هناك ـ علىٰ الحرب والقتال في بلادنا، ويدعو إلىٰ ما يبيح للقوم سفك دمائنا وهتك حرماتنا، وينبذ ما أمر به الشارع المقدَّس وسَنَّه لحفظنا والإبقاء علىٰ مذهبنا، وَراء ظهره، غير متأثِّم ولا مستعظم!

ومن غريب مَن رأيت هنا، وكنتُ أحسبه في غير هٰذا الفريق، رجلاً طالما ظهر في عداد خدام «الحسين» عليه السلام، ذائداً عن العقيدة، وكشافاً الضلال، حتىٰ شخَّص لمستمعيه أحد أعلامه، وعيَّن إحدىٰ راياته... ثم سقط فجأة وهوىٰ، وتردَّىٰ في حِبالة طموحه وشَرَك تطلُّعاته، باع نفسه طمعاً في الشهرة، وأتلفها حبّاً في المال والرئاسة.

يبـدو أن تـداخلاً كبـيراً يحكـم الأداء هنـا، وتشابكاً وتعقيداً يعكس الأوضاع ويقلبها. والمفترض أن يـدرج هٰذا "الفـأر" ويعـمل تحت رايـة غير هٰذه، ويكون في فريق آخر، ظهر لي الساعة وبان...

رايـة أدعيـاء "النيـابـة"، وأنصـار سُرَّاقهـا ومنتحليهـا، وقـد رأيت فيهـم زعيـم آلاف المستضعفين المغـرِّر بهم، حمار الزَّرَد الذي يتبعونه وينقادون له ويقتدون به، وهو غرٌّ لا يجيـد القـراءة والكتـابـة، ولا يحسن النحـو والصرف! بل لا نـصيب له في العقل، أرعن جهول، مغفَّل طائش، ما زال يهلك ويفسد ويدمر، ما إن يضيق ذرعاً بشيء، حتىٰ عضَّ ورفس، وركل ورمح.

ومن بعده رأيت مُدَّعياً آخر في النجف، ظهر علىٰ الحقيقة ٱبن آوىٰ وٱنكشف ثعلباً! يبكي العفَّة ويستميت في صرف المحبين عن زيارة الأربعين بٱسم حفظ الحجـاب والحـرص علـىٰ الفضيلـة، وهـو طـامسٌ في الـرذيلـة، منحطٌّ في قعـر الغـوايـة، مـطمـور ـ بنُصرته الضلال ـ في الخزي والعار.

وهـٰذا صنوه الأرقط، في قم، يحارب الشعائر الحسينية ويستخفُّ بها، ظهر كٱبن عِرْس، أو ٱبن مِقْرَض، ينتصب علىٰ قائمتيه الخلفيتين، يستطلع الأُفق البعيد، يبحث عن فريسة، ينقدها الثمن من أحكام الدين.

وبعد، فمن أغرب ما رأيتُ هنا وشهدت، منظر جوقة تضرب بالمعازف وتلعب بالأبواق والصنوج، تهرِّج وتعبث، تلهو وتزعق، بطَلُها حبتري ظهر قرداً من الرباح أو البابون، ومُديرها قطٌّ قصير من اللانجورا التركي، أو الفارسي الإيراني، حكَمَه لين وغلبته أُبنة، فوصمته معرَّة، خلَّفت فيه عقدة، ما زال يفرغها حنقاً علىٰ الأشراف...

وما زالت الجوقة تعزف وتلعب وتثير الصخب، بل هـٰذا جرذٌ ٱنفصل عن ميثاق القرد وجوقته، وصار يقرض ويرقص وَحْده!

وفي مدىٰ النظر والأُفق الأقرب، ظهر حبُّ اللات يهتك الحوزة حتىٰ في زيِّه ولباسه، لا يجاريه في جرأته ووقاحته إلَّا مومس الأحساء، رافعاً راية الفسق والبغاء، بعد أن عُزِل فقصُرت يدُه عن الإغواء!

ولم أعجَب أن رأيت راية الضالِّ الأكبر، الذي ٱستحال فضلةً وصار سَلْحاً وخُرْءاً، ما زالت تُرفع بيدِ مُهرِّج يريد هدم قباب مراقد الأئمة، وخشن ينظِّر لفقه المقاصد والمصالح المرسلة، هٰذا ضبع يزمجر وذاك كلب ينبح.
إنَّ القاسم المشترك والأصل الجامع لكلِّ الفرق والمجاميع الشيطانية، والأعلام والرايات المرفوعة، والحوانيت والمتاجر، بل المرابع والمواخير المفتوحة هنا، سواء هٰذه التي تمكَّنتُ من تسجيل حالها، ونقل ما رأيت عنها، أو الأُخرىٰ التي لم يسعني ذكرها، وهي أضعاف مضاعفة... هو حرب الحوزة العلمية والمرجعية الدينية، وعداء الشعائر الحسينية!

ومما ظهر لـ «نجيب» وبان، أنَّ الأدعياء من أصحاب الرايات، بجميع أصنافهم وطبقاتهم، يعلمون أنهم كاذبون، مدَّعون مزيِّفون، لا فقاهة بلغوا ولا ٱجتهاداً تبوَّؤا، ومع ذلك راحوا يُفتون ويُنظِّرون! حتىٰ نصبوا أنفسهم أعلاماً للأُمة ومناراً للعامة، يستقطبون ويحشدون، بٱسم نصرة الدين وخدمته، و "الرضا من آل محمد" ، وإن لم يَقم بعضهم بالسيف وينهض بثورة، لـٰكنَّه حشد وعبَّأ ما ٱستطاع، ليكثر خفق النعال خلفه، ويزداد أتباعه، ويرتفع في الدنيا شأنه.

لم يطوِ أيٌّ من هؤلاء الأدعياء المراحل العلمية التي تسمح له ببلوغ الفقاهة وحصول ملكة الاجتهاد، ناهيك بأن يتبوَّأ المرجعية ويظفر بالأعلمية؟! والعالم كلُّه يعرف أنَّ أحدهم كان وكيلاً لأخيه، والآخر لمن يزعم أنه أُستاذه، وثالثاً منشغلاً بالسياسة والإدارة، ورابعاً بالتجارة، وخامساً باللهو والبطالة. أكثرهم أغراب، ليسوا من أبناء الحوزة، ومن انخرط منهم في التحصيل فترة، لم يكن قد بلغ ما يؤهِّله ليحمل أكثر من لقب حجة الإسلام والمسلمين، كيف صار آية الله بين ليلة وضحاها؟ ثم بلغ العظمىٰ في اليوم التالي؟!

كيف سجَّل آراءه وأدرج تعليقته وهامشه علىٰ مسائل (العروة)، أو أيِّ متن فقهي آخر كـ (منهاج الصالحين) و(توضيح المسائل)، بما يستقصي كافة الفروع والأحكام من الطهارة إلىٰ الديات، حتىٰ تكون له "رسالة عملية" يعمل بها أتباعه ومقلِّدوه؟! وهو لم يبحث ويدرِّس (بل لم يحضر ويدرس) دورة كاملة من الفقه تستقصي وتستوعب جميع تلك المسائل والفروع، ولا حضر شيئاً من الأُصول؟!

وكيف صدرت لبعض الأعلام (وفيهم من يحظون بتقدير واحترام) شهادات بحق هؤلاء الدجالين!؟ فهم لم يكونوا في الحوزة أصلاً حتىٰ يشهد بحضورهم وبلوغهم المراتب العلمية التي زعمها لهم! ومَن كان منهم في الحوزة لفترة، لم تتزامَن مع فترة وُجود الشاهد! فكيف شهد وعلام؟ ثم لا بحوث مدوَّنة لهؤلاء يمكن أن ينكشف بها ـ جدلاً ـ ويُستدل منها علىٰ فضيلة ورتبة ما في العلم، لا تقريرات لتلاميذهم (فلا تلاميذ)، ولا شيء بأقلامهم ومن تأليفهم.

وصدق فيهم «قول شوقي»:

ومَـن لَقِـيَ الـسِـبــاعَ بغـير ظفـرٍ
ولا نـــابٍ تمـــزَّقَ أو تفـــادىٰ
خَفَـضنــا مِن عُلُـوِّ الحقِّ حتـىٰ
تـوَهَّمنــا الـسيــادَةَ أن نُـســادا
ولــمَّـــا لم نَـنل لِلــسـيفِ رَدّاً
تـنــازعـنــا الحـمائلَ والـنِجــادا
وأقـبلـنـــا علـــىٰ أقـــوال زورٍ
تَجـيءُ الـغَـيَّ تَـقلِـبُهُ رشـــادا
ولَـو عُـدنـا إلـيهـا بعـد قـرنٍ
رَحَمنــا الـطِـرسَ منهـا والمـدادا

ما كأنَّ في الأجلاف والسفَلَة، ولا في السقاط والطغام مَن هو أخبث طوِيَّة وأقبح دُخلةً من هـٰؤلاء، ولا في اللئام والسفلَة من ٱنغمس في الشرِّ ووَلع بالسوء وتهافت علىٰ المنكر أكثر منهم!

ملأت المشاهد نفس «نجيب» ألماً وغمرته غمّاً، وضاعفت من خوفه وقلَقه، وأورثته هواجس ووَساوِس، وحسرة والتِياعاً... وكان، إضافة إلىٰ ذلك، وزيادة في اللوعة، يعاني ويقلق من الفكرة في كيفيَّة نقل الخبر إلىٰ رفاقه وذويه... كيف عساه أن يبلغهم، وعساهم أن يُصدِّقوه؟ كيف سيحكي لهم ما شاهد هنا وحضر، ولا سيما من حال هـٰؤلاء "المسوخ"؟ شياطين الإنس، والسحَرة المتحالفين مع مردة الجن، العائذين بها زادهم رهقاً، الممسوسين بالخنَّاس، المسكونين بالأبالسة؟

كيف سيُقنع أهله وأصحابه وعشيرته وقومه؟ فيصرفهم عن المكيدة، وينقذهم من الخديعة الكُبرىٰ والحيلة العظمىٰ التي يمضون في حبائلها، مرتهَنين في أسرِها، عالقين في شباكها؟ فيتحرَّرون من أدعياء المرجعية، وزاعمي الحداثة، ومنتحِلي صفة العقلنة والتنوير، ومختلِسي عنوان التطوير، فلا ينطلي عليهم بعد اليوم شيء من هذا الإفك وذاك التزوير والدجل، ويخرجون من البلاء الذي يزعج، بل يوجع قلب صاحب العصر والزمان، محور الوجود، وقطب عالم الإمكان.

كيف له أن يحظىٰ بتصديقهم وإيمانهم؟ ويظفر برضوخهم وإذعانهم؟ فيوَفَّق لهدايتهم، ويفوز بشرف إنقاذهم، ويسعد بخدمتهم، حين يثنيهم عن طريقتهم، ويقوِّم ٱعوِجاج مناهجهم، فيكون ممن عمل وتحقَّق فيه حديث «رسول الله» ﷺ: " أشدُّ من يُتْم اليتيم الذي ٱنقطع عن أبيه، يُتْم يتيم ٱنقطع عن إمامه، ولا يقدر علىٰ الوصول إليه، ولا يدري كيف حكمه في ما يبتلي به من شرائع دينه، ألا فمن كان من شيعتنا عالماً بعلومنا وهذا الجاهل بشريعتنا المنقطع عن مشاهدتنا يتيمٌ في حِجْره، ألا فمَن هداه وأرشده وعلَّمه شريعتنا كان معنا في الرفيق الأعلىٰ " .

وقوله ﷺ: " إنَّ علماء شيعتنا يُحشَرون فيُخلع عليهم من خلَع الكرامات علىٰ قدر كثرة علومهم وجِدِّهم في إرشاد عباد الله، حتىٰ يُخلَع علىٰ الواحد منهم ألف ألف خلْعة من نور. ثم ينادي منادي ربنا عزَّ وجلَّ: أيها الكافلون لأيتام «آل محمد»، الناعشون لهم عند ٱنقطاعهم عن آبائهم الذين هم أئمتهم، هؤلاء تلامذتكم والأيتام الذين كفلتموهم ونعشتموهم، فٱخلعوا عليهم [كما خلعتموهم] خِلَع العلوم في الدنيا " .

وعن «الحسن السبط» عليه السلام: فضل كافل يتيم «آل محمد» المنقطع عن مَواليه، الناشب في رتبة الجهل ـ يخرجه من جهله، ويوضح له ما ٱشتبه عليه ـ علىٰ فضل كافل يتيم يُطعمه ويسقيه، كفضل الشمس علىٰ السهىٰ " .

وعن «سيد الشهداء» عليه السلام: من كفل لنا يتيماً قطعته عنَّا محبتنا بٱستتارنا، فوَاساه من علومنا التي سقطت إليه حتىٰ أرشده وهداه، قال الله عزَّ وجل: أيها العبد الكريم المواسي، أنا أوْلىٰ بالكرم منك، ٱجعلوا له يا ملائكتي في الجنان بعدد كلِّ حرف علَّمه ألف ألف قصر، وضمُّوا إليها ما يليق بها من سائر النعم " .

وفي حديث «كميل بن زياد النخعي» قال: أخذ «أميرالمؤمنين» عليه السلام بيدي فأخرجني إلىٰ ظهر الكوفة، فلما أصحَر (بلغ الصحراء) تنفَّس، ثم قال: يا «كميل» إنَّ هٰذه القلوب أوعية فخيرها أوعاها، ٱحفظ عنِّي ما أقول لك: الناس ثلاثة: عالم ربَّاني، ومتعلِّم علىٰ سبيل نجاة، وهمج رعاع أتباع كلِّ ناعق، يميلون مع كلِّ ريح، لم يستضيئوا بنور العلم ولم يلجؤوا إلىٰ ركن وثيق. يا «كميل» العلم خيرٌ من المال، العلم يحرسك وأنت تحرس المال، والمال تنقصه النفقة، والعلم يزكو علىٰ الإنفاق. يا «كميل» محبَّة العلم دين يُدان به، يُكسب الإنسان الطاعة في حياته وجميل الأُحدوثة بعد وفاته، وصنيع المال يزول بزواله. يا «كميل» مات خُزَّان الأموال وهم أحياء، والعلماء باقون ما بقي الدَّهر، أعيانهم مفقودة، وأمثالهم في القلوب موجودة. هاه إنَّ ها هنا ـ وأشار بيده إلى صدره ـ لعلماً جمّاً لو أصبت له حملة، بل أصبت لَقِناً غير مأمون عليه، يستعمل آلة الدِّين للدُّنيا، ومستظهراً بحُجج الله عزَّ وجلَّ علىٰ خلقه، وبنعَمِه علىٰ أوليائه، ليتَّخذه

الضعفاءُ وَليجةً دون وَليِّ الحقّ. أو منقاداً لحمَلَة العلم، لا بصيرة له في أحنائه، ينقدح الشكُّ في قلبه بأوَّل عارض من شُبهة، ألا لاذا ولا ذاك، أو منهوماً باللَّذات، سَلِس القياد للشَّهوات، أو مغرماً بالجمع والاْدِّخار، ليسا من رعاة الدِّين في شيء، أقرب شيء شبهاً بهما الأنعام السائمة ،كذلك يموت العلم بموت حامليه. اللهم بلىٰ لا تخلو الأرض من قائم بحُجَّة، إمَّا ظاهر مشهور، أو خافٍ مغمور، (إما ظاهر ليس بالمطاع أو مكتتم أو مترقب، إن غاب عن الناس شخصه في حال هدايتهم، فإنَّ علمه وآدابه في قلوب المؤمنين مثبتة فيهم، بها عاملون) لئلَّا تبطل حُجج الله وبيِّناته، وكم ذا وأين أُولئك؟ أُولئك والله الأقلُّون عدداً، والأعظمون خطراً، بهم يحفظ الله حُججه وبيِّناته حتىٰ يودعوها نظراءهم، ويزرعوها في قلوب أشباههم، هجم بهم العلم علىٰ حقائق الأُمور، وباشروا روح اليقين، واْستلانوا ما اْستوعره المترفون، وأنِسوا بما اْستوحش منه الجاهلون، وصحبوا الدنيا بأبدانٍ أرواحها معلَّقة بالمحلِّ الأعلىٰ، يا «كميل» أُولئك خلفاء الله في أرضه، والدُّعاة إلىٰ دينه، آه آه شوقاً إلىٰ رؤيتهم، وأستغفر الله لي ولكم " .

لا دوْر في الحياة ولا قيمة في هٰذه الدنيا تفوق هٰذه...

أن يقود المرء الناس ويأخذ بأيديهم إلىٰ الحق، المتمثِّل في نفي الأدعياء، كشفهم وفضحهم، ببيان الزيف وتوضيح مَواضع اللبس، وتوعية المؤمنين بالمؤامرة الكبرىٰ التي تحاك لإضلالهم، والخطر الأعظم الذي يتهدَّدهم وينذر بهلاكهم. هٰكذا يعود بالمؤمنين المستضعفين إلىٰ «أئمَّتهم»، يبصِّرهم بنهجهم، ويعرِّفهم طريقتهم، ويرشدهم إلىٰ محاور قيام الدين وحفظه: الحوزة والمرجعية، الشعائر الحسينية، العتبات المقدَّسة.

لا شرفَ فوق هـٰذا الدَّوْر ، ولا كرامة، ولا أجر بعده.

غلب «نجيب» التطلُّع إلىٰ هـٰذا الدَّوْر، والتوْق لهـٰذا المقام، لا لمحض الأجر والثواب، بل سعياً والتماساً لما قد يريح قلب «المولىٰ» عليه السلام ويسعده، أو يزيح عنه شيئاً من همومه، ويخفِّف بعض الأكدار، فيقرب من محبَّته، ويدنو من رضاه، وهو يلحق بـ:

" فإنَّـا نحيط علماً بـأنبائكم ولا يعـزب عنَّا شيء من أخبـاركم ومعـرفتنـا بـالـذُّلِّ الـذي أصابكُم مُذ جَنَحَ كثير منكـم إلىٰ ما كـان السَّلفُ الصَّالح عنه شاسِعاً، ونبذوا العهد المأخُوذ وَراء ظُهُورهم كأنَّهم لا يعلمون.

إنَّـا غيرُ مُهمِلينَ لـمُراعـاتكُم، ولا نـاسين لِـذِكـرِكُم، ولـولا ذلك لنـزل بكُم اللَّأوَاءُ وٱصطَلَمَكم الأعداء. فٱتَّقُوا الله جَلَّ جَلاله وظاهِرونا علىٰ ٱنتياشِكُم من فتنة قد أنافَت عليكم، يَهلِكُ فيها مَن حُمَّ أجلُه ويحمىٰ عنهـا مَن أدرك أمله. فليعـمل كلُّ ٱمـرىءٍ منكم بما يَقرُب به من محبَّتنـا، ويتجنَّب ما يُدنيه من كراهتنا وسَخَطِنا، فإنَّ أمرنا بغتة فجـاءَة، حين لا تنفعه تـوْبـة ولا يُنجيه من عقابنا ندَم علىٰ حَوْبة، والله يلهمكم الرُّشد، ويَلْطُفُ لكم في التوفيق برحمته.

إنه يعرف حقيقة ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ﴾، وقوله تعالىٰ: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾، ولٰكنه صار يعرف أيضاً بعض آلام «المولىٰ» عليه السلام ومدىٰ معاناته، فصار يتحرَّق لما يزيلها أو يخفِّفها، كنملة أتت لتطفئ حريق غابة، بمجَّة ماء! أو أُخرىٰ جاءت تحمل بفيها قشَّة أو قضمة من خشاش الأرض، لتعين «سليمان» في بناء قصره!

وإذا كانت آلام «المولىٰ» عليه السلام تتصل من سوء بعض رعيَّته وتردِّي خلُقهم وروحياتهم، وٱبتلائهم بالخسة والحرص، وسقوطهم في البخل. فإنَّ هٰذا لا يقاس بشاعة وقُبحاً، وسوءاً وشراً، بما توورده رايات الضلال التي تتقاذف أبناء الطائفة المحقَّة وتلعب بها لعب الصبيان بالكرة، ودعاوىٰ الزعامة والقيادة التي تتناهبها وتتقاسمها.

هٰكذا كان «نجيب» يقترب ويدنو من قلب «إمامه» عليه السلام، وهو يشاركه لوعته وآلامه، ويتمنَّىٰ أن "يعينه" في ٱستنقاذ رعيَّته، وما يكشف لهم حقيقة رايات الضلال، وخطر المزيَّفين والدجالين. وما ينقذهم من شرور "المسوخ" وبلائهم... فٱلتقىٰ العنصران:

* كشف وتعرية الدجالين، وتشخيص الخطر الأعظم علىٰ الحياة والدين، والداء الأكبر الذي يتهدَّد المؤمنين.

* ثم عطاءٌ وجودٌ وكرمٌ يهزم الشحَّ ويقهر الحرص والأنانية. يعيش الآخر ألماً وحسرة، وتربة خصبة للبذل، وساحة مقدَّسة للغرس، وقنطرة إلهية للوصل، فالعروج ولقاء الحبيب.

إنَّ الصراع هنا في جبهتين: أخلاقية سلوكيَّة، تسبقها في الخطر عقائدية ولائية، تحتدم مع رايات الضلال، ميدانها جموع مريدين مستغفلين أو مهزومين "لبسوا الخرقة" لشيطان مارق، مسخ متجسِّم، أو دانوا بالولاء لجاهل أخرق، أو مغرور متكبِّر، ومن عجب أنهم أكثر المشنعين على طاعة «ولي الله» والانقياد لإمام العصمة! لا شيء يورث السخط هنا والبرم، ولا يبعث الغضب في الناحية المقدسة شيءٌ كهذا.

أكثر الخلط والخبط، والحشو واللغو، هو في الحركات الدينية والتنظيمات والتيارات والأحزاب ومنها، ويطلق عليها هنا "الرايات"! وكذا في قادتها وأصحابها، ويسمونهم هنا ويطلقون عليهم الساعين إلى الملك والسلطان، باسم الدين والإيمان، والرضا من «آل محمد» عليهم السلام... وهم محلُّ سخط العاملين وغضب المراقبين ولعنة بصراء المؤمنين، والأحقر في أعينهم والأسوأ في تصنيفاتهم، والأكثر بغضاً هنا في "الجزيرة الخضراء".

لا يطيقونهم ولا يجدون لهم محملاً ولا معذراً، ولولا "العصمة" الحاكمة هنا، السارية في هذه الناحية والموقع المقدَّس من قِبَل ربِّه وصاحبه، لأمكنك رميهم بالتحامل واتهامهم بالتعسُّف تجاه القوم!

كانت "ثمالة" ما تزال تركد في نفس «نجيب» وتستتر في خباياها:

كيف تأخَّرت جبهات القتال وخطر السلاح النووي، وتراجعت في الأهمية ميادين الصراع السياسي والاقتصادي، وثورة الاتصالات... لصالح قضية عقائدية؟ لتكون هي الميدان الأول والساحة الأخطر!

ألتفَّت به الملائكة وأحدق الصلحاء وهمسوا في أذنه من كلِّ مكان، بصوت وَاحد، وراحوا يتلون رواية، في إنشاد جماعي!:

قال الراوي لـ «أبي عبدالله» عليه السلام:

" إني أُخالط الناس فيكثُر عجبي من أقوام لا يتولونكم ويتولون فلاناً وفلاناً، لهم أمانة وصدق ووفاء. وأقوام يتولونكم ليس لهم تلك الأمانة ولا الوفاء والصدق؟ فٱستوىٰ «أبوعبدالله» عليه السلام جالساً فأقبل عليَّ كالغضبان، ثم قال: لا دين لمن دان الله بولاية إمام جائر ليس من الله، ولا عتب علىٰ من دان بولاية إمام عادل من الله. قلت: لا دين لأولئك ولا عتب علىٰ هؤلاء؟ قال: نعم، لا دين لأولئك ولا عتب علىٰ هٰؤلاء. ثم قال: ألا تسمع لقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾، يعني من ظلمات الذنوب إلىٰ نور التوبة والمغفرة لولايتهم كلَّ إمام عادل من الله، وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾؟ إنّما عنىٰ بهذا أنهم كانوا علىٰ نور الإسلام، فلما أن تولوا كلَّ إمام جائر ليس من الله عزَّ وجلَّ خرجوا بولايتهم إياه من نور الإسلام إلى ظلمات الكفر، فأوجب الله لهم النار مع الكفار ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

وقال الراوي لـ «أبي جعفر الباقر» عليه السلام: إنَّ لنا جاراً ينتهك المحارم كلَّها حتىٰ إنه ليترك الصلاة فضلاً عن غيرها؟ فقال: سبحان الله. وأعظم ذلك. ألا أخبركم بمن هو شرٌّ منه؟ قلت: بلىٰ. قال: الناصب لنا شرٌّ منه. أما إنه ليس من عبد يُذكر عنده «أهل البيت» فيرقُّ لذكرنا إلَّا مسحت الملائكة ظهره وغُفر له ذنوبه كلُّها إلَّا أن يجيء بذنب يخرجه من الإيمان، وإنَّ

الشَّفاعة لمقبولة، وما تُقبل في ناصب، وإنَّ المؤمن ليشفع لجاره وما له حسنة، فيقول: يا رب جاري، كان يكفُّ عني الأذىٰ، فيشفع فيه، فيقول الله تبارك وتعالىٰ: أنا ربُّك، وأنا أحقُّ مَن كافىٰ عنك. فيدخله الجنَّة وما له من حسنة. وإنَّ أدنىٰ المؤمنين شفاعة ليشفع لثلاثين إنساناً، فعند ذلك يقول أهل النار: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾.

• • •

أشرقت نفس «نجيب» وتنوَّرت روحه، كما لم تكن لحظة في رحلته، ناهيك بحياته السابقة... صار يشعر أن لا أحشاء ولا جوانح في بدنه، وأن ليس هناك إلَّا محض النور، ومضىٰ هذا النور الأبلج يتسلَّل برفق، ويترشح بلُطف، حتىٰ أخذت تضمحلُّ فيه الجوارح ويتلاشىٰ البدن، ويغدو الرجل طيفاً كما الملائكة! كان يشعر بنفسه ويُدرك ويحيط بوجوده، لكنه ما عاد يرىٰ جسماً ولا يحُسُّ ببدن!

كان مستغرقاً في الجمال والعظمة، منغمراً في اللطف والفيض...

وشأن أيِّ غُرٍّ مستجد في هذه المرتبة، وحدَثٍ طارئ علىٰ هذي الرحاب، كانت المعاني والقيم تتجاذبه، ولم يكن يخلص منها علىٰ حال واتزان، يتقلَّب بين الحزن والفرح، ويعود من الغضب إلىٰ الرِّضا... ثم أخذت اللذات تتناهبه والسعادات تتقاذفه، حتىٰ غرق في سُكر النشوة وعربدة النزَف، يرفع قدماً فلا يحسن وَضعها لتلحقها الأُخرىٰ، فلا قدَمٌ هنا ولا خطىٰ! يميد ويتطرَّح ويتمايل ويتساقط، ينجذب إلىٰ نفسه مرَّة يَمنة وأُخرى يَسرَة. ثمل الرجل من كأس الهوىٰ، وتمشَّت خمرة العشق في عروقه، ودبَّت في عظامه ومفاصله، فخدر واسترخىٰ، بل غاب وتلاشىٰ!

أفاق على هاتف، لم يطرق مسامعه، بل جاءه من داخله:

حتى يشوقك لامع البرق، ويستوقدك وَافد النسيم، فيُنحلك الحبُّ ويذيبك الوجد، وتحرقك اللوعة وتصطليك الغُلَّة، فلا ترتوي إلَّا من عذب وِرده، وإن طال الصدى.

إذا مضى الطالب على هذا الصفو، وخلُص من اللوث والكدَر، وبلغ الألق فيه هذه الحدود، فقد وَقع منه المطلوب.

إذا مضيتَ على هذا فقد وَافيت «المولى»، ولا حاجة أن تتحرَّاه وتسعى إلى لُقياه... إنه هناك، في القلوب الصافية، والأنفس الكريمة، وعند النهوض بخدمة رعيته!

• • •

جفَّ القلم، ونفر الكلِم، وعجُم اللفظ... فآثرت أن أُمسِك.

(تمت)

فهرس

♦ شتاء «فالوغا» ٧

♦ معراج إلىٰ الأرض ! ٧٧

♦ ثلاثة رابعهم كلبهم ١٧٧

♦ هـٰذه الجنة لا جنة عاد ٢٢٩

♦ من المظاهر إلىٰ الجواهر ٣٠٣

♦ سكر السلطان ٣١٥

♦ العانس السعيدة ٣٦٥

♦ الوصل بالآلام ٤٠٧

♦ وأُحضرت الأنفس الشح ٤٤٧

♦ أصحاب الرايات ٤٢٣

صدر للمؤلف:

* الغيبة والتغييب (١٩٩٨).
* نحو رؤية واعية (٢٠٠٠).
* التجديد الإسلامي والعولمة (٢٠٠٠).
* ريح يوسف (٢٠٠٢).
* البروتستانتية الشيعية (٢٠٠٣).
* القربان (رواية) (٢٠٠٨).
* ثلاثية الثمن (رواية) (٢٠١٠).
* الوصايا العشر (٢٠١١).
* مواصفات المرجع الديني (٢٠١٤).

ترجم إلى العربية:

* مقتطفات ولائية، محاضرات لـ «الوحيد الخراساني» (١٩٩٤).
* آية التطهير رؤية مبتكرة، لـ «الفاضل اللنكراني» و«شهاب الدين الإشراقي» (١٩٩٥).